



كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني ملال



جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال

بحث لنيل شهادة دكتوراه الدولة بعنوان:

قبائل الكيش والدولة في المغرب من 916هـ-1510م إلى 1171هـ-1757م محاولة في التركيب

إشراف الأستاذ:

الدكتور محمد حواش

إعداد:

الفقيه الإدريسي

السنة الجامعية:

1443هـ/1444هـ - 2022م/2023م



**قبائل الكيش والدولة في المغرب
من 916هـ-1510م إلى 1171هـ-1757م
محاولة في التركيب**

شكر ونفد

لا يسعني، في البداية، إلا أن أتقدم ببالغ عبارات الشكر والتقدير لفضيلة الدكتور مولاي هاشم العلوي القاسمي الذي انطلقت معه أول الأمر رحلة البحث في هذا الموضوع منذ سنوات خلت فاستفدت حينها من توجيهاته وملاحظاته القيمة والبناءة في تقويم تصوري لإشكاليته العامة وبلورة مقاربة منهجية أكثر إجرائية لتناول فصوله ومباحثه، فأرجو، بهذه المناسبة، من الله العلي القدير أن يمن عليه بموفور الصحة والهناء وطول العمر.

كما أتقدم بخالص امتناني وتقديري لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد حواش الذي واكبني في مراحل إنجاز هذا العمل فكان خير معين ومشجع لي للمضي قدما لاستكمال حلقاته بنجاح وتجاوز المطبات التي كانت تحول أحيانا دون مواصلة البحث فيه، فإليه أجدد شكري واحترامي على ما أسداه لي من توجيهات وتصويبات علمية مسددة وهادفة.

كما لا ينبغي أن تفوتني هذه الفرصة كذلك لكي أتوجه بصادق عبارات الشكر والثناء لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد العاملي على ما أفادني به من نصائح وإرشادات علمية وجيهة وعلى ما قدمه لي من عون ومساعدات سخية لكي يصل هذا العمل إلى نهايته الأخيرة.

وفي الأخير أتوجه بخالص شكري وامتناني لزملائي الأساتذة في شعبة التاريخ الذين لطالما كانت تشجيعاتهم ونصائحهم الأخوية الصادقة خير محفز لي لإتمام هذا البحث ووضع نهاية لهواجسه المؤرقة.

كما أشكر وبالقدر نفسه كل من وقف إلى جانبي وآزرني أثناء مسار إنجاز هذا البحث من أساتذة وطلبة وموظفي بعض المكتبات الوطنية والأجنبية.

إهداء

إلى روح والدتي الحاجة فاطنة التي شملتني برضاها وعطفها في حياتها
تغمدها الله بواسع رحمته ومغفرته
إلى والدي الحاج قدور أطال الله في عمره
إلى رفيقة دربي رمز الوفاء والتضحية زوجتي نجية
إلى أبنائي البررة: معاد وأيمن وهبة الله وآدم ورائد
إلى جميع أفراد أسرتي
أهدي ثمرة هذا العمل

والله ولي التوفيق وعليه التكلان

قائمة الرموز المستعملة في البحث

1- بالعربية

-	خ.س	:	الخزانة الحسنية
-	خ.ع	:	الخزانة العامة
-	م.و.م.ر	:	مديرية الوثائق الملكية بالرباط
-	م.ح	:	محفظة
-	ك	:	كناش
-	مخ	:	مخطوط
-	ج	:	جزء
-	م.س	:	مرجع سابق
-	د.د	:	دكتوراه الدولة
-	د.و	:	دكتوراه وطنية
-	ر.د.د.ع	:	رسالة دبلوم الدراسات العليا
-	هـ	:	هجرية
-	م	:	ميلادية

- A.M : Archives Marocaines
- A.B : Archives Berbères
- A.M.S : Annales Marocaines de Sociologie
- Fasc : Fascicul
- Hesp : Hespéris
- Hesp – Tam : Hespéris-Tamuda
- R.M.M : Revue du Monde Musulman
- R.G.M : Revue de géographie du Maroc
- R.H.M.C : Revue d'histoire moderne et contemporaine
- S.I.H.M : Sources inédites de l'histoire du Maroc
- T : Tome
- V : Volume

مقدمة البحث:

كثيرا ما يتداول بعض الباحثين في الوسط الجامعي أن البحث في قطاع التاريخ العسكري بالمغرب، في ظل التراكم الإستوغيرافي الذي أنجز منذ فجر الاستقلال إلى اليوم، لم يعد يغري بمزيد من البحث والتنقيب في مختلف الملفات والقضايا التي يطرحها على واجهات متعددة، سواء تلك التي لها علاقة بالدولة ومؤسساتها وتنظيماتها أو تلك التي لها صلة بالمجتمع، بوصفه كان هو المجال الأكثر تفاعلا وتأثرا بالممارسة العسكرية بما كانت تقدمه القبائل والمدن من محاربين في زمن الحروب والحملات العسكرية أو بما كان يقع عليه من أعباء ضريبية مكلفة لتمويل نفقات إعداد الجيوش وتسليحها وتمويلها. وإذا كان لهذا الموقف من مبرر، في ظل الاهتمام الواسع والملاحظ الذي حظي به التاريخ العسكري والدبلوماسي للدولة على حساب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لمختلف فئات المجتمع ونخبه في الحواضر والبادي على السواء، فإنه يبقى مع ذلك، في حدود ما أنجز لحد الآن من بحوث ودراسات علمية جادة في حقل التاريخ العسكري ومباحثه المختلفة في المغرب، غير مبرر، البتة، من الناحيتين المنهجية والمعرفية، لأن التراكم العلمي المنجز في هذا الحقل من البحث التاريخي لا زال محدودا للغاية، كما وكيفا، ويسير في اتجاهه العام بخطى بطيئة ومتعثرة بل وحتى ما أنجز في إطاره من دراسات جامعية لم يغط لحد الساعة إلا فترات محددة ومتباعدة من تاريخ المغرب احتلت من بينها فترة القرن التاسع عشر موقع الصدارة في الاهتمام والنظر والتحليل لما تتميز به من وفرة وثائقية في الأرشيف الوطني والأجنبي ولما شهدته المغرب خلالها من تحديات داخلية وخارجية غير مسبوقة حتمت عليه إعادة النظر في مجمل التنظيمات العسكرية التقليدية الموروثة بعد فشلها في أكبر اختبارين عسكريين مني فيهما المغرب بهزمتين قاسيتين، كانت الأولى في معركة إيسلي والثانية في معركة تطوان.

ولذلك، كانت مسألة إصلاح الجيش المغربي وما تبعها من مبادرات إصلاحية أخرى متعددة أقدم عليها المخزن المغربي في قطاعات موازية خلال هذه الفترة المفصلية من تاريخ المغرب من

أهم ما أغرى الباحثين المغاربة وغيرهم من الباحثين الأجانب لتسليط الضوء على هذه التجربة الإصلاحية وإبراز أسباب ومعوقات فشلها انطلاقاً من رؤى ومقاربات تقاطعت فيها الأسئلة والهواجس بين الذاتي والموضوعي وبين الإيديولوجي والعلمي.

وفي إطار الإسهام في إضاءة بعض المساحات البيضاء في التاريخ العسكري المغربي التي لاتزال لم يعرها الباحثون المغاربة الاهتمام اللازم والمطلوب رغم أهمية ووجاهة ما تطرحه من أسئلة لازال بعضها ممتدا حتى اليوم في حياة المجتمع المغربي، اخترت الانخراط في مغامرة البحث في موضوع "قبائل الكيش والدولة في المغرب خلال العهدين السعدي والعلوي الأول". وإذا كان اختياري لهذا الموضوع له أكثر من مبرر علمي ومنهجي، فأعتقد أن أهم ما حفزني على الاهتمام به في المقام الأول هو ما اكتشفته حينما كنت بصدد إنجاز موضوع أطروحتي الأولى حول موضوع "الجبالية في العهد السعدي" من أدوار لعبتها قبائل الكيش في بناء مشروع دولة الأشراف مع مطلع تاريخ المغرب الحديث وفي ضمان استقرار مؤسساتها وترسيخ دعائمها بعد أن تمكنت من إعادة توحيد أجزاء المغرب والقضاء على مختلف القوى الجهوية التي كانت تقطع أوصال خريطته الجيو- سياسية الوطنية، كما أثارني من جهة أخرى، الأدوار التي لعبتها، في المقابل، في تقويض ركائز هذه الدولة نفسها وفي تعميق أزمة نظام الحكم فيها حينما دخلت مرحلة الانهيار والتفكك في ظل الصراعات السياسية الطاحنة التي انفجرت بين أبناء السلطان أحمد المنصور بعد وفاته حول وراثة العرش. وهذه القضية التي ربما باتت، في تقديري، تندرج ضمن دائرة اللامفكر فيه سواء خلال هذه الفترة أو في غيرها من الفترات التاريخية الأخرى اللاحقة، هي التي حفزتني اليوم لإعادة البحث وإعمال النظر في جوانبها المختلفة خصوصاً بعد أن اتضح لي بشكل جلي أن دولة الأشراف التي تأسست على مفهومي الشرف والجهاد، كما استقر في وعينا التاريخي الجماعي، لم تكن قادرة على تحقيق وإنجاز مشروعها السياسي على أرض الواقع لولا الاحتضان والدعم الذي قدمته لها القبائل التي ستصنف فيما بعد ضمن قبائل الكيش. وهذه القبائل التي تكونت في معظمها من قبائل تنحدر من أصول معقلية صحراوية

واستمرت تشكل قاعدة الجيش القبلي للمخزن الشريف ومستودع الجنود الاحتياطيين الذين كان يعول عليهم أكثر من غيرهم في وقت الحاجة ابتداء من القرن العاشر الهجري/16م إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري/19م، هي التي صارت تمثل عصبية ظل بالنسبة لدولة الأشراف وصمامة أمنها خصوصا بعد أن توثقت العلاقة بينهما وتوطدت ركائزها من خلال روابط الحلف والمصلحة التي عززتها بشكل دوري ومتجدد علاقات المصاهرة التي حرص بعض السلاطين على ربطها، من حين لآخر، مع أعيان ووجهاء هذه القبائل في محطات تاريخية مختلفة.

ولعل هذا الطرح هو ما قادني إلى القول، بأن دولة الأشراف التي لم يكن لها أي امتداد في الواقع القبلي على خلاف ما حصل مع دول المغرب الوسيط التي استندت إلى عصبيتها القبلية لإنجاز استحقاق السلطة وبناء الدولة، فقد استعاضت هي الأخرى عن هذا الفراغ باصطناع عصبية ظل قبلية لم تكن تجمعها في الواقع مع سلاطينها المؤسسين لها رابطة الدم والنصرة العصبية، ولكن كانت تجمعها معهم علاقات تحالف مصلحي عززتها في الأصل روابط الانتماء إلى نفس المجال الواحي الصحراوي، والاشتراك في نفس الخصائص الثقافية والقيمية المتوارثة.

وإذا كانت الدولة المغربية قد استمرت تعتمد على الجيش القبلي في نظامها العسكري منذ البواكير الأولى لنشأتها حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/19م، فلأن هذا النوع من الجيش كان يشكل جزءا أصيلا وأساسيا من بنية تكوينها السياسي والتنظيمي لأنها هي نفسها كانت قد انبثقت من رحم تكتلات قبلية تربطها روابط العصبية الجامعة في العصر الوسيط، أو ارتكزت على دعم قوى قبلية حليفة حتى بعد أن تحول نسقها السياسي من النموذج القبلي إلى النموذج الشريفاني إبان التاريخ الحديث. وفي كلتا الحالتين، كان الاستمرار في الاعتماد على هذا الجيش يمثل خيارا لا مناص منه بالنسبة للدولة المغربية في ظل أزمة الموارد المالية المزمنة التي ظلت تعاني منها على امتداد صيرورتها التاريخية، لأن هذا الصنف من الجيش، مقارنة مع الجيش النظامي المحترف، لم يكن يتطلب سوى نفقات مالية أقل كلفة مادامت القبائل نفسها هي من كان يتحمل القسم الأكبر من مصاريف تموينه وتسليحه.

ولذلك، فإن البحث في تجربة تاريخ هذا الجيش القبلي أو ما بات يعرف خلال تاريخ المغرب الحديث بالكَيْش المخزني هو مدخل مهم من مداخل مقارنة طبيعة الدولة المغربية ذاتها التي ظلت إلى وقت متأخر تعتمد على تشكيلات هذا الكَيْش الموروث عن السعديين في تدبير شؤونها العسكرية والإدارية والمجالية. ففي الوقت الذي شرعت فيه الدول الأوربية الحديثة في التخلص من هذا الإرث القبلي في المؤسسة العسكرية وأقدمت على تأسيس جيوش نظامية تحترف الجندية وتتلقى تدريباً وتأطيراً حديثاً ومتخصصاً يستند إلى معايير ومفاهيم مستمدة من روح فلسفة الدولة- الأمة (بدل الدولة- القبيلة) التي صارت مبادئها ونظرياتها تكتسح أغلب المجتمعات الأوربية في ظل الثورات البورجوازية المتتالية والتحولت الاقتصادية والتقنية التي أسست لانطلاقتها ونجاحها، فإن الدولة في المغرب وبحكم كونها لم تعرف نفس التطورات ولم تنخرط في أي مشروع إصلاحى أو تحديثي جدي وحقيقي عبر تاريخها يعيد بناء وتطوير هياكلها ومؤسساتها على أسس مغايرة جديدة، لم يكن في مقدورها، والحالة هاته، أن تتجاوز هذا النوع من التنظيم العسكري القبلي، فبقيت تبعا لذلك دولة تقليدية، في شكلها وهيكلها، تنطبق على بنياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية كل خصائص الدولة ما قبل الرأسمالية.

ولأن قبائل الكَيْش كانت من أبرز الخصوصيات التي ميزت تجربتها العسكرية، فإن البحث في تاريخها وتجلية مختلف الأدوار التي قامت بها في الحفاظ على التوازن بين فرق وتشكيلات الجيش المختلفة وفي الدفاع عن أمن الدولة واستقرار المجتمع من خلال حضور معسكراتها في أهم النقاط الحيوية والاستراتيجية التي تتحكم في بنية المجال ومراقبته دينامياته، كان هذا البعد الوظيفي، هو الآخر من بين أهم المبررات العلمية التي شجعتني على المضي قدما في معالجة هذا الموضوع والتفاعل مع الأسئلة التي يطرحها في أكثر من اتجاه.

كما أن ارتباط هذه القبائل الكيشية بأراضي الإقطاع التي كانت تمنحها لها الدولة كتعويض عن الخدمات والمهام التي كانت تضطلع بها في ميادين مختلفة، والتي كانت تمتد في

المدارات الجغرافية المجاورة للعواصم السلطانية أو في مناطق قريبة منها، كانت تمثل ظهورها الخلفي، قد طرح هو الآخر عدة مشاكل وتوترات بين هذه القبائل من جهة، وبينها وبين المخزن، من جهة ثانية، في عدة مناسبات تاريخية كان أبرزها ما وقع خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م ثم بعد إقرار نظام الحماية الفرنسية في المغرب حينما شرعت إدارة الاحتلال في عملية ضم الأراضي بما فيها أراضي الكيش لإنجاح سياسة الاستيطان الزراعي العام والخاص لفائدة المعمرين الجدد. وبغض النظر عن الحثيات التاريخية والقانونية المرتبطة باستغلال قبائل الكيش لهذه الأراضي، فقد صارت تعتبرها مع طول مدة تصرفها فيها واستغلالها بشكل جماعي فيما بينها أراضي ملك خاصة بها لا يجوز بأي حال من الأحوال انتزاعها منها أو التدخل لإعادة توزيعها أو تفويتها لفرق أو أفراد من غير ذوي الحقوق المثبتة هوياتهم وأصولهم في الظواهر السلطانية وغيرها من الوثائق المخزنية ذات الصلة التي تحتفظ بها جماعاتهم وعائلاتهم المخزنية خلفا عن سلف.

وَأء تقء أن الإشكال الذي طرحته أراضي الكيش في زمن الحماية بشكل أخص حينما حاولت السلطات الاستعمارية الالتفاف على حقوق أصحابها من جماعات الكيش عبر سن تشريعات قانونية ملتوية لانتزاعها منهم، بقي مطروحا في بعض المناطق التي شملها نظام الكيش حتى في مغرب الاستقلال خاصة بعد أن صارت تلك الأراضي جزءا من المدار الحضري لبعض المدن وأصبحت تبعا لذلك مدرجة ضمن مخططات التهيئة الحضرية المعدة لتدبير شبكة تطور نسيجها الحضري وتنظيمه. فكان وضع اليد على تلك الأراضي من طرف الجهات الإدارية المختصة بدعوى أنها هي في الأصل ملك للدولة ولم يكن للجماعات التي أقطعت إليها في وقت من الأوقات إلا حق الاستغلال والانتفاع ليس غير، قد جعل منها في بعض المدن والمناطق المغربية التي تنتشر بها أراضي الكيش قضية من أهم القضايا العمومية التي أثارت عدة مشاكل ونزاعات بلغت في بعضها إلى ردهات المحاكم المختصة بالمنازعات العقارية للبحث فيها.

وبما أن إقطاعات الكيش هي في الأصل موضوع تاريخي بالدرجة الأولى قبل أن تتحول إلى ملف عقاري قانوني في زمن الحماية وبعد استقلال المغرب، فإن إعادة طرحها في علاقتها بتجربة قبائل الكيش كإرث عسكري وتنظيمي من جديد كموضوع للتفكير والمساءلة في مرحلة تاريخية تعد بحق مرحلة تأسيسية لنظام الكيش في المغرب لمن شأنه أن يساعد على فهم الملابس التاريخية التي نشأ وتطور في خضمها هذا النظام والضوابط التي كانت تحكم استغلال أراضي الكيش والطرق التي ابتدعت مع مرور الوقت لتوزيعها بين أفراد وجماعات الكيش. وهي كلها معطيات تبقى في محصلتها العامة على قدر كبير من الأهمية يمكن لصناع القرار في المغرب المكلفين بإدارة ملفات أراضي الكيش والمنازعات العقارية المرتبطة بها الاستئناس والاسترشاد بها لإيجاد حلول عادلة ومنصفة للجميع.

وعلى ضوء هذه المبررات والدوافع التي سقتها متدرجة من الخاص إلى العام، انتهيت إلى صياغة الإشكالية المركزية للبحث على النحو الآتي:

لماذا اعتمدت دولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول على قبائل الكيش كخيار عسكري موازي لتنظيمات الجيش النظامي المحترف؟ هل كان هذا الخيار مجرد تكريس لتقليد عسكري بات من ثوابت الدولة المغربية التقليدية في بناء هياكلها العسكرية وتعزيز قدراتها الحربية للتحكم في ديناميات المجال وتدبير علاقة الإدارة المخزنية بمكونات المجتمع منذ فجر تأسيسها إلى غاية فترة الحماية؟ أم أن هذا الخيار كان، قبل ذلك وبعده، خيار ضرورة، أملتة، استلزاما، قلة ومحدودية الموارد المالية لدولة الأشراف التي لم تكن لتكفي لسداد نفقات جيش نظامي محترف باهض التكلفة من الناحية المادية لتغطية مستلزماته من حيث الرواتب والتسليح والتجهيز والمحفزات المادية الأخرى للحفاظ على استقرار منطق الولاءات والتوازنات داخل المؤسسة العسكرية؟

وفي سياق الامتدادات القطاعية لهذه الإشكالية العامة وما يرتبط بها من قضايا فرعية ترتبط ارتباطا عضويا بجدلية العلاقة التي ظلت قائمة بين قبائل الكيش والدولة والمجتمع، فقد اتجهت، بالتوازي مع ذلك، إلى طرح تساؤلات أخرى أكثر تخصصية، هذه المرة، توزعت بين السياسي والاجتماعي والثقافي وقد اختزلت صياغتها على الشكل الآتي:

لماذا ارتكزت دولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول على قبائل بعينها تنحدر في أغليبتها من أصول معقلية لتكوين حلفاء لها ضمن ما بات يعرف بقبائل الكيش المخزنية؟ ثم ما هي الأسباب والحيثيات التي ساهمت في استمرار نسق العلاقة بينهما وتجدها ابتداء من القرن العاشر الهجري/16م إلى غاية فترة ما قبل الاستعمار رغم ما كان يعتريها في بعض اللحظات التاريخية من توترات وانقطاعات؟

وفي المقابل، ماهي الأدوار التي اضطلعت بها هذه القبائل، إلى جانب وحدات الجيش النظامي الأخرى، في مجال العسكرية والأمن والجباية والدفاع عن الحوزة الترابية؟ وأخيرا لماذا كانت هذه القبائل في فترات تراجع سلطة الدولة وانحسار نفوذها تتحول من حليف شريك لها إلى خصم مناوئ ينحاز، دون تردد، لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الثورة والمعارضة على حساب أمن الدولة ووحدة مؤسساتها؟.

لقد اعتمدت في مقاربة موضوع قبائل الكيش خلال الفترة التي اخترتها إطارا للدراسة منهجا تاريخيا تحليليا يركز على استقراء النصوص التاريخية وفحصها ونقدها انطلاقا مما تجود به المصادر التاريخية من معلومات ومعطيات هامة ومتنوعة تتعلق بقبائل الكيش وخريطة توزيعها عبر المجال. ونظرا لأن النصوص التاريخية التي راعت أخبار هذه القبائل وتتبع مسار تحركاتها وتنقلاتها تكاد تسير في نفس المنحى وتعيد سرد الوقائع التاريخية المرتبطة بعلاقتها بالملخزن بأساليب وصيغ تتشابه مضامينها وتوصيفاتها في أغلب الأحيان، فقد عمدت إلى تنويع هذه المصادر وإثراء قراءتها بما أنجز من دراسات حديثة حول قبائل الكيش وهي دراسات

توزعت تحليلاتها بين مقاربات تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة ومتكاملة جمعت في أغلبها بين الدراسة التاريخية والدراسة السوسيولوجية. ولذلك جاءت كثير من مباحث هذه الأطروحة مطبوعة بأوشام ومفاهيم تلك المقاربات التي تتقاطع فيما بينها من حيث أفقها النظري وإحالاتها المرجعية.

هذا ولم يكن بإمكان هذا العمل أن يستوي على الصورة التي انتهى إليها اليوم لو استناده إلى عدة مصدرية ومرجعية ثرية ومتنوعة في متونها ومحتوياتها ومتكاملة في رؤاها وتصوراتها. غير أن ما ينبغي أن نسجله في هذا السياق هو أن المصادر التاريخية التي شكلت المرجعية الأولى والأساسية في هذا العمل كانت هي المصادر الإخبارية ككتاب: "مناهل الصفا" للفشتالي و"نزهة الحادي" للإفراني و"تاريخ الدولة السعدية التكمдарية" للمؤرخ المجهول و"البستان الطريف" و"الترجمان المعرب" للزياني و"زهر البستان" لمحمد بن العياشي و"الاستقصا" للناصري وغيرها. وهذه المصادر ورغم ما تقدمه من إفادات تاريخية بالغة الأهمية حول الظروف التي تمت فيها عملية تجنيد هذه القبائل والمراحل التي مرت منها والمواطن التي وطنت فيها والمصير الذي انتهت إليه سواء في ظل الأزمة التي أعقبت وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي أو تلك التي تلت وفاة السلطان المولى إسماعيل، إلا أنها لا تشير إلى أدق التفاصيل المتعلقة بأعداد محاربي قبائل الكيش وأسلحتهم ومصادر تموينهم والمواقع التي كان يحتلها قادتها في الأجهزة العسكرية للدولة والمواقف التي كانوا يتخذونها حيال الأمراء وغيرهم من القوى الفاعلة في الساحة السياسية حينما كانت تدخل الدولة مرحلة التفكك والانحيار. وهذه النقائص والثغرات قد نجد فيما تقدمه، أحيانا، كتب التراجم والمناقب "كنش المثنائي" للقادري و"تاريخ الدولة السعيدة" للضعيف الرباطي و"إتحاف أعلام الناس" لابن زيدان و"الإعلام" للتعارجي المراكشي وغيرها، ما يسمح بتغطية بعض فجواتها أو بناء إسقاطات قد تكون مفيدة من الناحية التأويلية في تجاوزها. لكن بالعودة إلى ما خلفه بعض الأسرى والمبعوثين الأجانب الذين وفدوا إلى المغرب بقصد إفتكاك الأسرى وافتدائهم من مذكرات وتقارير وكتابات كان على درجة كبيرة

من الأهمية في سد تلك الثغرات واستدراك تلك النقائص، لأن أصحابها وبحكم أن بعضهم كان قد قضى قسما من حياته في صحبة جيوش بعض السلاطين واحتك بها في حضرها وسفرها فيما كان بعضهم الآخر قد أقام ولفترة من الزمن في أحياء قريبة من القصر السلطاني والقصبات المخزنية المحيطة به، فقد استطاعوا أن يرصدوا عن قرب، إما معاينة أو عن مصادر شفوية، ما كان يجري من أحداث وتطورات داخل الأجهزة العسكرية والمؤسسات المخزنية وأن يقدموا بشأنها أخبارا وإفادات وصفية دقيقة وناذرة، قلما نجد لها مثيلا في المدونات المغربية على اختلاف وتعدد أجناسها، تتعلق بأصول وتشكيلات فرق الجيش وتنظيماتها وأعدادها ورواتبها والقصبات التي كانت تتوزع فيها وطبيعة العلاقات التي كانت تربطها بالسلاطين والقادة ومع بقية فئات المجتمع. ويمكن أن نذكر من هذه الكتابات هنا على سبيل المثال لا الحصر: مذكرة خوخي دي هنين الموسومة "بوصف الممالك المغربية" وكتاب الأسير Antonio de Saldanha المعنون "بأخبار أحمد المنصور سلطان المغرب" ثم "رحلة الأسير" Mouette ومذكراته المعنونة بـ «**Histoire de Moulay Er-Rechid et de Moulay Ismail**» إضافة إلى مذكرات الأسير Thomas Pellow الموسومة بـ: **Thomas** «**La relation de**» **Pellow** إلى غير هذا وذاك من الكتابات والمذكرات الأجنبية الأخرى التي تزخر بها الأستوغرافية التقليدية المعاصرة لهذه المرحلة من تاريخ المغرب.

كما استفاد هذا العمل في بعض جوانبه المنهجية والمعرفية كذلك مما أنجز من دراسات وبحوث تاريخية وسوسيولوجية جادة حول قبائل الكيش في فترة الحماية الفرنسية وفي العقود الأخيرة التي تلت لحظة الاستقلال. وكان من بينها على وجه الخصوص دراسة Magali Morsy حول: «**Moulay Ismail et L'armée de métier**» ودراسة Jean Locoz حول: **Les Tribus Guichs au Maroc** ثم دراسة Paul Pascon حول: **Le Haouz de Marrakech** وهي دراسات حتى وإن اختلفت في منطلقاتها وغاياتها إلا أنها تكاملت فيما بينها لتقدم منظورا أكثر إجرائية ووظيفية لوضع تجربة قبائل الكيش في إطارها التاريخي

المناسب في ارتباط مع حاجات ورهانات دولة الأشراف السياسية والعسكرية وفهم الأسباب التي دعت هذه الدولة بالتحديد إلى اختيار قبائل كيش تنحدر في أغليبتها من أصول معقلية لتكون حليفا وشريكا زبونيا في خدمة أهدافها ومشاريعها العسكرية ومؤتمن، في نفس الآن، على الدفاع عن أمنها ووحدتها السياسية والحفاظ على مصالحها الحيوية.

وفي سياق فهم بعض القضايا المرتبطة بالتنظيم العسكري الداخلي لقبائل الكيش وتوزيع وحداتها والمهام التي شاركت في تنفيذها خلال مغرب القرن الثالث عشر الهجري/19م وقيمة وحجم الرواتب التي كان يتلقاها أفرادها لقاء ذلك وتنفيذات الإقطاع التي كانت تستفيد منها والمناطق التي تركزت فيها وطرق توزيع حصصها وأسهمها بين عناصر قبائل الكيش وغيرها من القضايا الأخرى التي أهملتها مصادر المرحلة المدروسة ولم تقدم بشأنها ما يكفي من البيانات والإيضاحات، فقد استفدت من الأطروحات الجامعية المغربية التي أنجزت في موضوع الجيش المغربي خلال هذه المرحلة كأطروحة ثريا برادة حول "الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر" وأطروحة مصطفى الشابي حول "الجيش المغربي في القرن التاسع عشر" ثم أطروحة بهيجة سيمو "حول الإصلاحات العسكرية بالمغرب". وهذه الأطروحات التي تفاوتت في استفادتها من الأرشيف المخزني وكذا الأرشيف الأجنبي، والفرنسي منه على وجه الخصوص، فإن حصاد نتائجها والخلاصات التي انتهت إليها فيما يتعلق بتجربة تطور الجيش المغربي في هذه الفترة الفارقة من تاريخ المغرب التي اشتد فيها التنافس الامبريالي بين مختلف القوى الأوروبية حول المغرب والإصلاحات التي استحدثت لتأهيله وتحديث بنياته لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية التي كانت تتهدد السيادة الوطنية، قد جاءت في مجملها متميزة، شكلا ومضمونا، في كثير من الجوانب المعرفية والمنهجية مقارنة مع بعض الأطروحات التي أنجزها باحثون أنجلوساكسونيين في العقود الأخيرة كأطروحة Mercer (P.A) حول: « Political an military développements Whithin Morcco during the early Alawi period 1659-1757»، وأطروحة: Meyers(A.R) حول : «The Abid L.Buhari Slave

Rollman (W.G) « soldiers and state in Morocco 1672-1790 » ، ثم أطروحة:

حول: « The new Order in precolonial reform muslim society military in morocco 1844-1904 »

وهي أطروحات ارتكزت في كثير من القضايا التي أثارها إما حول تجربة جيش العبيد، أو مسألة الإصلاحات على المصادر الإخبارية المغربية المشهورة كالبلستان الطريف للزياني والاستقصا للناصري وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان، غير أن استفادتها من الأرشيف الوطني والأجنبي وخاصة فيما يتعلق بوجه خاص بموضوع الإصلاحات الذي عالجته أطروحة Rollman، فقد بقيت محدودة وباهتة في أغلب مفاصل البحث ومباحثه.

وككل بحث جامعي، فقد اعترضت هذه الدراسة عدة صعوبات معرفية بالدرجة الأولى في إنجازها وكان على رأسها، طبعا، قلة وشح المعلومات المتعلقة بصفة عامة بموضوع قبائل الكيش في مجمل المصادر التاريخية المعاصرة لهذه المرحلة المدروسة ولبعض القضايا التفصيلية التي تهم على وجه التحديد طريقة تنظيمها وتوزيع وحداتها والموارد المخصصة لتموينها وفي مقدمتها أراضي الإقطاع. وأعتقد أن هذه القضية بالذات التي أثارت نقاشات عديدة بين الباحثين، مغاربة وأجانب، في مغرب الاستقلال عند دراستهم للمسألة العقارية في المجتمع القروي بهدف تحديد ملامح التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في المغرب ما قبل الاستعماري، لا نجد في المصادر التاريخية والوثائق المخزنية التي تخلفت عن هذه المرحلة في الأرشيف الوطني، وهي قليلة ومحدودة كما وكيفما، ما يسعف الباحث على تحديد طبيعة وشكل هذه الإقطاعات وحصر خريطة مواقعها بشكل دقيق وكيفية توزيعها بين أفراد الكيش ونوعية الأنشطة الفلاحية التي كانت تمارسها هذه القبائل ضمن مجالاتها، ناهيك عن الصعوبات الكثيرة والمعقدة التي تطرحها هذه المصادر في تتبع مسار تجنيد وتعبئة هذه القبائل وتطور علاقتها بالسلطة المركزية بحيث لا نجد فيها من المعلومات والإفادات الأكثر إثارة للاهتمام إلا ما يتعلق منها بالفترات التي كانت تتأزم فيها علاقة هذه القبائل بالدولة المركزية وتتحول فيها من قبائل خادمة مطواعة إلى قبائل ثائرة ومتمردة.

وبخصوص الخطة المنهجية التي اعتمدها في هيكلة وبناء فصول ومباحث هذه الأطروحة، فقد سلكت فيها منهجا يركز على تقسيم القضايا التي أثارها فيها إلى ملفات تناولت في كل ملف على حدة موضوعا محددا ضمن فصل مستقل ولكنه يمهّد من الناحية المنهجية لموضوع الفصل الذي يليه حتى بدت الأطروحة في نهاية المطاف وكأنها حلقات متسلسلة ومتكاملة في أجزائها وأقسامها ضمن وحدة موضوعية ناظمة تؤطرها ابتداء وانتهاء موضوعة قبيلة الكيش.

وهكذا ولتحديد الخواص التنظيمية والحربية لقبيلة الكيش فقد توقفت في الفصل الأول عند مفهوم هذه القبيلة لتوضيح وبيان الحدود التي تميز هويتها الوظيفية مقارنة مع باقي القبائل المغربية الأخرى التي كانت تندرج ضمن عموم قبائل النايبة.

أما في الفصل الثاني، فقد عرضت فيه لبعض التجارب التاريخية التي اعتمدت فيها بعض الدول في مجال البحر الأبيض المتوسط على قبائل الجيش وذلك على سبيل التذكير والتمهيد في نفس الآن لموضوع العلاقة التي ربطت قبائل الكيش بدولة الأشراف في مطلع القرن العاشر الهجري /16م والأسباب والسياقات التي قاربت بين هذه الدولة وقبائل بني معقل على وجه الخصوص التي كان تنتشر يومئذ في بسائط ومجالات سوس الأقصى.

ولهذه الغاية خصصت الفصل الثالث للحديث عن أهم المقاربات التي اعتمدها بعض الباحثين المغاربة لتفسير ظروف نشأة دولة الأشراف والتحولات المجتمعية والاقتصادية والثقافية التي طرأت على بنيات المجتمع المغربي على امتداد أكثر من قرنين من الزمان وكانت بمثابة الأرضية التي مهدت الطريق لولادة هذه الدولة التي مثلت نموذجا سياسيا مختلفا عن النموذج القبلي الذي كان سائدا في المغرب طيلة تاريخه الوسيط. وفي هذا الإطار اقترحت مقاربة تفسيرية جديدة حاولت من خلالها أن أوضح أن دولة الأشراف التي أسست مشروعها السياسي على مفهومي الشرف والجهاد لم يكن في مكنتها أن تحول ذلك المشروع إلى واقع حقيقي

ملموس لو لم تعتمد على قبائل كيشية لعبت إلى حد ما نفس الدور الذي كانت تلعبه فيما مضى القبائل التي أوصلت بعض العصبية المتغلبة إلى سدة الحكم في تاريخ المغرب الوسيط.

أما الفصل الرابع، فقد خصصته لـ عرض أهم فصائل وفرق الكيش التي جندها السعديون في أول الأمر، ثم العلويون بعد ذلك، للعمل في مجال الخدمة العسكرية وحاولت في هذا الإطار أن أتوقف عند أصولها والمناطق التي كانت تنتشر بها في بداية الأمر والمواطن التي وطنت فيها بعد أن أمجت في سلك جند قبائل الكيش.

أما الفصل الخامس فقد تناولت فيه شكل وطريقة تنظيم قبائل الكيش على المستوى العسكري والمصادر التي كانت تعتمد عليها في عيشها وتموينها ونوعية الأسلحة التي كانت تستعملها في الحروب والمواجهات والوظائف والأدوار التي اضطلعت بها في ميادين مختلفة لمراقبة المجال والحفاظ على الأمن والاستقرار في المناطق التي كانت تقيم فيها معسكراتها.

وقد خصصت الفصل السادس للحديث عن الدور الذي لعبته قبائل الكيش في العصر السعودي في مجال تحرير الثغور المحتلة وفي القضاء على الإمارات الجهوية المستقلة التي كانت تتنازع السيادة والنفوذ فيما بينها في عدة جهات من المغرب. ثم أبرزت في محور ثانٍ مساهمة هذه القبائل في الأزمة التي عصفت بكل المنجزات التي حققها السعديون طيلة القرن العاشر الهجري/16م وأدت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م إلى انهيار الدولة السعودية وتفكك مؤسساتها وإلى عودة بعض الإمارات والكيانات الجهوية المستقلة للظهور من جديد على الساحة الوطنية تحت قيادة، إما شيوخ زوايا أو بعض الجماعات الموريسكية المتمركزة على ضفتي وادي أبي رقراق، وإما تحت زعامة قادة عسكريين كان من أبرزهم وأشهرهم القائد كروم الحاج الشباني بمراكش الذي كان ينتسب إلى قبيلة الشبانات الكيشية التي احتلت مكانة خاصة لدى أمراء الأسرة السعودية.

كما عالجت فيه أيضا الظروف التي جند فيها السلطان المولى رشيد، في مرحلة أولى وأخوه المولى إسماعيل في مرحلة ثانية، القبائل صارت تمثل عماد تنظيمات الكيش في العهد العلوي الأول وفي غيره من العهود التاريخية الأخرى اللاحقة، ثم أبرزت دورها ومساهماتها في مشروع إعادة توحيد المغرب وفي القضاء على الثورات والحركات السياسية المعارضة. وتوقفت في المحور الأخير عند مشاركة هذه القبائل وعلى رأسها قبيلة الوداية في الصراعات السياسية والعسكرية الطاحنة التي اندلعت على أوسع نطاق بين أبناء السلطان مولاي إسماعيل حول السلطة إثر وفاته مباشرة.

الفصل الأول قبائل الكيش: خواص ومحددات

تصدرت المنظومة القبلية وأنساقها التنظيمية والسياسية وموروثاتها الثقافية والرمزية مركز الاهتمام في جل الدراسات الإثنوغرافية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية التي أنجزت في عهد الحماية وبعد مغرب الاستقلال. ولئن كانت الدواعي التي وجهت أفق هذا الاهتمام وأطرت مساره المعرفي والإيديولوجي، تعود في الأصل إلى الدور الوظيفي الذي بقيت تلعبه الهياكل القبلية في الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع المغربي ومخيله الثقافي والذهني إلى غاية فترة الاستعمار، فإن المقاربات العلمية والمفاهيم الإجرائية الواصفة التي وظفت لتحليل بنياتها الاجتماعية والسياسية وكشف الآليات المتحركة في دينامياتها الداخلية وعلائقها المجالية، لم تكن على نفس القدر من الثراء النظري والنضج المنهجي والحيادية الفكرية. ولعل هذا التوجه هو ما جعل حصاد هذه الدراسات، تحليلا وتنظيرا وتحقيقا، يتسم، في كثير من الأحيان، بطابع الانتقائية والتجزئ، تارة، والتحامل والإسفاف، تارة أخرى¹.

ولما كان أغلب سوسيولوجيي وإثنوغرافيين الحماية، ممن آثروا دراسة النظام القبلي في المغرب، منخرطين بشكل عضوي في تنفيذ أهداف المشروع الاستعماري وتبرير وشرعنة سياسة إدارته في مجال الشؤون الأهلية، فقد اتجهوا، على نحو مخطط ومدروس، إلى الاهتمام، بشكل خاص، بالمجتمعات القبلية في المجالات الجبلية والصحراوية النائية التي حافظت، ولردح طويل من الزمن، على بناها التنظيمية والاجتماعية والثقافية الأصيلة، ولم يكن يطالها نفوذ الدولة المركزية عبر التاريخ إلا لماما، وذلك حتى يتأتى لهم، من جهة، معرفة الآليات الاجتماعية الداخلية التي ظلت تتحكم في توازن كياناتها وانتظام مجموعاتها في أفق استغلالها لاحقا

¹ - للإلمام أكثر بحيثيات هذا الموضوع نحيل في هذا السياق على المقالتين التاليتين مع اللوائح البيبليوغرافية المرفقة بهما :
- بوطالب (إبراهيم)، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية حصيلة و تقويم"، ندوة البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط، 1989، ص. 107-173
Bentahar (M) et Bouasla (Et-Tibari) , « La Sociologie coloniale et la société marocaine (1830-1960)» ,
in La Sociologie marocaine contemporaine. Bila et Perspectives, Publication de La faculté des Lettres,
Najah El jadida 1989, pp. 13-58

لتفكيك واحتواء جبهاتها المقاومة ضمن سياق عمليات الغزو والتهدة ، ومن جهة أخرى، لإثبات علاقة التوتر والتضاد التي كانت تضع باستمرار هذه المجتمعات في الأطراف والتخوم البعيدة مع السلطة المركزية على طرفي نقيض، دفاعا، حسب زعمهم، عن "جمهورياتها الديمقراطية المنتخبة وقرارها الجماعي المستقل" أمام سلطة مخزن "مستبد" لم يكن ينظر إلى محيطه القبلي إلا من خلال ما يمليه عليه منطق "جشعه الضريبي" و"هواجسه الأمنية" المتجددة دوما².

وأيا تكن الرهانات التي وجهت تلك الدراسات في البدء، والغايات التي سعت إلى تحقيقها في المنتهى، فإنها تمكنت على صعيد ما راكمته من إنتاجات علمية غزيرة وتحريات ميدانية واسعة، من أن تكشف، وبدرجات متفاوتة، عمقا ومسحا وتحليلا، عن أوجه الاختلافات والتقاطعات الموجودة بين مختلف التشكيلات القبلية في المغرب سواء أكانت مستقرة أم رعوية، جبلية كانت أم سهلية، وذلك انطلاقا مما كان يحدد هوياتها السوسيو- مجالية من شروط مادية ولا مادية كانت تتباين، في أهميتها وجدواها، حسب خصوصيات المجالات الجهوية وما تزر به من ثروات طبيعية وموارد اقتصادية باعتبارها حجر الزاوية في صياغة أنماط عيش الجماعات وتحديد مصيرها المشترك³.

ولعل مما أوضحته تلك الدراسات في سياق مقاربتها لسوسيولوجيا الواقع القبلي، وإن تفاوتت أدبياتها في الرؤية والخطاب، أن القبائل في المغرب كانت تعيش حياتها الجماعية من خلال حرصها دائما على الحفاظ على علاقة التوازن بين فصائلها ووحداتها حتى يكون استغلالها

² - Michaux- Bellaire (E), "l'Organisme marocain", R. M.M, 1909, Vol 9, pp.1- 43;

Michaux- Bellaire , "L'Islam et le Maroc", in, A. M, Vol XXVII , 1927, pp. 157. Terrasse (H), Histoire du Maroc, Edition Atlantides, Casablanca , 1950, T2, pp.356-358 et 422-424 .

³ - Michaux- Bellaire , "Les Coutumes berbères dans les tribus arabes", in R. M.M, Vol 9, 1909, pp. 224-234.

للموارد الاقتصادية والطبيعية المشتركة المتاحة في المجال استغلالا متكافئا يضمن حقوق ومصالح الجميع. وهي الغاية الحيوية التي من أجلها تواضعت الهيئات والمجالس المنتخبة الممثلة لشؤونها الجماعية (اجماعة، أو آيت أربعين، أو إنفلاس) على مر التاريخ على بلورة وإقرار مجموعة من التشريعات العرفية التي تنظم حياتها اليومية في كافة تفاصيلها وتموجاتها وترعى حقوقها المادية على مختلف الواجهات حتى لا تكون عرضة لأي اعتداء أو انتهاك من قبل الجماعات الأخرى في جوارها القريب أو البعيد⁴. غير أن تلك التشريعات العرفية، التي بقيت شفوية في أغلب المناطق القروية في المغرب إلى غاية فترة الحماية، لم تكن لتضمن علاقات السلم والوفاق بين مجموع القبائل إلا حينما يكون الالتزام بها يشمل كل الأطراف المتعاقدة عليها سلما أو حربا، وهي حالة كان بقاؤها مرهونا دائما بمعادلات موازين القوة المحلية المتحركة في توزيع وإعادة توزيع التحالفات والولاءات وباستقرار خريطة الأوضاع الاجتماعية العامة على الصعيد المحلي.

غير أنه في ظل مجتمع غير مستقر، كانت القبائل تتعرض فيه باستمرار لاعتداءات الغير واستهدافاته من أجل الاستحواذ على ممتلكاتها وحقوقها إما في المحاط الزراعي أو في الآبار ومنابع المياه أو في المراعي وغيرها، أو التطاول على قدسية حرمتها ورموز سيادتها من خلال انتهاك ما يدخل ضمن مجالها المخصوص "العرض والحريم"⁵، علاوة على ما كان ينتاب اقتصادها الهش من هزات عنيفة بسبب موجات القحوط والمسغبات الدورية وما كان يتبعها في أغلب الأحيان من أوبئة ماحقة ومدمرة، كانت حالة السلم والتعايش بين القبائل تستحيل

⁴ - Montagne, " Le Régime juridique des tribus du sud Marocain", in *Hésp*, T.IV, 3^{ème} trimestre 1924, pp. 313-331 ;

⁵ - حول هذا المفهوم وعلاقته بالحياة القبلية بالريف أنظر:

-Jamous(Raymond) , *Honneur et Baraka , Les structures sociales traditionnelles dans le Rif* , éd, de la Maison des Sciences de l'homme, Paris.

إلى دورات من العنف والاحتراب لم تكن لتتوقف إلا لتنفجر من جديد ولأتفه الأسباب أحيانا. وبسبب ما كانت تخلفه الحروب والمواجهات الدامية من معاناة قاسية وجراح أليمة في الذاكرة والوجدان الجماعي للقبائل كان يدفع أفرادها لأن يكونوا في تعبئة دائمة ومتواصلة استعدادا وتأهباً لخوض الحرب من جديد وهو هاجس كان يجثم على صدر القبيلة ويقض مضاجعها باستمرار.

ولا شك أن علاقات التعارض والتضامن التي تحدث عنها الأنثروبولوجيون ممن استهوتهم النظرية الانقسامية بوصفها كانت تمثل أساس انتظام المجموعات القبلية واستقرارها وتوازنها في العديد من المناطق الأمازيغية عبر تاريخها الممتد في الزمن، أعتقد أنها كانت تمثل في الأصل المرجع والمحرك الموضوعي للتحالفات التي كانت تنعقد بين الاتحاديات القبلية أو بين الفرق والقسمات المنضوية تحتها في بعض الظروف الاستثنائية من أجل خوض مغامرة الحرب أو لتلافي حدوثها في أحسن الأحوال إذا تسنى لها أن تظهر ما يكفي من مظاهر القدرة على تحقيق النصر والغلبة ضد الخصوم والفرقاء. وغالبا ما كانت هذه التحالفات تمتد عموديا من أدنى وحدة في السلم القبلي، وهي العائلة أو إغص، إلى أعلى وحدة منه، وهي القبيلة أو الاتحادية القبلية⁶. وبغض النظر عن المستويات القاعدية والتنظيمية لهذه التحالفات وتوزيعاتها المجالية بين القبائل، فالموكد أنها كانت في تكوينها واتجاهها غير ثابتة أو خطية في سيرورتها، وإنما كانت تتغير في تشكيلها وجغرافيتها بحسب تغير الظروف وموازن القوى المحلية مما كان يجعلها

⁶ -Montagne (Robert), *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc*, Afrique Orient, Casablanca, 1989, pp. 167-191; Berque (Jacques), *Structures sociales du haut-Atlas*, Presse universitaires de France, Paris, 1955, pp. 411-444.

تبرز أحيانا على شكل رقعة شطرنج كما وصفها بذلك روبير مونطاني عند حديثه عن نظرية اللفوف في الأطلس الكبير الغربي⁷.

ونظرا لما كان يرافق الحروب القبلية ويتمخض عنها من انتشار لمنطق الثأر والانتقام بين الأفراد والجماعات والاعتداء على الحرمات والمعاشات وقطع للسبل والطرق، فقد كان أهل الرأي والوجاهة والحكمة من الأعيان وشيوخ القبائل يتدخلون لرأب الصدوع وتسوية أسباب الخلافات من خلال عقد مصالحات وتفاهمات بين الأطراف المتنازعة كثيرا ما كانت تتوج بعقد عهود حلف وأخوة تنهي فصول العداوة والشحناء المتجددة وتفسح المجال لعودة السلم والوثام وتوسيع شبكات التبادل فيما بينها من خلال عقد الزواجات والمصاهرات وتيسير سبل المعاملات التجارية وتنظيم الأسواق والمواسم والاحتفالات بشكل جماعي مشترك.

وقد احتفظت الذاكرة الجماعية للمجتمع القبلي في المغرب بذكرى العديد من عهود الأخوة الحلفية والطقوس والعادات التي كانت تؤثث مراسيم انعقادها وتوثق للحظة ولادة عهد الأخوة الجديد؛ عهد التعايش والتضامن في السراء والضراء⁸، ومن أبرزها وأشهرها: عهد "تاضا"⁹، عهد "تافرگانت"¹⁰،... إلخ. ولتوفير الحماية للأنفس وتأمين دورة الأسواق وحركية الطرق

⁷ - Montagne, *Les Berbères et le Makhzen*, op. cit, p.205-213

⁸ - للتوسع في معرفة أبعاد ومضامين هذه العهود الأخوية والتضامنية راجع: الأديسي (الفقيه)، "عهود الأخوة وأثرها في تدبير مظاهر العنف القبلي في المغرب: حالة قبائل تادلا"، مجلة كلية الآداب، بني ملال، العدد 17، 2016، ص. 85-106.

⁹ - Coursimault (C), "Ttata", A.B, 2.fasc.3, 1917, pp.261-264.

¹⁰ - بخصوص النظام العرفي عند آيت عطا، أنظر: استيتيتو (عبد الله)، التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2011، ص. 189-205؛ سبيلمان (جورج)، آيت عطا الصحراء و"تهدة" درعا العليا، ترجمة وتقديم، امحمد احدي، طباعة، BJ Print، الطبعة الثانية، 2011، ص. 52.

والحد من مخاطر العنف والعنف المضاد الناتجة عن عادات الثأر وتبعات العار وإفساح المجال للاجئين والمطرودين من قبائلهم للعيش في أمن وسلام لدى من استجاروا بهم وقبلوا حمايتهم في وسط قبائل أخرى، فقد أبدع المجتمع القبلي في صياغة أممات متعددة من أوفاق الحماية والتكفل لضمان حق اللجوء والأمان للغرباء والمتابعين وإشاعة قيم الإغاثة والمساعدة في زمن لم تكن فيه أية جهة رسمية قادرة على ردع المعتدين والمخالفين وضمان الأمن والحماية في كل ربوع التراب الوطني. ومن أبرز أوفاق الحماية التي شاع تداولها بين القبائل في مغرب ما قبل الحماية نذكر: "المزراك"¹¹، "تاكسا"¹²، و"تايسا"¹³ "أمور"¹⁴، "تاگمات"¹⁵، "الذبيحة"¹⁶، وغيرها.

-Larbi (Mezzine), *Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles*, Publication de la faculté des lettres et sciences humaines, Rabat, Imprimerie, Najah El Jadida, Casablanca, 1987, pp.308-320.

¹¹ -راجع بهذا الخصوص

Salamon (G), "Merzag", *A M*, 1904, T1, p.136; Querleux (C), « Les Zemmour », *A.M*, fasc.2, 1915, pp.12-61.

¹² - البوزيدي (أحمد)، التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 ومطلع القرن 20) دراسة في الحياة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، مطبعة سونير، ص.155

¹³ - Mezzine (LArbi), "Société et pouvoir dans le Maroc présaharien au XVII siècle: Réflexion à propos de la « Tayssa » de sidi Abd al-Ali », *Hesp- Tam.*, 1985, pp.43-44.

¹⁴ - أنظر أنظر الحيشيات المرتبطة بهذا العرف عند: السبتي (عبد الأحد)، بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في

مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009، ص.206-207.

Bruno (H) et Bousquet (G.H), « Contribution à l'étude des pactes de protection et d'alliance chez les berbères du Maroc central », *Hesp*, TXXXIII, 1946, pp.357-361

¹⁵ - راجع ترجمة لمقتطف من نص هذا العرف عند: السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، م.س، ص.190-191. وبخصوص

التفاصيل المتعلقة به أنظر :

ومما لا ريب فيه أن شيوع هذه الأشكال من التحالفات والعهود الأخوية والأوفاق الحمائية والتكفلية لتطويق مظاهر العنف والاحتراب وتدبير أسباب التنازع والصراع ، ليؤكد أن المجتمع القبلي في المغرب كان مجتمع حرب بطبعه ومقتضى ثقافته، غير أن خاصية ميوله للحرب هاته، لا تعني، بأي حال، أنه كان يعيش حالة من "الفوضى" أو "التوحش" التي وصفت بها بعض الأبحاث الأنثروبولوجية العديد من المجتمعات البدائية في آسيا وأمريكا اللاتينية، وإنما كان مجتمعا يمارس العنف ويتبادل به بشكل منظم و"مقنن"، تتولى تدبيره مؤسسات جماعية تتمتع بصلاحيات تفويضية محددة، تذود عن مصالح الجماعات وأمن حوزاتها الترابية وتسهر على تعبئة كل الوسائل والطاقات الممكنة في أيام الحرب استعدادا لأي مواجهة محتملة حدثت أم لم تحدث.

ونظرا لتجذر مفهوم الحرب في سلوك وثقافة المجتمع القبلي في المغرب، فإنه استمر حاضرا ومتداولاً إلى يومنا هذا من خلال عدة تجليات ومظاهرات تعكسها الكثير من الكلمات والرموز والطقوس والممارسات. فإثناء لحظات السمر وفي المناسبات الاحتفالية عادة ما يتم استحضار "أيام البارود" التي كانت تتحارب فيها القبائل فيما بينها وتستعرض كل واحدة منها ما لديها من فرسان أشداء وسلاح وسطوة حربية، كما يجري، في أحيان أخرى، استعادة ذكرى الرماة الذين غالبا يحكي التاريخ المحلي، بنوع من المفارقة والرجسية ما حققوه من ملاحم بطولية في ميدان المعارك في أوقات الحروب وما اشتهروا به أيضا من حنكة ودربة في ميدان قنص الطرائد وتعقبها أيام السلم والتسلية. غير أن الإحالة الأكثر تعبيرا عن استمرار أثر الحرب وانغراس قيمها الرمزية في الوجدان الجماعي للناس هو ما تقوم به اليوم فرق "عبيدات الرمي" في كثير من

-La Ruelle de. (Capitaine), *Contribution à l'étude de l'histoire de la coutume et du folklore des populations du versant Sud-Ouest de l'Anti-Atlas, les Tekna berbérophones du Haut Oued Seyd, Les Ida brahim et leurs Tributaires*, C.H.E.M., 1941. .

¹⁶ - دوفو (شارل)، التعرف على المغرب، 1883-1884، ترجمة: المختار بالعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 173-179.

المناطق المغربية، حيث تنتقل في جولات روتينية بين القرى والدواوير للترفيه عن الناس وتسليتهم من خلال ما تقوم به من رقصات وألعاب وحركات فرجوية استعراضية تعيد ربط الماضي بالحاضر بما تثيره من حنين في النفوس وتخلقه من متعة تنفسح لها الخواطر وتجذب لها القلوب. وهي تعبيرات فنية وثقافية تجسد ما ما كان لفرق الرماة في الجيش المغربي من دور بارز أثناء الحروب التي كانت تخوضها الدولة المغربية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي. كما يتجلى استمرار البعد الرمزي للحرب في فن "التبوريدة" التقليدية أو "التحراك" التي تحظى بشعبية واسعة في الأوساط المغربية قروية كانت أم حضرية. ففي هذه اللعبة التي تختزل طقوسا كرنفالية فلكلورية تمتزج فيها طلقات البنادق بالأهازيج الشعبية تستعرض كل قبيلة ما تملكه من فرسان متمرسين شجعان وخيول أصيلة رشيقة وسروج مزخرفة أخاذاً وبنادق أنيقة منقوشة، وهو استعراض، إن كانت تختفي فيه مظاهر الحرب الحقيقية، إلا أنه يبقى تعبير رمزي عن استمرار علاماتها وأوشامها في الذاكرة الجمعية من خلال أصوات البارود والبنادق وصهيل أسراب الفرسان التي تعدو جيئة وذهابا كما لو أنها في حالة حرب تكرر وتفر في حماسة واندفاع.

والمؤكد، أن هذه المظاهر الثقافية والتعبيرات الفنية المختلفة تترجم، بشكل أوضح، أن المجتمع القبلي في المغرب كان دائما في علاقة تماس مع الحرب، سواء أكانت معلنة أو غير معلنة، لأن إرادة الحفاظ على الذات في محيط اجتماعي متقلب ومتموج والذود عن مجالها الترابي الحيوي بما يحتضنه من موارد عيش ثابتة أو متحركة مهدد باستمرار بالغزو والغارة من قبل الخصوم والأعداء، كان يفرض عليها حتما أن تكون دائما على أتم الاستعداد والجاهزية للانخراط في أتون الحرب حتى تحافظ على وجودها وهويتها بين الأختار والأغيار على حد سواء.

واعتقد أن هذا الواقع هو ما يجعل من الصعوبة بمكان وضع حدود فاصلة بين القبائل على أساس مقياس المعطى الحربي. فسواء تلك التي أدمجها المخزن المغربي في مؤسسة الجيش في فترات محددة من تاريخ العسكرية المغربية وسميت بقبائل الكيش، أو تلك التي بقيت

خارج هذه المؤسسة وصنفت ضمن القبائل الغارمة، كانتا سويا تشاركان في الأعمال الحربية واستحقاقاتها السياسية وذلك إما من موقع الخدمة المخزنية الدائمة أو من موقع المشاركة الطوعية الظرفية. ولعل هذا التداخل هو يعطي للسؤال التمهدي التالي مشروعية التأسيس للفهم و الاستبيان وهو: ما المقصود بقبائل الكيش؟ وما هي المعايير المحددة تعريفا لهويتها ووجودها الوظيفي في المؤسسة المخزنية؟

I. قبيلة الكيش: النشأة والأصول

1- على سبيل التعريف

ليس لكلمة كيش التي عرفت بها تاريخيا القبائل التي جندها المخزن المغربي للعمل في مجال الخدمة العسكرية أصل في المعجم اللغوي العربي، فهي محرفة عن كلمة "جيش" التي تعني الجند الذين "يسرون للحرب أو غيرها"¹⁷ لأن حرف "الكاف" الذي حل محل حرف "الجيم" في الكلمة الأصلية إنما هو تحريف لغوي مرتبط باللسان المغربي الدارج الذي كثيرا ما يتحول فيه نطق حرف "الجيم" "كافا" لاعتبارات ثقافية ولسنية ذات صلة باللهجات المغربية المتداولة.

لقد جرى إطلاق عدة تسميات وأوصاف على قبائل الكيش في المصادر التاريخية التقليدية والوثائق المخزنية. فقد سميت "بالقبائل المخزنية"¹⁸ كناية عن انتسابها إلى المؤسسة المخزنية

¹⁷ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م6، ص.278.

¹⁸ - داء العطب قديم، م.خ.ح . 111400، ص.235: مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1994، ص.53: الريفي (عبد الكريم بن موسى)، زهر الأكم، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص.162: داود (محمد)، تاريخ تطوان، دار كريباديس للطباعة، الطبعة الثانية، تطوان، 1382-1963، م2، ص202: أرنو (لويس)، زمن "المحلات" السلطانية، الجيش

وإلى تقاضيتها رواتب من الخزينة السلطانية¹⁹، وهي تسمية اشتهرت بها هذه القبائل أكثر من غيرها من التسميات الأخرى، ومنها اشتقت لفظة "مخازني" التي تطلق، من جهة، على جندي الكيش، وتحيل، من جهة أخرى، على إسم القطعة الأرضية التي كان يحصل عليها رجال الكيش بعد عملية توزيع الأراضي المقطعة لقبيلتهم من طرف السلطان المغربي باعتباره المالك الفعلي والوصي الأوحده على رقبة كل الأراضي الجماعية.

وسميت هذه القبائل أيضا "بالجند الفلاحين"²⁰ أو "الجنود المزارعين"²¹ وذلك لكونها كانت تستفيد من أراضي فلاحية أقطعها إليها المخزن المغربي على وجه الانتفاع فكانت تستغل قسما منها في الإنتاج الزراعي وتترك القسم الآخر للرعي وتربية الماشية. والجدير بالملاحظة في هذا الإطار، أن هذه التسمية التي تواتر استعمالها في الوثائق المخزنية وفي الكتابات الأجنبية إبان مغرب القرن الثالث عشر/19م على وجه الخصوص إنما يرجع السبب فيها إلى أن هذه القبائل كانت خلال هذه الفترة قد استقرت بشكل شبه نهائي في المناطق التي وطنت فيها وصارت الأنشطة الفلاحية في الأراضي الممنوحة إليها تبدو معالمها في المجال أكثر وضوحا وأكثر تعبيرا عن درجة ارتباطها بالأرض، استغلالا وإنتاجا ومعاشا، على خلاف ما كانت عليه فيما خلا من الفترات التاريخية حيث إن عمليات التنقل والترحيل المتتالية التي خضعت لها من طرف المخزن المغربي في لحظات تاريخية متعددة لاعتبارات سنتوقف عندها لاحقا، علاوة على ظروف الاضطرابات الاجتماعية والصراعات السياسية التي كانت تشهدها البلاد بسبب أزمات الحكم الدورية وتوالي

المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912، ترجمه: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص.12.

¹⁹ - ملين (محمد نبيل)، السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة: عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة كوثر برانت، الرباط، 2013، ص.196.

²⁰ - Le Coz (Jean), «Les Tribus guichs au Maroc, Essai de géographie agraire» R.G.M, N°7, 1965, p.5.

²¹ - الشابي (مصطفى)، الجيش المغربي في القرن التاسع عشر. 183-1912، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2008، ج1، ص.157.

الجوائح المدمرة، كلها عوامل كانت تحد من أسباب ارتباطها بالأرض واهتمامها أكثر بالأنشطة الزراعية.

كما جرى وصف هذه القبائل في المراسلات المخزنية والظواهر السلطانية بأوصاف: "الخدام"²² و"الوصفان"²³ للدلالة، من جهة، على علاقة التبعية والخدمة الواجبة التي كانت مطوقة بها لفائدة الدوائر المخزنية، ومن جهة أخرى، للتعبير عن الموقع الذي كانت تحتله في التراتيب والهياكل المخزنية والدور الذي كانت تضطلع به في الدواليب الإدارية والعسكرية للدولة.

وبخصوص قبائل الكيش التي جندتها المخزن المغربي ابتداء من العهد الإسماعيلي لتحرير الثغور المحتلة في الشمال والمرابطة على حدود المراكز التي بقيت خاضعة للاحتلال الأجنبي كسبتة ومليلية والمساهمة في إقرار الأمن وتحصيل مستحقات الجباية والحفاظ على نفوذ الدولة في الأقاليم الشمالية، فقد سمي أفرادها "بأهل الريف"²⁴ و"بالمجاهدين أهل الفحص والريف"²⁵ و"بالمخازنية أهل الريف"²⁶ و"بالجيش اليفي"²⁷ وغيرها من الأسماء التي تؤكد في

²² - القبلي (محمد)، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط. علائق وتفاعلات، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1997، ص. 64؛ برادة (ثريا)، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص. 119؛

Le Coz, "Les Tribus guichs au Maroc", op.cit, p.7.

²³ - برادة، الجيش المغربي، م.س، ص. 117.

²⁴ - اليفي، زهر الأكيم، م.س، ص. 147، 151.

²⁵ - الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج. 7، ص. 64.

²⁶ - بن العياشي (محمد)، زهر البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان، تحقيق ودراسة: أحمد قدور، مطابع الرباط، الدار البيضاء، 1956، ص. 134.

جملتها على الخلفية الجهادية والدفاعية لأفراد هذا الجيش الذي تمكن بقيادة أسرة آل الريفي من تحرير عدة مدن مغربية خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي واستمر يضطلع بوظيفته الجهادية والأمنية هاته إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حتى وإن كانت تنقطع عنه في فترات متعددة المستلزمات الضرورية للقيام بهذه الوظيفة التي أنيطت به منذ بداية تأسيسه من تموين ورواتب وأسلحة وغيرها.

2- نشأة مؤسسة الكيش وملابساتها

اختلف الدارسون والباحثون الذين اهتموا بدراسة الكيش في المغرب في تحديد اللحظة التاريخية التي ظهرت فيها هذه المؤسسة العسكرية، فقد مالت طائفة من الباحثين إلى ربط ولادتها بنشأة الدولة المغربية ذاتها في بلاد المغرب الأقصى منذ العهد الإدريسي، وأحيانا أخرى، منذ العهد المرابطي على أقل تقدير، وهي الفترة التي شهدت، كما لا يخفى، نشوء دول العصبية القبلية التي اعتمدت في مسار انتقالها السياسي من طور البداوة إلى طور الحضارة ومن طور الدعوة إلى طور بناء الدولة على قبائل كانت تربطها مع العصبية الحاكمة علاقات القرابة النسبية والوصلة والمشاركة في الجاه والمال والمغنم²⁸. وهذه القبائل نفسها هي التي كانت تشكل عصب الدولة وركيزتها الأساسية في سائر الأعمال والمهام قبل أن يعمد الحاكم إلى التخلص منها في الطور الثاني من عمر الدولة حينما أصبح أكثر مركزية واستبدادا لتعويضها

²⁷ - المهناوي (محمد)، التنظيم العسكري وعلاقته بالسلطة والمجتمع في العهد العلوي الأول، منشورات كلية الآداب، الجديدة، الطبعة الأولى، 2018، ص.92.

²⁸ - ابن خلدون (عبد الرحمان)، مقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981، ص.175.

"بالموالي والمصطنعين"²⁹ حتى يتسنى له الاستئثار بنعم المجد والجاه والتفنن في الترف ونوافله دون سائر قومه وعشيرته³⁰.

غير أن هناك باحثون آخرون اتجهوا إلى ربط نشأة هذه المؤسسة بالدولة الموحدية حينما عمل خلفاؤها على استقدام القبائل العربية الهلالية من إفريقية إلى بلاد المغرب ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ووطنوها في السهول الأطلنتية للقيام بواجب "العسكرة والجبابة"³¹ والجهاد في عدوة الأندلس³² وأقطعوها لقاء ذلك أراضي واسعة على شكل إقطاعات استغلال حولتها بعض بطونها وفصائلها مع مرور السنين إلى إقطاعات تمليك توارثتها جيلا بعد جيل³³.

لكن وعلى خلاف الرأي الأول والثاني، فقد اعتبر أغلب الباحثين ممن تخصصوا في تاريخ الجيش المغربي بعامة وتاريخ الكيش بخاصة أن هذه المؤسسة قد ظهرت بشكل واضح ومنظم مع الدولة السعدية³⁴ لأن سلاطينها هم الذي فرضوا ولأول مرة في تاريخ التنظيم الجبائي

²⁹ - نفسه، ص.183.

³⁰ - نفسه، ص.175.

³¹ - العروي (عبد الله)، *مجلد تاريخ المغرب*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1994، ص.211.

³² - بن صاحب الصلاة (عبد الله)، *المن بالإمامة*، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبع الثالثة، 1987، ص.346؛ ابن أبي زرع الفاسي (علي)، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، راجعه، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1420-1999، ص.297؛ بن منصور (عبد الوهاب)، *قبائل المغرب*، المطبعة الملكية، الرباط، 1388-1964، ص.402.

³³ - عز الدين موسى (أحمد)، *النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري*، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1403-1983، ص.141-145.

³⁴ - الشاوي، *الجيش المغربي*، م.س، ج1، ص.143؛ برادة، *الجيش المغربي*، م.س، ص.52.

Morsy (Magali), "Moulay Isma'il et L'armée de métier", Avril -Juin, R.H.M.C, 1967,T.XIV, p.99.

بالمغرب ما عرف بضريبة "النايبة"³⁵ التي هي "ليست شيئا آخر غير ضريبة الخراج"³⁶ التي تفرض في الأصل على الأراضي الفلاحية، وهي ضريبة كانت تقع بشكل خاص على كاهل القبائل الغارمة المدعاة "نواب"³⁷ باعتبارها كانت معفاة من الخدمة العسكرية التي تختص بها بشكل أساسي القبائل المسماة "قبائل الكيش" المسجلة في ديوان الجند وتتلقى نظير ذاك رواتب وإقطاعات ترسم وتحدد الظواهر السلطانية بشكل متجدد إطارها الشرعي والقانوني سواء على مستوى نمط الاستغلال أو على مستوى طرق التوزيع والجهات المعنية بالاستفادة منها، بمعنى أن ضريبة "النايبة" كانت بمثابة حق "تعويض أو تنويب"³⁸ تقدمه قبائل النايبة لفائدة المخزن مقابل استغلالها للأراضي التي هي في الأصل ملك مخصص للسلطان في الوقت الذي كانت فيه قبائل الكيش تؤدي نفس التعويض عن استفادتها من ذات الأراضي ولكن على شكل مساهمات وخدمات عسكرية³⁹.

وإذا كان تنظيم مؤسسة الكيش قد تبلورت معاملة بصورة أوضح مع السعديين وتحديدا مع السلطانين محمد الشيخ المهدي وإبنة أحمد المنصور لاحقا⁴⁰ الذي عمل على إدخال إصلاحات جديدة على التنظيمات العسكرية وفق النموذج التركي، فإن هذا التنظيم سيتطور

³⁵ - الإدريسي (الفقيه) الجبابة في عهد الدولة السعدية. مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، ر.د.د.ع. كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس، 1994-1995، ج1، ص.283-288؛

Bellaire (Michaux.E), "L'Impôt de la niba et la loi musulmane", R.M.M, Juillet-Aout, 1910, n.VII-VIII, p.399-404.

³⁶ Bellaire (Michaux.E), "Le Gharb", A.M, Vol, XX, 1913, Paris, p.167

³⁷ - مفردا نايبة راجع:

Bellaire (Michaux.E), "L'organisation des finances au maroc", A.M, Vol. XI, 1907, p.196.

³⁸ - Ibid., p.195-196.

³⁹ - الإدريسي (الفقيه)، "ضريبة النايبة"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1426-2005، ص.7408-7409

⁴⁰ Rabino (H.L), "Notice sur Les cherarda", A.B, V.4, fasc.1-2, p.38 ; Bellaire, "Le Gharb", op.cit, p.166.

أكثر مع سلاطين الدولة العلوية الأوائل خاصة منهم مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي بعد أن عملوا على إعادة بناء هذا التنظيم على أسس جديدة ومتطورة ارتقت به إلى مستوى أكثر مأسسة وهيكلية من ذي قبل⁴¹.

وتظهر ملامح هذا التطور الجديد بجلاء في المراسلات المخزنية التي صدرت عن هؤلاء السلاطين في مناسبات متعددة. ففي رسالة بعثها السلطان مولاي إسماعيل إلى أهل فاس جاء فيها "وإلى اليوم لا بد لكم من واحدة من إثنين: إما أن تكونوا جيشا وإما أن تكونوا نوايب لأن الناس إما جندي وإما خدام، فإن أردتم أن تكونوا جندا قوموا واعملوا للجندية شروطها وإن أحببتم أن تكونوا نايبة فإننا نعرف من نعمله عليكم ويحول بيني وبينكم..."⁴².

وفي رسالة أخرى أرسلها أيضا إلى ولده المامون يظهر من خلالها نفس التمايز، حسب التصور المخزني، بين قبائل النايبة وقبائل المخزن ومما ورد فيها: "وهذا الخراج الموظف اليوم على القبائل هو شيء من هذا المعنى، فأهل الزراعة يعطون أعشار الزرع، وأهل الكراع يعطون زكاة الكراع، وأهل البقر كذلك، وأهل الشاة كذلك... وأولئك العرب الذين معك بتافيلالت ما كنا تركنا فيهم الحقوق إلا من أجل ما ذكرنا، وكى تحسب لهم في رواتبهم حين ينهضون ويغزون، واليوم هذه المزايا التي كنا نحباها منهم ونلقيهم إليها ليسوا عندنا من رجالنا ومن أهلها... وإعطاؤهم الملازم والحقوق الواجبة أولى وأرفق بهم..."⁴³.

⁴¹ - Le Coz, "Les Tribus guichs au Maroc", op.cit, p.4.

⁴² - Cigar (Norman), "Une letter inédite de Moulay Isma'il au gens de Fes", *Hesp.Tam*, Vol.XV, fasc.unique, 1974, p.115

⁴³ - المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، المطبعة الملكية، الرباط، 1387-1967، ص.29-30.

والواقع أن هذا التمايز بين قبائل الكيش وقبائل النابية وما كان يترتب عنه من توزيع للتكاليف والواجبات ومنح للإنعامات والامتيازات هو الذي بقي يشكل قاعدة مرجعية ثابتة للمخزن المغربي في تصنيفه للقبائل حسب وضعيتها ووظيفتها إلى حدود مطلع القرن الرابع عشر الهجري / 20م.

II. قبائل معقل: الأصول ومجالات الانتشار

لما كانت الخلفية الاجتماعية والثقافية المميزة لأي مجموعة قبلية ترتبط بهذا القدر أو ذاك بأصولها الإثنية ومعطيات البيئة الجغرافية التي تقلبت عبر مواطنها وتبادلت مع من كانوا يقيمون فيها من قبل من مجموعات قبلية أخرى علاقات تأثير وتأثر، فإنه يبقى من الأفيد في هذا السياق التوقف ، في شكل خطاطة عامة، عند منابت قبائل الكيش التي جندها السعديون ومن بعدهم العلويون للعمل في تنظيمات الكيش، لأن معرفة هذه المنابت والمجالات التي تقلبت هذه القبائل عبر منابكها أثناء رحلة تنقلها الطويلة والأحداث والتطورات التي شاركت فيها وتأثرت بمجرياتها، كلها عناصر مثلت مجتمعة، دون أدنى شك، روافد ومحددات حاسمة في تكوين الشخصية التاريخية والاجتماعية لهذه القبائل وفي صياغة خصوصيتها الإثنية والأنثروبولوجية التي ظلت توجه سلوكاتها ومواقفها سواء مع غيرها من القبائل الأخرى التي كانت تتقاسم معها جغرافية المجال أو مع رموز السلطة المركزية.

وبحكم أن أغلبية قبائل الكيش التي استقطبها المخزن السعدي والعلوي للعمل برسم الجندية، تنحدر من أصول معقلية صحراوية، وأن هذه القبائل ذاتها هي التي بقيت تمثل في شكل "نسيج مستمر" المرجعية القبلية الأولى والخزان البشري الأهم لتعبئة عناصر الكيش المغربي وتجديدها ابتداء من القرن السادس عشر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، فإننا سنتوقف بشكل خاص ومحدد عند هذه القبائل دون غيرها، لأنها شكلت الرافد الثابت والدائم في سيرورة تطور تنظيم الكيش المخزني وأن ما عداها من القبائل الأخرى التي تم إدماجها، في

مراحل تاريخية مختلفة، في هذا التنظيم، لم تكن تمثل سور عنصر مؤقت وغير مستقر، تتغير أصولها وأسماء مجموعاتا، بتغير الظرفيات السياسية والاجتماعية الوطنية والجهوية التي كانت تمر بها البلاد من فترة تاريخية إلى أخرى.

1- التغريبة الهلالية

تجدد الإشارة إلى أن هجرة القبائل العربية الهلالية من المشرق إلى المغرب لم تكن هجرة طوعية اختيارية على غرار ما حدث مع طلائع العرب الفاتحين الأوائل لبلاد الغرب الإسلامي، وإنما ارتبطت في سياقها بعلاقة العداء والتوتر التي استحكمت بين الخليفة الفاطمي المستنصر بمصر والأمير الزيري المعز بن باديس الذي كانت إمارته بإفريقية تابعة له من قبل. فبعد أن ألغى هذا الأمير الصنهاجي الدعوة العبيدية وصار يدعو للخليفة القائم العباسي ببغداد "وأحرق بنود المستنصر ومحا إسمه من السكة والطرز"⁴⁴ وقطع الخطبة بإسمه على المنابر سنة 443هـ/1051م، قام الخليفة الفاطمي وبإيعاز من وزيره اليازوري بأن وجه في إطار خطوة انتقامية عقابية عرب بنو هلال وبني جشم الذين كانوا يثيرون الشغب بصعيد مصر إلى إفريقية وأباح لهم أرضها كما لو أنها أرض إقطاع.⁴⁵

ولم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولى هؤلاء العرب البدو على إفريقية واستباحوا أمصارها ومدنها حتى أنهم خربوا مدينة القيروان التي كانت من أشهر حواضر الغرب الإسلامي عهدئذ واقتضوا الجباية والإتاوات عنوة من الأهالي واحتلوا أجود الأراضي وأوسعها وأقاموا أشياخهم حكاما وسادة على الأقاليم ولم يعد للأمراء الزيريين من نفوذ سوى بعد القواعد الشاطئية.⁴⁶

⁴⁴ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج3، ص.125.

⁴⁵ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م.س، ج2، ص.211.

⁴⁶ - حركات (إبراهيم)، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدر البيضاء، 1984-1045، ج1، ص.274-275؛ جوليان

(شارل)، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي- البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983، ص.95-99؛

2- الأصول

دخلت قبائل بني معقل إلى بلاد المغرب الأقصى ضمن حشود قبائل بني هلال خلال منتصف القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي⁴⁷ التي كانت تتألف من أخلاط من القبائل من أبرزها وأشهرها: بنو سليم، وكانوا من أكبر المجموعات الهلالية غنى وشوكة، ثم بنو هلال الذين غلب إسمهم على باقي الفروع الهلالية الأخرى التي صاحبته في تغريبتهم من مصر إلى إفريقية⁴⁸، وبني معقل الذي كانوا أقل البطون الهلالية عدداً وشأناً. إضافة إلى قبيلة زغبة ورياح اللتين كانتا تقيمان في إقليم برقة على الحدود الغربية لمصر والتحقتا بباقي المجموعات الهلالية الأخرى بعد انتقالها إلى أرض إفريقية .

وبغض النظر عن الاختلاف الذي وقع بين النسابة والمؤرخين في تحديد نسب بني معقل، بين من يرجعه إلى أصل يمني⁴⁹ وبين من يربطه بآل البيت⁵⁰، فالمرجح، حسب ما تجمع عليه الرواية التقليدية، أنهم كانوا إثر دخولهم، أول مرة، لا يزيد عددهم عن المائتين "واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربيين فعفوا وكثروا وانبثوا في صحاري المغرب الأقصى، فغمروا رماله وتغلبوا في فيافيه، وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم. وبقي منهم

Marçais (George), *Les Arabes en berbérie du XI au XIV*, Ernest.Laroux, Paris,1913, p.196.

⁴⁷ - ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدئ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الهوامش والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1417-1996، ج6، ص77.

⁴⁸ - Marçais, *Les Arabes en berbérie*, op.cit, pp.150-160.

⁴⁹ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص78.

⁵⁰ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج3، ص136.

بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بني سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب"⁵¹.

وبسبب قتلهم العددية هاته، لم يظهر لبني معقل أي أثر يذكر في الحياة السياسية والعسكرية للمغربين الأوسط والأقصى خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. غير أن هذا الواقع سيتغير بشكل واضح "ما تملك زناقة المغرب ودخلوا إلى المدن والأمصار والمدن"⁵² عند بداية القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، حيث انحاش بنو معقل إلى الصحاري والقفار وانعزلوا في أراضي نائية بعيدة عن مناطق النزاع والتوتر التي عادة ما تشهد أعنف المواجهات بين المجموعات القبلية القديمة والطارئة من أجل الاستئثار بالسيادة على المجال والاستفراد بمصادر العيش والكسب المتاحة، مما جعلهم يتزايدون ويتكاثرون بصورة مضطربة، عددا وقوة، مستفيدين في ذلك من طيب بيئة الصحراء وظروف انقطاعهم عن الخلطاء والمتربصين⁵³. ولم يحل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حتى صاروا أوفر عددا وأقوى شوكة بمن انضاف إليهم من قبائل أخرى من غير عصبيتهم من فزارة واشجع والصباح والمهاية والعمور وغيرها⁵⁴، مما مكنهم بالتالي من السيطرة على القصور التي اختطها زناقة في مجالات القفر انطلاقا من سوس غربا إلى توات وتامنطيت واركلان وتاسييت وتكورارين شرقا وفرضوا عليها الضرائب والإتاوات⁵⁵. كما سعوا، في الوقت نفسه، إلى اكتساح السواحل الجنوبية الغربية للمحيط الأطلسي للحيلولة دون انتقال قبائل صنهاجة نحو مناطق الشمال غير أنهم لم يفلحوا، في النهاية، في تحقيق هذ المسعى. ولذلك لم يكد ينتهي القرن السابع

⁵¹ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.77.

⁵² - نفسه.

⁵³ - البوزيدي (أحمد)، التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17- مطلع القرن 20) دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، مطبعة سونير، 1994، ص.53.

⁵⁴ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج6، ص.136.

⁵⁵ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.78.

الهجري /الثالث عشر الميلادي حتى صار بنو معقل سادة كل الواحات الجنوبية الواقعة جنوب وشرق جبال درن بدون منازع⁵⁶. بينما لم يتمكنوا من اختراق سلسلة جبال الأطلس والنفاذ إلى عمق الأراضي الأطلنتية الداخلية للمغرب على غرار ما فعل حلفاءهم من زناتة بالأمس، لأن ممر تازة، وهو المنفذ الأوحده من جهة الشمال الشرقي، صار تحت مراقبة الحكام المرينيين الجدد، كما أن الطرق والمعابر الجبلية للأطلسين الكبير والمتوسط كانت هي الأخرى قد أغلقت في وجههم بعد أن فرضت عليها القبائل الجبلية مراقبة مشددة ومستمرة حتى لا تتعرض مجموعاتهم لمخاطر الاحتواء أو الترحيل أو تفقد مصادر عيشها وأسباب بقائها واستقرارها⁵⁷.

3- فروع عرب معقل

انتهى مسار تطور المجموعات المعقلية في المغرب الأقصى خلال القرن السابع الهجري /13م إلى إفراز تشكيلة قبلية تتألف من ثلاثة بطون رئيسة تتوزع مجالاتها من الشمال إلى الجنوب على النحو الآتي:

أ- ذوي عبيد الله:

كانوا يحتلون في الشمال حوض تافنا، وسهل أنكاد ومنطقة وجدة وندرومة⁵⁸. ورغم علاقات الجوار التي كانت تربطهم مع بني عبد الواد في تلمسان، إلا أنهم كانوا يدخلون معهم، من حين لآخر، في صراعات من أجل السيطرة على الأراضي الشرقية التي كانت تحت نفوذهم. ومن أجل احتواء تحركاتهم، فقد تمكن بنو عبد الواد من التحالف مع الهراج والخراج⁵⁹، وهما

⁵⁶ - الحافظي (حسن)، "بني معقل"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1413—1492، ج5، ص.1570.

⁵⁷ - Bellakhdar (Jamal) et autres, *Tissint une oasis du Maroc saharien. Monographie d'une palmeraie du moyen Dra*, éd. Al Birunia, Rabat, 1992, p.92

⁵⁸ Ibid., p.88.

⁵⁹ Ibid., p.91.

بطنان من ذوي عبيد الله، بهدف حماية الحدود الغربية لإمارة تلمسان وفل شوكة قبيل ذوي عبيد الله. غير أن هذا التحالف لم يكن ليستمر إلا إذا لم تتعرض مصالح الهراج والخراج للخطر في ظل الصراع المريني العبد الوادي⁶⁰.

ب- ذوي منصور:

كانت مجالات تحركهم تمتد ما بين ملوية ودرعة عبر سجلماسة⁶¹. وهي مواطن كانت تمثل حلقة وسطى بين مجالات ذوي عبيد الله في الشمال ومجالات ذوي حسان في الجنوب. ونظرا لكونهم كانوا يمثلون معظم جمهور عرب معقل⁶²، فقد كانت لهم مشاركة ملحوظة في مجرى الحياة السياسية للمغرب المريني. فسيطرتهم على سجلماسة مركز التجارة الصحراوية مع السودان قبل تخريبها أواخر القرن الثامن الهجري/ 14م، وتحكمهم في المنافذ التجارية التي كانت تنطلق منها إما في اتجاه الجنوب أو الشرق أو الغرب، جعلهم يحتلون مركز الصدارة في تطورات المشهد القبلي بالواحات الجنوبية مقارنة مع باقي المجموعات المعقلية الأخرى. ومن أبرز بطون ذوي منصور: أولاد حسين، وأولاد أبي الحسن، والأحلاف⁶³.

*فأما أولاد حسين، فقد كانوا هم جمهور ذوي منصور ولهم العزة عليهم جميعا⁶⁴. استمرت علاقتهم متوترة مع بني مرين ولم يذعنوا لهم رغم الحملات العسكرية المتكررة التي نظموها ضدهم. وربما لهذا السبب تحالفوا مع أمراء بني عبد الواد في تلمسان وشاركوا غير ما مرة في عزل وتولية أمراء بني مرين بسجلماسة إبان النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ونظرا لما كان لهم من شغوف ودالة في درعة وما إليها من مناطق

⁶⁰ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.81

⁶¹ - نفسه، ص.87.

⁶² - نفسه.

⁶³ - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.425.

⁶⁴ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.87.

مجاورة، فقد فرضوا على قبائل صنهاجة "ضرائب وخفارات ووضائع"⁶⁵ وحصلوا، في المقابل، من السلاطين المرينيين على إقطاعات جبائية بوصفهم كانوا يمثلون القوة المتغلبة والنافذة في حوض درعة بدون منازع⁶⁶.

*وبخصوص الأحلاف، وهم العمارنة والمنبات، فقد كانوا مجاورين من ناحية الشرق لأولاد حسين. وتمتد نطاقات تنقلهم بالقفر من "تافيلالت، وصحراؤها. وبالتل ملوية وقصور وطاق وتازي (كذا) وبطوية وغساسة"⁶⁷ يفرضون على قبائلها كلها الإتاوات والوضائع ويحصلون من الحكام المرينيين على الإقطاعات السلطانية⁶⁸. ورغم اندماج العمارنة مع المنبات بوصفهم كانوا هم أصحاب الرياسة في الأحلاف وتحكموا في "مدينة سجلماصة العاصمة الحضرية الوحيدة في مجالات درعة وتافيلالت وقتئذ"⁶⁹، إلا أنهم انتقلوا لاحقا من سجلماصة واتجهوا شمالا صوب المناطق المؤدية إلى مدينة فاس⁷⁰.

ولكونهم كانوا قطب الرحى في مجموعة الأحلاف، فقد عمل المنبات، في ظل صراعهم مع المرينيين، على تحويل طرق التجارة الصحراوية نحو تلمسان وصاروا حلفاء ليغمراسن بن زيان. لكن وبعد أن استرجع المرينيون مدينة سجلماصة من الزيانيين وتمكنوا من إخضاع المنبات لنفوذهم، لعب هؤلاء دورا مهما في ربط سجلماصة بباقي المدن المغربية الأخرى⁷¹.

⁶⁵ - نفسه، ص. 89.

⁶⁶ - نفسه.

⁶⁷ - نفسه.

⁶⁸ - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج 1، ص. 425.

⁶⁹ الحافظي، "بني معقل"، م.س، ص. 1572.

⁷⁰ - نفسه.

⁷¹ - نفسه، ص. 1573.

أما أولاد أبي الحسين، البطن الثالث، من ذوي منصور، فلم يكن لهم نفس الحضور أو التأثير الذي اختص به بنو عمومهم في لجنة التطورات التي كانت تجري عهدئذ، لأنهم كانوا قليلي العدد وآثروا حياة الاستقرار ما بين تافيلالت وتيكورارين بعد أن عجزوا عن الطعن في قفار الصحراء⁷².

ج- ذوي حسان:

كانت مواطنهم تمتد من درعة إلى البحر المحيط إلى الجنوب من مجالات ذوي منصور⁷³. انتقلوا إلى سوس الأقصى بعد أن استصرخهم علي بن يدر الزكندري أحد وجوه حاشية السلطان الموحدي أبي حفص عمر المرتضى حينما تمرد عليه ولجأ إلى سوس وتحصن ببعض جبالها⁷⁴. وحينئذ ارتحلوا إليه بطعونهم لمساندته في حروبه ضد قبائل كزولة الطواعن فاستطابوا إذ ذاك العيش "وحمداوا مواطن السوس لعدم المزاحم من الطواعن فيها فأوطنوها. وصارت مجالاتهم بقفرها وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن طعونهم وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن في سوس ونول ووضعوا عليها الاتاوات مثل تارودانت من سوس"⁷⁵، كما كان شيوخهم ينزلون "بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملتمين من كدالة ومسوفة وملتونة"⁷⁶.

⁷² - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.425.

⁷³ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.77.

⁷⁴ - ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني- محمد زنيير- محمد بن تاويت- عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1406 - 1985، ص.403-404.

⁷⁵ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.91.

⁷⁶ - نفسه، ص.77.

وينحدر ذوي حسان، كما أوضحنا من قبل، من مختار بن محمد ومن أبرز بطونهم: ذوي حسان، وهو الإسم الذي غلبت شهرته على بقية البطون الحسانية الأخرى وبه صارت تعرف هذه المجموعة المعقلية بسوس، إضافة إلى الشبانات والرقيطات.⁷⁷

على أن علاقتهم مع بني يدر لم تستمر على النحو الذي ابتدأت به بعد أن استظهر بهم علي بن يدر أول الأمر، بل وقعت بينهم حروب وصراعات لما لم يحسن خلفاء علي بن يدر صنعا مع مشيختهم. كما شهدت علاقتهم مع بني مرين عدة مواجهات كانت تنتهي في أغلبها بالإثخان فيهم تقتيلا وتغريما⁷⁸. غير أنه لما اقتطع الأمير المريني أبو علي مدينة سجلماصة واستقل بها عن أبيه أبي سعيد، انضم إليه الشبانات وذوي حسان وناصره في حربه على بني يدر⁷⁹، كما أعانوا السلطان أبي الحسن المريني ورغبوه في بسط نفوذه على بلاد سوس وأخذ قصورها. لكن حينما تراجع نفوذ الدولة المرينية في أواخر أطوارها عن إقليم سوس عاد هؤلاء المعاقلة لإشاعة منطق الغلبة والقهر بين ساكنته إذ اقتسموا "جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية. والظواعن منهم يقتسمونهم خولا للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات..."⁸⁰.

ومع كل ما كان يربطهم من روابط القرابة والعصبية الجامعة، فإن التنافس في غزو القصور والديار واستتباعها والاستئثار بمغانمها ومجاييها كان يذكي أسباب الفرقة والنزاع بين الشبانات وذوي حسان⁸¹، وهو ما كان يدفع بهما إلى التحالف ضد بعضهما البعض مع قبائل أقل منهما شوكة وحمية لتعزيز نفوذهما في صراعات لا شك أن ذيولها استمرت حاضرة وفاعلة

⁷⁷ - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.424.

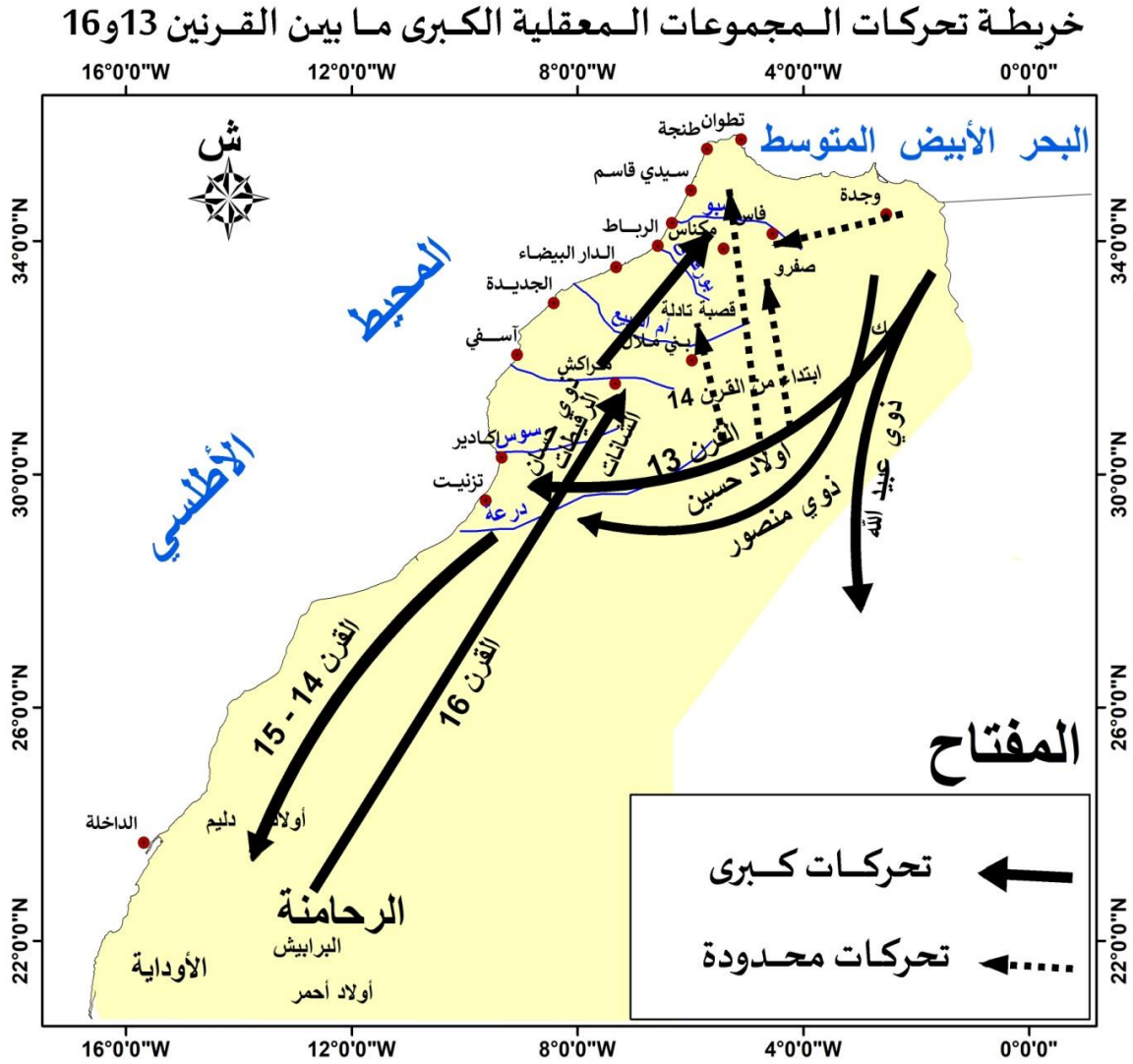
⁷⁸ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.91.

⁷⁹ - نفسه.

⁸⁰ - نفسه، ص.92.

⁸¹ - نفسه.

في خريطة النزاعات والتحالفات التي ظلت تحكم المنظومة القبلية في السوس الأقصى إلى غاية مجيء السعديين⁸².



III. التنظيم الاجتماعي لقبيلة الكيش

ليس من شك في أن معرفة خصائص التنظيم الاجتماعي لقبيلة الكيش تعد مدخلا لا مناص منه لفهم الأسس والنواظم المحددة لكيانها الاجتماعي وسلوكها الثقافي والذهني وعتبة سالكة

⁸² - نفسه.

للاقتراب أكثر من طبيعة النوازع الكامنة في بنية تكوينها ولاشعورها الجماعي والتي ظلت توجه سلوكاتها واختياراتها عبر مسار رحلتها وتؤثر جدليا في مواقفها وعلاقاتها الجماعية سلبا أو إيجابا حتى حينما انتقلت للعمل في سلك المؤسسة المخزنية. وأعتقد أن أغلب الباحثين الذي عالجوا، بهذا القدر أو ذاك، موضوع قبائل الكيش في تاريخ المغرب لم يعطوا لهذا الجانب ما يستحقه من عناية واهتمام، مما أوقع بعضهم في تحليلات غمطية تفتقد إلى التحيين والتجديد وجعل بعضهم الآخر ينصرف إلى تبني قراءات وتصنيفات متعسفة ومتحاملة حتى وإن كان لها ما يسندها في منطق الرواية التاريخية التقليدية.

وحتى لا ننزلق في تعميمات قد تكون نتائجها غير مجدية في آخر التحليل، لا بد من الإشارة في هذا الإطار إلى أن حديثنا عن قبيلة الكيش سينصرف على وجه الخصوص إلى نموذج خاص ومحدد هو نموذج القبيلة التي تنحدر في أصولها من عرب معقل باعتبار أن هذه القبيلة هي التي ارتبط بها تاريخ الكيش المخزني ارتباطا عضويا منذ تأسيسه خلال القرن العاشر الهجري 16م إلى حدود مطلع الرابع عشر الهجري/20م مما جعلها تراكم خبرات وتجارب مهمة وتكتسب عوائد وتقاليدها راسخة في العمل المخزني⁸³ قلما أتاحت الفرصة لغيرها من القبائل الأخرى، عربية كانت أم أمازيغية، سبق لها أن أدمجت في تنظيمات الكيش، غير أنها انقطعت وأبعدت من الخدمة العسكرية لأسباب مختلفة وصارت في عداد القبائل الغارمة بعد أن قضت فيها أوقاتا تفاوتت مدتها من قبيلة إلى أخرى⁸⁴.

لا نسعى هنا إلى بناء نموذج نظري يستوعب كافة خصائص التنظيم الاجتماعي لقبيلة الكيش بوصفها كيانا اجتماعيا يتقاطع فيه البعد المدني بالبعد الحربي تقاطعا مركبا، وإنما نروم فقط إبراز أهم الميزات والخصوصيات التي تنفرد بها عن باقي القبائل المغربية الأخرى التي

⁸³ - الشابي، الجيش المغربي، م.س، ج1، ص.313-314.

⁸⁴ - نفسه، ص.145-146.

أنجزت حول كثير منها دراسات متخصصة في مجال السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا وأبرزت أوجه التشابه والاختلاف فيما بين بنياتها الاجتماعية والسياسية وفق نماذج نظرية وتحليلية أثارت تطبيقاتها جدلا واسعا بين الباحثين المغاربة وغيرهم⁸⁵.

1- بنية تكوين قبيلة الكيش

لم تنل القبائل العربية التي جابت الصحاري والقفار في مراحل تاريخية مختلفة من حياتها وانتهت بها رحلة تنقلها إما داخل مجالات الصحراء نفسها أو في مجالات أخرى داخل المغرب الشمالي إلا اهتماما محدودا ومجتزأ لا يرقى، بأي شكل من الأشكال، إلى ذات الاهتمام الذي حظيت به القبائل الأمازيغية على اختلاف تشكيلاتها وبيئاتها في الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية سواء في زمن الحماية أو حتى بعد مغرب الاستقلال. غير أن الاهتمام بهذه القبائل، ولربما لدواعي سياسية وأخرى ثقافية، صار يتزايد بوتيرة ملحوظة في العقود الأخيرة إما من طرف باحثين مغاربة ينتمي بعضهم إلى المجتمعات الصحراوية ذاتها وإما من طرف باحثين إسبان تعاطى بعضهم مع تاريخ ومجتمع البيضان والصحراء الأطلنتية عموما وفق منظور الاستشراق الأوروبي⁸⁶.

⁸⁵ - أنظر بخصوص النقاش الذي أثارته تطبيقات هذه النماذج النظرية والتحليلية في المغرب الدراسات التالية:

الهراس (المختار)، القبيلة والسلطة، مطبعة الرسالة، الربط، 1988، ص. 25-81: التوفيق (أحمد)، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1920)، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986، ص. 105-139: العروي (عبد الله)، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912، تعريب: محمد حاتمي- محمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016، حمودي (عبد الله)، "الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحات كلنير"، ضمن الأنثروبولوجيا والاستعمار حالة المغرب العربي، ترجمة: عبد الأحد السبتي عبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1988، ص. 60-86؛

Khatibi (Abdelkabir), *Maghreb pluriel*, éd. Denoel, 1983, pp.11-43.

⁸⁶ - راجع على سبيل المثال الدراسات التالية:

إن أول ما ينبغي أن نلفت إليه الانتباه هو أن قبائل معقل التي صار بعضها منخرطاً في جهاز الكيش في مراحل متقدمة عن انتشارها في هوامش الصحراء، لم تكن، في واقع الأمر، كيانات قبلية متجانسة حافظت على وحدة أنسابها وتماسك وحداتها⁸⁷. فأتثناء رحلات تنقلها المتعددة والطويلة من مواطن إلى أخرى واحتكاكها بمجموعات قبلية مختلفة عبر المجال جعل "الكثير منها يختفي أو يعوض بأسماء بعض الأسر التي صارت أقوى من أسر أخرى. كذلك، هناك مجموعات جديدة خلقت صدفة عن طريق التحالفات التي أدمجت فيما بينها قبائل عربية أو قبائل بربرية مع أخرى عربية، وكان من نتائج ذلك تجديد الإثنيات. هذه التحولات الكبرى، التي ساهمت في غموض الأنساب همت خصوصاً القبائل - التي بسبب عجزها - صارت مستقرة أو تلك التي - انقسمت إلى أحلاف يصعب التوفيق فيما بينها - فزى بعض فرقها قد تحالفت مع قبائل أخرى وصارت تقتسم معها نفس المصير"⁸⁸.

إن جدلية التفكك والاختفاء أو الدمج والتحالف، ربما كانت هي القاعدة العامة التي ميزت مسار تطور أغلب المجموعات الإثنية التي انضوت تحت لواء الكيش المغربي. وإذا كان يصعب إثبات هذا المسلسل بالنسبة لعموم قبائل الكيش، فإننا نجد على سبيل المثال في حالات

بوبريك (رحال)، *زمن القبيلة السلطة وتدمير العنف في المجتمع الصحراوي*، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2012؛ فائز (عبد الحميد)، *الحرب في المجتمعات الرعوية: آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار*، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة 2015؛ حريش (شغالي)، *القبيلة والسلطة. مقدمة في التاريخ السياسي للصحراء*، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة 2007، كارو بروخا (خوليو) *دراسات صحراوية*، ترجمة: أحمد صابر، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة 2015.

⁸⁷ - Le Coz, « Les Tribus guichs », op.cit, p.6.

⁸⁸ - Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.91.

قبائل شراكة⁸⁹ و قبيلة تكنة من مجموعة الشراردة⁹⁰ وقبائل آيت الربع بتادلا⁹¹ ما ينهض دليلا واضحا على صحة هذه القاعدة وسلامة منطقها الافتراضي.

فالتشابك والتداخل الذي أفضى إلى اختفاء أسماء قبائل طالما كانت شائعة متداولة، وإعادة تشكيل أسماء أخرى جديدة على أنقاضها وإلى انقسام وتفكك بعض الفرق والبطون وانفصالها عن قبائلها الأم واندماج أخرى وانصهارها في قبائل جديدة، بقدر ما يثبت، ولا شك، حركية مكونات المنظومة القبلية في المغرب وتفاعلها البنيوي المستمر فيما بينها استنادا إلى واقع المجال ومعطياته المتغيرة⁹²، بقدر ما يؤكد، من جهة أخرى، صعوبة الحديث عن مفهوم خالص وحقيقي للقبيلة المغربية. و أعتقد أن هذا الواقع هو ما عبر عنه بول باسكون بوضوح حينما قال: "إجمالا ليس في المغرب، أي سوسيولوجي رأى قبيلة حقيقية، فحتى ابن خلدون نفسه: بل فقط، تشكيلات اجتماعية تجزئية، آثار قبلية، محجمة من طرف الحكم المركزي أو القائدي وملغمة بمنافسات الأنساب"⁹³. وهو نفس المعنى الذي أوضحه عبد الله العروي لما اعتبر أن ما وصفه ميشوبيلير تحت إسم قبيلة ليس سوى "...الفلكلور الذي تبقى"⁹⁴، وهي ذات الحقيقة التي أقرها جاك بيرك في خلاصة عامة موحية في دراسة له حول مدلول القبيلة في شمال إفريقيا

⁸⁹-Abdessalam (Boufatma), *Contribution à l'étude du changement socio-économique et structurel dans la société rural. Cas de Karia Bamohamed, Région de Fès*, Thèse de doctorat, Université ParisV, p.26

⁹⁰-Le Coz (Jean), *Le Gharb. Fellahs et Colons*. étude de géographie régionale, Rabat, 1964, T1, p.249 ; Delmas Fort (Cne), "Les guichs Marocains", Document du Centre des Hautes Etudes Administratives sur L'Afrique et L'Asie Modernes, Université de Paris, N°1.666, p.9.

⁹¹ - بوسلام (محمد)، "كَيْش تادلا من مراقبة المجال إلى المساهمة في الاحتلال"، ندوة الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، ساسي- فاس، ص.81-99.

⁹² - Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.91

⁹³ - Pascon (Paul), *Le Haouz de Marrakech*, Rabat, 1983, T1, p.149.

⁹⁴ - Laroui (Abedellah), *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*, Centre culturel Arabe, Casablanca , 2è éd, 2001, p.184.

إذ قال: "إن القبيلة... ظاهرة ثانوية، اصطناعية إلى حد ما. ولعل هذا ما يفسر قابليتها للانقطاع والانكسار ويجعل فهمها مستعصيا"⁹⁵.

ومما يزيد من غموض مفهوم قبيلة الكيش والتباس تعبيراتها ومضامينها، شأنها شأن باقي القبائل العربية الأخرى، هو اللبس والتداخل الذي يكتنف التقسيمات التي وصفت بها في المصادر التاريخية التقليدية والوثائق المخزنية، فكثيرا ما نعتت فيها قبائل الكيش بنعوت: البطون والأفخاذ والفصائل والأحياء والحلل وغيرها⁹⁶، وهي تقسيمات وتفرعات تطرح في الواقع صعوبات عديدة في فهم مدلولاتها وإحالاتها الاجتماعية وفي تحديد وتقدير المستويات التي توازيها في بنية السلم القبلي. فحتى التعريفات التي أوردها ابن منظور بشأنها لا تسمح بمعرفة الفروق الدلالية الموجودة فيما بينها وقياس الأحجام الفعلية التي تمثلها في الواقع القبلي وتراتب وحداته⁹⁷.

وتبعا لذلك، يمكن القول إجمالاً، إن قبيلة الكيش هي وحدة اجتماعية تتألف من أسر وقرى وعشائر تجمعها رابطة النسب والانتماء المشترك لجد واحد أعلى سواء أكان هذا النسب حقيقة أو وهما، وهي رابطة تذكى بين أفرادها دوما روح الألفة والتناصر والعصبية، كما تغذي فيهم شعور الاعتزاز بوحدة الانتماء إلى الجماعة وقيمها ورموزها والاعتداد بألقابها وأمجادها وماضيها المشترك. وبحكم كونها هي في الأصل قبيلة رعوية متنقلة، فإن مصدر قوتها وأساس منعها لم يكن ينبع من ارتباطها بالتراب أو بأي رقعة مكانية⁹⁸، كما هو الحال بالنسبة للقبيلة

⁹⁵ - بيرك (جاك)، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا"، ضمن الأنثروبولوجيا والاستعمار، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص. 113-125.

⁹⁶ - العياشي، زهر البستان، م.س، ص. 163؛ الناصري، الاستقصا، م.س، ج. 3، ص. 124؛ برادة، الجيش المغربي، م.س، ص. 116.

⁹⁷ - التوفيق، المجتمع المغربي، م.س، ص. 110.

⁹⁸ - Pascon, *Le Haouz*, op.cit, T.1, p.208.

الزراعية المستقرة⁹⁹، وإثما من ذلك الشعور بوحدة الأصل والتاريخ الجماعي الموحد وما يتولد عنه من نعمة وعصبية، ومن الإحساس بوحدة المصالح والمصير المشترك. وهذا الإحساس وذلك الشعور كانا يبرزان أكثر حينما تتعرض القبيلة لهجوم أو اعتداء خارجي ويصبح حينئذ وجودها ومعاشها مهدد بخطر الضياع أو المصادرة¹⁰⁰. ولذلك كانت المحافظة على روابط الدم وما تستلزمه من ولاء للقبيلة وولاء لرؤسائها وأشياخها ووجهائها السلاح الأقوى والأمرى للدفاع عن كينونتها ومصالحها وضمان أمنها واستقرارها في ظل محيط قبلي كانت تتنازعه باستمرار إرادة القهر والغلبة. وهذا الشعور كان يبقى كامنا ومتخفيا في اللاوعي الجماعي للقبيلة في أيام السلم والاستقرار حتى إذا حدث ما يستدعي خروجه للعلن في زمن الأزمات والتوترات، فإنه كان يبرز ويتجسد في كل أشكال التعبئة والتضامن الجماعي التي كان ينخرط فيها كل أعضاء القبيلة لمواجهة احتمالات الحرب أو المشاركة فيها إذا لزم الأمر ذلك¹⁰¹.

2- هامش التراتب وحدوده

حظيت مسألة التراتب بين الفئات والقسمات المكونة للمجتمعات القبلية في كثير من المناطق والجهات في المغرب باهتمام موسع وملحوظ في عدد من الدراسات التاريخية¹⁰² والسوسيولوجية¹⁰³ والأنثروبولوجية¹⁰⁴، لأن معرفة أشكال التراتب والأسس المادية والرمزية التي

⁹⁹ - Montagne (Robert), *Les berbères et le Makhzen dans le sude du Maroc*, Afrique Orient, Casablanca, 1989 ;pp.173-180.

¹⁰⁰ - الجابري (محمد عابد)، فكر بن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 1984، ص.254.

¹⁰¹ - نفسه، ص.255.

¹⁰² - التوفيق، المجتمع المغربي، م.س، ص.347-348.

¹⁰³ Montagne, *Les berbères et le Makhzen*, op.cit, p.92.

¹⁰⁴ - راجع بهذا الشأن:

يرتكز عليها والتجليات التي يتمظهر بها تسمح، من جهة، بفهم طبيعة القواعد المتحكمة في علاقات التعارض والتضامن بين مختلف وحدات النسق القبلي، ومن جهة أخرى، بالكشف عن الأسباب المفضية إلى تركيز السلطة والوجاهة عند بعض الأسر والجماعات وخضوع باقي الفئات الاجتماعية الأخرى لهيمنتها وسيادتها.

وإذا كانت بعض تلك الدراسات قد نجحت في وضع ترتيب هرمي خاص لوحدات النظام القبلي في بعض المناطق بناء على معايير مادية تتعلق بالثروة العقارية أو الأنشطة التجارية، ومعايير أخرى رمزية تتعلق بالنسب والشرف والنفوذ العلمي¹⁰⁵، فإن هذا المسعى يصبح صعبا للغاية في حالة قبائل الكيش وذلك لسببين إثنين على الأقل:

أولهما، هو أن هذه القبائل لم يكن لديها من أسباب الثروة المادية قبل انخراطها في مؤسسة الكيش غير ما كانت تملكه من ثروته حيوانية متحركة لأنها هي في الأساس قبائل رعوية تعيش على نمط الترحال في تحصيل عيشها وكسبها.

ثانيهما، هو أن هذه القبائل وبعد تحولها في مرحلة لاحقة إلى العمل العسكري كجنود فلاحين صارت لها ممتلكات عقارية¹⁰⁶، لكن عملية الفرز بين أفرادها وجماعاتها لم تنضج أو تكتمل، بالأحرى، معاملها بكيفية أوضح إلا خلال مغرب القرن التاسع عشر على الأرجح، حينما بدأت تلوح في الأفق بوادر تشكل أرستقراطية عقارية في أراضي الكيش تتكون من كبار قادة

الهراس، القبيلة والسلطة، م.س، ص.25-49؛ أزايكو (علي صدقي)، "حول النظرية التجزيئية مطبقة على المغرب"، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد، 14، 1988، ص.9-33؛ الخطيب (عبد الكبير)، "المراتب الاجتماعية بالمغرب قبل الاستعمار- النظريات"، النقد المزدوج، منشورات عكاظ، الرباط، 1930، 171-183؛

Gellner (Ernest), *saint of the Atlas*, London, 1966, pp.41-42 .

¹⁰⁵ - التوفيق، المجتمع المغربي، م.س، ص.347.

¹⁰⁶ - بورقية (رحمة)، "القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر"، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد، 14، 1988، ص.45.

الكيش والباشوات، وممن تقلدوا مناصب سامية في بعض القطاعات الوزارية كما حصل مع أسرة آل الجامعي¹⁰⁷ على سبيل المثال في كيش شراقة بنواحي مدينة فاس. وهو تطور حدث بعد أن تزايد نفوذ كبار قادة الكيش في أجهزة الدولة وصاروا من أبرز وجوه النخبة المخزنية في هذه المرحلة، مما جعل، بالتالي، عملية توزيع أراضي الكيش، كما كانت تجري على رأس كل سنة وفق مبدأ المساواة بين كافة المخازنية¹⁰⁸ (أي أفراد الكيش)، تتجه نحو تكريس واقع جديد أصبح فيه كبار الملاكين من عائلات القواد والباشوات والأعيان يستأثرون بأكبر عدد من القطع الأرضية وأحسنها جودة على حساب أفراد الكيش الآخرين¹⁰⁹.

وتبعاً لذلك، يمكن القول إن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيش عليها قبائل الكيش قبل اندماجها في المنظومة المخزنية، وهي وضعية مجتمع بدوي منشغل دوماً بتحصيل عيشه وخاضع لرحمة الطبيعة وظروفها القاسية، لم تسمح بظهور علاقات تراتب فيما بين مكوناتها، لأن الملكية لم تكن فردية، وإنما كانت على العموم "ملكية عائلية محدودة، أو ملكية واسعة تشترك فيها عدة أسر على الشيع" ¹¹⁰، مما جعل علاقات الإنتاج لا تقوم على

¹⁰⁷ - لازاريف (كريكوري)، "الإقطاعات العقارية بالمغرب. مساهمة في دراسة تكوين الممتلكات العقارية في البوادي المغربية"، مجلة دار النيابة، العدد 8، ص.53.

¹⁰⁸ - Daoudi (Ahmed), *Mode de fonctionnement du statut guich et la mise en valeur agricole (Cas de cherrada)*, Mémoire de troisième cycle-Agronomie, Institut Agronomique et Veterinaire Hassan II, Rabat, 1986, p.25.

¹⁰⁹ - Mohamed (Bazizi), *Mode de fonctionnement du statut guich et la mise en valeur agricole dans Le Haouz de Marrakech. (Cas du guich des Ait Imour dans Le bassin du N'fis)*, Mémoire de troisième cycle en Agronomie, Institut Agronomique et Vétérinaire Hassan II, Rabat, 1992, p.21.

¹¹⁰ - الجابري، فكر بن خلدون، م.س، ص.264.

استغلال فئة لفئات أخرى، وإغما "علاقات أسروية تقوم على التعاون والخدمة المتبادلة. وقد زاد في توطيد هذه العلاقات العائلية انغلاق وحدات المجتمع القبلي على نفسها"¹¹¹.

أما في المرحلة الثانية من تطورها، حينما أصبحت تتمتع بحقوق الكيش المترتبة عن الخدمة المخزنية والمتعلقة بوجه خاص بإقطاعات الأراضي واستغلالها، فإن التفاوتات بين أفراد وجماعات الكيش صارت تتمفصل حول وجود زمرة من عائلات القواد والأعيان والشيخو تملك أكبر الأسهم من الأراضي المقطعة وأخصبها بحكم احتكارها لسلطة القرار والتدبير الجماعي للقبيلة وتمتعها بنفوذ مخزني طالما رعته ورسخته بعلاقات زواج ومصاهرة مع رجالات المخزن حتى صار الجاه والوجاهة لديها تقليدا متجذرا ومتوارثا عبر الأجيال،¹¹²، مقابل قاعدة عريضة من أسر المخازنية الذين لم يكن لهم من أراضي الكيش المقطعة غير حقوقهم الثابتة المألوفة التي كانت تكفلها لهم مسطرة توزيع الأراضي بالتساوي فيما بينهم وفق القواعد والأعراف المتواترة والمرعية عبر تاريخ تنظيمات الكيش المغربي¹¹³.

3- قبيلة الكيش وخلفيتها الحربية

لعل من المبررات المعلنة والمباشرة التي دعت المخزن المغربي إلى اختيار القبائل العربية الهلالية في زمن الموحيدين والمرينيين والوطاسيين والقبائل المعقلية في زمن الأشراف للقيام بواجب الجندية والعسكرة، هو تلك الطاقة الحربية والمهارة والدربة المكتسبة التي اشتهرت بها في ميادين فنون الرماية والفروسية وركوب المخاطر وخوض الحروب، فضلا عن صفات الشجاعة والشهامة والصبر والقدرة الفائقة على تحمل الشدائد والمكاره واقتحام المجاهل والخطوب. وهي ميزات وخصائص استلقت إليها نظر المؤرخين والرحالة والإثنوغرافيين قدامى ومحدثين.

¹¹¹ - نفسه.

¹¹² Abdessalam (Boufatma), *Contribution*, op.cit, p.37.

¹¹³ - لازاريف، "الإقطاعات العقارية"، م.س، ص.52.

وإذا كانت هذه القيم والطبائع تمثل قواسم مشتركة في بنية وثقافة مختلف القبائل المغربية رعوية بدوية كانت أم زراعية مستقرة، فإن انتشارها بين قبائل الصحراء الرعوية كان يكتسي طابع الفريدة والتميز. فانشغال هذه القبائل البدوية الدائم بتحصيل عيشها في ظروف طبيعية قاسية قلما كانت تجود فيها الطبيعة بأسباب الخصب والغنى والنماء، كانت تجد نفسها في أغلب الأحيان مهددة بخطر الفناء تحت وطأة الجذب ونضوب المياه، مما كان يدفعها باستمرار إلى الهجوم على أراضي ومواطن غيرها من الجماعات الأخرى لأخذ مراعيها ومسارحها وسلب ما بأيديها من مواشي وأنعام. وهذا ما جعل هذه القبائل في حقيقتها "جماعات مسلحة باستمرار" أرزاقها في رماحها" لا تفرق بين ما يمكن أن تمنحه الأرض بسخاء وبين ما يمكن أن تسلمه الأيدي المغلوبة على أمرها"¹¹⁴. ومن ثمة كانت القوة الجسمانية لأفراد هذه القبائل وبسالتهم وصلابتهم واستعدادهم الدائم لركوب المخاطر والأهوال "الرأسمال الأوحده الحاسم" لضمان تفوق جماعاتهم البدوية المتنقلة وكسب الغزوات والحروب ضد الأعداء والخصوم واحتكار ما كان يذره نمط الغزو الذي كان هو أساس نحلة معاشها من غنائم وأسلاب¹¹⁵.

وهذا الإرث الاجتماعي والثقافي والسلوكي لهذه القبائل المطبوع بغرائز العنف والحرب وبذهنية الغزو والغلبة هو الذي ظل يرافق قبائل الكيش في حياتها حتى حينما أصبحت جزءا لا يتجزأ من النسق المخزني باعتبارها سليفة مجتمع عرب البدو في الصحراء وامتداد سوسيو-ثقافي لقيمه وعاداته وتقاليده. ولعل ما يؤكد هذا الواقع هو استمرار ارتباط هذه القبائل بمواطنها الأولى في الصحراء أو بسوس أو بالحوز حيث كانت تتجدد عودة بعض المجموعات والفرق إلى تلك المواطن كلما أتاحت لها الفرصة ذلك، لا سيما في الفترات الانتقالية للحكم أو في مراحل ضعف الدولة المركزية وانحسار نفوذها، كما تجسده أيضا استمرارية بعض العادات

¹¹⁴ - الجابري، فكر بن خلدون، م.س، ص.52.

¹¹⁵ - الإدريسي، (الفقيه)، "نمط إنتاج الغزو"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا،

1425-2004، ح9، ص.6347.

والطقوس والممارسات العائدة إلى مجتمع عرب الصحراء وبيئته الثقافية في حياة جماعات الكيش وطرائق عيشها وعاداتها اليومية من مأكّل وملبس وطقوس احتفالية¹¹⁶.

ورغم "هالتها المخزنية والحربية" التي تحيط بوجودها في ضواحي المدن التي وطنت بها والتي تظهر معسكراتها على شكل "مستوطنات عسكرية زراعية مغلقة"¹¹⁷، فإن قبائل الكيش، مع ذلك، بقيت تحافظ على خصائص هويتها الاجتماعية المكتسبة في مرحلة ما قبل زمن الترحيل والتوطين، لأنها لم تكن تخضع لإعادة تكوين أو تدريب أو تأطير يعيد بناء وتشكيل شخصيتها وفق معايير مخزنية مهيكلّة وقوالب مؤسّساتية جديدة تنسلخ بموجبها عن نمط حياتها القديم بكل ما له وما عليه، وإنّما كانت تعيش على نفس النظام الاجتماعي والسلوكي والذهني الذي كان يميزها قبل انتقالها إلى "مستوطناتها" الجديدة. كما أن استقرارها بين ظهرائي تجمعات قبلية وبشرية جديدة وغريبة عنها كان يعزز لديها الميل نحو الانغلاق على نفسها والتشبث بوحدة أصولها وسلالاتها والحفاظ على أعرافها ورموزها وميراثها. ولعل هذا ما أدى إلى قيام نظام من التبادل، داخلها وليس خارجها، يرتكز أساساً على علاقات الزواج الداخلي بهدف الحفاظ على روابط اللحمية والانصهار بين مكوناتها ومنع الغرباء والدخلاء من التسلل إلى جسمها الاجتماعي¹¹⁸. وقد أدى هذا الوضع إلى ترسيخ نوع من "التنظيمية القبلية"¹¹⁹ لديها مطبوعة "باستبدادية ذكورية"¹²⁰ حتى صارت عاملاً فعالاً ووحيداً في حياتها كما يقول عبد الله العروي.

¹¹⁶ - Boufatma, *Contribution*, op.cit, p.52

¹¹⁷ - Ibid., p.53.

¹¹⁸ - Ibid., p.47.

¹¹⁹ - العروي، *مجمل تاريخ المغرب*، م.س، ج2، ص.101.

¹²⁰ - Pascon, *Le Haouz*, op.cit, T.I, p.148.

وفي الأخير، وتحصيلا لما سبق أن تناولناه في هذا الفصل يمكن القول إن قبيلة الكيش لم تكن بالرغم من انخراطها في منظومة المخزن العسكرية، وخضوعها، تبعا لذلك، لجملة من الالتزامات والضوابط التنظيمية الإدارية والوظيفية، تختلف من حيث سلوكاتها وميولاتها وانفعالاتها عن غيرها من القبائل المغربية الأخرى، لأن نزعة الحرب التي كانت تمثل مصدر قوتها وتفوقها وأساس معاشها ومكسوبها لم تكن تشكل من زاوية نظر سوسيو- تاريخية خاصة سلوكية تتفرد بها وحدها دون سواها، وإنما كانت ظاهرة مشتركة بين كافة المجموعات القبلية رعوية مترحلة كانت أم زراعية مستقرة. وهذا طبعا، ما تعكسه، في صيغ وتعبيرات شتى، المصادر المغربية على اختلاف أجناسها وخطاباتها حينما تتحدث عن مجموعات القبائل وكأنها وحدات من الجيش المحاربين تعيش باستمرار في حالة استنفار وتأهب للدفاع عن وحدة كيائها وخواص هويتها من خطر الاحتواء والتآكل، ومن جهة أخرى، للذود عن مجالها الحيوي وتأمين ما يزخر به من موارد وثروات طبيعية. وهنا تجب الإشارة إلى أن الحرب بوصفها سلوكا وتنظيما واقتصادا، لم تكن تعني في حياة المجتمع القبلي، كما توحي بذلك نصوص الكتابة الإخبارية التقليدية، لحظة الاصطدام المسلح الذي كان عادة ما ينفجر، لسبب أو لآخر، بين قبيلة وأخرى، وينتهي في كل الأحوال بانتصار قبيلة وهزيمة أخرى أو بسيطرة قبيلة وتوسيع رقعة نفوذها على حساب مجال وممتلكات غيرها من القبائل الأخرى، وإنما كانت، قبل كل شيء، "آلية من الآليات التي تلازم مجتمعا تتخلله الفوارق". فبقدر ما كانت الحرب تؤدي إلى الاختلاف والتنافر بين مكونات الجسم القبلي، بقدر ما كانت تؤدي، في المقابل، إلى تجسير علاقات التواصل فيما بينها وإقامة تحالفات بين أجزائها. مما يعني أن الحرب كانت تمثل في بعدها الأوسع مصدرا للانقسام وانقطاع كل أوجه الاتصال بين عناصر المجتمع القبلي، وفي الوقت ذاته، قناة للتبادل والتواصل فيما بينها على نطاق موسع.

بهذا المعنى إذن يمكن القول، إن المجتمع القبلي في المغرب كان في جملته مجتمع حرب بمقتضى طبعه وظروف بيئته وإرث تاريخه، إلا أن خاصية الحرب هاته لم تكن غاية وجودية في

حياته، كما كان الحال في بعض المجتمعات البدائية في أمريكا اللاتينية على سبيل المثال التي كان وجودها وجوداً "من أجل الحرب" و"ضد الدولة"، في نفس الآن، على حد تعبير بيير كلاستر، وإنما كانت وسيلة من وسائل ضمان التوازن والتبادل وتجاوز الانقسام والتشتت. أي أنها كانت الجسر المفضي إلى التوحد ومن ثمة إلى قيام الدولة. وهذا طبعا ما يمكن ملاحظته بجلاء في الواقع التاريخي المغربي من خلال علاقة التلازم التي ظلت قائمة بين القبيلة والحرب سواء من أجل الوصول إلى كسب رهان الزعامة أو من أجل السيطرة على مقاليد السلطة السياسية.

الفصل الثاني

قبائل الجيش:

أصول وتجارب

مما لا شك فيه، أن تنظيم قبيلة الكيش أو الجند الفلاحين ليس تنظيماً مستحدثاً أو وليد شكل خاص ومحدد من أشكال تنظيم السلطة السياسية وتدبير المجال، وإنما هو تنظيم عريق موغل في القدم، اعتمدته أغلب أنظمة الحكم السياسية التقليدية في الشرق والغرب على حد سواء، بصرف النظر عن طبيعة نسقها السياسي والإداري وأسلوب قتالها وتكتيكها الحربي.¹ وإذا كنا لا ندري بالضبط تاريخ نشأة هذا التنظيم العسكري وأصوله ولا ظروف ولادته وتطوره، فإن، مما لا مرأى فيه، هو أن هذا التنظيم قد ارتبط في وجوده التاريخي بأنماط محددة من التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها العوالم القديمة وهي تشكيلات المجتمعات القبلية التي ظلت تمثل فيها مؤسسة القبيلة المرجع الاجتماعي الأساس² سواء فيما يتصل بتنظيم السلطة وتدبير الأمن الجماعي وسبل الدفاع عن حوزة المشترك التراخي، أو فيما يرجع لإدارة عملية الإنتاج وطرق استغلاله وتبادلته. وقد استمر هذا التنظيم حاضراً عبر الزمن، وبأشكال ودرجات متفاوتة، قوة وتأثيراً، هيكلية وتنظيمية، في مجمل التجارب العسكرية التي شهدتها حضارات التاريخ القديم والوسيط بل والحديث كذلك، وإن كان قد بدأ يتراجع بكيفية ملموسة

¹ - راجع في هذا الإطار:

كستان (جورج)، تاريخ الجيوش، ترجمة: كمال دسوقي ص.30،32،44،45؛ خماش (نجدة)، الشام في صدر الإسلام، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى 1987، ص.343؛ عمران (محمود سعيد)، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص.61؛ حركات (إبراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر الأموي، منشورات دار الآفاق، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م، ص.194؛

Contamine (philippe) ; *La guerre au moyen âge*, Presses universitaires de France, 2^e édit, Paris 1986, pp.75,86 ; Duby (Georges) ; *Guerriers et paysans VII-XII^e siècle*. Premier essor de l'économie européenne, éd. Gallimard, 1973, pp. 91-112 ; Contamine (philippe), *Guerre, Etat et Société à la fin du moyen âge*. Etudes sur les armées des rois de France 1337-1494, éd. Moutory Paris, 1972, pp.45-64.

² - أنظر:

كستان، تاريخ الجيوش، م.س، ص.10-67؛

Camps (Gabriel), "Aux Origines de la Berberie. Massinissa ou Les debuts de l'histoire", in *Libyca*, 1^{er} semestre 1960, T.VIII, pp.245-246.

في بعض المجتمعات الأوربية بعد دخولها عصر الإصلاحات وتحديث المؤسسات السياسية والعسكرية في ظل نشأة الدولة الوطنية البورجوازية وتزايد الحاجة السياسية والمجتمعية إلى خلق جيش نظامي احترافي قار ومستقل³. إلا أن ما يلاحظ بوجه عام في طبيعة الأدوار التي اضطلعت بها قوات هذا التنظيم القبلي وجغرافية توزيعها عبر المجال، هو أنها كانت تختلف، بهذا القدر أو ذاك، من دولة إلى أخرى، ومن مجال حضاري إلى آخر، تبعا لاختلاف طبيعة النظم السياسية والاجتماعية، وتباين منظومة العقائد العسكرية والاستراتيجية. فإلى جانب مشاركتها في مهام استتباب الأمن في الداخل، كانت قوات الجند الفلاحين تقوم بحراسة الحدود والمرابطة في الثغور وعلى خطوط المواجهة والتماس مع العدو.

I - محطات من حضور قبائل الجيش في تجارب عسكرية متوسطة

في القرن الرابع الميلادي كانت الإمبراطورية الرومانية قد أوكلت مهام مراقبة وضبط تحركات البدو الرحل الأفارقة على امتداد شريط الليمس في شمال إفريقيا إلى فرق قبلية من "الفلاحين المستقرين"⁴، منحتها إدارة الدولة، نظير مهام الحراسة الحدودية والخدمة العسكرية

³ - راجع:

ميكيافلي(نيفولا)، الأمير، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية عشر، 1402هـ/1982م، ص.117-134؛
Corvisier (André), *Histoire militaire de la France de 1715 à 1871*, Presse Universitaires de France, 1^{re} éd. Quadrige, Paris 1997, T.2, pp.110-119 et 208-212.

⁴ - راجع:

المبكر (محمد)، المسيحية والرومن في شمال إفريقيا القديم من عهد ديكلتيانوس إلى الغزو الوندالي (284م-429م)، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2004، ص.190-210؛
Trousset (Pol), *recherches sur le Limes tripolitanus du chott EL- Djerid à la frontière Tunio- Libyenne*, édit. Centre national de la recherche scientifique, Paris, 1974, pp.151-155 ; Cagnat (M.René), *L'armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de L'Afrique sous les Empereurs*, éd. Ernest Leroux, 1913,

التي كانت تقوم بها لصالحها، قطعاً أرضية لفلاحيتها على طول مجال الليمس، كما أعفيتها، في المقابل أيضاً، من أداء الضرائب. وقد أسهمت هذه القوات من الجنود الفلاحين بفضل ما أقامته من مزارع فلاحية خصبة وما استعملته من تقنيات في مجال الري وعمليات الاستغلال في دفع عجلة "التقدم الزراعي والاستيطان البشري إلى تخوم الصحراء"⁵.

كما شكلت قوات هذا التنظيم القبلي كذلك، اللبنة الأساسية الأولى في تشكيلات جيش الفرسان التي اعتمدها الملوك السلاجقة لتنفيذ غزواتهم العسكرية وتحقيق مشروعاتهم التوسعية خلال القرن 5هـ/11م سواء في آسيا الصغرى والوسطى أو في بلاد فارس والشام أو في منطقة الهلال الخصيب وغيرها من الآفاق الجغرافية الأخرى التي امتدت إليها فتوحاتهم⁶. وقد نعمت هذه القوات القبلية المحاربة، المنحدرة في مجموعها من أصول بدوية تركية غزية، بإقطاعات زراعية في جل المناطق التي كان يجري افتتاحها تباعاً على غرار باقي وحدات الجند وكبار القادة الذين استأثروا بالنصيب الأوفر من الإقطاعات العسكرية التي مثلت قاعدة النظام الحربي السلجوقي⁷.

وفي عهد الدولة الأيوبية في مصر التي شهد فيها النظام الإقطاعي تطوراً وتوسعاً ملحوظاً، فقد عمل سلاطينها على تخصيص صنف محدد من الإقطاع لفائدة فرقة من جيش الفرسان

p.262 ; Julien (Charles- André), *Histoire de l'Afrique du nord, des origines à la Conquête arabe*, Payot, 2^{ème} édit, Paris, 1978, pp.142 ; Camps, *Aux Origines*, op.cit, p.246.

⁵ - هاشم العلوي القاسمي، *مجتمع المغرب الأقصى*، م.س، ج2، ص.18.

⁶ - آشتور (آي)، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*، ترجمة: عبد الهادي عبله، مراجعة غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1985، ص. 271.

⁷ - نفسه، ص. 275-277؛

Encyclopédie générale de L'Islam, S.I.E.D.1986, pp.283-285.

كانت مكونة أساسا من بعض القبائل العربية سمي "بإقطاعات العربان أو إقطاع الاعتداد"⁸ وكانت مهمة هذا الجند غير النظامي هي تأمين الحماية لأطراف مصر وحدودها والتصدي للأعداء قبل نشوب أي معركة من المعارك. ونظرا للدور المتزايد الذي لعبه هؤلاء البدو الفرسان في الحياة العسكرية للدولة الأيوبية، فقد حرص الأيوبيون على إدماج أعداد مهمة منهم في تشكيلات جيشهم النظامي إلى جانب فرق الطواشية والقرا غلامية والمماليك السلطانية والخاصكية والقراييص والسيفية⁹.

وخلال القرن 6هـ/12م، وعلى إثر ما خلفه الغزو الصليبي لبلاد الشام من فراغ بشري واستيطان للأراضي التي هجرها أهلها، قام عماد الدين زنكي أمير مملكة آل زنكي⁽¹⁰⁾، في محاولة منه لتعمير الأراضي المجلى عنها ومجاهدة الإفرنجية الغزاة، بإنزال طائفة من قبائل التركمان الإيوانية بولاية حلب قصد مجابهة الصليبيين وتحرير الأراضي الإسلامية التي كانوا يحتلونها في هذه المنطقة. وحتى يوفر لهذه القبائل أسباب العيش والاستقرار لمواصلة مرابطتها وأعمالها الجهادية في هذا الثغر، عمد عماد الدين زنكي إلى تمليكها كل ما وفقت في استرجاعه من أراضي من يد الصليبي¹¹.

⁸ - العاملي (محمد)، نظام الإقطاعات الحربية والأزمة المالية في مصر الأيوبية 565هـ-648م/1169هـ-1250م، أطروحة د.د، في التاريخ، كلية الآداب بني ملال، السنة الجامعية 2003-2004، ص. 147.

⁹ - للاستزادة حول هذه الفرق وأصولها وعدد عناصر الجند التي كانت تساهم بها والأرزاق والمرتببات التي كانت تتقاضاها أنظر: القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، 1987، ج4، ص.15؛ المقرئ (تقي الدين)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، 1987، ج1، ص. 86؛ العاملي، نظام الإقطاعات الحربية، م.س، ص. 139-141.

¹⁰ - بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1977، ص. 346-348.

¹¹ - يقول ابن الأثير في هذا الصدد: "ومن صائب رأيه وجيده ما فعله من نقل طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب وأمرهم لجهاد الفرنج وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم

ولم تحد الدولة العثمانية غداة ظهورها أوائل القرن 8هـ/14م كإمارة حربية غازية في آسيا الصغرى عن ذات القوام العسكري القبلي¹²، حيث استندت وهي لا تزال في طور تشكلها على جيش مكون في نواته الصلبة من حشود فرسان القبائل البدوية التركية التي كانت تحارب تحت قيادة القائد التركماني "ارطغل" وابنه "عثمان" إلى جانب إمارة قونية إحدى الإمارات السلجوقية التي ظهرت في الأناضول على إثر انهيار دولة آل سلجوق بعد موت السلطان ملك شاه¹³، حيث تمتعت يومها بإقطاعات واسعة شملت "عدة أقاليم ومدن"¹⁴ منحها إياها الأمير علاء الدين سلطان قونية مكافأة لها على مساعدتها له "في حروبه مع مجاوريه"⁽¹⁵⁾ واستعدادها الدائم للحرب والمقاتلة في مقدمة جيوشه. وقد توسعت قاعدة هذه الجيوش القبلية ذات الأصول الحرة المولد باضطراد مع توسع دائرة الفتوح العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية من بداية تكونها سواء على الجبهة الأوربية أو الجبهة الآسيوية¹⁶ حتى صارت تشكل طبقة عسكرية قائمة بذاتها من الفرسان المحاربين المسلمين (السباهية) تتوزع فرقها كخيالة إقليمية في مختلف

فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويرأوونهم وأخذوا كثيرا من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة". التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ومكتبة المثنى، بغداد، 1382هـ/1963م، ص.80؛ بهيني (عبد المجيد)، المجتمع والاقتصاد ببلاد الشام في القرن السادس الهجري، د.د. في التاريخ، توجد مرقونة بكلية الآداب، بني ملال، السنة الجامعية، 2001-2002، ص.315.

¹² - بك حليم (إبراهيم)، تاريخ الدولة العثمانية العليا المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، ص. 31 وما بعدها.

¹³ - بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، م.س، ص. 407-410.

-Encyclopédie générale de L'Islam, op.cit, pp.291-298.

¹⁴ - فريد بك المحامي (محمد)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، 1397هـ/1977م، ص.40.

¹⁵ - نفسه.

¹⁶ - عبد الرحيم مصطفى (أحمد)، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م، ص.36-

104.

Mantran (Robert), *L'histoire de L'empire Ottoman*, Fayard, 1989, Paris, p.153.

المقاطعات¹⁷. وقد استفاد هؤلاء المحاربون الفرسان من نظام الإقطاع العسكري¹⁸ الذي أقرته الدولة العثمانية منذ فجر تأسيسها أسوة بباقي فرق الجند النظامية الأخرى¹⁹، وذلك في مقابل تعهدها بأداء الخدمة العسكرية وتحمل تكاليفها، فضلا عن إعداد وتجهيز الخيول لفائدة عدد من أتباعهم يقل أو أكثر بحسب حجم مساحة الإقطاعات الممنوحة إليهم⁽²⁰⁾.

أما في الأندلس فقد كان لهذا الصنف من القوات القبلية حضورا وازنا ومؤثرا في مجمل محطات تاريخها السياسي والعسكري والاجتماعي، لأن تركيبة وحدات الجيش وقطاعاته المختلفة ظلت منذ بداية الفتح الإسلامي إلى غاية عصر الخلافة بل وحتى بعد ذلك بعهود، تقوم على أسس قبلية متنوعة الأصول والأعراق، تنوع النسيج السلافي والطائفي للمجتمع الأندلسي ذاته²¹. وبحكم ما اضطلعت به وحدات هذا الجيش القبلي من أدوار بالغة الأهمية سواء على صعيد ترسيخ دعائم الحكم الإسلامي في أنحاء الأندلس وحفظ أمن كورها ومدنها أو

¹⁷ - جب (هاملتون) وبوون (هارولد)، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1971، ج1، ص.67؛ أندرسون (بيري)، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظيمي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1983، ص.13.

¹⁸ - حول النظام الإقطاعي وتطبيقاته وتنظيماته في تاريخ الدولة العثمانية، أنظر:

الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت، 1982؛ الدوري (عبد العزيز)، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، بغداد، 1970؛ الحصري (ساطع)، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960؛ إينجالييف (خليل)، مشكلات الأرض في التاريخ التركي، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، مجموعة بحوث ودراسات إسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.

¹⁹ - أندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، م.س، ص.13-18.

²⁰ - جب وبوون، المجتمع الإسلامي والغرب، م.س، ص.68؛ عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، م.س، ص.127؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، م.س، ص.458 وما بعدها..

²¹ - حناوي (محمد)، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، مطبعة فيديرانت، الرباط، الطبعة الأولى، 2003، ص.49 وما بعدها؛ بن عبود (امحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، تقديم وليم مونتفومريوط، مطابع الشويخ، تطاون، 1983، ص.114-122.

على صعيد المراقبة في الثغور والجبهات الإسلامية الأمامية المتاخمة للممالك النصرانية أو على صعيد حراسة السواحل وحماية حصونها من الهجمات البحرية الأجنبية، فقد أقطعها الولاة منذ فترة مبكرة أراضي لاستغلالها والانتفاع من عائداتها،²² وسعتها هذه القبائل المحاربة مع الأيام وأضافت إليها أراضي جديدة اقتطعتها لنفسها بحد القوة والغلبة في مناسبات عديدة. وهي ظاهرة كانت تكتسي أبعادا أكثر توسعا واستفحالا سيما في أوقات تراجع هيبة السلطة المركزية وتقلص نفوذها مع ما كان يستتبع ذلك من استشراف لمظاهر حركة الانتزاع وتفاقم لأحوال التجزئة السياسية²³.

وإذا كانت إقطاعات الجند القبلي، قد شملت مجمل أراضي عدوة الأندلس واتسعت لتستوعب مختلف الطوائف والمجموعات القبلية التي توافدت عليها عبر مراحل متتالية ومن أصقاع جغرافية وحضارية مختلفة²⁴، فإن مناطق الثغور في الأندلس²⁵ قد مثلت المجال الإقليمي الحيوي الذي تركز به هذا النوع من الإقطاع العسكري القبلي، حيث تعاقبت على استغلاله منذ بداية الفتح مجموعة من الطوائف والأسر العربية والمولدية والبربرية²⁶، مقابل تعهدها بمجاهدة نصارى الشمال²⁷، إلى أن تحول هذا الإقطاع ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري من إقطاع استغلال إلى إقطاع تمليك تحتكر ملكيته بشكل خاص بعض العائلات

²² - ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية 1393هـ / 1973م، المجلد الأول، ص. 109-110.

²³ - بوتشيش (إبراهيم القادري)، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250هـ-316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط، 1992، ص. 93.

²⁴ - نفسه، ص 88-97.

²⁵ - حناوي، النظام العسكري، م.س، ص. 53-56.

²⁶ - بوتشيش، أثر الإقطاع، م.س، ص. 87.

²⁷ - حناوي، النظام العسكري، م.س، ص. 54.

والعشائر الأندلسية المشهورة، كبنى قسي وبنى رزين وبنى ذي النون والتجيبين و" تورته في الأعقاب"²⁸.

هكذا إذا يتجلى من خلال هذه الوقفات التاريخية العامة على ما بينها من تباعد في مساحتي الزمان والمكان، أن تنظيم الجند الفلاحين، هو تنظيم قديم قدم المجتمع القبلي ذاته، وأن الأخذ به في أغراض الخدمة العسكرية لم يكن يوازي البتة مرحلة تاريخية بعينها من مراحل تطور الممارسة العسكرية، وأن انتشاره واستمراره لم يكن حكرا على منظومة خاصة من الأنظمة السياسية والعسكرية أو البلدان والمجالات الإقليمية والجهوية، وإنما كان تنظيما عسكريا واجتماعيا متداولاً ومعولاً به لدى معظم الدول والكيانات السياسية التقليدية سواء أكانت قبلية عشائرية في منشئها وتكوينها أو كانت إمبراطورية توسعية في حكمها وإدارتها، لأن ارتكازه على قوات من الجند ترتبط في عيشها وكسبها بفلاحة الأرض واستغلالها، غير مكلفة في تجهيزها وتسليحها ولا في تمويلها ونفقاتها، معبأة ومستعدة دوماً لأداء ما يطلب منها في لحظات الاستنفار والمواجهة، قد جعل هذا التنظيم حاضراً بقوة وكثافة وبصور أكثر انتظاماً وتوصلاً في معظم التجارب العسكرية التي مر بها تاريخ الأمم والدول قديماً وحديثاً.

II- وقفات مع قبائل الجيش في تاريخ دول المغرب الوسيط

أما في المغرب، فقد ترادف تكوين الدولة منذ بدايات تأسيسها مع هذا النوع من التنظيم العسكري القبلي، وذلك اعتباراً للأساس الذي بنيت عليه هذه الدولة ذاتها، وهو أساس استمر إلى غاية نهاية العصر الوسيط يقوم على دعائم عصبية قبلية صميمة ابتداء وانتهاء²⁹. وهذا

²⁸ - بوتشيش، أثر الإقطاع، م.س، ص.87.

²⁹ - ابن خلدون، مقدمة، م.س، ص.139-140؛ أمليل، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 2005، ص.165-169؛ القبلي (محمد)، "الدولة المغربية في العصر الوسيط"، ضمن كتاب: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط. علائق وتفاعل، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، ص.80.

الواقع هو ما يمكن تلمسه من خلال تتبع مسيرة تطور هذه الدولة بصفة عامة ودور المؤسسة القبلية الفاعل في توجيه سيرورة نظامها السياسي وبناء قوامها العسكري والإداري بصفة خاصة.

فقد اعتمدت الدولة الإدريسية خلال نهاية القرن 2هـ/8م وبداية القرن 3هـ/9م في بناء سلطتها وتوسيع مجال نفوذها على دعم قبيلة أوربة³⁰ التي كانت تمثل يومها القوة البربرية الضاربة في المغرب بدون منازع، إضافة إلى وجوه قبلية أخرى اختيرت من حشود القبائل التي التفت حول الدولة الجديدة وهي في طور تشكيلها كبني يفرن، وغيّاتة، ومكناسة، ونفزة، وغمارة، ومطغرة، وسدراتة، ومغيلة، وزواغة، وهوارة³¹. ثم تعزز هذا الجيش القبلي فيما بعد بعناصر أخرى عربية قدمت من بلاد إفريقية والأندلس لتعطي للدولة شحنة عسكرية إضافية وتوجهها وجهة سياسية جديدة.³²

أما في عهد الدولة المرابطية التي نشأت نشأة بدوية في حوض المجموعة الصنهاجية في غرب الصحراء أواسط القرن 5هـ/11م،³³ فقد استندت في مشوارها السياسي والعسكري منذ انطلاقها الأولى كحركة دينية إصلاحية³⁴ إلى أن صارت كيانا سياسيا مهاب الجانب في المغرب والأندلس على السواء، على جيش مكون في نواته الصلبة من قبائل الحلف الصنهاجي بزعامة

³⁰ - الجزنائي (علي)، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411هـ/1991م، ص. 16؛ هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، م.س، ج.2، ص.386.

³¹ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج.6، ص.190؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م.س، ص.23.

³² - الجزنائي، جني زهرة الآس، ص.26؛ جوليان، (شارل)، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، فيفري، 1983، النشرة الثانية، ص.56.

³³ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية، حققه الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1405هـ/1984م، ج.1، ص.155؛ عباس نصر الله (سعدون)، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م، ص.13-23.

³⁴ - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.154-160؛ عبد الله عنان (محمد)، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1389هـ/1969م، ص.301-305.

لمتونة إلى جانب مسوفة، وجدالة، ولمطة،³⁵ ثم انحاشت إليه فيما بعد، فرق أخرى من مصمودة وزناتة وجزولة أطلق عليها جميعا إسم الحشم.³⁶ وقد أقطعت الدولة هذه التشكيلات العسكرية القبلية أراضي زراعية لفلاحها واستثمارها لقاء ما كانت تنهض به من أعمال وخدمات حربية متعددة.³⁷

ولم تحد الدولة الموحدية عند استلامها زمام السلطة في المغرب خلال النصف الأول من القرن 6هـ/12م، عن نفس التقليد العسكري. إذ ارتكزت- وهي الدولة التي انبعثت من قلب التجمع العصبي لمصامدة الأطلس الكبير- في بناء أركان قواتها العسكرية منذ بداية الدعوة إلى غاية فترة الانهيار، على فيالق قبلية مكونة بوجه خاص من هرغة، وهنتاتة، وأهل تنمل، وكنفيسة، وهزرجة، وجدميوة، ووريكة، وكومية³⁸، كما يشهد على ذلك ديوان التمييز³⁹. ولما اشتدت الحاجة إلى مزيد من الأجناد، بعد أن اتسع نطاق الدولة وتزايدت غزواتها وحملاتها في المغرب والأندلس، تم استلحاق أعداد غفيرة من القبائل العربية النازحة يومئذ بإفريقية

³⁵- مؤلف مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص. 17.

³⁶- مصطفى (ناعمي)، الصحراء من خلال بلاد تكتة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، منشورات عكاظ، الرباط، 1988، ص. 84؛ هو بكنز (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الأنجليزية، الدكتور أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، طبعة ثانية ومنقحة 1420هـ/ 1999م، ص. 110-112.

³⁷- حركات (إبراهيم)، النظام السياسي والحربي، منشورات مكتبة الوحدة العربية، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ص. 190؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، م.س، ج1، ص 214؛ جرادة (سعيد)، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب، د.د، توجد مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1991-1992، ص. 139-140.

³⁸- البيدي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، راجعه وحققه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1425هـ/، ص. 36، 46، 63، 64.

المراكشي، المعجب، م.س، ص. 481-483؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، م.س، ص. 264-266؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص. 109.

³⁹- المراكشي (ابن القطان)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه، الدكتور محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص. 156؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، م.س، ص. 638.

بتنظيمات الجيش الموحد. وقد تدرجت هذه العملية عبر مراحل مختلفة دشن أول أطوارها الخليفة عبد المومن بن علي الكومي⁴⁰ ثم استأنفها من بعده ابنه أبو يعقوب يوسف⁴¹، لتصل أقصى ذروتها على يد حفيده يعقوب المنصور الموحد⁴². وقد ضمت هذه القبائل المجيشة كلا من جشم، والخلط، والاثبج، وسفيان، التي وطنت بإقليم تامسنا⁴³ فضلا عن رياح التي وطنت بإقليم أزغار⁴⁴. ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا الخصوص، أنه بالرغم مما حظيت به هذه القبائل العربية من إنعامات وصلات وإقطاعات زراعية⁴⁵ من قبل سلاطين الدولة الموحدية أسوة بما جرت به العادة مع القبائل المخزنية المصمودية⁴⁶، إلا أن مشاركتها ومستوى أدائها في العمليات الحربية التي خاضها الجيش الموحد سواء على أرض المغرب أو بعدوة الأندلس كان أقل نفعا ومردودية بسبب ما اتسمت به هذه القبائل عموما من تقلب في الولاء وخذلان في المعارك وشغف بالغنائم والأسلاب⁴⁷.

⁴⁰ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، م.س، ص.261؛ لوتورنو(روجي)، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب الدكتور أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، طبعة ثانية منقحة، 1419هـ/1998م، ص.60؛ الغناني (مراجع عقيلة)، سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1409هـ/1988م، ص.60.

⁴¹ - المراكشي، المعجب، م.س، ص.331؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص.324؛ موسى(عز الدين عمر)، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، ص.223.

⁴² - ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، م.س، ص.232. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج.7، ص.37؛ لوتورنو، حركة الموحدين، م.س، ص.80.

⁴³ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج.6، ص.37.

⁴⁴ - نفسه.

⁴⁵ - عبد الواحد المراكشي، المعجب، م.س، ص.329؛ ابن عذارى، البيان المغرب، م.س، ص.405.

⁴⁶ - عبد الواحد المراكشي، المعجب، م.س، ص.414؛ موسى (عز الدين أحمد)، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال

القرن السادس الهجري، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م، ص.143-148.

⁴⁷ - عنان، عصر المرابطين والموحدين، م.س، ص.399؛ لوتورنو، حركة الموحدين، م.س، ص.79.

ولم تشذ الدولة المرينية في بناء جهازها العسكري عن نفس المسار التنظيمي حينما استتب لها الأمر بالمغرب أواسط القرن 7هـ/13م ، حيث اعتمدت في تشكيل قاعدتها العسكرية أول الأمر، على كتائب عسكرية تعود في مجموعها إلى الكتلة القبلية الزناتية كبني مرين، وبني عسكر، ومغراوة، وبني يفرن، ومكناسة⁴⁸، علاوة على فروع زناتية أخرى تنتمي إلى المغرب الأوسط كبني توجين، وبني راشد، وزواوة⁴⁹. ثم دعمت هذه الحشود القبلية، بعد حين، بزخم آخر من الجموع العربية المستقرة آنذاك بالمغرب، كبني حسان، وبني جابر، ورياح، والعاصم، والخلط، وبني عامر، وسويد، وبني سالم، والشبانات⁵⁰. وقد حازت هذه القبائل مجتمعة، بحكم ما كان لها من دالة على الدولة، مرتبات وإحسانات منتظمة على غرار باقي الفرق العسكرية الأجنبية، إضافة إلى "بلادات" وضياع على شكل إقطاعات انتفاع⁵¹

وعلى نحو مطابق للنموذج المريني واستمرارا له، سارت الدولة الوطاسية في تنظيم مؤسساتها العسكرية خلال نهاية القرن 9هـ/15م ومطلع القرن 10هـ/16م، حيث شكلت عماد قواتها من فرق عربية تنتمي في مجملها إلى قبائل الخلط وسفيان التي كانت تقيم بسهل

⁴⁸ - ابن أبي زرع (علي)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1972، ص.98، المنوني (محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996، ص.99.

⁴⁹ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ص. 160-170؛ حامد الماحي (علي)؛ المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص. 153-154. حركات (إبراهيم)، "الجيش المغربي في عهد بني مرين"، مجلة كلية الآداب ، الرباط، العدد 8، 1982، ص.17.

⁵⁰ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، م.س، ص. 486-488؛ المنوني، ورقات، م.س، ص.99.

⁵¹ - ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م.س، ص.65؛ العروي، مجمل تاريخ المغرب، م.س، ج2، ص.214؛ ابن شقرون (محمد بن أحمد)، مظاهر الثقافة المغربية. دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني. دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406/1985، ص.31.

Kably (M), *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-âge*, Maisonneuve et Larousse, Paris, 1986, p. 271.

أزغار⁵² وعرب أنجاد الذين كانوا يتخذون من شرق المغرب مجالا لظعنهم وإقامتهم⁵³، وبني جابر، وزعير الذين كانوا ينتشرون بجهة تادلة⁵⁴. وقد منح الأمراء الوطاسيون لهذه القبائل أراضي وعقارات بالمناطق التي كانت تقيم فيها⁵⁵ مقابل الأعباء والخدمات العسكرية التي كانت تضطلع بها سواء على مستوى الساحة الداخلية أو على مستوى جبهات المقاومة ضد المراكز والثغور المحتلة من طرف الإيبيريين⁵⁶.

هكذا إذا يبدو، أن قبائل الجيش كانت حاضرة بقوة وكثافة في التنظيمات العسكرية للدولة المغربية منذ البواكير الأولى لنشأتها، ويعود ذلك- كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من قبل- إلى أن هذه القبائل كانت تشكل في عمومها جزء لا يتجزأ من التكتلات القبلية العصبية الكبرى التي انبثقت من رحمها معظم دول المغرب الوسيط وعلا كعبها في الآفاق، ثم لأن هذه القبائل كانت، بحكم دربتها الحربية وصلات القربى النسبية والمذهبية التي كانت تجمعها مع مؤسسي

⁵² - الكراسي (أي عبد الله محمد)، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، المطبعة الملكية، الرباط، 1963/1383، ص.20. الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، مكتبة ومطبعة عمرية، الرباط، 1972، ص.108.

Terrasse ; *Histoire du Maroc*, éd. Atlantide, Casablanca, 1950, T1, p150.

⁵³ - بنيس (عبد الحي)، الاحتلال الإيبيري لسواحل المغرب (1471-1554)، ر.د.د.ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1407-1408هـ/1987-1988م، ص.199.

⁵⁴ - الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة ثانية، 1983، ج1، ص.177؛ كاربخال (مارمول)، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي-محمد زنيير- محمد الأخضر - أحمد التوفيق - أحمد بنجلون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1408-1409/1988-1989، ج1، ص.116.

Massignon (Louis), *Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Tableau géographique d'après Léon L'Africain*, Alger, 1906, p.175.

⁵⁵ - مارمول، إفريقيا، م.س، ج1، ص.136؛ بنيس، الوطاسيون والاحتلال الإيبيري، م.س، ص.200-201.

Massignon, *Le Maroc*, op.cit, p176.

⁵⁶ - حركات، المغرب عبر التاريخ، م.س، ج2، ص.169.

هذه الدول والممالك السلطانية، مؤهلة أكثر من غيرها للذود عن حمى كياناتها والمساهمة عسكريا في بناء مؤسساتها الوليدة على الأقل في الأدوار الأولى من انطلاقها. إلا أن حضور هذه القبائل والاستمرار في الاعتماد عليها وحدها - مع ما كان يميزها من تعصب لانتماءاتها القبلية والقبلية وتذبذب لاف في ولاءاتها السياسية- لم يكن من الناحية العملية ليستجيب لتطلعات الدولة ورهاناتها الأساسية في الأمن والتوسع والاستمرار. لذلك كانت تتم، بموازاتها، تعبئة فرق عسكرية أخرى من اللفياف الأجنبي تنتمي إلى أجناس وقوميات مختلفة من الإفرنج والأندلسيين والصقالبة والغز والأتراك والسودانيين...الخ، تسمح بإحداث نوع من التوازن بين تشكيلات المؤسسة العسكرية من جهة، واكتساب قدرات أكبر للتحكم في الأوضاع الأمنية والديناميات المجالية من جهة ثانية. وبالرغم مما كانت تمتاز به هذه القبائل من طاقات حربية فائقة ومهارات قتالية نوعية، دفاعا وهجومًا، في ساحات المعارك والحروب، فإن تقلبها المستمر في موالاته أولي أمرها، وشغفها بانتهاز أي فرصة مغرية لمناصرة طرف على حساب طرف آخر، جعلها لا تحظى، في أغلب الأحيان، بنفس القدر من الثقة والقرب والخطوة التي كانت تتمتع بها باقي العناصر الأجنبية داخل دواليب ودوائر المؤسسة المخزنية.

الفصل الثالث

نشأة دولة الأشراف:

نحو مقاربة جديدة

بادئ ذي بدء، وقبل الإتيان على ذكر أهم المجموعات القبلية التي جندتها دولة الأشراف للقيام بمهام الخدمة العسكرية والمساهمة في مراقبة المجال وتأطيره إلى جانب الفرق العسكرية النظامية الأخرى في العهدين السعدي والعلوي الأول، يحسن بنا أن نتوقف قليلا وقفة تأمل واستقراء في أهم الرؤى والمقاربات التي اعتمدها الباحثون والدارسون لحد الآن في تفسير سياقات وظروف نشأة دولة الأشراف باعتبارها شكلت لحظة فارقة في تاريخ المغرب الحديث، وذلك لأنها ارتكزت في بلورة هويتها السياسية وبناء مشروعيتها الاجتماعية على مفهوم ديني تعبوي جديد هو مفهوم الشرف، ثم لأنها مثلت على مستوى نموذجها السياسي القائم على الشرافة والجهاد، تجاوزا لنموذج العصبية القبلية التي حكمت المغرب طيلة تاريخه الوسيط.

وإذا كانت تلك الرؤى والمقاربات، على ما بينها من اختلاف وتكامل في آن، قد ركزت في تفسير ميلاد هذه التجربة السياسية الجديدة على معطيات وقرائن تعكس في مجملها حجم التحولات الكبرى التي طرأت على بنيات المجتمع المغربي واقتصاده ونسقه الثقافي والذهني، فإنها قد فاتها التوقف عند حلقة من أهم وأبرز الحلقات التي طبعت مسار تلك التحولات وانطبع بها، في نفس الوقت، التاريخ السياسي والعسكري والاجتماعي لدولة الأشراف منذ انطلاقتها خلال القرن العاشر الهجري 16م إلى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م، وهي الحلقة المتعلقة بالقاعدة الاجتماعية القبلية التي استندت إليها هذه الدولة في دعم تحركاتها السياسية والعسكرية وفي تحويل شعاراتها وطموحاتها إلى واقع حقيقي.

واعتقد أن التوقف عند هذه القضية لمن شأنه أن يزيح الغموض الذي يكتنف علاقة دولة الأشراف بالإطار القبلي الداعم لها والذي استندت إليه في إنجاز استحقاقاتها السياسية والعسكرية وهو إطار ضم في أغلبية مكوناته قبائل تنحدر من أصول معقلية، ومن جهة أخرى، سيساعد على فهم الدواعي والأسباب التي حذت بهذه الدولة إلى الاعتماد بشكل خاص وأساسي على قبائل عرب معقل إلى الحد الذي جعل تاريخها يرتبط في بعده السياسي والعسكري بالأدوار التي اضطلعت بها هذه القبائل في نواحي ومجالات مختلفة رغم ما كانت تثيره من مشاكل

واضطرابات وتخلقه من متاعب وصعوبات أربكت في كثير من الأحيان حسابات المخزن المركزي ونالت من هيبة رموزه ومؤسساته كبير منال.

I- رؤى ومقاربات

1- المقاربة الأولى: التصوف يستدعي الشرف ويسنده برسم الجهاد

هذه المقاربة هي الأكثر شيوعا وتداولاً بين الباحثين الذي اهتموا بدراسة ظرفية مغرب القرنين التاسع الهجري/م15 وبداية العاشر الهجري/م16م التي تمخضت عنها دولة الأشراف السعديين والتي على إثرها حدثت تلك الانعطافة التاريخية في مفهوم الدولة في تاريخ المغرب من دولة تقوم على أساس عصبية قبلية استمرت زهاء ستة قرون من الزمان تقريبا إلى دولة متعالية ليس لها أي امتداد في الواقع القبلي تسند نفسها بنفسها من خلال ما يحوزه مؤسسها من سلطة ومهابة رمزية مستمدة من مفهومي الشرف والبركة.

يكتفي الباحثون الذين تبنا هذه المقاربة في الأغلب الأعم بتزديد الرواية التقليدية التي تسوقها المصادر التاريخية بخصوص نشأة الحركة السعدية حيث يربطون بين هذه النشأة والأوضاع التي كان عليها الواقع المغربي بصفة عامة ومنطقة سوس على وجه الخصوص. فبعد أن جثم الاحتلال الإيبيري على عدة مراكز وجيوب بسوس الأقصى وعجزت السلطة الوطاسية عن التصدي له بعد أن انحسر نفوذها في أقاليم محدودة من شمال المغرب فقط، اتجه أعيان وشيوخ القبائل إلى البحث عن يوحد كلمتهم ويتولى قيادتهم في عمليات الجهاد ضد الغزاة. فكان أن التمسوا في بداية الأمر من قطبي الحركة الجزولية بسوس يومئذ وهما: محمد بن مبارك الأقاوي نزيل آقا، وبركة بن محمد بن أبي بكر بتديسي، القيام بهذه المهمة باعتبار المكانة التي كانا يحظيان بها بين عموم قبائل سوس. غير أنهما امتنعا عن الاستجابة لهذه المبادرة لما فيها حسب زعمهما من "تشويش على الدين" ولما تتطلبه هكذا مسؤولية من شروط مخصوصة لا يمكن للإمامة أن تستقيم بدونها وهي شروط لم تكن لتجتمع في منظورهما إلا في شريف

درعة محمد بن عبد الرحمن الذي سيلقب فيما بعد بالقائم بأمر الله: وهي الشرف والعلم والصالح والبركة¹.

2- المقاربة الثانية: القبيلة تنحل في الزاوية وتصف خلف الشرف وترفده

ارتكزت هذه المقاربة كما توحى بها تحليلات عبد الله العروي لخصوصية التجربة التاريخية التي ميزت مؤسسة الزاوية في تعاطيها من انشغالات المجتمع المغربي ومتطلبات علاقتها مع السلطة السياسية على استدعاء السياق التاريخي الذي تبلورت وتطورت فيه ممارساتها الدينية والاجتماعية والسياسية. حيث أبرز في هذا الإطار أن هذه المؤسسة وبعد علاقة الود التي جمعتها مع الأمراء المرينيين الذي حاولوا توظيفها لكسب نوع من المشروعية داخل المجتمع المغربي سيما وأنهم "استولوا على السلطة بالعصية وحد السيف"²، ستحاول

¹ - حول مضمون هذه الرواية والسردية التاريخية التي تدور حولها أنظر:

اللجائي (عبد السلام)، المفاهر العلية في الدولة الحسنية العلوية، م.خ.م، رقم 460، ص.109؛ القادري (محمد بن الطيب)، كناشة، م.خ.ع، رقم 1574، ص.10؛ الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1419-1998، ص.40-44؛ طويرس (دييكودي)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: محمد حجي- محمد الأخضر، مطابع سلا، سلا، 1988، ص.13-14؛ القادري (عبد السلام)، مختصر تاريخ الشرفاء. السعديون- العلويون، تحقيق وتعليق وتقديم، عبد السلام المنصوري، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2012، ص.162-163؛ أحمد الكنسوسي (أبو عبد الله محمد)، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، ج1، ص.81-82؛ مصطفى المشرفي (محمد بن محمد)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق، إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة الأمانة الرباط، الطبعة الثانية 1440-2018، ص.260-261؛ الوارث (أحمد)، الطريقة الجزولية. التصوف والشرف والسلطة في المغرب الحديث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1431-2010، ص.237-251.

² - العروي مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999، ج3، ص.39.

التحرر من أي مراقبة أو التزام رسمي بعد أن توالى الهزائم على الحكم المريني في عدوة الأندلس لتتحول إلى "مؤسسة مستقلة"³.

ونتيجة لانخراطها في حركة الجهاد ضد الاحتلال الإيبيري خلال القرن التاسع الهجري/ 15م في ظل عجز السلطة الوطاسية، ستدخل هذه المؤسسة معتزك التهافت على السلطة لأن الآلية "التنظيمية التجنيدية"⁴ التي ارتكزت عليها جعلتها "تحمل بالضرورة في صلبها بذور التنافس والمواجهة مع تنظيمات أخرى ، تلك التي تخضع لروح السلطنة، من جهة، ومن جهة ثانية، تلك التي ترافق المشيخة القبلية"⁵ فغدت بذلك "بنية اجتماعية مناقضة لبنى أخرى موجودة في مجالها وسابقة على نشأتها"⁶.

ونظرا لكونها التزمت عبر تاريخ ممارستها منهجا سنيا في مجالي العقيدة والتربية ولم تتلبس بأي نزعة متطرفة أو باطنية على نحو ما شاع في بلاد المشرق والأندلس، فقد نجحت، بالتبع، في اجتذاب علماء السنة إليها والتعايش معهم، كما أفلحت، بموازاة ذلك، في الحفاظ على علاقة وفاق مع السلطان الشرعي لأن مبدأ الطاعة والانقياد لأولي الأمر كان من الثوابث التي استقرت عليها، منهجا وسلوكا، منذ نشأتها الأولى.

ولما كان شيوخ الزوايا يسعون دائما إلى إثبات اتصالهم بالنبي إما مكاشفة بالغيب أو من خلال انتحال نسب شريف، فإنهم كانوا مهئين تلقائيا بمقتضى هذه الدعوى للقبول بالتبعية لمن هو أصله شريف صريح النسب. ولعل هذا ما ساعد السعديين للوصول إلى الحكم مادامت

³ - نفسه.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه.

⁶ - نفسه.

علاقتهم بصاحب الوحي من جهة الانتساب هي أعلى وأشد التحاما من شيوخ الزوايا حتى وإن أدركوا في مقامات التعبد والمجاهدة أسمى المراتب وأعلاها.

وهذا التمايز في الرؤية والموقف الذي طبع علاقة المتصوفة بالشرفاء هو ما أوجزه عبد الله العروي في عبارة جامعة دالة بالقول: "دعوة آل البيت الشرفاء هي دائما أعم من أي حركة مرابطة، سابقة عليها وبالتالي قادرة على ترويضها وتوظيفها لأهدافها ثم تجاوزها بعد استنفادها"⁷ ثم يردف قائلا في ذات السياق: "علاقة هذه الدعوة بالسلطة واضحة مباشرة، ترمي عليها وتحوزها بدون تردد كلما ساعدت الظروف"⁸.

وبهاته الرؤية التي صاغها عبد الله العروي في سبيل تشخيص الظروف والتطورات التي أفضت إلى تحول مؤسسة الزاوية إلى قوة دينية اجتماعية فاعلة حلت محل القبيلة وانتزعت منها مجمل أدوارها وأنشطتها التقليدية، يكون قد وضع بين أيدينا خطاطة تحليلية تسمح بفهم الأسباب التي جعلت شيوخ التصوف في منطقة سوس يقدمون، اختيارا وطوعا، شرفاء درعة لتولي الزعامة السياسية والنهوض بفريضة الجهاد بالرغم من أنهم كانوا هم أصحاب النفوذ الديني والاجتماعي الأول بدون منازع في أوساط المجتمع المحلي بسوس.

ورغم وجهة هذه المقاربة وإجرائيتها، تصورا وتحليلا، فإنها تبقى في حاجة إلى الشواهد والوقائع الأستوغرافية المستوحاة من واقع تجربة التصوف الجزولي في هذه المرحلة والمواقف والمسالك التي تجسد حركية شبكاته التي صارت تغطي مجمل جغرافية الواقع القبلي في جنوب المغرب وتستحوذ على مجمل مفاصل القوة والتأقطب فيها، كما تحتاج، من جهة أخرى، إلى إبراز أهم الحيشيات التي دعت شيوخ التصوف وقادته إلى التسليم بالواقع الجديد الذي صار فيه الشرفاء، وليس مطلق الشرفاء، وإثما شرفاء درعة المغموين على وجه الخصوص على رأس

⁷ - نفسه، ص.41.

⁸ - نفسه.

القيادة بعد أن مهدوا لهم الأرضية للانطلاق في التعبئة الاجتماعية برسم الجهاد وتوحيد شمل القبائل وهي العملية التي مثلت، دون شك، جسر العبور لانتزاع السلطة السياسية في المغرب والحلول محل الوطاسيين بعد حين.

3- المقاربة الثالثة: التصوف المعارض يقود التغيير بمنح استحقاق الحكم للشرف المغمور

استند محمد القبلي، بوصفه هو من اجتهد في هندسة هذه المقاربة وإرساء لبناتها التحليلية، إلى استعراض أهم التطورات التي مرت منها سياسة الاهتمام بطبقة الأشراف في المغرب ابتداء من العصر المريني مروراً بالعصر الوطاسي وذلك بهدف وضع إطار تفسيري للسياق الذي أفضى مع بداية القرن العاشر الهجري/16م إلى قيام دولة الأشراف السعديين. وعلى خلاف الرؤية التي غالباً ما تستند إلى الرواية التاريخية التقليدية التي تعتمد دائماً إلى ربط ظهور دولة الأشراف بالأدوار التي لعبها الشرفاء السعديون في تحرير الثغور المحتلة، ونجاحهم في إعادة توحيد المغرب بعد فشل الحكم الوطاسي في هذه المهمة، فإن محمد القبلي، اعتبر أن هذا الظهور لم يكن، البتة، نتاج أوضاع طارئة أو ظروف مستجدة، وإنما كان امتداداً لسياسة شريفة دشنها أول من دشنها في المغرب الحكام العزفيون بسببته ثم ترسمت معالمها وتطورت أهدافها بشكل أوضح مع الحكام المرينيين وذلك لسببين إثنين:

- أولهما، يتعلق بحاجة الأمراء المرينيين لتزكية أشراف مكة لمواجهة خصومهم الحفصيين وانتزاع زعامة بلاد المغرب منهم، ثم أيضاً لحاجتهم لأشراف المغرب للوقوف في وجه جيرانهم بنو عبد الواد الذين زعموا بدورهم الانتساب لآل البيت⁹.

⁹- القبلي (محمد)، "مساهمة في التمهيد لظهور دولة السعديين"، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987، ص.83.

- ثانيهما، يتعلق بمساعي الحكام المرينيين إلى تحجيم النفوذ المتعاضم للصوفية الذين انخرط أغلبهم في تيار المعارضة الاجتماعية للسياسة المرينية لاسيما في المجال الجبائي ورفعوا في سبيل كسب تعاطف فئات المجتمع شعار "محبة رسول الله ومحبة آله". وهو ما جعل الأمراء المرينيين يعمدون، في المقابل، إلى توظيف سياسة تعظيم الأشراف ومبرتهم كورقة "لتلغيم القطاع الشعبي الذي يعمل فيه المتصوفة"¹⁰ بهدف محاصرتهم والحد من نفوذهم المتزايد الذي كان قد "تغلغل في الأوساط الشعبية بالبوادي والجبال وأخذ يتسلل إلى أوساط عامة المثقفين وخاصتهم بالمدن والحوضر"¹¹.

وتجسيدا لهذه السياسة وتحويلها إلى واقع ملموس، أقدم الأمراء المرينيون على مجموعة من الخطوات التي أسهمت مجتمعة في تعزيز المكانة الاعتبارية والاجتماعية للشرفاء في المجتمع ودفعهم إلى الاصطفاف إلى جانب المخزن ودعم مشروعيته السياسية. وكان من بينها تمثيلا لا حصرا:

- تحويل الاحتفال بمناسبة المولد النبوي إلى عيد رسمي يحتفل به في سائر أنحاء البلاد¹².

- الإنعام على الشرفاء بالصلوات والجرايات وإعفائهم من أداء الأعشار والكلف واللوازم المخزنية¹³.

- تأسيس مؤسسة نقابة الأشراف بهدف الحفاظ على سلامة أنساب الشرفاء وحماية حقوقهم وامتيازاتهم. وقد تحول شرفاء أدارسة فاس بفضل الصلاحيات التي صار يتمتع بها

¹⁰ - القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، ص. 88.

¹¹ - نفسه.

¹² - نفسه، ص. 89.

¹³ - نفسه، ص. 99.

نقييهم إلى جانب أقدميتهم وكثرة المنتمين إليهم في عموم البلاد، إلى "زعامة شريفية" لها من النفوذ والحظوة ما بات يقلق السلطة المرينية ورموزها¹⁴.

ومما يلاحظ في هذا الصدد، أن السلطان أبي عنان المريني وفي سبيل تعميم هذه السياسة الشريفية، سيعمد إلى الانفتاح على سائر شرفاء المغرب وستتكلل محاولته هاته بإدماج أشرف سجلماسة في سلك شرفاء الدولة في حين بقي أشرف درعة الزيدانيين خارج هذا الاستقطاب فيما يرجح¹⁵. وبفضل هذه السياسة والآثار الإيجابية التي تولدت عنها على الصعيد الاجتماعي والسياسي تحول الأشراف في المغرب حوالي منتصف القرن الثامن الهجري/14م إلى "فئة اجتماعية محظوظة تبلور كيائها وأصبحت لها امتيازات مادية مضبوطة قارة متوارثة أحيانا"¹⁶، بل ذهب محمد القبلي إلى أبعد من هذا وافترض أن هؤلاء الشرفاء، إبان هذه المرحلة، صاروا "يكونون شبه "عصبية ممتازة"¹⁷ داخل العصبيات والفئات المحكومة والحاكمة على السواء".

ونظرا للتطورات التي حملها القرن التاسع الهجري/15م والتي أدخلت المغرب في وضعية اقتصادية وسياسية واجتماعية صعبة بسبب توالي تدخل القوى الأجنبية في شؤونه وسيادته، وتعرضه لسلسلة كوارث طبيعية مدمرة أضرت بالإنسان والحيوان، فإن سياسة تعظيم الشرفاء وإجلالهم وإعزازهم قد شابتها فترات إهمال وفتور بسبب عجز الأمراء الوطاسيين عن تحمل كلفة "امتيازات جبائية ومكتسبات مادية جماعية متوارثة"¹⁸ قد صارت تحصيلها حصلا بالنسبة لأغلب فئات الشرفاء. وهكذا، ففي الوقت الذي التزم فيه الشرفاء بنهج سياسة المهادنة

¹⁴ - نفسه، ص.92.

¹⁵ - نفسه.

¹⁶ - نفسه، ص.92.

¹⁷ - نفسه، ص.102.

¹⁸ - نفسه، ص.100.

والحياد مما كان يجري من تطورات اجتماعية وسياسية على الساحة الوطنية حفاظا على حقوقهم وامتيازاتهم المكتسبة، نأى المتصوفة بأنفسهم عن أي تقارب أو اتصال مع الحكام المرينيين وفضلوا مقاطعتهم أو الحصول على أموالهم "المغتصبة" واستنكروا بشدة سياستهم الجبائية¹⁹، وهو ما أسهم في توسيع شعبيتهم بالأرياف والجبال²⁰، بينما أدى انغماس الشرفاء في الأموال المشبوهة لذوي السلطان إلى "تقلص نفوذهم داخل المدن وخارجها في بعض المناطق التي كان لهم بها نفوذ أو وجود"²¹.

ورغم محاولة الوزير أبي زكرياء الوطاسي التقريب بين قوى المتصوفة والأشراف من خلال دمجهم سويا في بوثة واحدة بعد تأسيس الزاوية الإدريسية بفاس، إلا أن هذا التوجه قد قوضته ثورة الأدارسة سنة 869هـ/1465م التي قادها نقيب الشرفاء (المزوار) الإدريسي عبد الله الجوطي.

وهذه السياسة التي بلورها الحكام المرينيون من أجل الارتقاء بالأشراف إلى فئة اجتماعية لها وزنها وموقعها المؤثر داخل المجتمع لتكون أداة ضغط كابحة لنفوذ المتصوفة المتنامي في الحواضر والبوادي على وجه الخصوص، قد انتهت في محصلة مسارها إلى تراجع وتقلص مكانة نفوذ الشرفاء في المدن والبوادي على نحو أشمل، وإلى تزايد قوة المعارضة الصوفية التي تركز نشاطها في البوادي على نحو أخص. حتى إذا حل القرن العاشر الهجري/16م صار المتصوفة يمثلون القوى الاجتماعية الأكثر قدرة على "تنظيم البوادي وتعبئتها ضد الغزاة وضد الحكام على

¹⁹ - نفسه، ص. 111-113.

²⁰ - نفسه، 113.

²¹ - راجع بشأن هذه الثورة:

الناصري، *الاستقصا*، م.س، ج4، ص. 99-100؛

Cour (Auguste) , *L'établissement des dynasties des cherifs au Maroc*, éd.Ernest Leroux,Paris, 1904, pp.37-38

السواء"²² مما أهلهم بالتالي، وبعد أن اكتملت كل الشروط الموضوعية إلى "تحويل الحكم من العصبية البربرية التقليدية ونقله إلى أسرة شريفة مغمورة من أعماق البوادي هي أسرة السعديين"²³.

هكذا إذن يتضح، أن المقاربات الثلاث التي عرضنا لها أعلاه، تختلف فيما بينها من حيث الرؤى المنهجية والخلفيات الفكرية التي يصدر عنها أصحابها في بناء تصوراتهم لمجمل التحولات الهيكلية التي شهدتها بنيات المجتمع المغربي على مدى أكثر من قرنين من الزمان تقريبا في البوادي والمدن على السواء، والتي أدت في النهاية إلى بروز تيار عريض ووازن من المعارضة الاجتماعية يقوده المتصوفة في البوادي والأرياف على وجه الخصوص بعد أن تجاوزت الظروف والمتغيرات الجديدة التي حلت بمغرب القرن التاسع الهجري/15م، الدور "المأجور" والمصطنع الذي أوكل لشرفاء السلطان لتبرير سياسة الدولة وصبغها بصبغة المشروعية. وهذا الاختلاف، حتى وإن ظهرت معه تلك المقاربات وكأنها تقف على أرضيات فكرية وتأويلية مختلفة، إلا أن ما انتهت إليه من خلاصات يؤكد إجمالا أنها كانت تدور حول مدار واحد وهو أن الشرف الذي توج بانتقال نظام الحكم في المغرب من دول لها مرجعية قبلية عصبية إلى دول لها مرجعية شريفة، كان، في المحصلة العامة، نتاج اختبار سلسلة من التطورات الاجتماعية والسياسية والتحولات الثقافية والذهنية التي جعلت المتصوفة، في نهاية المطاف، يتصدرون المشهد الاجتماعي والسياسي والديني في المغرب ويستأثرون بكل الشروط والإمكانات التي تؤهلهم وحدهم دون سواهم لقيادة هذا التحول السياسي الجديد عبر بوابة أسرة شريفة مغمورة في هوامش الصحراء هي أسرة السعديين.

²²-القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، م.س، ص.113.

²³- نفسه.

ولا شك أن اللوحات التي رسمتها هذه المقاربات لمجمل تلك التحولات البنيوية الكبرى التي أفضت، بالنتيجة، إلى ميلاد دولة الأشراف، لم تعرج على بيان القاعدة الاجتماعية القبلية التي استندت إليها هذه الدولة واصطفت إلى جانبها حتى استوت على أمرها في بداية انطلاقها ورافقتها ودعمتها في مختلف أطوار مشوارها السياسي والعسكري إلى أن أشرفت على نهايتها. وهذه القضية التي لم تنل حظها من الاهتمام بالكفاية اللازمة، أعتقد أنها ستساهم، دون مرأى، في استكمال عناصر تلك اللوحات وإضاءة مزيد من زوايا العتمة التي تحيط بمسار تلك التحولات التي انبثقت عنها هذه الدولة التي لم يكن لها، في الواقع، أي امتداد قبلي، غير أنها، مع ذلك، اختارت منذ البداية أن تستقطب إليها مجموعات قبلية بعينها لتكون هي سندها وعمدتها نظراً لما صار يجمع بينهما من أهداف ومصالح مشتركة. وتنحدر أغلب هذه المجموعات القبلية من أصول عربية معقلية صحراوية، لذلك، فالأسئلة التي تلح علينا ويبقى طرحها مشروعاً في هذا الاتجاه هي: لماذا اختارت دولة الأشراف، منذ البداية، الاعتماد على عرب معقل في تكوين جيشها القبلي؟ وما هي الحثيات والاعتبارات التي تحكمت في هذا الاختيار العسكري؟ ثم ما هي طبيعة العلاقة التي نسجت، مع مرور الوقت، بين دولة الأشراف وهذه القبائل تحديداً في العهدين السعدي والعلوي الأول؟ هل كانت في جوهرها علاقة مبنية على اعتبارات مصلحة وظيفية؟ أم كانت علاقة حلف وتعاون تأسست منذ البداية على قاعدة الاشتراك المتبادل في المنافع والمكاسب؟.

4- المقاربة المقترحة: قبائل معقل من بدو رحل إلى قوة إسناد عسكرية لدولة الأشراف

لم يكن لدولة الأشراف أن تتحول إلى قوة سياسية فعلية تحظى باعتراف الحلفاء والخصوم، في آن، دون أن تكون لها قاعدة اجتماعية حاضنة تلتف حول مشروعها وتزودها بالعناصر اللازمة للجندية حتى تتمكن من تحويل شعاراتها وتطلعاتها في تحرير الثغور المحتلة وإعادة إقرار الوحدة الوطنية إلى واقع حقيقي ملموس. فقد عمد الشرفاء السعديون في أولية أمرهم إلى استقطاب عناصر من قبائل مختلفة لتكوين نواة جيشهم تنتمي في أغلبها إلى مجالات كانت

تمثل في الأصل معاقل حيوية للحركة الجزولية ومحاضن أساسية لانتشار نفوذ شيوخها وصلحائها. وقد تزايد عدد هذه العناصر بوتيرة مضطردة مع تنامي نشاط الحركة السعدية واتساع دائرة نفوذها. وإذا كان من الصعوبة بمكان الحسم في تحديد هوية العناصر التي بقيت تمثل عماد الجيش القبلي الدائم بعد أن استقر القرار للسعديين بالمغرب على إثر قضائهم على الإمارة الوطاسية بفاس بسبب شح المعلومات وتضاربها وخلط المصادر في تصنيف القبائل بين من تحسب ضمن الكيش المخزني وبين من كانت مجرد قوات احتياطية تستدعي فقط للمشاركة في الحروك والعمليات العسكرية المؤقتة، فإن التوجه العام لتطور النظام العسكري في العهد السعدي، بحسب ما توحى به قراءة النصوص والوثائق التاريخية العائدة إلى هذه الفترة، يسمح بالقول أن عناصر الكيش التي استمرت تمثل روافد ثابتة ودائمة لدعم المؤسسة العسكرية، سواء في زمن السعديين أو حتى في زمن العلويين بعدهم، كانت تتألف في أغلبها من قبائل عرب معقل. ولعل استمرار هذه القبائل العربية تحديدا في أداء الخدمة المخزنية على امتداد فترات حكم هاتين الدولتين، رغم المشاكل والتوترات التي كانت تثيرها من حين لآخر في المجالات التي وطنت فيها سواء مع السكان المحليين أو حتى مع رموز السلطة الحاكمة، لهو أمر يدعو في الحقيقة إلى البحث عن الأسباب والمبررات التي كانت تقف وراء هذا الاختيار وتكرس تلك الاستمرارية.

أ- حول أسباب الاختيار وخلفياته

ليس هناك في المصادر التاريخية التي واكبت مسار تنقلات قبائل معقل، منذ أن أوصلتهم الرحلة إلى سهوب وهضاب الشمال الشرقي للمغرب وإلى الواحات الممتدة جنوبا ما بين توات شرقا إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا، ما يسمح باسشاف حقيقة الأسباب والخلفيات التي شكلت أرضية تاريخية لعلاقة التقارب والتلاقي بين هذه القبائل، أو بالأحرى بعض البطون منها، ودولة الأشراف بعد انطلاقها في عهد السعديين. لكن بالعودة إلى النصوص التاريخية التي وثقت سرديات تحركاتها والمجالات التي انتشرت بها والأنشطة والأعمال التي كانت تمارسها لضمان

عيشها والعلاقات التي ربطتها مع السكان المستقرين في القصور والمراكز المأهولة ومع ممثلي السلطة المركزية ابتداء من القرن السابع الهجري/ 13م إلى حدود القرن التاسع الهجري/15م، يظهر أن أقوى الأسباب وأرجحها التي جعلت هذه القبائل تحظى بمزية القرب والتقديم في عهد دولة الأشراف، إنما يعود إلى قوة وسعة انتشارها في معظم مجالات الصحراء وسيطرتها على أهم المحاور والطرق التجارية التي كانت تصل معظم المدن والمراكز جنوب المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء، وإلى تغلبها على سكان الواحات وإخضاعهم لنفوذها من خلال إلزامهم بأداء الإتاوات والغرامات نظير تأمين الحماية لهم ومنع أي اعتداء على ممتلكاتهم ومتمولاتهم²⁴، فضلا عما احترفته بعض المجموعات منها من خفارة للطرق وحماية قوافل التجار والمسافرين مقابل رسوم وإتاوات مجحفة، فيما اختصت مجموعات أخرى منها بممارسة الحراية والغارة وقطع السبل ونهب عابري الطرق كأسلوب لكسب المال وتحصيل أسباب الرزق والمعاش²⁵.

ب- أزمة الجنوب وسيادة الغلبة المعقلية على المجال

منذ أن دخلت إلى المغرب الأقصى رفقة القبائل الهلالية، انتهت رحلة تنقل عرب معقل إلى انتشارهم عبر شريط الواحات في المجالات التي كانت تنتجع فيها قبائل بني مرين "فتقاسموا معها المراعي الواقعة في حوض ملوية والريف الشرقي وضواحي فاس"²⁶. وقد أدت مزاحمتهم للمرينيين في هذه المواطن والمضارب إلى إبعادهم عن مداخل السهول الغربية بين حوض زيز وزا وذلك من خلال إسناد مراقبتها "لقبائل مكناس وبني ونجاسن وبني يرنيان الزناتية، أو

²⁴ - البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.58.

²⁵ - السبتي (عبد الأحد)، بين الزطاط وقاطع الطريق، م.س، ص.263؛ دوفوكو (شارل)، التعرف على المغرب، 1883-1884، ترجمة: المختار بالعربي، دار الثقافة، الطبعة الأولى 1419-1999، ص.173، 176-182.

²⁶ - تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الرباط، ص.219.

بواسطة قبائل حليفة كبني وريتان الصنهاجية وسويد الهلالية المستقدمة من المغرب الأوسط..²⁷.

وعلى إثر انعزالها في هوامش الصحراء، ستتحوّل علاقة عرب معقل الرحل بالتدرّج مع سكان الواحات من علاقة قائمة على السلم والتوازن إلى علاقة يطبعها الضغط والهجوم على سكان القصور المستقرّين ومعظمهم من زناتة من خلال إلزامهم بأداء إتاوات ثقيلة، وأحيانا أخرى، من خلال إجلائهم قسرا عن قصورهم واحتلالها والإقامة فيها²⁸.

ففي سجلماسة وبسبب الأزمة التي أدت إلى إنهاء دورها في نهاية القرن الثامن الهجري/14م كأشهر حاضرة في تاريخ المغرب الوسيط وكأهم مركز إشعاع تجاري كان يصل إفريقيا جنوب الصحراء بمدن وحواضر المغرب شمالا، تعرضت إلى تخريب مريع وواسع أنهى وجودها إلى غير رجعة، فدخل سكان قصورها إذ ذاك في صراعات طاحنة فيما بينهم غدتها تدخلات عرب معقل من العمارة والمنبات الذين صاروا يعترضون سبل قوافل التجار ويفرضون على ساكنة القصور إتاوات وضرائب ثقيلة مقابل حمايتهم وعدم شن الغارة على بساتينهم وزروعهم²⁹.

وبالمثل، فقد شهد حوض درعة سيطرة شبه كاملة لقبيلة أولاد حسين المعقلية التي لم تكن تركز إلى طاعة الحكام المرينيين ولا إلى الإعتراف بسلطة عمالهم إلا في فترات محدودة ومتقطعة، بحيث كانت لا تتردد في الثورة على السلاطين المرينيين وإزاحة ولاتهم على رأس إدارة درعة كلما سنحت لها الفرصة بذلك، كما كانت تستغل ظروف الأزمات السياسية والاجتماعية التي كانت تلقي بظلالها على مناطق الجنوب لتستحوذ على قصور المستقرّين بدرعة وتنتزعها

²⁷ - نفسه.

²⁸ - السبتى، بين الزطاط وقاطع الطريق، م.س، ص.262؛ البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.58.

²⁹ Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.92.

منهم بالقوة وتهاجم قوافل التجار عبر الطرق والمسالك التجارية التي كانت تربط درعة بتافيلالت وبينهما معا وبلاد السودان³⁰. وبالرغم من السياسة التي نهجها بعض السلاطين المرينيين من أجل احتواء العصبية العربية المتغلبة في المنظومة المرينية عبر نهج "أسلوب التدبير المفوض للمجال"³¹ القائم على "الإشراك المراقب في المنافع"³² والذي بمقتضاه صار شيوخ قبيلة أولاد حسين يشاركون في تحمل مسؤولية تسيير وادي درعة وتحصيل جبايته مقابل ما كانوا يحصلون عليه من إقطاعات زراعية بواحي محاميد الغزلان ولكتاوة، فإن هذه السياسة، مع ذلك، لم تفض في النهاية إلا إلى تزايد سطوة قبيلة أولاد حسين التي استغلت إطلاق يدها في جباية أموال وادي درعة لممارسة ضغوط أشد على المستقرين والمزارعين من ساكنة القصور وقبائل الرحل المنتجعين التي لم تتردد هي بدورها في مهاجمة سكان القصور بين الفينة والأخرى وتخريب دورهم ومزارعهم ومخازنهم ونهب مواشيهم وأنعامهم.

وقد استمرت قبيلة أولاد حسين على نهجها هذا، وهي تدير ظهرها للحكام المرينيين وتستقوي عليهم بدعم من حلفائها بني عبد الواد ملوك تلمسان³³، مما جعل شيوخها ورؤساءها يتحولون خلال القرن التاسع الهجري/15م إلى سادة مجمل واحات درعة؛ يفرضون سلطتهم عليها كما لو كانوا هم الحكام الفعليون؛ يغتصبون القصور ويستولون على الأراضي الزراعية ويثقلون كاهل الناس "بالضرائب والإتاوات المهرقة" بل ويفرضون "حمايتهم المأجورة على القوافل التجارية التي كانت تعبر وادي درعة"³⁴.

³⁰ - البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.54.

³¹ - تاريخ المغرب، م.س، ج.3، ص.309.

³² - نفسه، ص.300.

³³ - ابن خلدون، تاريخ بابن خلدون، م.س، ج.6، ص.63.

³⁴ - نفسه، ص.58.

وفي منطقة وادي نون والساقية الحمراء، انتشرت قبائل الرحامنة وأولاد أحمر وأولاد أبو السبع وأولاد دليم والأوداية والبرابيش وأولاد تيدارين والعروصيين والمغافرة الذين استقر قسم منهم بالفايجة جنوب تمنارت وقسم آخر منهم انتقل للاستقرار بالبحيرة. وقد تحركت أغلب هذه المجموعات المعقلية خلال القرن التاسع الهجري/15م في رحلة تكاد تكون شبه جماعية نحو المناطق الشمالية وهو ما شكل ضغطا قويا على القبائل الصنهاجية التي انسحب بعضها متراجعا إما نحو غور الصحراء أو زحف لائذا بمرتفعات جبال الأطلس الأكثر عزلة وحماية، فيما بقي بعضها الآخر في مواطنه فتم استيعابه واندمجت بطونه في بعض المجموعات المعقلية التي اشتهرت خلال هذه المرحلة بقوة شوكتها وتلاحم عصبيتها.

وحتى بعد انطلاق هذه التحركات المعقلية نحو الشمال، فقد بقيت قبيلة الرحامنة، التي كانت تنتشر يومئذ بالسهوب القريبة من آقا، تراقب المفازات والمسالك الصحراوية الممتدة حتى منطقة ودان، إذ لعبت في هذا المجال دورا نشطا في التجارة الصحراوية حيث كانت تتولى تجهيز قوافل تجارية وترسلها تحت إشرافها نحو بلاد السودان³⁵.

وفي الوقت الذي استقر فيه خلال هذه الفترة عرب الصباح والروحا بتافيلالت وإلى الشرق منها ذوي منيع وأولاد غنام والمعازيد وأولاد يحيى بدرعة الوسطى، كانت قبيلتا الشبانات وزيارة قد وصلتا مع بداية القرن التاسع الهجري/15م إلى حوز مراكش والتحقت بهما قبل متم هذا القرن قبائل الرحامنة والبرابيش وحربيل وأولاد دليم وإدا وبلال وأولاد بوسيع قادمة من موريطانيا في أقصى جنوب الصحراء³⁶.

³⁵ - Meunié (D.Jacques), *Le Maroc saharien des origines à 1670*, librairie Klincksieck, 1982, T.1, p.304 ;

Marçais, *Les Arabes en berbérie*, op.cit, pp.368-369.

³⁶ - Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.93.

أما في سوس الأقصى، فقد صار لقييل بني مختار من عرب معقل الغلبة الغلبة بعد أن انتشروا في جل المناطق التي وجدوها فارغة وكانت توفر بحكم قربها من الصحراء على مراعي خصبة تمتد على أوسع نطاق. وقد دخلوا إلى منطقة سوس، كما مر بنا في الفصل الأول، حينما دعاهم علي بن يدر الزكندري الذي كان قد أسس إمارة مستقلة بتارودانت أواخر عهد الموحيدين لمساندته في إخضاع بربر جزولة الرحل الذين كانوا قد رفضوا الانقياد لسلطته³⁷. وقد توسع عرب بني مختار جنوبا حتى وادي نون حيث تمكنوا في أوائل القرن الثامن الهجري/14م من إخضاع قبيلة لمطة وملتونة وأجبروهما على أداء إتاوات لهم مقابل إلتزامهم بالأمن والسلام معهم حتى إذا حل القرن التاسع الهجري/15م، صار قبيل ذوي حسان يتحكم في كل المناطق الممتدة من درعة حتى سواحل المحيط الأطلسي تقريبا، واتخذ أشياخهم ورؤساؤهم من مدينة نول مركزا لتجمعهم واستقرارهم.

وبعد أن ساءت علاقة علي بن يدر مع عرب بني مختار بعد أن أسرف في معاملتهم معاملة استبدادية قاسية ثاروا ضده في مواجهة أودت بحياته سنة 668هـ/1270م. ومنذ ذلك الحين تقوت شوكة هؤلاء المعاقل واشتدت سطوتهم حتى صاروا هم السادة المتغلبون على معظم مراكز وقرى سوس يفرضون على سكانها الإتاوات والمغارم الثقيلة ويراقبون المنافذ والمسالك التجارية³⁸. ولم تفلح أغلب الحملات العسكرية التي جردها الأمراء المرينيون ضد خلفاء علي بن يدر المنتزعين بسوس وعاصمتها تارودانت في احتواء تمردات عرب بني مختار وخضد شوكتهم إلا بشكل محدود ومؤقت في غالب الأحيان. ولم ينجحوا إلى الطاعة والمسالمة إلا بعد أن أشركوا في مهام مراقبة المجال وتديره عن طريق الحفاظ على الأمن وتحصيل الجباية مقابل أراضي واسعة

³⁷ - Marçais, *Les Arabes en berbérie*, op.cit, p.369.

³⁸ Ibid., pp.370-371.

أقطعتها إليهم الدولة المرينية في عهد السلطان أبي الحسن على وجه الخصوص؛ وهي إقطاعات استغلوها في زراعة الأرض وتربية الماشية³⁹.

ولم يكد يحل القرن التاسع الهجري/ 15م حتى كان عرب معقل يستولون على مجمل مداخل سوس ومواردها ويقتسمون فيما بينهم السيادة والنفوذ على القبائل الخاضعة لهم من صنهاجة ومصمودة التي انحاشت بطونها من البدو الرعاة إليهم؛ تقاتل إلى جانبهم وتشارك في عملياتهم الحربية: جزولة تسير مع بني حسان ولمطة مع الشبانات⁴⁰. وقد استمر هذا الوضع المتسم بالتجزئة القبلية وشيوع ظاهرة الغلبة التي فرضها عرب بني معقل بحد القوة والسياف على مجمل أراضي سوس حتى مطلع القرن العاشر الهجري/ 16م حيث سيعيد شرفاء درعة السعديون وبدعم من شيوخ الحركة الجزولية ومشاركة أتباعها توحيد منطقة سوس ومعالجة أوضاعها المهترئة تحت قيادتهم السياسية الجديدة⁴¹.

ت- عرب معقل ودورهم المؤثر في التجارة الصحراوية

إن تغلغل قبائل بني معقل في مختلف مفاصل المجالات الصحراوية وإحكام قبضتهم على أهم المراكز والتجمعات القبلية التي كانت تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي جعلهم، بالتبع، يلعبون أدوارا مؤثرة في سير الحياة التجارية واستمرار حركتها وذلك إما من خلال المشاركة المباشرة في أنشطتها ومبادلاتها⁴² أو من خلال مراقبة خطوطها ومسالكها وتأمين التجار

³⁹ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.92.

⁴⁰ - نفسه، ص.92.

⁴¹ - ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ص.403-404؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.92؛ الناصري،

الاستقصا، م.س، ج3، ص.244.

⁴² - الوزان، وصف إفريقيا، م.س، ج1، ص.118.

وقوافلهم مقابل رسوم وإتاوات أو من خلال عرقلة حركتها والتشغيل في محطاتها من خلال الإغارة على الطرق ونهب القوافل وتخريب التجار ومصادرة أموالهم وسلبهم وأمتعتهم⁴³.

فبعد انهيار سجلماسة واكتساح قبائل بني معقل لواحات درعة وتافيلالت انعطفت المحاور التجارية نحو واحات توات شرقا وصار الذهب الإفريقي يصدر إلى أوروبا عبر موانئ بجاية وهنين وتونس مما جعل المغرب يفقد في أواخر القرن الثامن الهجري/14م دوره كوسيط تجاري بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء لفائدة المغربين الأوسط والأدنى، وهو الأمر الذي أفقد الدولة المغربية، بالنتيجة، موردا من أهم الموارد الإقتصادية التي كانت تعتمد عليها في تنمية مداخيل مالياتها وتطوير قدراتها المادية والعسكرية.

وعلى الطريق التي كانت تربط سجلماسة بفاس شمالا أو درعة غربا، لعب عرب بني معقل دورا تخريبيا للحركة التجارية واستمرار أنشطتها التبادلية حيث كانوا يمارسون، إلى جانب برابرة صنهاجة الأطلس الكبير الشرقي أعمال اللصوصية والحرابة ضد القوافل التجارية التي كانت تتردد على هذه الواجهة الجنوبية الشرقية من الصحراء.

وهذا الوضع ذاته عاشته أيضا واحات وادي درعة تحت سيطرة قبيلة أولاد حسين المعقلية وجبروتها، فقد كانت هي الأخرى تفرض حمايتها المأجورة على القوافل التجارية التي كانت تنتقل بين درعة وتافيلالت وبين درعة وسوس. غير أن الانتعاش الذي عرفه المحور التجاري بين درعة وبلاد السودان، إبان القرن التاسع الهجري/15م إثر انهيار محور سجلماسة، انعكس إيجابا

⁴³ - الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1401هـ-1981م، ج1، ص435؛ العياشي (عبد الله بن محمد)، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ج1، ص.211، 142؛ الإدريسي (الفقيه)، "ركب الحاج المغرب بين إكراهات المجال وجاذبية المقامات المقدسة من خلال رحلة أبي سالم العياشي"، ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المشرق والمغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، مطبعة وورك بيرو، بني ملال، الطبعة الأولى، 2007، ص.253-257.

على حياة قبيلة أولاد حسين ومستقبلها؛ حيث اتجهت إلى المشاركة في الحركة التجارية مع بلاد السودان، مما قادها تدريجيا إلى الانتقال من حياة النجعة والترحال إلى حياة الاستقرار والارتباط بالزراعة وفلح الأرض. ولم يحل القرن العاشر الهجري/16م حتى أصبح "تجار القبائل العربية في واحات وادي درعة عامة وواحات محاميد الغزلان ولكتاوة وفزواطة خاصة يصلون بتجارتهم إلى تومبوكتو بإفريقيا جنوبا وإلى منطقة فاس شمالا..."⁴⁴، وصار شيوخها وأكابرها، نتيجة ذلك، يحيون حياة أشبه بحياة الأمراء لكثرة ما باتوا يملكونه من أراضي واسعة وأموال وفيرة اكتسبوها من أعمال التجارة مع إفريقيا السوداء جنوبا ومع باقي مدن المغرب في الشمال⁴⁵.

وفي منطقة وادي نون، التي كانت تعيش وضعية مستقلة تحت زعامة شيوخها ورؤسائها، فقد شهدت أواخر القرن التاسع الهجري/15م منافسة حادة بين البرتغاليين والإسبان من أجل التحكم في الساحل الأطلسي واحتكار التجارة مع المدن والمراكز التي كانت تضطلع بدور نشط في التجارة مع إفريقيا جنوب الصحراء. وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، وقعوا مع السكان المحليين اتفاقيات تجارية وحماية دخلت بموجبها مدينة ماسة تحت حماية التاج البرتغالي سنة 1479م ومدينة تكاووست والمراكز التي انضمت إليها سريعا: كإفني وإفران وتمنارت وفم الحسن، تحت حماية مملكة قشتالة سنة 1499م. والملاحظ في هذا الإطار، أن شيوخ عرب معقل الذين كانوا يتقاسمون النفوذ مع زعماء القبائل الصنهاجية في منطقة وادي نون، كانوا من بين الموقعين على هذه الاتفاقيات، بل إن شيخ قبيلة أولاد عمار المعقلية كان هو من تعهد بضمان تنفيذ اتفاقية تكاووست وحمايتها⁴⁶.

⁴⁴ - البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.61.

⁴⁵ المختار السوسي (محمد)، خلال جزولة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ج3، ص.102.

⁴⁶ - Bellakhdar, *Tissint*, op.cit, p.100-101.

ث- قبائل معقل بسوس وميلاد دولة الأشراف السعديين.

يذهب كثير من الباحثين مذهب الرواية التقليدية التي يروج لها الخطاب الإستوغرافي في تفسير نشأة دولة الأشراف السعديين حيث يتم الربط في هذا السياق، بشكل ميكانيكي، بين واقعة الاحتلال البرتغالي لسواحل سوس واستدعاء شيوخ التصوف الجزولي لشريف درعة محمد بن عبد الرحمن السعدي لقيادة الناس في هذا الإقليم في عمليات الجهاد ضد النصارى الغزاة. وأعتقد أن هذا التفسير الذي يكتفي بترديد منطوق الرواية التقليدية، لا يقدم، في الواقع، إلا رؤية اختزالية سطحية لمجمل ما جرى من أحداث على واجهات متعددة، فأنتهى به الأمر إلى صياغة قراءة نمطية انتقائية وضعت الجواب محل السؤال والنتيجة محل السبب، فكان هذا الخلل المنهجي من بين الأسباب التي ألفت بمزيد من الغموض على الكيفية التي وصل بها الشرفاء السعديون إلى الحكم في ظل محيط اجتماعي وسياسي كان يعج بصراع القوى القبلية وبتناقض مصالح الزعامات والمشيوخ المحلية.

إن ظهور دولة الأشراف كتعبير عن لحظة تاريخية فارقة توافق فيها التصوف العضوي المندمج في حياة المجتمع وهمومه والمجسد لتطلعات أريافه وبواديه في الإصلاح والتغيير مع الشرف الذي لم يسبق أن حامت حول رموزه شبهة الاختلاط مع أمراء البيت المريني أو الحصول على جراياتهم وأموالهم "المغتصبة"، ليثمر في أولية القرن العاشر الهجري/16م ميلاد نسق سياسي جديد هو نسق الدولة الشرفاوية، لم يكن، في واقع الأمر، ظهوراً أملتة مجرد ظروف طارئة أو ظرفية مرتبطة مباشرة بالغزو الأجنبي وأوضاع التجزئة السياسية والاجتماعية التي كانت تتردى فيها مجمل مدن وقرى سوس، وإنما كان ظهوراً تداخلت في سياقاته عدة عوامل وحيثيات تشكلت مفاعيلها واختمرت عبر مدى زمني طويل ولم يحن الإعلان عنها ضمن مسار تطور بنيات المجتمع المغربي وتعبيراته الاجتماعية والسياسية وقيمة والفكرية والذهنية الجماعية إلا بعد أن اكتملت ونضجت كل الشروط الموضوعية التي كان يحتاجها ذلك الظهور للتعبير عن نفسه في خطابات ومواقف وسلوكات أهم القوى الاجتماعية الفاعلة الجديدة التي

صارت تمسك بزمام المبادرة وبقوة التأثير في مجرى الحياة المجتمعية العامة خلال القرن التاسع الهجري/15م ومطلع القرن العاشر الهجري/16م.

فقد سبق وأن أوضحت المقاربات التي توقفنا عندها في بداية هذا الفصل، رغم ما يميزها من اختلاف في مرجعيتي النظر والتحليل، على مستوى تفسير نشأة دولة الأشراف، أن مؤسسة الزاوية، منذ الإخفاقات التي مني بها الحكم المريني في مجال الجهاد في عدوة الأندلس وفي مجال إعادة بسط نفوذ الدولة في بلاد المغرب⁴⁷، قد غدت تمثل مؤسسة تربوية واجتماعية قائمة بذاتها يحظى أقطابها وشيوخها بنفوذ اجتماعي وديني واسع في كل المناطق المغربية ولاسيما البدوية والجبيلية منها على وجه الخصوص. وقد تزايد هذا النفوذ بوتيرة أسرع وأوسع بعد أن حلت شبكات الزوايا التي انبثت فروعها في كافة ربوع التراب الوطني محل السلطة الوطاسية المتداعية بفاس في القيام بمهام التربية والتأطير الاجتماعي والحفاظ على الأمن والسلم بين القبائل والدعوة إلى الجهاد وتعبئة الناس للانخراط فيه والمرابطة في الثغور⁴⁸. وقد أدى تحول الزاوية من مجرد تنظيم صوفي تربوي إلى مؤسسة دينية واجتماعية منخرطة بشكل عضوي في تدبير شؤون المجتمع ومتفاعلة مع حركياته وقواه ومعبرة عن آماله وتطلعاته في الإصلاح والتغيير ضد مفاسد السلطة ومظالم حكامها واختلالات المجتمع وانحرافات أفرادها وجماعاته، إلى الزج بها تلقائياً في حلبة الصراع والتنافس السياسي على السلطة⁴⁹.

ولما كانت السياسة التي انتهجها السلاطين المرينيون في مجال الاهتمام بالأشراف قد استدعتها حاجتهم الملحة إلى دعم مشروعيتهم السياسية ومحاصرة تيار المتصوفة الذين رفعوا

⁴⁷ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م.س، ج3، ص.39.

⁴⁸ - الشادلي (عبد اللطيف)، التصوف والمجتمع. نماذج من القرن العاشر، مطابع سلا، سلا، 1989، ص.271-276.

Drague (Georges), *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc*, J.Peyronnet et Cie, éditeurs, Paris, pp.50-55.

⁴⁹ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م.س، ج3، ص.41.

شعار "محبة الرسول ومبرة آله" لكسب قطاعات عامة المجتمع ، والوقوف، من جهة أخرى، في وجه منافسيهم بنو عبد الواد، فإن التدابير التي اتخذها هؤلاء السلاطين تباعا لتجسيد هذه السياسة على أرض الواقع ، قد أفضت، في محصلة نتائجها، خلال القرن التاسع الهجري/15م، إلى تحول الشرفاء من من مجرد فئة عادية وغير ذات شأن واهتمام إلى فئة اجتماعية محظوظة لها وضع اعتباري مخصوص ونفوذ مادي مؤثر. وحيث إن شرفاء درعة لم يكونوا من ""شرفاء الدولة" ولا من الشرفاء المستفيدين"⁵⁰ كما كان حال فروع عدة شرفاء آخرين في المغرب، فقد وقع اختيارهم من طرف تيار المتصوفة المتجذر في البوادي والجبال لخوض تجربة الحكم "دون سائر أشرف البوادي بالشمال أو الجنوب"⁵¹ مادامت الظرفية العامة بجهة سوس والمتميزة، من جهة، بالاجتياح الإيبيري للشواطئ الجنوبية وبانقسام القوى القبلية واحتدام الصراع بين مشيخاتها وزعاماتها، من جهة أخرى، كان يستدعي هذا الاختيار ويزكي مشروعيته في هذا التوقيت بالذات.

ولا شك أن هذه القراءات الجادة والمثيرة للاهتمام التي قدمت تفسيرات تعد من أدق وأعمق التفسيرات المتداولة لحد الآن في حقل البحث التاريخي المغربي لفهم أسباب وكيفيات عبور النسق السياسي في المغرب من تجربة حكم العصبية القبلية إلى تجربة حكم الأسر الشريفة ابتداء من القرن العاشر الهجري/16م، قد ركزت في تحليلاتها بشكل خاص على أهم التطورات الاجتماعية والسياسية والمتغيرات الفكرية والذهنية التي انعكست بشكل جلي على بنيات المجتمع المغربي ومنظومة قيمه ومعتقداته وأدت في النهاية، وبعد مرور أكثر من قرنين من الزمان تقريبا، إلى إفراز هذه التحولات النوعية الجديدة.

⁵⁰ - القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، م.س، ص.126.

⁵¹ - نفسه.

ولذلك، فحينما تم الحديث عن الحركة الجزولية ودورها في إنجاز هذا الاستحقاق السياسي الكبير، جرى تصويرها كما لو كانت حركة دينية تعبوية ترنو إلى الإصلاح والتغيير وإعادة توحيد الصفوف ومحاربة العدو الأجنبي لكن من دون ربط ما رفعته من شعارات وما أنجزته من أعمال على هذه الصعد كافة، بما جرى قبل هذه المرحلة بزمان بعيد من تغييرات في خريطة الواقع القبلي والمجالي في سوس بعد دخول القبائل العربية المعقلية أواخر عهد الموحدين وما ألحقه انتشارها الواسع من إعادة تشكيل جديدة للمشهد الاجتماعي ولخريطة توزيع المجموعات القبلية وكان على رأس القبائل التي تأثرت بدخول هذه القبائل والضغط التي مارستها بدون حدود على السكان المحليين، هي القبائل الجزولية التي أبعدت عن مواطن استقرارها الأولى والأصلية ونالتها أكثر من غيرها معرة هؤلاء البدو الرحل وبقيت تنتظر، طيلة القرن التاسع الهجري/ 15م، اللحظة التاريخية المناسبة لرفع الأذى والخزي الذي لحقها واستعادة الأراضي التي أجليت عنها قسرا وإعادة الاعتبار لهويتها ووجودها ككيان حر مستقل⁵².

فبعد أن استدعيت قبيلة أولاد مختار لدعم جهود زعيم إمارة بني يدر في التصدي لقبائل صنهاجة وفي طليعتها جزولة الرافضين يومئذ لحكمه المستبد بتارودانت، سيعمد هؤلاء المعاقلة ، وبعد انقلابهم على حلفاء الأمس من أمراء بني يدر والاشتباك معهم في أكثر من مناسبة، إلى تبني مواقف بقيت في عمومها مناوئة للحكم المريني حتى وإن اتجهت أحيانا إلى دعم تمردات بعض الأمراء المرينيين للسلطة المركزية بفاس. غير أن ما أقدم عليه السلطان أبو الحسن المريني حينما أقطع أولاد مختار أراضي شاسعة بسوس "مقابل استخلاص الضرائب والرسوم باسم الدولة واقتسام المداخل مع بيت المال .."⁵³ فإن هذا الإجراء سيعزز من قوة وسطوة هؤلاء المعاقلة وسينقلهم من وضعية المعسكر الرافض للحكم المريني إلى وضعية الشريك المساهم في مجالات

⁵² - المختار السوسي، خلال جزولة، م.س، 1، 165.

⁵³ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.92.

التسيير وتحمل المسؤولية وذلك من خلال ما عبر عنه محمد القبلي بأسلوب "التدبير المفوض للمجال"⁵⁴ القائم على آلية الاقتسام المتبادل للمنافع والمكاسب. وهو أسلوب اعتمدته السلاطين المرينيون والدولة في أوج قوتها لاحتواء الزعامات والمشيوخات القبلية في الأطراف والمناطق البعيدة عن المركز التي قلما كانت تتمحض لسلطان المخزن أو تنصاع لإرادة ممثليه على المستويين الجهوي أو المحلي.

وستستغل قبيلة أولاد مختار المكاسب والامتيازات التي خولتها لها وضعيتها كشريك للحكم المريني في تحصيل الجباية وتدبير الأمن بسوس في عهد السلطان أبي الحسن المريني لإبعاد قبائل جزولة عن المجالات التي كانت تستقر بها والسيطرة على أجود الأراضي التي كانت تملكها، كما ستستغل، في الوقت نفسه، ظروف انحسار نفوذ الدولة المرينية على إثر فشل حملة السلطان أبي الحسن المريني على القيروان لتفرض مراقبتها على أهم ممرات الأطلس لمنع القبائل الصنهاجية من التحرك شمالا مما اضطر عدة مجموعات منها إلى التراجع والنزوح نحو الصحراء جنوبا⁵⁵.

ونظرا لما ترتب عن المنافع والفوائد المادية التي تأثلت لقبيلة أولاد مختار والغلبة الكاسحة التي صارت لها على سائر قبائل سهل سوس، فقد حدثت بين بطونها الأكثر شوكة وعددا نفرة وخلافات ربما لأسباب تعود إلى إرادة بعضها التحكم في رقاب البعض الآخر والتفرد دونه بفوائد الغلبة المشاعة، مما دعاها إلى عقد تحالفات مع بعض قبائل صنهاجة التي كانت قد حاربتها

⁵⁴ - القبلي(محمد)، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، تأليف وتعريب محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 2017، ص.309.

⁵⁵ - De la Chapelle (L.T), "Esquisse d'une histoire du Sahara occidental", *hesp*, V.XI, 1930, p.66.

من قبل وأخضعها لمغارمها. حيث تحالف الشبانات مع قبيلة لمطة، بينما تحالف ذوي حسان مع قبيلة كزولة⁵⁶.

وهكذا ففي الوقت الذي حافظت فيه قبيلة أولاد مختار على علاقات سلمية مع مصامدة الأطلس شمالا قائمة على تبادل المصالح ورعاية حقوق الانتجاع بالنسبة الأطراف الرعوية، فإن علاقاتها مع قبائل صنهاجة في الجنوب، والمبعدة قسرا عن البسائط والأراضي الزراعية الخصبة التي كانت في حوزتها من قبل، كانت مشوبة بعداء مستحكم، وأكثر من جسد هذا العداء هو قبيلة كزولة التي كانت تمثل الفصل الصنهاجي الأكثر تضررا من سياسة الإبعاد والغلبة التي أشاعها قبيل أولاد مختار في سهول سوس⁵⁷. حيث أقصيت عن كل البسائط الشمالية حتى ضواحي تيزنيت. وبسبب هذا الإقصاء الذي تعرضت له كزولة من قبل الشبانات وما عاناه باقي سكان القرى والمدن، بما فيها مدينة تارودانت، من قهر اجتماعي وعسف ضريبي بسبب كثرة المغارم والرسوم التي فرضها هؤلاء المعاقلة عليهم بدون هوادة⁵⁸، فقد توحدوا جميعا لينتفضوا "على مراحل ضد الفصل المتغلب"⁵⁹.

وتشير المصادر المغربية والأجنبية على السواء إلى أن هؤلاء العرب المعاقلة، وفي سبيل الحفاظ على وضعهم الاجتماعي كقوى متغلبة تستأثر بالسيادة على أجود الأراضي الزراعية والمراعي المفتوحة في أزغار وتستفيد من موارد هامة من الأنشطة التجارية التي كانت قد انخرطت فيها بشكل ملحوظ، وتقتطع، فضلا عن ذلك، رسوم الحماية والعبور على من كان يتردد من التجار الآخرين على أسواق ومراكز سوس التجارية، فقد دخلوا، وفي وقت مبكر، في

⁵⁶ - Meunier, *Le Maroc saharien*, op.cit, T.1, p.309.

⁵⁷ - المختار السوسي (محمد)، المعسول، الدار البيضاء، 1960، ج14، ص148، القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.303.

⁵⁸ - الوزان، وصف إفريقيا، م.س، ج1، ص.118.

⁵⁹ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.303.

علاقات تجارية مع البرتغاليين حينما حلوا بموانئ سوس للمتاجرة مع السكان المحليين والتزود بما كانوا في حاجة إليه من سلع ومنتجات محلية لمبادلتها بالذهب الإفريقي والعبيد انطلاقاً من الجزر التي كانوا قد احتلوها على سواحل إفريقيا الغربية⁶⁰.

وكما سارع عدد من زعماء بعض المراكز التجارية الأطلنتية بسوس للدخول تحت حماية التاج البرتغالي ووقعوا في سبيل ذلك اتفاقيات "حلف وتعاون" مع البرتغاليين، كما فعل سكان ماسة سنة 1497م ثم سكان مدينة تاكاووست في وادي نون بعد ذلك مع الإسبان سنة 1499م، فإن بعض شيوخ هؤلاء المعاقل أصبحوا هم أيضاً من بين أكبر حلفاء البرتغاليين منذ أن بنوا حصن فونتي سنة 1505م (وهو الحصن الذي صار يحمل إسم أكادير سنة 1513م Santa Cruz de Aguir بعد أن وضعت فيه حامية عسكرية تحت قيادة حاكم برتغالي). وكان سيدي مالك بن داوود قائد قبيلة أولاد جرار (Izarra) فيما يرجح⁶¹، قد لعب، في هذه المرحلة، نفس الدور تقريباً الذي لعبه يحيى أوتعفت بآسفي على مستوى خدمة أهداف الغزو البرتغالي والدفاع عن مصالح قاداته التجارية والاستعمارية⁶².

وإذا كانت قبيلتا أولاد جرار والشبانات من أبرز القبائل التي تعاونت مع المحتل البرتغالي وربطت معه علاقات تجارية منذ البداية بعد أن أصبح يتحكم في المحور التجاري الساحلي الذي يربط مراكز سوس بإفريقية الغربية، فإن ما حدث من تطورات على الساحة السوسية، وكانت كلها في غير صالح هؤلاء المعاقل، دفعتهم إلى إدارة ظهرهم للبرتغاليين، بل ومحاربتهم في حصن سانتا كروز إلى جانب من كانوا متواطئين معهم من أهل ماسة وغيرهم⁶³. ولعل أبرز أسباب هذا التحول، إنما تكمن في المنافسة التجارية البرتغالية التي ضاقتهم أشد مضايقة

⁶⁰ - مارمول (كاربخال)، إفريقيا، م.س، ج2، ص.33.

⁶¹ - نفسه، ص.33، 74.

⁶² - نفسه، ص.33.

⁶³ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.307.

والحصار الذي فرضه السعديون على حصن سانتاكروز وتحويلهم، في سبيل إنجاحه، لكل القوافل التجارية نحو مدينة تاركوكو.

وكان من الطبيعي، والحالة هاته، أن تستغل قبائل جزولة المبعدة عن أراضيها، تراجع نفوذ هؤلاء المعاقلة، حماة الشبكات الطرقية الأقدمين، لكي تنتفض في وجههم لاسترداد الأراضي التي اغتصبوها منها عنوة⁶⁴.

هكذا إذن، يظهر من خلال هذا التحليل أن استقدام قبائل جزولة للسعديين وترتيب كل الشروط التي تحقق من خلالها الإجماع على بيعتهم بتيديسي في مطلع القرن العاشر الهجري/16م، ليؤكد، دون مرأى، أن هذه القبائل قد استعادت مواقعها القديمة من جديد وصارت، أكثر من ذلك، تملك زمام المبادرة في تحديد اختيارات المجتمع السوسي ورسم معالم مستقبله السياسي بعد فترة من الإبعاد الناتج عن واقع الغلبة والتسلط الذي فرضته القبائل المعقلية بقوة الحراب والإنهاك الجبائي في مجموع بسائط سوس، كما يؤكد، من جهة أخرى، أن مصادر القوة المادية التي بنت عليها هذه القبائل البدوية أسباب تغلبها وتحكمها في الرقاب والأموال، وهي الأرض والتجارة، لم تعد لها نفس الإمكانيات والحظوظ للحفاظ عليها لضمان احتكارها والمحافظة عليها في ظل التحولات التي طرأت على موازين القوى المحلية بعد أن تمكنت قبائل جزولة من استعادة شروط المبادرة من جديد وعلى رأسها تملك أراضي أزغار المقصاة عنها سابقا لتتصدر بعدئذ واجهة الأحداث في ربوع سوس بأتمه⁶⁵، حيث ستلعب دورا محوريا في ترتيب بيعة الشرفاء السعديين وتعبئة كل الطاقات البشرية والمادية لدعم جهودهم في تحرير الثغور المحتلة وإعادة توحيد أطراف المغرب الجنوبي. كما تراجعت قوة قبائل بني معقل، علاوة على ذلك، بعد أن عمد البرتغاليون إلى السيطرة على المحور التجاري الأطلنطي مع

⁶⁴ - نفسه.

⁶⁵ - المختار السوسي، خلال جزولة، م.س، م1، ص.164.

إفريقيا الغربية وعملوا في سبيل احتكار تجارة التبر والعبيد على إدماج الطاقات الإنتاجية للسهول الغربية للمغرب في الشبكات التجارية التي باتت تربط موانئ دكالة والشاوية وسوس بالمراكز التي أنشأوها بغرب إفريقيا كأرغين وأشين ولامينا.

ولعل الآثار التي ترتبت عن هذه التحولات الجديدة، وحفاظا على المكاسب والفوائد التجارية التي كان يجنيها هؤلاء المعاقلة من التجارة الصحراوية، سواء عبر مراكز سوس أو درعة أو تافيلالت، هو ما دعاهم إلى الاصطفاف خلف السعديين الذين عملوا منذ البداية على محاصرة البرتغاليين في حصن سانتا كروز وتحويل مسار القوافل التجارية التي كانت تتعامل معهم في هذا الموقع نحو مراكز تجارية أخرى كانت تقع ضمن دائرة نفوذهم⁶⁶. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الدعم الواسع الذي حظي به السعديون في بداية حركتهم، لم يكن يرجع فقط إلى جهادهم ضد النصارى ونجاحهم في توحيد كلمة الناس، وإنما إلى وقوفهم بحزم منذ وضعهم اللبنة الأولى لإمارتهم الناشئة بسوس في وجه محاولة البرتغاليين تغيير اتجاه الطرق التجارية نحو الساحل الأطلسي حيث يوجد مركز سانتا كروز⁶⁷ وذلك حفاظا على الأدوار الهامة التي كانت تضطلع بها بعض مراكز ومدن سوس في التجارة القفلية مع إفريقيا جنوب الصحراء كمركز آقا في الأطلس الصغير الذي كانت تنطلق منه القوافل التجارية العابرة للصحراء ومركز تيديسي مهد الحركة السعدية الذي كان يعقد به سوق سنوي كبير وتقصده قوافل التجار من آفاق مختلفة⁶⁸.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن وقوف شيوخ الحركة الجزولية بسوس إلى جانب السعديين، حتى وإن تم تحت شعار الجهاد، وهو شعار ديني تعبوي ولا شك، كانت تحركهم، في واقع الأمر، دوافع اقتصادية، لأن المراكز التي احتضنت أنشطتهم الصوفية ودعواتهم الدينية،

⁶⁶ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.307.

⁶⁷ Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Hatier, Paris, 1990, p.195.

⁶⁸ Ibid., p.206.

كأقا وتيديسي، كان لها إشعاع تجاري كبير تجاوزت شهرته منطقة سوس لتصل حتى إفريقيا جنوب الصحراء. ولعل حضور هذه الخلفية التجارية هو ما جعل أهداف هؤلاء المتصوفة، وهم يحتضنون الحركة السعدية أول الأمر، تلتقي مع أهداف القبائل المعقلية، لأنهم جميعا كانوا يسعون إلى الحفاظ على الوضع الذي كانت عليه المسالك التجارية التقليدية من قبل ومنع أي محاولة لتغيير اتجاهها نحو السواحل الأطلنتية لفائدة البرتغاليين. ولذلك كانت تحركاتهم في حقيقتها ومقصدها "جهادا ضد الغزاة، وفي نفس الوقت، حربا ضد المنافسين"⁶⁹.

لقد كان قصدنا ونحن نستعرض أهم المقاربات العلمية المتداولة اليوم في مجال البحث التاريخي والتي قدمت تفسيرات في غاية الأهمية والوجاهة لفهم ملابس الطرقات التاريخية التي تم فيها انتقال نظام الحكم في المغرب من النمط العصبي القبلي، إلى النمط الشريف، هو أن نبرز أن الزاوية التي احتضنت الشرف وحولته إلى واقع سياسي ملموس، كانت هي قطب الرحى في هندسة مجمل التحولات الكبرى التي حصلت في البنى المجتمعية والسياسية والذهنية للمغرب إبان القرن التاسع الهجري/15م، ولم يكن لها أن تضطلع بهذا الدور، وبذلك القدر من الأهمية والخطورة، لو لا حالة التفكك والتفكك التي آلت إليها معظم الهياكل القبلية التقليدية التي لعبت فيما مضى، وعلى امتداد تاريخ المغرب الوسيط⁷⁰، الدور المؤثر والحاسم في

⁶⁹ - Ibidem

⁷⁰ - حول سيرورة التفكك التي آلت إليها معظم التكتلات والعصبيات القبلية الكبرى في المغرب راجع في الصد: تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص.309: التوفيق، المجتمع المغربي، م.س، ص.88-93: ملين(محمد نبيل)، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، ترجمة:عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، مطبعة كوتر برانت، الرباط، 2013، ص.82.

كل التطورات والتحولات التي شهدتها الواقع المجتمعي ومنظومة الحكم التي تداولت السلطة السياسية فيها عصبية قبلية وفق نظام دوري تكراري⁷¹.

بيد أن ما تجب الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن بنية القبيلة حينما استنفذت "أسباب هيمنتها على المجتمع لفائدة الزاوية معلنة عن أفول العصبية القبلية"⁷²، فإن هذا التحول لا يعني، البتة، أن القبيلة قد توقفت عن ممارسة أشطتها وأدوارها التقليدية المعتادة، بل الذي توقفت عن تقديمه ولم تعد لها القدرة على إنتاجه، كما كان شأنها في السابق، هو مساهمتها في بلورة وبناء أنظمة حكم سلالية جديدة. غير أن مشاركتها في مجهودات الدولة العسكرية والأمنية والتأطيرية لبنيات المجال ظل حاضرا ومتواصلا حتى بعد أن استنفذت هذا الإمكان السياسي لكن بأشكال اختلفت صيغها وخواصها من فترة تاريخية إلى أخرى، وذلك بحسب المكانة التي كانت تحتلها هذه القبيلة أو تلك في الخريطة القبلية للمغرب والقدرات البشرية والحربية التي تملكها، وكذا بحسب قربها أو بعدها من الدولة والمصالح التي قد تكون من أسباب استمرار علاقات التقارب أو التحالف فيما بينهما.

وبناء على هذا التصور، نطرح التساؤلات التالية: ماهي أصول قبائل الكيش التي اعتمدتها دولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول والمجالات التي كانت تنتشر بها؟ وما هي طبيعة العلاقة التي جمعتها مع هذه الدولة انطلاقا من ممارستها للخدمة العسكرية؟ ثم ما

⁷¹ - حول مفهوم النسق الدوري للدولة في النظرية الخلدونية يراجع: الجابري، فكر ابن خلدون، م.س، ص. 210-211؛ العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1984، ص. 43-44؛ أمليل(علي)، الخطاب التاريخي، م.س، ص. 166-167؛ العظمة (عزيز)، ابن خلدون وتاريخيته، ترجمة: عبد الكريم ناضيف، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، تموز (يوليو) 1981، ص. 83؛ جغلون (عبد القادر)، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الثالثة 1982، ص. 139-141؛ حميش (بنسالم)، "ابن خلدون وتجربة التاريخ المسدود"، أعمال ندوة ابن خلدون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981، ص. 387-399.

⁷² - تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص. 306.

هي الأسباب والدواعي التي جعلت نسق هذه العلاقة بينهما يكتسي طابع الاستمرارية والتجدد منذ بداية القرن العاشر الهجري/ 16م حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ 20م رغم ما كان يعترئها أحيانا من توترات أو انقطاعات؟.

-II قبائل الكيش ودولة الأشراف: أية علاقة؟

شكلت تنظيمات الكيش عبر تاريخ دولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول جزءا لا يتجزأ من المنظومة المخزنية وذلك بحكم الأدوار التي أوكلت إليها في ميادين المحافظة على الأمن واستخلاص الجباية وحماية الثغور ومراقبة المجال. ونظرا لأن تنظيمات هذا الجيش قد تكونت في أغلبية مكوناته في تاريخ المغرب الحديث من فرق تعود في أصولها إلى عرب بني معقل، كما سبق وأن أوضحنا في مواضع سابقة من هذا البحث، فإن هذه الفرق هي ذاتها التي استمر حضورها متواصلا في الخدمة المخزنية على عكس ما حصل مع فرق أخرى من إثنيات أخرى منذ أن أدمجها السعديون في تنظيمات الجيش المغربي ابتداء من مطلع القرن العاشر الهجري/ 16م إلى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ 20م رغم ما كان يتخلل علاقتها مع المخزن من توترات وتمردات كانت تفقد بسببها صفة وامتيازات الكيش ويتم ترحيلها عقابا لها من مواطن استقرارها إلى مواطن جديدة.

وبحكم أن المخزن الشريف كان يختار من بين أفراد هذه الفرق كبار القادة والباشوات بل وحتى الوزراء ومسؤولي الحناطي "الداخليين" و"البرانيين" في القصر الملكي⁷³ حتى صار بعضهم يعد من أبرز وجوه النخبة المخزنية وتحولت أسرهم إلى أشهر الأسر المخزنية التي توارثت خلفا عن سلف مناصب ومسؤوليات حساسة وهامة في أجهزة الدولة ومؤسساتها العسكرية والإدارية في تاريخ المغرب الحديث، فإن كل هذه الاعتبارات والحيثيات مجتمعة تدعو الباحث إلى التساؤل عن سر استمرار علاقة هذه القبائل المعقلية في الكيش المخزني وعن الأسباب التي

⁷³ - اب زيدا (عبد الرحمن)، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، 1381-1961، ج1، ص. 132-150.

دعت المخزن الشريف إلى اختيارها كشريك دائم في المؤسسة العسكرية والخلفيات الاجتماعية والسياسية التي أطرت تلك العلاقة وأسهمت في إعادة إنتاجها وتجديدها من فترة تاريخية إلى أخرى.

1- خلفيات انبناء العلاقة وتجذرها

ليس هناك في الحقيقة ما يسمح بتحديد طبيعة الأسباب والمبررات التي ساهمت في استمرار علاقة قبائل الكيش المنحدرة من أصول معقلية بالمخزن الشريف بشكل واضح ودقيق. غير أنه بالعودة إلى المصادر التاريخية المغربية المعاصرة للفترة موضوع هذه الدراسة يمكن أن تلمس بين تضاعيفها ما يسمح بتحديد أهم المبررات التي جعلت، فيما يبدو، هذه القبائل تتمتع بمكانة خاصة وبحظوة متميزة في الدوائر المخزنية طيلة تاريخ دولة الأشراف.

فقد يكون لأصولهم العربية المشتركة من شبه الجزيرة العربية ودخولهم شبه المتزامن تقريبا إلى المغرب واستقرارهم في مجالات واحة بالجنوب تتشابه من حيث خصائصها البيئية وسماتها الاجتماعية دور في دعم وشائج التقارب وسبل التلاقي بين هؤلاء العرب المعاقلة والأشراف سعديين كانوا أو علويين، لأن الخلفية التاريخية والمجالية المشتركة التي جمعتهم قبل وبعد حلولهم بالمغرب، والقواسم الاجتماعية والثقافية المتشابهة فيما بينهم من لغة وعادات وأسلوب عيش، كانت من العوامل التي سهلت، ولا شك، إمكانات التواصل والتوافق فيما بينهم لتتحول فيما بعد، حينما استدعت المصلحة والحاجة ذلك، إلى علائق والتزامات وظيفية ملموسة⁷⁴.

كما أن الواقع الجديد الذي فرضته قبائل بني معقل في جل مناطق ووحدات الجنوب المغربي بعد أن اقتسمت فيها السيادة والنفوذ فيما بينها ابتداء من أواسط العهد المريني

⁷⁴ - تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص.399.

وتغلبت على أغلب المجموعات القبلية الأصلية من زناتة وصنهاجة التي سبق وأن استقرت بها لردح طويل من الزمن فاضطر بعضها إلى الرحيل والهجرة نحو أغوار الصحراء جنوبا وإما نحو سلسلة جبال الأطلس شمالا⁷⁵، فيما بقي بعضها الآخر في موطنه، فاندмجت بعض الفصائل منه في جسم كيانات بني معقل المتغلبة. هذا الواقع الجديد الذي فرضته هذه القبائل البدوية الوافدة عبر مراقبة الطرق التجارية واقتطاع رسوم وإتاوات على قوافل التجار والمسافرين، ومن خلال إلزام سكان القصور والقرى والمدن في معظم مجالات الجنوب بأداء ضرائب وغرامات ثقيلة مقابل توفير الحماية لها وعدم الاعتداء على مزارعها وممتلكاتها، إلى غير هذا وذاك من أعمال الحراة والنهب واللصوصية التي اختصت بها بعض فرقها وفصائلها في كثير من المواطن التي انتشرت فيها سواء في الشمال الشرقي من المغرب أو جنوبه الغربي⁷⁶. كل هذه الوقائع والممارسات التي جعلت من قبائل بني معقل قوى حربية متغلبة مهابة الجانب شديدة العريكة والشكيمة يخشاها سكان الواحات المستقرين منهم أو الرحل ويحسب لها أصحاب الإمارة والجاه حسابها فيسعون إلى مسالمتها أو التحالف معها ويحجمون عن مواجهتها أو معاداتها خوفا من سطوتها ونقمتها⁷⁷، هي التي أهلتهم، فيما أعتقد، لأن يكونوا شركاء وحلفاء لدولة الأشراف السعديين والعلويين بعدهم حينما وحدتهم المصلحة التجارية والاقتصادية في مقاومة المحتل البرتغالي في منطقة سوس بعدما عمد قاداته إلى تحويل طرق القوافل التجارية التقليدية عبر الصحراء إلى واجهة الساحل الأطلسي.

⁷⁵ للتوسع في هذا الموضوع راجع:

Colin (georges.s), "Origine arabe des grands mouvements de populations berbères dans le Moyen-Atlas", *hesp.*, T.XXV, 1938, 2°-3° Trim., pp265-268 ; De la chapelle, *esquisse d'une histoire du Sahara*, op,cit,p.66.

⁷⁶ - البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.61.

⁷⁷ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.281-302.

ونظرا لتمرس هذه القبائل البدوية بالغارة وشغفها بالحروب وقدرتها على تحمل قساوة الظروف وتقلبها وصبرها على الشدائد والملمات وولعها باقتناء أجود الخيول والتفنن في تربيتها وترويضها ومهارتها في ركوبها وخوض الحروب على صهواتها وإتقانها لفنون المبارزة والرمية حتى غدت لديها قيم الشهامة والإباء واقتحام المخاطر والمجاهل عنوانا للفحولة والبطولة⁷⁸، فإن هذه الميزات والخصائص قد أضفت على هذه القبائل بشكل تلقائي وطبيعي صفة القبائل المحاربة المقاتلة سيما وأن أغلبها بقي يعيش إلى حدود القرن العاشر الهجري/ 16م على الرعي والانتجاع. وهذا النمط من العيش الذي يفرض، كما هو معلوم، تنقلات دائمة عبر المجال في رحلات دورية موزعة بين المراعي الشتوية والصيفية كان يقحمها باستمرار في دوامة من الصراعات والنزاعات من أجل السيطرة على الموارد الرعوية الضئيلة بالصحراء التي قلما كان وجود شح مياه المطر بفرص تنميتها وتجدها. وهذا الأسلوب في المعاش الذي ولد لدى هذه القبائل البدوية تلك الطاقة الحربية المتأججة وذلك الفائض من العنف الجاهز دائما للاستخدام هو الذي كان يدفعها إلى ممارسة أسلوب الغارة والغزو دون تردد ضد الجماعات القبلية الأخرى إما بهدف سلبها أنعامها وأموالها في ظروف اشتداد الأزمات والمسغبات وإما بهدف التغلب عليها واستتباعها لنفوذها والسيطرة على موارد مجالها⁷⁹.

ولا شك أن هذه الطاقة الحربية الكامنة لدى قبائل بني معقل وقدرتها الفائقة على خوض الحروب والصبر على أهوالها ومخاطرها كانت هي الأخرى من بين المؤهلات التي رشحتها لتكون الدرع العسكري القبلي الحامي الذي استندت إليه دولة الأشراف في تدبير شؤون الحكم وضبط

⁷⁸ - حول مظاهر حياة هذه القبائل العربية راجع:

أبو ضيف (مصطفى)، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (524-876هـ/1130-1472م)، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، 1982، ص. 231-255.

⁷⁹ - الجابري، فكر ابن خلدون، م.س، ص. 405-421؛ نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، م.س، ص. 250؛ الإدريسي (الفقيه)، "الغزو، نمط"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 2004-1425، ص. 6347.

أحوال المجتمع إلى جانب الفرق العسكرية النظامية الأخرى التي جندتها لنفس الأغراض والمهام. وقد استمرت هذه القبائل ذاتها تمثل العمود الفقري في "قطاع الجيش وفي المجتمع"⁸⁰ في دولة الأشراف العلويين كذلك الذين أضافوا إلى ما ورثوه عن السعديين فرقا قبلية أخرى لتستكمل في زمنهم قبائل الكيش "تشكيلتها التقليدية النهائية"⁸¹. وتعود استمرارية هذه القبائل في العمل المخزني إلى الدربة والخبرة التي اكتسبتها في ميدان الخدمة العسكرية وإلى التقاليد والعوائد المخزنية التي تهرست عليها واعتادت على ممارستها في احتكاكها وتعاملها مع شؤون المخزن ومؤسساته المختلفة وإلى الإخلاص في أداء الواجبات والمسؤوليات والوفاء والطاعة التي أبانت عنها في كثير من اللحظات التاريخية الصعبة والفارقة تجاه الدولة والقائمين عليها من سلاطين وأمراء وقواد وأعوان وغيرهم.

2- عوامل استمرار العلاقة وتجديدها

انطلاقاً من التجارب التي راكمتها قبائل الكيش في أداء الخدمة العسكرية والمواقف والمسلكتيات التي أطرت علاقتها مع الدولة ورموزها عبر مسار تطورها، يظهر أن من بين العوامل التي ساهمت في الحفاظ على استمرارية تلك العلاقة وضمان تواصلها بشكل شبه منتظم وعززت، في نفس الوقت، ارتباط هذه القبائل بمنظومة المخزن ورسخت لديها شعور الانتماء إلى أجهزته العسكرية الإدارية، إنما تنحصر في الآليات التالية:

أ- المكاسب والتحفيزات المادية

لا يخفى أن اختيار دولة الأشراف لهذه القبائل للمشاركة إلى جانب القوات النظامية الأخرى في مهام مراقبة المجال والمحافظ على الأمن والاستقرار، إنما يعود إلى أن هذا الاختيار

⁸⁰ - الشابي، الجيش المغربي، م.س، ج1، ص.143.

⁸¹ - نفسه.

العسكري كان غير مكلف بالنسبة إليها من الناحية المادية والتنظيمية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تتطلبه عملية تعبئة عناصر الجيش النظامي الدائمة من نفقات مالية باهضة الكلفة لتغطية رواتبها وتسليحها وتمويلها وكسوتها...إلخ. ولذلك، ولكي تشجع هذه القبائل على أداء ما أنيطت به عادة من مهام وأدوار وظيفية، فقد دأبت على إقطاع أفرادها أراضي فلاحية لاستغلالها في الزراعة والرعي لضمان موارد عيشهم والاستمرار في الوفاء بالتزاماتهم إلى جانب ما كانوا يحصلون عليه من رواتب وعطايا مالية وغنائم وأسلاب أثناء الحروب والمواجهات. ونظرا لأن هذه الإقطاعات، علاوة على ما كانت تتمتع به من إعفاءات جبائية، باستثناء الضرائب الشرعية، كانت تمثل موردا ومكسبا ماديا على قدر كبير من الأهمية انفردت به دون سائر القبائل الأخرى المحسوبة في عداد قبائل النابية التي كانت مجبرة، إلى جانب أدائها لمختلف الكلف والفروض الجبائية، على المساهمة في الحملات العسكرية والحروب الدورية التي كان ينظمها المخزن بين الفينة والأخرى، فإن هذا الامتياز كان يمنحها وضعية تفوق مادي في المجال، كما كان يعطيها نوعا من الواجهة والحظوة في علاقتها مع باقي القبائل والجماعات الأخرى التي كانت تقيم في جوارها الجغرافي القريب والبعيد. وذلك لأنها، من جهة، كانت تتمتع بصفة خدام المخزن وأهل السابقة في خدمته ولها تفويض رسمي من أعلى سلطة سياسية في الدولة، ممثلة في السلطان، لتدبير شؤون المجال ومراقبته، ومن جهة أخرى، لأنها تقيم فوق أراضي منحت لها كإقطاع استغلال ولكن بموجب رسم ظهير سلطاني يحمل توقيع السلطان بكل ما يحمله من رمزيات ودلالات بوصفه هو وحده صاحب الحق الأعلى المخصوص فيما يشمل رعاياه وخدامه من عطايا وهبات. مما يعني أنها كانت مشمولة برعاية وعطف الإرادة السلطانية ككل الخدام والأعوان الذين يحظون بمزية القرب والتقديم في الدوائر المخزنية العليا⁸².

⁸² Morsy, "Moulay Isma'il et l'armée de métier", op.cit, p.99.

وهذا الوضع الاعتباري المخصوص الذي كان يميزها عن باقي قبائل النابية سواء من حيث الامتيازات المخولة لها أو من حيث الهالة المخزنية التي ينطبع من خلالها حضورها في المجال كمعسكر من الجنود الفلاحين، هو الذي كان يدفع هذه القبائل إلى الحرص دوماً على أداء واجباتها وخدماتها بما يتماشى وينسجم مع التوجيهات والضوابط المخزنية ولا يتعارض، في نفس الآن، مع وضعيتها كشريك للمؤسسة المخزنية في تدبير المجال، وذلك حتى لا تفقد موقعها الاعتباري المميز في التراتيب والدواليب المخزنية وتسقط من ديوان الجندية وتصير من جملة قبائل النابية الغارمة. لأن انحدرها إلى وضع كهذا يعد من الناحية الإدارية والاجتماعية والنفسية عقاباً وحرماناً لها من الامتيازات والمكاسب المادية الممنوحة لها وتجريداً لها من مظاهر الهالة المخزنية التي اكتسبتها طيلة فترة مزولتها للخدمة المخزنية⁸³.

وتبعاً لذلك، كان الحفاظ على هذه الامتيازات وتلك الهالة المخزنية المكتسبة من أهم الأسباب التي ساهمت في استمرارية علاقة هذه القبائل بالمؤسسة المخزنية لأكثر من أربعة قرون من الزمان وفي تشبع وتطبع أفرادها بطبائع وتقاليد هذه المؤسسة ورموزها وطقوسها في كثير من أوجه حياتهم الاجتماعية والسلوكية حتى غدوا مع مرور الوقت يعتبرون أنفسهم أنهم جزء لا يتجزأ من المنظومة العسكرية والإدارية والسياسية للدولة ككل⁸⁴.

ب- الزواج والمصاهرة

في ظل مجتمع كانت لا تزال تشكل فيه القبيلة البنية القاعدية الأهم والأوسع للنسيج الاجتماعي المغربي وعليها يدور مدار حياة الأفراد والجماعات رغم ما آل إليه واقع أغلب التكتلات القبلية الكبرى من تفكك وتفتت، استنفذت معه معظم العصبية القبلية المشهورة،

⁸³ - راجع بعض الأمثلة الدالة على هذه الوضعية عند:

الفتشالي (عبد العزيز)، **مناهل الصفا**، م.س، ص.109؛ الإفرائي (محمد الصغير)، **نزهة الحادي** بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1419-1998، ص.174.

⁸⁴ - الشابي، **الجيش المغربي**، م.س، ج1، ص.153.

التي كانت أكثر حركية وفاعلية في سيرورة تشكل الدول وسقوطها إبان تاريخ المغرب الوسيط، قدراتها على الاستمرار والاضطلاع بنفس الأدوار والمساهمات بعد أن حلت محلها تنظيمات الزوايا وصارت تغطي بفكرها وقيمها ووظائفها الجديدة مختلف فضاءات الحياة القبلية وتستأثر بمواقع التأثير الأولى والأساسية في مشهدها الاجتماعي والسياسي والثقافي، كان لابد للسلطان في دولة الأشراف أن يأخذ بعين الاعتبار استمرار أدوارها وتأثيراتها الملحوظة في الحفاظ على التوازنات الاجتماعية واستقرار الأوضاع السياسية وكيف ولا وهو الذي أتى إلى الملك محمولا على أكتاف مجموعات من القبائل الحليفة التي مثلت بالنسبة إليه عصبية ظل داعمة وحاضنة له ولمشروعه السياسي حتى وإن كان أصله ونسبه الشريف يضعه فوق كل العصبية القبلية وخارج أي تحالف من التحالفات الاجتماعية المتقاطبة والمتعارضة.

ولهذا السبب ولتقوية دعائم سلطته وتثبيت مشروعيته وكسب قوى اجتماعية حليفة يمكن الاستفادة من مكانتها وموقعها المؤثر في الذوذ عن حمى الدولة وتنفيذ خياراتها السياسية، عمد السلطان الشريف شأنه شأن باقي ملوك وخلفاء الدول المغربية السابقة إلى إقامة شبكة من التحالفات مع عدد من القوى الاجتماعية والنخب الدينية والعلمية التي تتمتع بنفوذ اجتماعي ورمزي واسع ووازن في حياة الناس ووعيهم الجماعي. وكان على رأس القوى الاجتماعية التي حرص السلطان الشريف على استدراجها والتقرب إليها لإقامة علاقات تحالف وتعاون معها، تلك المتعلقة بالمجموعات القبلية التي كان لها ولزعمائها وشيوخها من النفوذ والوجاهة والقدرة على التعبئة والاستقطاب الاجتماعي ما يؤهلها للعب أي دور من الأدوار المحتملة في الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة وتكريس خياراتها ورهاناتها الآنية والمستقبلية. وكانت الوسيلة الأنجع والطريقة الأسهل لعقد هذه التحالفات وضمان نجاحها ودوامها لمدة أطول والاستفادة منها لضمان نتائج ومكاسب أوثق وأضمن هي عقد زواجات ومصاهرات مع أعيان ووجهاء القبائل المشهود لهم بالحكمة والحنكة ونفاذ الكلمة وبشدة البأس وقوة العريكة في الدفاع عن أفراد القبيلة ومجالها الحيوي.

وتوضح شبكة الزوجات والمصاهرات التي عقدها بعض سلاطين دولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول، والتي احتفظت المصادر والوثائق التاريخية بذكرياتها وأخبارها أن الأهداف والرهانات التي من أجلها عقدت كانت تستهدف في الجملة غايتين على الأقل:

الأولى، هي كسب دعم القبيلة وتقوية روابط تبعيتها وولائها للدولة بصفة عامة وللسلطان بصفة خاصة الذي اختار مصاهرة عين من كبار أعيانها بمحض إرادته أو اختارته القبيلة هي نفسها لمصاهرته بمبادرة منها حينما ارتضى أحد أعيانها وكبرائها تقديم أحد بناته هدية له تكريماً وإعزازاً لشخصه بمناسبة حلوله بين ظهرانيتها، وهي خطوة إنما يكون القصد منها عادة هو تمتين أواصر القرابة والوصلة بين القبيلة والسلطان وتعزيز مكانة وجهائها وأعيانها في شبكات مراكز النفوذ وخريطة توزيعها بين المستويين المحلي والوطني.

والثانية، هي دمج القبيلة التي جرى عقد قران المصاهرة معها في علاقات إنتاج وإعادة إنتاج السلطة وتوسيع شركائها المدافعين عن مشروعيتها من داخل النسيج القبلي باعتباره القاعدة الاجتماعية الأوسع والأقوى في المجتمع. ولعل هذا الهدف هو ما كانت تثمره علاقات الزواج والمصاهرة في كثير من الأحيان، لأن مثل هذه العلاقات التي تختلط فيها الدماء والأنساب كانت ترعاها القبائل بكثير من الاعتزاز والمفاخرة والتعظيم لأنها كانت تنقل القبيلة من موقع الحياد إلى موقع الحليف المشارك في لعبة السلطة وصناعة قراراتها وتدخلاتها في كثير من القضايا والأمور الهامة والحساسة التي تهم الواقع القبلي.

ومما تظهره المصادر التاريخية في هذا السياق أن شبكة الزوجات والمصاهرات في عهد دولة الأشراف اتسعت لتشمل عدة قبائل من أصول وإثنيات مختلفة. غير أن أهمها وأشهرها كان ينحدر في الأغلب الأعم من أصل عربي (أعني من جهة اللسان والثقافة ليس إلا). كما امتدت مجالياً لتشمل عدة جهات من جغرافية المغرب. غير أن مناطق الاستقطاب الأهم فيها انحصرت بشكل خاص في المجالات الداخلية الممتدة من سايس مروراً بالشاوية ودكالة وعبدة وصولاً إلى الحوز. وهذا التوزيع بهذه الصورة لخريطة شبكة الزوجات والمصاهرات كما توضحها بشكل جلي الأصول القبلية والمجالية لأبناء السلطان مولاي إسماعيل على سبيل المثال كما

أوردها عبد الكريم بن موسى الريفى⁸⁵، وكما أعاد نشرها مع بعض التعديلات والإضافات الضعيف الرباطى⁸⁶، يؤكد أن السلطان الشريف كان غالبا ما يختار القبائل الأكثر شوكة وعصبية في المجالات الأكثر حيوية واستراتيجية لمصاهرتها بهدف الاستفادة مما قد ينشأ معها من علاقات تقارب ووافق لدعم وترسيخ دعائم حكمه بين ظهرانيتها وإشراكها متى وجد إلى ذلك سبيلا في الدفاع عن سياسته ومؤسسته فيما يليها من قبائل مجاورة، وإذا لم يفلح في تحقيق هذه المساعي والأهداف فعلى الأقل تحييدها، ولو إلى حين، من صفوف المعارضين المفترضين لسياسته، وتلافي الدخول معها في أي مواجهة محتملة قد تكلف الدولة والجيش متاعب وتضحيات هي في غنى عنها.

وإذا كنا نفتقر إلى ما يكفي من المعلومات التي من شأنها تسليط الضوء على هويات وانتماءات زوجات سلاطين دولة الأشراف في الفترة المعنية بالدراسة، فإن ما تداولته المصادر المعاصرة من أسماء بهذا الشأن يفيد بأن من ذاع صيتهن أكثر واضطلعن بأدوار مميزة تركت بصماتها في تاريخ المغرب الحديث كن ينحدرن من قبائل معقلية كان بعضها ينتمي إلى قبائل الكيش المخزني. ومن بين أشهرهن في العهد السعدي على سبيل المثال: نذكر السيدة الحرة مسعودة بنت الشيخ أبي العباس أحمد الوزكيتي زوجة السلطان أحمد المنصور السعدي التي عرفت بصلاحها وإقبالها على فعل الخيرات وإنشاء ما ينفع الناس من مرافق عامة⁸⁷ والسيدة

⁸⁵ - الريفى(عبد الكريم بن موسى)، زهر الأكم. مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص.209-213.

⁸⁶ - الضعيف (محمد بن عبد السلام)، تاريخ الضعيف الرباطي، دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشيعي، دار الثقافة- الدار البيضاء الطبعة الأولى، 1408هـ-1918م، خ1، ص.292-294.

⁸⁷ - حول هذه الأميرة أنظر :

المقري (أحمد بن محمد)، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1403-1983، ص.64-65؛ بن القاضي (أحمد)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1986، ح1، ص.256-257؛ الإفرائي، نزهة الحادي، م.س، ص.146.

سحابة الرحمانية⁸⁸ زوجة السلطان محمد الشيخ المهدي التي لعبت أثناء فترة لجوئها، وهي بديار القسطنطينية رفقة ابنها عبد الملك وأخيه أحمد، دورا لا يخفى في المفاوضات التي انتهت بإقناع السلطان العثماني مراد الثالث بمساعدة الأمير عبد الملك لاستعادة الملك في المغرب من يد ابن أخيه محمد المتوكل، ثم السيدة عائشة بنت أبي بكر المعروفة بللا الشبانية زوجة السلطان أحمد المنصور السعدي وجدة الأمير أبي العباس بن محمد الشيخ الأصغر آخر أمير سعدي الذي اغتاله عبد الكريم الشباني المدعو بكروم الحاج، أحد وجوه قبيلة الشبانات المعقلية، وكان قد أسس إمارة بمراكش واستبد بالحكم بها لمدة عشر سنوات تقريبا من 1658م إلى 1668م⁸⁹.

أما في العهد العلوي، فتشير المصادر التاريخية إلى أن مولاي الرشيد وفي سبيل توطيد علاقته مع أهم القبائل التي تحالفت معه وقدمت له الدعم والنصر في المراحل الأولى من حكمه، فقد حرص على مصاهرة بعض شيوخها ورؤسائها الذين كانت لهم اليد العليا في وسط عدد من القبائل كالشيخ اللواتي زعيم إحدى القبائل العربية بشرق المغرب، والشيخ أعراص بالريف الذي أهدى لمولاي الرشيد إحدى بناته كعربون وفاء وإخلاص له بعد أن كان قد رفض في البداية الاعتراف بسلطته ووقف في وجه قواته بمنطقة الريف.

⁸⁸ - حول هذه الأميرة راجع:

العطري (عبد الرحيم)، الرحامنة القبيلة بين المخزن والزواوية، منشورات دفاثر العلوم الإنسانية، طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 2012، ص.25؛ الإدريسي (الفقيه)، "الرحمانية، سحابة"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلال، سلا، 2001-1422، ص.4310-4311.

⁸⁹ - حول هذه الأميرة أنظر:

ابن الحاج (أحمد بن محمد)، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، م.خ.ج.12187، ج.7، ص338؛ الإفرائي، نزهة الحادي، م.س، ص374؛

S.I.H.M,Ang, T.I., p.VII- T.II,p.350.

على أن أهم ما اشتهر به مولاي إسماعيل من كثرة النساء الحرائر والجواري واللائي بلغ عددهن حسب شهادة الأب بيسنو حوالي خمسمائة امرأة من كل الجنسيات⁹⁰، فقد كانت غايته من هذا التعدد، فيما يبدو، خاصة بالنسبة للزوجات اللائي كن ينتمين إلى عدد من القبائل المغربية هي تعزيز روابط القرابة واللحمة مع تلك القبائل وضمان ولائها وطاعتها للدولة متى استحضرت رابطة المصاهرة التي تجمعها بالسلطان، لأن وشائج القرابة والوصال التي تنشأ عن علاقة الزواج كانت تحظى بتقدير واحترام شديدين في الثقافة المغربية كانا يصلان أحيانا إلى حد اعتبارها من الثوابت المحرمة التي لا يجوز، بأي حال، المساس "بقديستها" أو التطاول على حرمتها، لأن مفهوم وحدة "الدم" التي تستمد منه مبرر وجودها والنسب الذي يتولد عنها استتباعا هو الذي كان يعطيها كل تلك القوة والمهابة في المخيال الاجتماعي والثقافي للقبيلة المغربية.

وإذا كانت المصادر المغربية والكتابات الأجنبية التي انفردت بذكر بعض الأخبار والشهادات بخصوص حريم السلطان في عهد مولاي إسماعيل ومظاهر سير حياته اليومية في الإقامات المخصصة له بالقصور الملكية مكناس قد أشارت إلى أسماء بعض المحظيات من النساء اللائي ملأن على السلطان قلبه وفكره واضطلعن بأدوار ترددت أصدائها في الأوساط الاجتماعية والسياسية المغربية وحتى لدى بعض البعثات السفارية الأجنبية، فإن أشهرهن ذكرا وأبعدهن صيتا كانت هي الأميرة خناثة بنت بكار شيخ قبيلة المخافرة بالصحراء⁹¹ التي اشتهرت بتفقهها في

⁹⁰ - ابن زيدان (عبد الرحمن)، المنزعة اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1413-1993، ص.391.

Busnot (Dominique), *Histoire du règne de Moulay Ismail*, imprimerie Hérissé, France, 2002, p.73.

⁹¹ - الإسحاقى (الشرقيين محمد)، رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، دراسة وتحقيق، محمد الأندلس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1438هـ-2017م، ج2، ص.230؛ الزباني (أبو القاسم)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى 1992، ص.159؛ القادري (محمد بن الطيب)، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م، ج1، ص.355.

علوم الدين وشغفها بالأدب والشعر والأدوار البارزة التي لعبتها في حياة المغرب السياسية وخاصة في عهد الأزمة التي تلت وفاة السلطان مولاي إسماعيل وكذا في حياته الدبلوماسية مع العالم الخارجي⁹².

وبحكم علاقة الخوولة التي جمعت مولاي إسماعيل مع قبيلة الوداية المعقلية⁹³ والتي توجت بعد ذلك بعلاقة المصاهرة التي جمعتها مع قبيلة المغافرة⁹⁴، التي تنحدر هي الأخرى من ذات المنبت، ازدادت صلاته قربا ومتانة مع هاتين القبيلتين وترسخت أكثر بعد أن أدرجهما ضمن قبائل الكيش وأسكنهما بجواره في مدينتي مكناس وفاس للاستعانة بهما في حماية العاصمة والمساهمة في مجهودات الدولة التأسيسية للمجال. ونظرا للمنزلة الرفيعة التي تبوأها هاتين القبيلتين في وجدانه وفؤاده، فقد كان يذكرهما في مجالسه الخاصة ومراسلاته المختلفة دائما بعبارة " أنتم أخوالي" دون الإشارة إليهما بالإسم وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على عمق

De La Verronne (Chantal), *Vie de Moulay Ismail roi de Fez et de Maroc d'après Joseph de léon (1708-1728), étude et édition*, Paris 1974, p.30.

⁹² - حول أدوارها في المجال السياسي والدبلوماسي راجع:

ابن زيدان (عبد الرحمن)، *إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*، مطابع إديال، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 1990، ج3، ص12-33، القادري، التقاط الدرر، ج2، ص355-356؛ الأخضر (محمد)، *الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)*، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1977، ص243؛

Morsy (Magali), *La relation de Thomas Pellow, une lecture du Maroc au 18° siècle*, éd, recherche sur les civilisations, Paris 1993, T.2, pp.226-227.

⁹³ - هذه الخوولة تعود إلى تلك "الأمة" التي اقترن بها أبوه مولاي الشريف حينما كان معتقلا من قبل أبي حسون السملالي بإيليج وأصلها يقول المختار السوسي: "من الوداية أهداها الجراريون إلى بودميعة" راجع: المختار السوسي، *إيليج قديما وحديثا*، المطبعة الملكية، الرباط، 1426هـ-2005م، ص110؛ الضعيف الرباطي، *تاريخ الضعيف*، م.س، ج1، ص97.

⁹⁴ - الإسحاق، *رحلة الوزير الإسحاق الحجازية*، م.س، ج1، ص228؛ بنعبد الله (عبد العزيز)، *الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية*، معلمة الصحراء، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976، ص200.

ومتانة العلاقة التي كانت تجمعهم بهاتين القبيلتين والتي امتزج فيها البعد القرابي بالبعد السياسي امتزاجا مركبا⁹⁵.

ت- إشراك شيوخ القبائل العربية في الاستشارة والتدبير

تقديرا منه لأهمية المكانة التي يحتلها شيوخ القبائل في سير وانتظام الحياة الاجتماعية والسياسية العامة والأدوار المؤثرة التي اضطلعوا في كثير من الأحداث والتطورات التي شهدتها المغرب بعد انحسار نفوذ الإمارة الوطاسية واكتساح عرب بني معقل لمجمل مناطق ووحدات الجنوب المغربي، فقد حرص السلطان الشريف منذ أن خطا خطواته الأولى على طريق بناء مؤسسات الدولة ووضع هياكلها العسكرية والسياسية الرديفة على إشراك شيوخ ورؤساء القبائل العربية في مجال الاستشارة والتدبير وذلك بهدف تحقيق رهانين إثنين أساسيين:

الأول: الاستفادة من السلطة الاجتماعية والوجاهة السياسية التي يتمتعون بها في صفوف جماعاتهم والتي مكنتهم في عهد بني مرين وبني وطاس من بسط نفوذهم على مجالات عديدة في جنوب وشرق المغرب على حساب قبائل زناتة وصنهاجة التي اضطرت بعضها للهجرة نحو وجهات جديدة فيما أذعن بعضها الآخر لسطوتهم الحربية فصاروا أوزاعا وأشياعا فيما بينهم يقتسمون أراضيهم ومراعيهم ويستحلون أموالهم وجباياتهم. وهذه الزعامة التي اكتسبوها مما احتكروه من وسائل الغلبة والتحكم في مسالك التجارة ومراكزها، هي التي دفعت أمراء بني مرين إلى إشراكهم في سياسة التدبير المفوض للمجال على أساس تقاسم المنافع وتوزيع المكاسب فيما بينهم بعد أن لم جدوا من سبيل لإخضاعهم وخضد شوكتهم. وهذا النفوذ

⁹⁵ - تتكرر هذه العبارة في كثير من الرسائل الإسماعيلية، فقد جاء في رسالة بعثها السلطان مولاي إسماعيل إلى ولده المامون ما يلي: "...ولا قدرت حتى تشير إلى شيء من خبر تلك البلاد الصحراوية التي أتيت منها خوفا أن تذكرنا فيها إلى الآن كان خديمتنا إبراهيم بن حمو الكسيمي... وكان يعطينا بها أخبار تلك البلاد من واد نون إلى الصحراء وينظر في براواته جميع ما يعرف أو يبحث عنه أو يعرف أنا نتشوق إليه، لاسيما خبر أحوالنا المغافرة وخديمتنا عبيد الله بن إبراهيم الرحماني ومحلطنا معه، فاعطنا خبره، وخبر منازلنا وأين هو، واجتماع أحوالنا المغافرة معه..." المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، م.س،

ذاته هو الذي دفع عددا من شيوخ القبائل العربية في دكالة والشاوية وسوس عشية الاحتلال البرتغالي لهذه المناطق إلى المسارعة للتعامل مع قاداته بل والانخراط في تنفيذ سياسته الاستعمارية ضد السكان المحليين كي يحافظوا على مراكزهم الاجتماعية ويدعموا مصالحهم المادية⁹⁶.

ولذلك راهن السلطان الشريف على نفوذهم وزعامتهم هاته لكسب تأييد القبائل العربية وإدماجها في مشروع بناء الدولة من خلال إشراكها في الحروب والعمليات العسكرية والمساهمة في الكلف والأعباء الجبائية التي يتطلبها إنجاز ذلك المشروع وتحويله إلى واقع حقيقي.

الثاني: هو إعادة فرض الأمن وضمان امتداد أوسع وأبعد لنفوذ الدولة ومؤسساتها لتطال المناطق والأطراف البعيدة التي ظلت ولفترة طويلة من الزمان خارجة عن أي شكل من أشكال التبعية لسلطة الدولة يتحكم فيها ويدير شؤونها رؤساء وزعماء القبائل العربية وغيرها من القبائل البربرية الأخرى في إطار مشيخات شبه مستقلة.

ولتحقيق هاذين الرهانين، سعى السلطان الشريف في العهدين السعدي والعلوي الأول إلى إدماج هذه القبائل في المنظومة المخزنية من خلال تجنيد عدد من فرقاتها في تنظيمات الكيش، ثم أيضا من خلال إشراك شيوخها وغيرهم من شيوخ القبائل البربرية وأعيان الحواضر في الاستشارات العامة التي كانت تعقد، كلما تطلب الأمر ذلك، لبلورة موقف جماعي موحد من بعض القضايا التي تهم السياسة العامة للدولة قبل الإقدام على أي خطوة من الخطوات الحاسمة بشأنها. يشير ما رمول كاربخال، موضحا هذا التقليد في عهد السلطان عبد الله العالب بالله، قائلا: "كان السلطان يستدعي إلى جانبه شيوخ القبائل العربية وأعيان المدينة ورؤساء القبائل البربرية ليتشاور معهم قبل أن يتخذ أي قرار هام له مساس بمصير الدولة..."⁹⁷. وقد

⁹⁶ - بوشرب (أحمد)، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481-أكتوبر 1541)، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1404-1984، ص.215-220؛

Meunié, *Le Maroc saharien*, op.cit, T.1, pp.312-316.

⁹⁷ - مارمول، إفريقيا، م.س، ج1، ص.495.

مثلت هذه الاستشارات تقليدا سياسيا دأب سلاطين الدولة السعدية على نهجه منذ انطلاق حركتهم إلى عهد محمد المتوكل. وهذا التقليد، بقدر ما كان يستهدف استمالة شيوخ القبائل وإشراكهم في مجال التسيير وتحمل المسؤولية، ولو على نحو غير مباشر، بقدر ما يشير، من جهة أخرى، إلى أن الدولة لم تكن حينها قد اكتمل بناء قواعدها وصارت مكتفية بذاتها دونما حاجة إلى من يسندها من خارج بنيتها التنظيمية والمؤسسية الداخلية، بل كانت لا تزال تسير... سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيودتها ضوابط بل كانت الأمور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال كما كانت الدولة عربية ساذجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها...⁹⁸.

وهذا التنظيم البسيط وغير المهيكل والمرتهن لإرادة شيوخ القبائل ووصايتهم هو ما حاول السلطان عبد الملك تداركه وإصلاحه حينما قام بإلغاء الدور الاستشاري لشيوخ القبائل وأعيان الحواضر واكتفى فقط بقيادة جيش النار النظامي باعتبارهم هم أركان الدولة الأعرف بشؤونها وتصاريقها. غير أن هذا الإجراء قد أدى إلى إحداث اضطراب في الأحوال العامة بالمغرب نظرا لأن الناس لم يعتادوا السير وفق قواعد النموذج التركي الجديد كما لم يستسيغوا تجاوز النظام القديم والتخلص من القوى المشاركة في تسييره، وهذا ما حدا بالسلطان أحمد المنصور، وفي محاولة منه لتهدئة الوضع وجبر الخواطر، إلى نهج سياسة معتدلة توازن بين المنهج القديم في التسيير والمنهج الجديد، وعاد ليشرك رؤساء القبائل وأعيان الحواضر وقادة الجند في مجال الاستشارة والتداول في الأمور التي تهم سير الدولة مع السلطان⁹⁹.

وهذا التوجه في التعامل مع شيوخ القبائل المغربية بوجه عام والقبائل العربية على نحو خاص استمر قائما ومتوصلا بنفس الأسلوب ولذات الغايات المرجوة في عهد الدولة العلوية كذلك. فالسلطان مولاي محمد وأخوه مولاي رشيد اللذان انطلقا في سعيهما لتوحيد المغرب

⁹⁸ - الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص.200.

⁹⁹ - نفسه، ص.200-201.

"من مبادرات فردية تقع بين الغارة والهجوم المنظم"¹⁰⁰ ارتكزا على جيش من المتطوعة مكون في الغالب من القبائل العربية في جنوب وشرق المغرب ونجحا في هذا الإطار في كسب تأييد ومساندة شيوخها وأعيانها الذين اصطفوا إلى جانبهما في معظم العمليات العسكرية التي خاضوها ضد القبائل المناوئة والزعامات المستقلة في شرق المغرب وبإقليم الريف. وتعدد الأمثلة الدالة على أشكال الدعم والتعاون التي قدمها هؤلاء الشيوخ العرب وغيرهم من رؤساء القبائل البربرية للمولى الرشيد في الحملات العسكرية التي قادها للقضاء على إمارات الزوايا المستقلة والزعامات القبلية المتمردة سواء في الأطلس المتوسط والكبير¹⁰¹ أو في إقليم حاحا وسوس¹⁰² أو في مناطق درعة وغريس وفركلة وتوات وغيرها¹⁰³.

على أن هذه الأشكال من الدعم والاحتضان كثيرا ما كانت تتحول إلى علاقات زواج ومصاهرة تقوي روابط اللحمة والانصهار بين شيوخ القبائل مع السلطان وتسهم، من ناحية أخرى، في تعزيز نفوذهم وشأنهم الاعتباري بين بني قومهم. ويكفي أن نذكر في هذا الخصوص بالمنزلة الرفيعة التي حظي بها الشيخ اللواتي لدى مولاي رشيد¹⁰⁴. فمكافأة له على ما قدمه إليه من دعم مالي وعسكري سخي، وهو لا يزال يخطو خطواته الأولى نحو الحكم، تزوج من ابنته ورحله إلى مدينة فاس البالي ومنحه إقامة خاصة وعددا من العبيد لخدمته وعين أبناءه على رأس عدد من المسؤوليات¹⁰⁵، كما أنزله، علاوة على ذلك، منزلة "الناصح المنقذ" الذي له وحده الحق في التدخل في أوقات غضبه لتهدئة روعه ومنعه من اقتراف أي عمل طائش قد يؤدي

¹⁰⁰ - تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص.404.

¹⁰¹ - Mouette, *Histoire de Moulay Rachid et de Moulay Ismail et description du Maroc*, in S.I.H.M.F.T.II, p.30.

¹⁰² - Ibid, p.41.

¹⁰³ - Ibid, p.35.

¹⁰⁴ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.30؛

Mouette, *Histoire*, op.cit, note.1, p.19.

¹⁰⁵ - Ibid, p.27.

بحياة أناس أبرياء والتوسط لديه للصفح عمن خالفوا أوامره ولم ير من سبيل لمعاقبتهم غير التخلص منهم قتلاً¹⁰⁶.

وقد استمر هذا النهج في العلاقة مع شيوخ القبائل مع السلطان مولاي إسماعيل كذلك. غير أن الهامش الموسع الذي كانوا يحظون به فيما مضى على مستوى إبداء الرأي والمشورة والمشاركة في التدبير واتخاذ القرار، قد تقلص إلى أبعد الحدود بحسب ما توحى بذلك أغلب النصوص والوثائق التاريخية المعاصرة، وذلك، لأن السياسة العسكرية والأمنية المشددة التي نهجها في سبيل تعزيز حضور الدولة في مجموع التراب الوطني عبر إقامة شبكة واسعة من القلاع والقصبات وتنظيم سلسلة من الحركات العسكرية المتتالية التي انتهت بفشل شوكة الاتحاديات الأطلسية وتقليم أظافر زعمائها وقادتها في عدة مواقع وجبهات، قد أدت، في المحصلة النهائية، إلى مركزية السلطة بكل أشكالها وآلياتها في يد السلطان مولاي إسماعيل ولم يعد يقبل بأي صيغة من صيغ التدبير المفوض أو تقاسم النفوذ مع أي زعامة من الزعامات التقليدية قبلية كانت أم دينية¹⁰⁷.

لكن وبالرغم من هذه المركزية الشديدة التي تميز بها نظام الحكم في عهد مولاي إسماعيل، فقد ظل يحتفظ لشيوخ القبائل العربية الذي انقادوا مبكراً للدولة بكثير من مشاعر التقدير والإجلال لأنهم كانوا يشاركون في الحروب والحملات العسكرية التي كانت تستهدف إخضاع القبائل العربية الأخرى الناكثة للطاعة كأولاد منيع وأولاد دليم على سبيل المثال¹⁰⁸. كما كانوا،

¹⁰⁶ - Ibid, p.26.

¹⁰⁷ - المهناوي (محمد)، التنظيم العسكري وعلاقته بالسلطة والمجتمع في العهد العلوي الأول، منشورات كلية الآداب، الجديدة، الطبعة الأولى 2018، ص.228-234؛ في بلاط مولاي إسماعيل سفارة دوسانت- أمانس (أكتوبر 1682- فبراير 1683) وسفارة بيدو دو سانت- أولون (1693)، ترجمة: حسن أميلي مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الأولى 2012، ص.173-174؛

Nekrouf (Younes), *Une amitié Orageuse Moulay Ismail et Louis XIV*, éd. Albin Michel, Paris, 1987, pp.6-11.

¹⁰⁸ - رسائل سعدية وعلوية. م.خ.ج. 12598، ص.205-206.

من جهة، أخرى، يساهمون في الحفاظ على الأمن وأداء واجبات الجباية التي قلما كانت تؤديها أغلب القبائل العربية الصحراوية الأخرى طواعية. وللحفاظ على علاقة الود والوفاق مع شيوخ هذه القبائل العربية، لم يفت المولى إسماعيل في المراسلات التي كان يتبادلها مع ابنه المامون بتفيلالت أن ينبهه، المرة تلو المرة، في جملة ما كان يشير عليه من نصائح وتوجيهات، إلى ما ينبغي أن يعاملهم به من ملاطفة وإحسان وإعزاز حتى يستمروا في حسن تعاملهم وحميد سيرتهم. ومما أوصى به ابنه المامون في إحدى تلك الرسائل ما يلي: "...فإذا وصلتك أولئك العرب الذين كانوا في ذلك الغزي فتلقيهم وافرح بهم وأبسط لهم لسانك، وقابلهم بالبشرى والترحيب، وأظهر لهم البشاشة، واعقد لكبرائهم مجلسا كبيرا وأطل معهم الكلام، وحسن لهم غزوهم، وعرفهم مزيتهم، وجازهم خيرا عليه وحمدهم بالسلامة..."¹⁰⁹.

وهذا الاهتمام الذي أولاه السلطان الشريف لشيخ القبائل العربية قد سهل عليه مأمورية تأطيرها وتوجيهها في الاتجاه الذي يخدم مصالح الدولة وتطلعاتها السياسية، ولذلك فاختيار عدة فرق وبطون منها لتكون دروعا عسكرية في الكيش المخزني، إلى جانب الفرق والكتائب النظامية الأخرى، لم يكن، في واقع الأمر، إلا ترجمة عملية لذلك الاهتمام وتعبيرا دالا عن طبيعة التوجهات السياسية التي تبناها السلطان الشريف في مجال انتقاء واختيار شركائه وحلفائه من القبائل ليكونوا عماد الدولة وعصبيتها وحاميتها. وإذا كان ثمة من المبررات والأسباب المعلنة وغير المعلنة التي أملت تلك التوجهات واستدعت حكما الانخراط فيها، كما أوضحنا ذلك في فقرات سابقة، فإن تقاطع المصالح والأهداف المادية في لحظات التأسيس الأولى للدولة الشريفة والمشاركات الرافدة لها والمستندة إلى وحدة الانتماء والتاريخ والمجال والثقافة، قد أسهمت في ترسيخ قواعد تلك العلاقة وارتقت بها مع مرور الوقت إلى مستوى علاقة تحالف وتعاون لم ينفرط عقدها حتى مع أعنف الهزات والرجات التي أصابتها في بعض المحطات التاريخية في ظل الأزمات المعقدة التي أملت بالمغرب في فترات تاريخية متعددة.

¹⁰⁹ - المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، م.س، ص.55.

3- نمط العلاقة ووحدتها الناعمة

إن ما يدعو حقا إلى تأمل نمط العلاقة التي جمعت قبائل الكيش بدولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول هو خاصية استمراريتها وتجددتها على امتداد هذه الفترة الزمنية الطويلة والتي جعلت من مشاركة هذه القبائل في تنظيمات الجيش المغربي تقليدا مخزنيا ثابتا ومتواترا يتوارثه السلاطين من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ثم أيضا أهمية المكانة التي تبوأها هذه القبائل التي كانت تنحدر في أغلبيتها من أصول معقلية صحراوية، كما سلفت الإشارة إلى ذلك من قبل، في الدوايب العسكرية والإدارية لدولة الأشراف وفي سياسات واهتمامات سلاطينها وقادتها، وهي مكانة عكستها بصورة أوضح المراسلات الصادرة عن الدوائر المخزنية العليا في فترات تاريخية مختلفة والتي وصفت بعض الفرق والمجموعات التي مثلت القوة الضاربة في تشكيلات الكيش، كالوداية والمغافرة وشرافة بأوصاف، تؤكد سمو هذه المكانة ودرجة أهميتها في المنظور المخزني من قبيل: "خاصة الجيش السعيد"¹¹⁰ و"جناح من أجنحة المخزن"¹¹¹.

والملاحظ في هذا الإطار أن أغلب الباحثين الذين تناولوا بالدرس تاريخ الكيش في المغرب لم يولوا موضوع هذه العلاقة كبير اهتمام، فحتى الذين توقفوا عند مستوى من مستويات هذه العلاقة كثيرا ما ركزوا على مظهرها الخارجي وعلى التطورات التي مرت بها على المستويين السياسي والعسكري في حين أغفلوا الحديث عن مضمون هذه العلاقة والمحددات الاجتماعية والسياسية التي تحكم في نسج خيوطها وإرساء قواعد أول الأمر مع السعديين ثم بعد أن أخذت أبعادا تنظيمية أكثر تطورا ومأسسة مع العلويين بعد ذلك¹¹².

¹¹⁰ - ورد هذا الوصف في رسالة مخزنية مؤرخة بتاريخ 20 رجب 1290/13 سبتمبر 1873 ضمن: مجلة الوثائق، عدد3، السنة 1976.

¹¹¹ جاء هذا الوصف في رسالة مخزنية مؤرخة بتاريخ فاتح صفر 1312/4 غشت 1894، راجع: الشابي، الجيش المغربي، م.س، ج1، ص.145.

¹¹² - نفسه، ص.143؛

وأعتقد أن تجلية أوجه هاته العلاقة وبيان الأسس التي انبنت عليها سيمكن، دون شك، من فهم أسباب وخلفيات اختيار دولة الأشراف لقبائل بني معقل لتكون أدواتها وقاعدة ارتكازها في أعمالها وتحركاتها العسكرية.

فإذا أخذنا الترابط الذي ميز علاقة هذه القبائل بدولة الأشراف وامتدادها الذي وصل إلى أربعة قرون من الزمان تقريبا رغم ما كان يعتريها من صدوع واضطرابات في بعض الفترات التاريخية، يمكن القول إن هذه العلاقة لم تكن علاقة وظيفية مبنية على مصالح وغايات ظرفية مؤقتة على غرار ما حدث مع بعض القبائل التي جندت في ظروف محددة وبمجرد انتهاء مهمتها أجلي سبيلها لتعود للعيش في مواطن استقرارها، وإنما كانت علاقة أقوى وأعمق من ذلك بحيث لم تكن تتحكم فيها مصالح ظرفية أو أهداف مرحلية. وهذا ما جعل بعض الباحثين يصفون علاقة هذه القبائل بدولة الأشراف بكونها كانت علاقة تحالف عززت وقوت أسسها وأواصرها مصالح وامتيازات مادية صارت مع مرور الوقت مكاسب وحقوق مرعية مستدامة وارتباطات وقربات مصطنعة تحولت مع مرور الزمن إلى علاقات عائلية متجددة ومتداخلة.

تقول ماگالي موري Magali Morsy في هذا الشأن: "كان على السعديين الذين اهتموا بالتحالف مع عرب معقل ، بالإضافة إلى ذلك، إعطاء هذا التحالف طابعا رسميا ومستداما. فبواسطة الظهير يعترف السلطان للقبيلة التي تقدم له الدعم العسكري، وضعية القبيلة المحاربة أو الكيش: لن تكون أبدا خاضعة "لواجبات المخزن" وتحديد الضرائب، ولها حق الانتفاع من بعض الأراضي"¹¹³ وهذا الرأي نفسه أكده أيضا جون لوكز Jean Le Coz حينما قال: " مثلت قبائل الكيش التي تكلفت، حسب الظروف، بالدفاع عن الحدود ضد الأعداء الخارجيين أو ضمان الأمن الداخلي ضد القبائل الثائرة، على مدى عدة قرون، أساسا للحكم

Le Coz, "Les Tribus guichs", op.cit, p.4.

¹¹³ - Morsy, "Moulay Ismail", op.cit, p.99.

الإمبراطوري، فالتحالفات بين العرش وهذه القبائل المحظوظة (الـكـيـش) تعد من بين أهم المظاهر المميزة لتاريخ الدول المغربية¹¹⁴.

لكن السؤال الذي يبقى مطروحا في هذا السياق والذي لم يقدم بشأنه كل من جون لوكوز وماكالي مورسي إيضاحات عند حديثهما عن علاقات التحالف التي جمعت قبائل الكيش بدولة الأشراف هو: ما هي الظروف التي استدعت حكما عقد تلك التحالفات؟ وما هي الأسس التي دعمت استمراريتها عبر الزمن؟.

من غير أن يوضح شكل وطبيعة المصالح التي قاربت بين السعديين عند قيامهم وقبائل معقل العربية، اكتفى مصطفى الشابي، وهو يتحدث عن العلاقة التي جمعتهم معا عند أولية أمرهم بالقول: "فقد قام السعديون على الجهاد والشرف وعملوا على ربط القبائل العربية بنظامهم على أساس المصلحة. وهذا من أصول تكوين نظام "الكيش"¹¹⁵.

فقد سبق أن أوضحنا في فصل سابق أن التحالفات التي جمعت قبائل معقل سواء تلك التي كانت قد استقرت بمنطقة سوس، وهي تنحدر في الأغلب من أولاد مختار وتملكت السهول والوديان على حساب قبائل جزولة المالك الأصلي والأقدم لهذه المجالات¹¹⁶، أو تلك التي كانت تنتشر في أقصى جنوب الصحراء بين موريطانيا والساقية الحمراء كالرحامنة والوداية والبرابيش وأولاد أحمر، فقد كان السبب الموضوعي والأدعى لقيامها هو الأضرار التي لحقت بمصالحها التجارية بعد أن عمد البرتغاليون ومعهم الإسبان بعد استقرارهم في جزر إفريقيا الغربية إلى تحويل تجارة التبر والعبيد مع إفريقيا جنوب الصحراء من المسالك الصحراوية التقليدية إلى الواجهة الساحلية الأطلنتية، وهذا ما أدى إلى إقصاء معاقل الجنوب وتجريدتهم من دورهم في الوساطة التجارية التي كانوا يضطلعون بها ما بين قبائل زناكة في الجنوب والمناطق الجنوبية

¹¹⁴ - Le Coz, "Les Tribus guichs", op.cit, p.3.

¹¹⁵ - الشابي، "الجيش المغربي"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، ج10،

ص.3217.

¹¹⁶ - المختار السوسي، المعسول، م.س، ج19، ص.148.

الغربية في الشمال¹¹⁷، كما أدى تضرر معاقله سوس من المنافسة التجارية للبرتغاليين الذين سعوا منذ أن أسسوا حصن فونتي إلى احتكار المبادلات التجارية لفائدتهم دونما اكتراث بالمصالح التجارية لحلفائهم من العرب¹¹⁸ الذين تحالفوا معهم وشاركوا حتى في أعمالهم العدائية ضد السكان المحليين بهدف "جلب السلع واجتذاب القوافل التي أخذت تبتعد عن سوس لفائدة بلاد درعة بسبب الحروب الناتجة عن الغارات البرتغالية ومقاومتها من قبل السكان بتشجيع ومباركة من قبل الشريف ولا شك..."¹¹⁹.

فكانت هذه المنافسة التجارية والأضرار التي ترتبت عنها من أهم الأسباب التي دفعت هؤلاء العرب المعاقلة إلى الانخراط في الحركة الجهادية التي قادها السعديون ضد الغزاة البرتغاليين دفاعا عن مصالحهم التجارية وحفاظا على وضعية طرق القوافل التقليدية العابرة للصحراء كما كانت قبل الاحتلال البرتغالي لسواحل سوس¹²⁰. ففي هذا السياق إذن، وفي إطار تلاقي مصالحهم مع مصالح السعديين وحلفائهم من قبائل جزولة في التصدي لعدوهم البرتغالي المشترك من أجل إعادة تنشيط تجارة القوافل ومراكزها الصحراوية وإعادة التوازن المفقود للحياة الاقتصادية والتجارية في غرب الصحراء والجنوب الغربي بأكمله¹²¹ نسجت خيوط علاقات التحالف هاته بين السعديين ومعاقله سوس والصحراء لتتحول بعد حين إلى مشاركة في مجهودات العسكري والأمني للدولة بعد أن تم إدماجهم في سلك قبائل الكيش التي أنيطت بها رسميا مهام العسكرية والجباية ومراقبة المجال. وقد اقتفى العلويون، في عهد المولى إسماعيل

¹¹⁷ Pason, *Le Haouz*, op.cit, T.I, p.189.

¹¹⁸ Montagne, *Les berbères et Le Makhzen*, op.cit, p.88.

¹¹⁹ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.306.

¹²⁰ - المختار السوسي، خلال جزولة، م.س، م2، ص.163.

¹²¹ - Pascon, *Le Haouz*, op.cit, T.I, p.189.

على وجه الخصوص، أثر السعديين على هذا الصعيد حيث ورثوا عنهم، ليس فقط نظام الكيش، ولكن أيضا الفرق العسكرية التي كانت تتكون من عرب معقل كذلك¹²².

ونظرا للعلاقة المستمرة والمتواصلة التي ظلت تجمع هذه القبائل ودولة الأشراف في زمن السعديين كما في زمن العلويين وما راكمته على إثرها من خبرات ومهارات وتقاليد في ميدان الخدمة المخزنية، ونظرا للثقة والحظوة التي تمتعت بها هذه القبائل في الدوائر المخزنية والتي عززتها ورسختها أكثر علاقات الزواج والمصاهرة التي ما فتئ يعقدها بعض السلاطين مع بعض أسرها وبيوتها من حين لآخر حتى غدا عدد غير قليل من أفرادها يتبوأون مراكز هامة وسامية في أجهزة الدولة العسكرية والإدارية¹²³، فإن كل هذا وذاك حول مع مرور الوقت علاقة هذه القبائل مع المخزن إلى ما يشبه علاقة زبونية تقوم على التزامات وتبادلات خاصة قوامها الخدمة والوفاء بالواجب العسكري مقابل المنفعة المادية والحظوة الاجتماعية¹²⁴. وهذه المعادلة هي التي كرسها في الواقع التجربة التاريخية لهذه القبائل التي ظلت تشكل مصدرا احتياطيا للرجال المحاربين المستعدين لحمل السلاح والذود عن حمى الدولة والدفاع عن أمنها وحماية مؤسساتها مقابل ما كانت تحصل عليه من إقطاعات وعطايا وإنعامات.

¹²² - Morsy, "Moulay Ismail", op.cit, p.99.

¹²³ - الشابي، الجيش المغربي، م.س ج1، ص.149.

¹²⁴ - حول العلاقات الزبونية راجع :

الناجي (محمد)، العبد والرعية والسلطة والدين في العالم العربي، ترجمة: مصطفى النحال، المكتبة الوطنية، المحمدية، الطبعة الأولى، 2009؛ حمودي (عبد الله)، الشيخ والمريد النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 200؛ العطري (عبد الرحيم)، سوسيولوجيا الأعيان، آليات إنتاج الوجاهة السياسية، طوب بريس، الرباط، الطبعة الثالثة، 2013، ص.120-133؛

Briquet (Jean.Louis) et Sawicki (Frédéric), *Le clientisme politique dans les sociétés contemporaines*, PUF, Paris, 1998.

الفصل الرابع
قبائل الكيش وخريطة
توزيعها في المجال

تصادف الباحث في ملف قبائل الكيش في تاريخ المغرب عموما وإبان الفترة الحديثة بوجه خاص صعوبات ومشاكل منهجية ومعرفية متعددة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: صعوبة حصر وتصنيف القبائل التي كانت محسوبة على الكيش وتلك التي كانت تعد في عداد قبائل النائية. وتعود هذه الصعوبة، كما هو معلوم، إلى غياب دواوين الجند في الفترة موضوع الدراسة التي من شأنها أن تميّط اللثام عن أسماء الفرق والوحدات القبلية التي كانت مسجلة رسميا ضمن تشكيلات الجيش المخزني، على خلاف ما هو عليه الحال في فترة مغرب القرن التاسع عشر التي تكثر فيها الكنانيش والوثائق المخزنية التي تقدم للباحث معلومات وإفادات في غاية الأهمية والتنوع تهم أسماء فرق الكيش وأصولها وخريطة توزيعها¹ وأعدادها ورواتب وتخصصات أفرادها وأجورهم² والحصص التي كانت تساهم بها من الرجال في الحروك والعمليات العسكرية وفي غيرها من الفروض والكلف المخزنية الأخرى³.

وتزداد هذه الصعوبة أكثر حينما تورد النصوص التاريخية المعاصرة لهذه المرحلة عن بعض القبائل أوصافا وأخبارا تعطي الانطباع كما لو أنها قبائل كيش في حين كانت من "النوائب" التي تؤدي مختلف أنواع الضرائب. وهذا الخلط بين قبائل الكيش وقبائل النائية الناتج عن غموض النصوص التاريخية وتضاربها أحيانا، هو في الواقع، خلط مبرر، لأن الحدود الفاصلة بين هاذين الصنفين من القبائل هي حدود متقاربة ومتغيرة في آن وليس هناك ما يميز بينهما سوى أن الأولى تكون مسجلة في ديوان الجند وتؤدي الخدمة العسكرية بانتظام وتتقاضى لقاء ذلك رواتب وتنتفع من أراضي إقطاع، في حين أن الثانية لم تكن تؤدي هذه الخدمة إلا في مناسبات

¹ - حول أسماء فرق الكيش وأصولها وأعداد أفرادها يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى الكنانيش التالية: خ.س، ك739؛ خ.س، ك181؛ خ.س، ك229؛ خ.س، ك310؛ خ.س، ك621؛ خ.س، ك309.

² - حول أجور ورواتب أفراد وقواد الكيش حسب رتبهم راجع المحفوظات التالية: خ.س، مح.ج. رقم 156؛ خ.س، مح. رقم 482؛ خ.س، مح.ج. رقم 119.

³ - حول مساهمة بعض فرق الكيش من الحراك في الكلف والحروك المخزنية أنظر على سبيل المثال الكنانيش التالية: خ.س، ك309؛ خ.س، ك298.

محددة وذلك على شكل عدد من الحراك بمؤونتهم وسلاحهم في أوقات الحركات غير أنها تكون ملزمة بأداء كل أصناف الضرائب شرعية كانت أم غير شرعية.

ثانيا: صعوبة الحسم في وضعية بعض القبائل كما هو الحال بالنسبة لقبائل جزولة التي كانت تشتغل عناصرها بصفة دائمة في الأجهزة العسكرية والأمنية للدولة السعدية وتتمتع بحظوة خاصة لدى سلاطينها، لكن ليس في المصادر السعدية ما يسمح بإمكانية تصنيفها ضمن قبائل الكيش تبعا للمواصفات التي حددناها سابقا أو استبعادها من هذا التصنيف. يقول مارمول موضعا مكانة عناصر جزولة ودورهم المميز في الحرس السلطاني أيام الغالب بالله: "إن الجزوليين الذي يحرسون أبواب فاس ومراكش وترودانت، والذين اتخذهم الشريف لحراسته الشخصية ينتمون إلى هذا الجبل (جبل إلالن) لأنه كأبيه يضع فيهم ثقته أكثر من أي آخر"⁴.

ولعل الحيرة التي تنتاب الباحث أمام حالة الالتباس التي يطرحها مثل هذا النموذج من القبائل هي التي تدفعه إلى أن يرجح أن تكون هذه القبائل من صنف القبائل الحليفة للدولة التي كانت تزودها باستمرار بما كانت تحتاج إليه من عناصر مقاتلة وتحظى لديها بكل أشكال الرعاية والتكريم والإنعام ولكن دون أن تكون لها ميزة قبائل الكيش المعروفة بخواصها السابقة الذكر. وهذه الحالة كذلك تنطبق كذلك على قبائل زمور وآيت إدراسن التي تحالف معها السلطان مولاي إسماعيل واستعان بعناصرها لدعم قواته في مواجهة قبائل آيت أومالو بالأطلس المتوسط والكبير ولكن دون أن يرقى هذا التحالف إلى مستوى إدماج هذه القبائل في ديوان قبائل الكيش أسوة بما فعل مع قبيلة آيت إيمور. ولعل هذا ما يسمح بالقول بأن دولة الأشراف، وفي سبيل تعزيز قدرات جيشها وتقوية مواقع نفوذها بين القبائل المعروفة بميلها الدائم نحو التمرد والعصيان، كانت تصطنع حلفاء من بين أشهرها وأقواها شوكة وعصبية. غير أن تحالفها في هذه الحالة غالبا ما يكون تحالفا مرحليا وتكتيكيا ليس أكثر⁵.

⁴ - مارمول، إفريقيا، م.س، ج2، ص.40.

⁵ Morsy, "Moulay Isma'il et l'armée de métier", op.cit, p.99.

ثالثا: صعوبة تتبع وتوثيق اللحظات التاريخية التي انخرطت فيها بعض قبائل الكيش في سلك الخدمة المخزنية خلال الفترة المدروسة سيما وأن الظروف والسياقات التي أدمجت فيها هذه القبائل في ديوان الجندية وصارت مصنفة على إثر ذلك ضمن قبائل الكيش قد اختلفت، بهذا القدر أو ذاك، من قبيلة إلى أخرى، وهو ما انعكس في النهاية على مكانة ووزن كل واحدة منها في النسق المخزني بحيث صار موقع وتأثير كل فرقة من فرق الكيش يتوقف، تبعا لذلك، على درجة قربها أو بعدها من الدائرة المخزنية وكذا على ماضيها وسوابقها في مجال الخدمة العسكرية ودرجة أهمية مساهمتها فيما أنجزته من أعمال ومهام عسكرية وسياسية في ظل عهد السلطان الذي استقطبها وجند أفرادها للعمل إلى جانب القوات العسكرية النظامية الأخرى. وتبعا لهذه الاعتبارات، فقد جرى تصنيف قبائل الكيش إلى مجموعتين متميزتين: مجموعة تضم قبائل رئيسة احتلت موقعا متقدما وفاعلا في الهياكل العسكرية والإدارية لدولة الأشراف، ومجموعة أخرى ثانوية لم يكن لها سوى دور هامشي وغير ذي أهمية كبيرة في مجريات الأحداث وتطور الأوضاع العامة⁶.

رابعا: صعوبة الاطمئنان إلى التصنيفات التي انتهى إليها بعض الباحثين حينما اعتبروا بعض القبائل التي تعاملوا معها في مجالات جغرافية محددة أنها تنتمي إلى قبائل الكيش لكن من دون أن يقدموا في هذا الشأن ما يبرر تصنيفهم من شواهد وأدلة مقنعة من الواقع التاريخي. والحالة التي تقدم المثل الأوضح على هذا النوع من التصنيفات هي حالة قبائل الحياينة. فالباحث كريغوري لازاريف Grigori Lazarev المختص في دراسة البنيات العقارية بالمغرب، واعتمادا على مشاركة أحد أهم قبيلة في مجموعة الحياينة وهي قبيلة أولاد عمران إلى جانب محمد المتوكل في حربه مع عمه عبد الملك قبل أن تنحاز إليه لاحقا، اعتبر أن الحياينة كانت

⁶ - الشابي، الجيش المغربي، م.س، ص.145؛

Lazarev (grigori), "Structures agraires et grandes propriétés au pays hayaina (prérif)", *R.G.M.*, n°9, 1966, p.38.

"قبيلة جيشية"⁷ تنتسب إلى الجيش السعودي وأن الإسم الذي منه استمدت شهرتها فيما بعد، إنما يعود إلى أحد قادتها في الجيش السعودي وهو الذي كان يسمى ربما "حيان" أو "حيون"⁸.

ومثل هذا التصنيف الذي قد نجد له نظائر وأشباها في مناطق أخرى عديدة من المغرب يبقى غير مكتمل ويفتقد إلى القرائن والإثباتات التاريخية الأكثر حجية وإقناعا. مما يجعله في النهاية مجرد فرضية غير تامة البناء وغير قابلة لأن تكون ، بأي حال، منطلقا أو مركزا يبنى عليه في صياغة أحكام واستنتاجات يمكن الاعتماد بها في مجال البحث التاريخي.

واعتقد أن هذه الصعوبات التي تعترض سبيل الباحث في قضايا تاريخ الكيش بالمغرب تبقى في مجموعها مؤشرات دالة على الطبيعة الغامضة والمركبة لقبيلة الكيش. فهي لم تكن في بنيتها وتنظيمها عسكرية بحثة كما لم تكن قبيلة عادية شبيهة بسائر القبائل الأخرى غير المجندة. فقد كانت، إن أمكن لنا أن نقول "قبيلة شبه عسكرية". فإذا إذا نظرنا إليها من أعلى تبدو مختلفة عن غيرها من قبائل النائية بمظهرها الملفت للانتباه في المجال وهو مظهر "المستوطنة العسكرية شبه المغلقة"، وإذا نظرنا إليها من أسفل يبدو أن وجه الاختلاف الذي يميزها عن بقية القبائل الأخرى هو تلك "الهالة المخزنية" التي تضيفها عليها إقامتها بالقرب من المنشآت المخزنية واستغلالها لأراضي معلوم أنها ملك مخزني أقطعت إليها لأنها تؤدي وظيفة عسكرية لفائدة الدولة السلطانية.

ومما يجب التنبيه إليه قبل استعراض أهم قبائل الكيش في العهدين السعودي والعلوي إلى حدود منتصف القرن الثاني عشر الهجري/18م هو أن هذه القبائل التي كانت تنتسب، في الغالب الأعم، إلى عرب بني معقل، لم تكن في عمومها، شأنها شأن أغلب القبائل المغربية الأخرى، متجانسة في تركيبتها، فكثير منها فقد وحدته الأصلية إذ اندمجت في بعضها أفخاذ

⁷ - المودن (عبد الرحمن)، البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر ، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1995، ص.164.

⁸ Lazarev, "Structures agraires", op.cit, p.35.

وعناصر جديدة تنتمي إلى قبائل عربية أو بربرية وذلك أثناء رحلة تنقلها التي امتدت طويلا عبر الزمان والمجال، وإما إبان فترات الأزمات والكوارث الطبيعية، في حيت أن بعضها الآخر تعرض لنزيف ديمغرافي إما بسبب الحروب البينية الداخلية أو الخارجية، وإما بسبب الجوائح الطبيعية وما كان يستتبعها أحيانا من هجرات اضطرارية⁹.

وهذه الحركية الاجتماعية والمجالية التي أدت إلى تعديلات وتغييرات في بنية قبائل الكيش ومورفولوجيتها الاجتماعية قبل وحتى بعد انضمامها للكيش المخزني، إن لم تكن قد طالت أغلب فرقها ومجموعاتها، وهو مما لا نستطيع إثباته أو نفيه في ظل شروط البحث الراهنة، فعلى الأقل أنها تكون قد مست بعضا منها إن جزئيا أو كليا. ويعطينا المختار السوسي، في معرض حديثه عن قبيلة الشبانات، صورة بالغة الدلالة عما قد يكون قد حصل حتى بالنسبة لقبائل كيش أخرى لا نعلم عن تاريخها الاجتماعي إلا النزر اليسير، من تغيير في تركيبها الإثني والاجتماعي إما من خلال آلية الدمج والتوسع أو من خلال آلية الإنشطار والتفكك إذ يقول: "(وهوارة) اليوم من القبائل الكبرى في (سوس) وعدد نسماتها الآن 54000 وقد كان في منازلها هذه قبل قبيلة (الشبانات) من (زرارة) ويطلق على الشبانات أيضا الشراردة وقد كانت أفخاذ الشبانات هنا قبل أن تخرج من سوس تسمى أولاد جامع وهم النازلون اليوم بأحواز فاس وبني خليل وأولاد إدريس وأولاد يحيى ثم تشتت هذه الأفخاذ كلها إلى الحوز وغيره إلا ما كان من أولاد يحيى وأولاد إدريس فإنهما ماتزالان قبيلتين مشهورتين إلى الآن في ضواحي تارودانت ثم عرفت أن هوارة نفسها إنما هي فخذ من الشبانات وقد عرفت أمس ب(الشبانات) واليوم عرفت ب(هوارة) وقد كنا عرفنا أن هذه البسائط كانت قبائل العرب تملأها من قبل القرن التاسع الهجري، وهي التي كان بعضها يقايض في التجارة البرتغاليين حين

⁹ - بوبريك (رحال)، "من دولة المرابطين إلى وفود القبائل العربية"، ندوة مدخل إلى الصحراء الأطلنتية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2010، ص.83.

Voinot (L), "Les tribus guich du haouz merrakech", Société anonyme des papeteries et imprimeries L.Fouque, Oran, 1928, p.4.

كانوا ب(فونتي) من أوائل القرن العاشر ثم لما قامت الدولة السعدية على سواعد الشلحيين الجزوليين نقلت كثيرا من قبائل سوس إلى أحواز مراكش ولا تزال تسمى قبائل أهل سوس إلى الآن وهكذا وقع (للشرادة) التي يقطن غالبها الآن بأحواز فاس والآخرين بأحواز مراكش ما كان لهم من قوة أيام المهدي الشراذي الشهير حتى أوقع بهم مولاي عبد الرحمن في صدر دولته نحو 1242هـ كما معلوم وكذلك عرفنا أن لقبيلة الشبانات في سوس قوة كبرى سنة 1081هـ فقد رأيناها تقاوم السلطان مولاي رشيد يوم زحف إلى سوس بجيش لجب لديك دولة إيليغ ثم من ذلك العهد ضعف ذكرها فصارت هواره الفخذ الصغير يمتد إلى أراضيها ويستولي عليها، ويمتص أسرا كثيرة من غيرها فتضخم بها فخذ هواره حتى صارت قبيلة كبيرة...وقد وقع فيها ما وقع لكل القبائل المغربية فإنك إن تتبعته أفخاذ كل قبيلة قبيلة، لا تجد من أصولها إلا أقلية ضئيلة جدا وإنما تضخمت بمن يسكنها من غيرها، تجد ذلك في قبائل الشلحيين والعرب على السواء فما أكثر الدخيل في كل قبيلة وقد أشربت القبائل كلها فكرة المساواة من الدين الإسلامي فلا تكاد أسرة جديدة تدخل في قبيلة حتى تعد نفسها في عداد رجالات القبيلة كما تعدها كذلك القبيلة من صميمها استكثرنا وزيادة ثم تختلط الأنساب مع طول الزمان"¹⁰.

¹⁰ - المختار السوسي، خلال جزولة، م.س، م4، ص.136-137.



I- قبائل الكيش في العهد السعودي

لعل مما يثير الانتباه في قبائل الكيش التي جندها السعوديون للمساهمة في الأعمال والخدمات الحربية إلى جانب الفرق العسكرية النظامية الأخرى التي كانت تتألف من الأعلاج والأندلسيين والسود الأفارقة، ملاحظتان إثنتان:

الأولى: أن هذه القبائل، ورغم مشاركتها منذ انطلاقة الحركة السعودية في معظم العمليات العسكرية التي استهدفت الثغور المحتلة بجنوب المغرب وإعادة توحيد البلاد من خلال التصدي للقوى الجهوية المستقلة، إلا أن هذه المشاركة وحدود ومستويات تأثيرها في سيورة تطور الأحداث التي مرت بها الدولة السعودية ظلت باهتة وغير متناسبة، البتة، مع حجم الأدوار التي اضطلعت بها هذه القبائل على امتداد تاريخها إن إيجاباً أو سلباً.

الثانية هي: أن هذه القبائل ورغم انخراطها الجماعي منذ أول وهلة في المشروع السياسي والعسكري الذي تبناه السعديون وعلى أساسه حصلوا على إجماع مختلف القوى والزعامات الدينية والقبلية في سوس، إلا أن حضورها في مسارات تطور الأحداث وتأثيرها في مجرياتها بقي متفاوت، قوة وخفة، من قبيلة إلى أخرى ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى وذلك بحسب حجم ووزن كل قبيلة على حدة. ولعل هذا الواقع هو ما جعل قبيلة الشبانات التي كانت تتمتع بحضور اجتماعي واسع في مجال سوس والحوز تتصدر واجهة الأحداث في تاريخ المغرب السعدي إلى جانب قبيلة شراكة بنواحي مدينة فاس لاسيما خلال النصف الأول من الحادي عشر الهجري/17م.

1- قبيلة الشبانات

تنحدر قبيلة الشبانات المعقلية من بني مختار بن محمد وتنقسم إلى بطنين كبيرين: بطن بني ثابت وبطن أولاد علي¹¹. كانت مجالات تحركات الشبانات وطمعهم إلى جانب إخوانهم من ذوي منصور وعبيد الله تمتد أول الأمر من نواحي ملوية جنوبا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالا¹². انتقلوا بمعية قبائل معقلية أخرى للاستقرار ببسائط سوس الأقصى بعد أن استصرخهم علي بن يدر الزكندري الذي كان قد ثار ضد أبي حفص عمر المرتضى الموحدي سنة 651هـ- 1253م واستولى على سوس واتخذ من تارودانت قاعدة لإمارته¹³. وقد لعب الشبانات دورا

¹¹ - الأزموري، تقييد لشرفاء المغرب وقبائله، ورقة 173/أ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج7، ص.91؛ بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.427.

¹² - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج7، ص.91؛ الإدريسي (الفقيه)، "الشبانات، قبيلة"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1423—02002، ج16، ص.5283.

¹³ - ابن عذارين البيان المغرب، م.س، ص.403-404؛ الناصري، الاستقصا، م.س، ج3، ص.244.

مؤثرا في تاريخ سوس إلى جانب إخوانهم من ذوي حسان حيث استأثروا بأجود الأراضي وألزموا قبائل جزولة وغيرها من قبائل صنهاجة بأداء الضرائب والإتاوات¹⁴.

غير أنه، وبعد أن ساءت العلاقة بينهم وبين أمراء بني يدر، دخلوا في مواجهات متعددة الأطوار معهم بعد أن لقي علي بن يدر مصرعه سنة 668هـ. وقد انحازوا بعد ذلك إلى الأمير المريني أبي علي بن السلطان أبي سعيد حينما غزا إقليم سوس وتمكن من الإجهاز كلية على إمارة بني يدر عقب قضائه على أميرها عبد الرحمن المتحصن يومها بقاعدة تارودانت¹⁵. كما أعانوا السلطان أبي الحسن المريني على إعادة فرض نفوذ الدولة المرينية على مدن وقرى سوس. وبفضل ما أبانوا عنه يومئذ مع إخوانهم ذوي حسان من دعم وتعاون تحولوا إلى شركاء للحكم المريني حيث خول لهم السلطان أبي الحسن رسميا الإقطاعات "مقابل القيام باستخلاص الضرائب والرسوم بإسم الدولة واقتسام المداخل مع بيت المال..."¹⁶.

وبعد الاحتلال البرتغالي لسواحل سوس في مطلع القرن العاشر الهجري/16، جنح الشبانات على غرار باقي معاقله عرب سوس إلى التعاون مع المحتل البرتغالي حيث شاركوا إلى جانب قوات حاميته في الإغارة على سكان القرى والمداشر القريبة من الشواطئ ومصادرة ممتلكاتهم وتخريب أراضيهم الزراعية¹⁷.

¹⁴ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.91.

¹⁵ - نفسه، ص.92.

¹⁶ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.301.

¹⁷ - المختار السوسي، المعسول، م.س، ج19، ص.148؛ السعيد (المهدي)، "ملامح حركة جهادية بسوس والصحراء في القرن التسع الهجري، آيت إيعزى ويهدى بزارية آسا"، ندوة: الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات، التواصل والآفاق، منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1422-201، ص.83.

Montagne, *Les berbères et le makhzen*, op.cit, p.88.

بيد أنه مع ظهور السعديين وتحول ميزان القوى العسكرية لصالحهم إثر الحصار الخانق الذي فرضوه على حصن سانتاكروز وتشديدهم الخناق على المتعاونين مع المحتل من "مغاربة السلم وأشياخهم"، انضم الشبانات، وغيرهم من عرب سوس، إلى معسكر السعديين¹⁸ وصاروا يشاركون إلى جانب قواتهم المتطوعة في الحملات الجهادية التي كانت تستهدف البرتغاليين في حصن فونتي. وسيمثل انحيازهم هذا للسعديين¹⁹ نقطة تحول في مسار حياة هذه القبيلة وغيرها من القبائل المعقلية الأخرى بسوس كأولاد جرار ووزارة وأولاد مطاع، لأن ما سيترتب عن هذا الموقف الجديد من نتائج ميدانية سيحدد معالم علاقتهم المستقبلية مع السعديين، في طور أول، ثم مع العلويين في طور ثان.

وإذا كان يصعب تحديد وحصر الفترة الزمنية بالضبط التي طبق فيها السعديون نظام الكيش على القبائل التي تعاونت وتحالفت معهم منذ انطلاق حركتهم بكل ما يعنيه هذا النظام من واجبات والتزامات ويخوله، في المقابل، من حقوق ومكتسبات لفائدة الحلفاء والمتعاونين، فمما لا شك فيه، أن لبناته الأولى كان قد وضعها محمد الشيخ السعدي غير أن اكتمال تنظيمه وهيكلته لم يتم، كما لا يخفى، إلا في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي.

وهكذا وبعد مشاركتها في عمليات الجهاد ضد القوات البرتغالية بسوس وفي الحملات العسكرية التي نظمها الأميران السعديان أحمد الأعرج وأخوه محمد الشيخ من أجل توحيد القبائل والقضاء على مظاهر التشرذم والانقسام في جنوب المغرب، صارت قبيلة الشبانات أسوة

¹⁸ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.306.

¹⁹ -Deroualle (Jacques), *Le Guich de cherarda (Historique, Terres Collectives)*, Mémoires de stages des Controleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°52, s.d. p.2.

بباقي عرب أهل سوس، كما باتت تعرف في الأستغرافيا السعدية، جزءا من الكيش القبلي الذي أنشأه السعديون بعد استيلائهم على مدينة تارودانت واتخاذها عاصمة لإمارتهم الناشئة²⁰.

وبعد دخولهم إلى مراكش وقضائهم على الإمارة الهنتاتية نقل أحمد الأعرج فرقة من قبيلة الشبانات ووطنها إلى جانب فرق أخرى من عرب أهل سوس بضواحي مراكش. وفي وقت لاحق سيقوم أخوه محمد الشيخ المهدي بعد دخوله إلى فاس وإجهازه على الإمارة الوطاسية، بنقل فرقة من الشبانات مع مجموعات أخرى من قبائل زرارة وأولاد مطاع وأولاد جرار، وسيوطنهم جميعا في بسيط أزغار بهدف مراقبة قبائل الخلط وسفيان التي كانت تمثل فيما مضى القوة العسكرية الداعمة للدولة المرينية.

ومع مرور الوقت سيزداد تجمع الشبانات بنواحي مراكش قوة واستحكما بفعل الهجرات المتتالية لعناصر القبيلة الأم من مواطن استقرارها بسوس نحو الحوز²¹ وسيستولون فيه تدريجيا على أراضي خصبة وواسعة ليصبحوا بعد حين من أبرز وأشهر القوى القبلية الضاربة في مجال الحوز برمته²².

وبعد وفاة المنصور السعدي، وعلى إثر الانقسام الذي دب في جسم الدولة السعدية ومؤسساتها في حمأة الصراع الذي انفجر على أسع نطاق بين أبنائه حول وراثة العرش، انحاش الشبانات إلى الأمير زيدان وخاضوا إلى جانبه حروبا تعددت فصولها وأطرافها وتنوعت مواضعها وجبهاتها. فقد ناصروه في المواجهات التي قادها ضد أخيه أبي فارس، ثم ضد ابن أخيه عبد الله

²⁰ - Cornice (S.L), "Notice sur Les cherarda", A.B, V.4, fasc,1-2, année ;1912-1920, p.38.

²¹ - Ibidem.

²² - دي هنين (خرخي)، وصف الممالك المغربية (1603- 1613) مذكرة خوخي دي هنين، ترجمة: عبد الواحد أكمير، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1997، ص.154، 149، 162؛ S.I.H.M, Ang, T.II, p.349.

بن محمد الشيخ المامون²³، كما ساندوه في مواجهة الثائر ابن أبي محلي الذي انتهت ثورته بالاستيلاء على دار الخلافة بمراكش وبالتنكيل بكل من ناصر الأمير زيدان وحارب في معسكره²⁴.

وفي ظل حالة الانقسام والتجزئة السياسية التي شهدتها المغرب في ظل انهيار الدولة السعدية وظهور إمارات الزوايا التي تنازعت السيادة والنفوذ فيما بينها²⁵، اقتحم زعيم الشبانات عبد الكريم الشباني، المدعو كروم الحاج، هو الآخر، معتزك التنافس على السلطة حيث أطاح بآخر أمير سعدي، وهو أبو العباس بن محمد الشيخ الأصغر، وأسس إمارة بمراكش دام حكمها عشر سنوات تقريبا من سنة 1658م إلى سنة 1668م إلى أن قضى عليها السلطان العلوي مولاي رشيد²⁶.

وفي إطار مساعيه لتوحيد المغرب ووضع حد لحركات التمرد التي انخرطت فيها تنظيمات الزوايا وكثير من التكتلات القبلية وعلى رأسها قبيلة الشبانات التي تنامت شوكتها أكثر من أي وقت مضى بأحواز مراكش، فقد عمد السلطان المولى رشيد إلى مواجهتها لكسر شوكتها مما اضطرها في الأخير إلى الاستسلام فأدمج ما يربو عن 6000 نفر منها في جيشه القبلي الآخذ يومئذ في التزايد عدة وعددا²⁷.

²³ - دي هنين، وصف الممالك المغربي، م.س، ص.154.

²⁴ - نفسه، ص.149.

²⁵ - حول أهم وأبرز هذه الإمارات التي أعلنت استقلالها عن السلطة المركزية أنظر:

Morsy, *Les ahansala.Examen du rôle Historique d'une famille maraboutique de L'Atlas marocain XVIIe siècle*, Mouton, Paris, 1972, pp.13-24P ; Justinard (C), *Un petit royaume berbère. Le Tazeroualt, un saint berbère Sidi Ahmed Ou Moussa*, Maisonneuve, Paris, pp.36-58 ; Berque (Jacques), *Ulamas, Fondateurs insurgés du Maghreb XVII siecle*, éd. Sindibad, Paris, 1982, pp.72-123.

²⁶ - الإفرائي، نزهة الحادي، م.س، ص.374؛ الزياتي، البستان الطريف، م.س، ص.124.

²⁷ Mouette, *Histoire*, op.cit, p.66.

لكن هذه الفرقة من كيش الشبانات التي استقدمها المولى الرشيد معه لفاس والتي استمرت في خدمته حتى وفاته سرعان ما عادت أدراجها، مرة أخرى، إلى حوز مراكش بعد أن لم تتوصل بالرواتب من مولاي إسماعيل التي اعتادت الحصول عليها في عهد أخيه المولى الرشيد²⁸. وفي أعقاب الثورة التي قادها الأمير أحمد بن محرز ضد السلطان مولاي إسماعيل، انضم إليه الشبانات وشاركوا إلى جانبه في المعارك التي خاضها ضد عمه على مشارف مدينة مراكش. ونظرا لما اقترفه الشبانات في حق سكان الحوز من تعديات ونهب وسطو في ظل الاضطرابات الاجتماعية التي ترتبت عن ثورة أحمد بن محرز ، فقد عمد السلطان مولاي إسماعيل إلى نقلهم مع إخوانهم زرارة من الحوز "فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب، وكتبهم في الديوان، وقيد عليهم العياشي بن الزويعر الزراري وأمره بالتضييق على بني يزناتن، إذ كانوا شيعة الترك فكانوا يغيرون عليهم، ويمنعونهم من الحرث في بسائط أنكاد"²⁹.

ومرة أخرى، وبعد أن سعى المولى إسماعيل إلى تكوين كيش الوداية ليكون رديفا لجيش العبيد، فقد عمل على إدماج فرقة من الشبانات كانت قد بقيت بفاس الجديد منذ ثورة أبي عبد الله الدريدي أحد قواد الشبانات الذي كان قد استقل بفاس الجديد بعد أن دخلت فاس عهد السياب وسيطرة الزعامات المستقلة على أحيائها³⁰.

وإذا كان كيش الشبانات قد ساهم في الحفاظ على الأمن والاستقرار والتصدي للقبائل المتمردة الناكثة للطاعة بالجهة الشرقية من المغرب، فإن دوره في الأحداث الساخنة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل بقي محدودا وغير ذي شأن يذكر مقارنة مع كيش الوداية الذي لعب دورا محويا في مجمل التطورات التي شهدتها المغرب خلال تلك الفترة. ولعل السبب في ذلك، إنما يعود إلى أن أغلب عناصر كيش الشبانات التي كانت موزعة بين قلاع المغرب الشرقي قد

²⁸ بن موسى الريفي، زهر الأكم ، م.س، ص160.

²⁹ - الزياتي، البستان الظريف، م.س، ص163.

³⁰ - الزياتي، الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية، م.خ.ع.د 1275، ورقة 61/أ.

غادرت معسكراتها وعادت بشكل جماعي إلى مواطنها الأولى بالحوز ملحقة أبلغ الأضرار والخسائر بأراضي الناس وممتلكاتهم أثناء طريق عودتها³¹.

2- أولاد جرار

تنتمي قبيلة أولاد جرار إلى بطن ذوي حسان أحد أبرز فروع عرب بني معقل. كانت تحتل في أوائل القرن العاشر الهجري /16م ضمن مجال وادي نون السهل الذي يقع جنوبي تيزنيت³². وقد انتقلت للسيطرة على بسائط سوس، شأنها شأن القبائل المعقلية الأخرى، حينما استصرخها علي بن يدر الزكندري، كما أوضحنا ذلك من قبل، لمساندته في حربه ضد أبي حفص عمر المرتضى في أواخر العهد الموحدي.

وتفيد المصادر التاريخية في هذا الصدد أن أولاد جرار كانوا من بين أبرز من تحالف من العرب المعاقلة مع البرتغاليين غداة اجتياحهم لسواحل سوس³³، حيث أقاموا معهم علاقات تجارية وشاركوا إلى جانبهم في الغارات التي كانت تستهدف القرى والمراكز المأهولة القريبة من الشواطئ. وقد استغلوا الدعم الذي حظوا به من قبل المرينيين في فرض الضرائب والإتاوات المجحفة على السكان والتوسع في احتلال مزيد من الأراضي الخصبة في سهل سوس على حساب قبائل جزولة التي أجبرت قهرا على ترك مواطنها واللجوء نحو الصحراء جنوبا³⁴. ولذلك،

³¹ - بن موسى الريفى، *زهر الأكم*، م.س، ص.248.

³² - Bellakhdar et autres, *Tssint*, op.cit, p.92.

³³ - المختار السوس، *خلال جزولة*، م.س، ج 2، ص.165؛ زرهون (محمد)، *العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1280-1863/1290-1873)*، منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة فضالة، المحمدية، 1998، ص.90.

³⁴ - ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، م.س، ج7، ص.92؛ أفا (عمر)، *مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906)*، منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1408-7989، ص.76-77.

فالتحالف الوثيق الذي جمع الجزوليين مع السعديين ومبايعتهم لهم في مطلع القرن العاشر الهجري/16م لم يكن فقط من أجل محاربة البرتغاليين في حصن فونتي، وإنما من أجل استعادة الأراضي التي أبعدوا عنها عنوة من قبل أولاد جرار وإخوانهم من ذوي مختار³⁵. وهذا الهدف هو ما تحقق لهم بالفعل بعد أن نجح السعديون في تحرير سواحل سوس من الاحتلال البرتغالي، حيث تمكنوا من استرجاع الأراضي التي كانت بحوزتهم سابقا ليفقد بذلك أولاد جرار ما كان لهم من دالة وشفوف على قبائل جزولة وغيرها من قبائل الأطلس الصغير.

ويوضح المختار السوسي في هذا السياق المسار الذي مرت به قبيلة أولاد جرار في منطقة سوس والمآل الذي آلت إليه بعد أن تحول ميزان القوى العسكرية والسياسية لصالح السعديين إذ يقول: "للجراريين ذكر في عرب (معقل) وقد تفرق الجراريون فبعضهم لا زال في (الصحراء) وبعضهم (في سوس) نزلوه من عهد بني مرين يوم استدعاهم علي بن يدر الزكندري المستبد (بسوس) في أوائل القرن الثامن فملكوا قبائل (سوس) السهلية بالإتاوة وتسلطوا على (وادي نون) و(إفران) ولا تزال بقاياهم هناك إلى الآن كما كانوا يملكون كل السهول الشمالية بسوس من (رأس الوادي) إلى ضواحي (تزنيت) وقد كانوا من المهادين للبرتغال يوم احتلوا (فونتي) فرضة (أكادير) وكم من حروب جرت بينهم وبين الجزوليين الجبليين حتى قام الجزوليون ببيعة أول ملوك السعديين فانضم إليهم إذ ذاك هؤلاء حين رأوا القوة في جوانبهم فكانوا منذ ذلك العهد صاغية للسعديين"³⁶.

وبعد أن انضم أولاد جرار للسعديين صاروا جزءا لا يتجزأ مما بات يعرف بجيش أهل سوس الذي يعود له الفضل فيما حققه الأمراء السعديون الأوائل من انتصارات على العدو البرتغالي وفيما أنجزوه من أعمال عسكرية من أجل إعادة توحيد مجال سوس ووضع حد

³⁵ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م.س، ص.301.

³⁶ - المختار السوسي، المعسول، م.س، ج19، ص.148.

لمظاهر الفرقة والنزاع التي كانت تقطع أوصال المجتمع القبلي. وقد انتقلت فرقة منهم ضمن جيش أهل سوس للاستقرار بضواحي الحوز بعد أن افتتح السعديون مدينة مراكش التي كانت، يومئذ، تحت حكم الإمارة الهنتاتية سنة 1524. وعلى إثر دخوله إلى فاس وقضائه على الإمارة الوطاسية، أنقل السلطان محمد الشيخ السعدي مجموعة من أولاد جرار بمعية وحدات من جيش أهل سوس ووطنهم جميعا بسهل الغرب لمراقبة وتطويق تحركات قبائل الخلط³⁷.

وفي سياق سعي المولى إسماعيل إلى تكوين جيش الوداية لتعزيز قدرات الدولة العسكرية ودعم قوات الجيش الأسود المحترف، فقد أدمج المولى إسماعيل ما تبقى من عناصر جيش أهل سوس بأحواز فاس، ومن بينها أولاد جرار، في هذا الجيش القبلي الجديد. وبحكم أن جيش الوداية كان يستوعب في تركيبته فرق معقلية متعددة، (الوداية والمخافرة وأهل سوس بمجموعاتهم المعروفة التي كانت قد تخلفت عن السعديين بفاس ونواحيها) كانت قبيلة الوداية تمثل قطب الرchy فيها جميعا³⁸، فإن فرقة أولاد جرار، ونظرا لقلتهم العددية في هذه التوليفة الكيشية، لم يتردد ذكرهم إلا قليلا في المصادر التاريخية المعاصرة لهذه الفترة سواء في العهد الإسماعيلي أو حتى في فترة أزمة الثلاثين سنة التي تلت وفاته. غير أن هذا لا يعني أنهم كانوا غائبين عما كان يجري من أحداث وتطورات في هذه المرحلة، بل كانوا حاضرين في مختلف مجرياتها وأطوارها ولكن تحت لواء جيش الوداية وقيادته. ولعل مما ينهض دليلا على استمرار هذا الحضور هو وقوفهم وراء حادثة مقتل الأمير أحمد بن محرز بتارودانت بحسب ما تشير إلى ذلك أغلب الحوليات الإخبارية في العصر العلوي³⁹.

³⁷ - Cornice, "Notice sur les cherarda", p.38.

³⁸ - Ibid, p.43.

³⁹ - ابن زيدان، المنزع اللطيف، م.س، ص.152؛ ابن الحاج، الدر المنتخب، م.س، ج.6، ص.195؛ الناصري، الاستقصا، م.س،

ج.7، ص.68.

تنحدر هذه القبيلة من بطن ذوي حسان. كانت تنتجع في قفار الصحراء قبل أن تنتقل إلى سوس ومنها إلى حوز مراكش⁴⁰. لم تحافظ على غرار أغلب القبائل المعقلية على وحدتها الأصلية كقبيلة متجانسة ومستقلة. فعلى إثر انخراطها في خدمة المخزن، فقد تفرقت عناصرها وعشائرها وانفصلت عن القبيلة الأم واندمجت في مجموعات وفرقات أخرى من منابت مختلفة⁴¹. وهذا ما جعل البعض يعتبر أن زرارة لم تكن سوى فصيلة من أهم فصائل قبيلة الشبانات⁴².

وكغيرها من فرق كيش أهل سوس، فقد انتقلت زرارة في عهد السلطان محمد الشيخ من الحوز للاستيطان ببسيط أزغار "مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم"⁴³. وقد بقوا في هذه المضارب إلى أن أوشكت الدولة السعدية على الأفول حيث سيشترك قسم منهم مع الشبانات في الانقلاب الذي دبره زعيمهم عبد الكريم الشباني ضد أبي العباس ابن محمد الشيخ الأصغر، كما شارك قسم منهم في التمرد الذي تزعمه قائد الشبانات بفاس الجديد أبي عبد الله الدريدي يوم كانت المدينة لاتزال تحت حكم الدلائين⁴⁴.

ولأنهم ظلوا جزءا لا يتجزأ من كيش أهل سوس الذي تخلفت بقاياها عن السعديين في ضواحي فاس، فقد عمل المولى إسماعيل على دمجهم في كيش الوداية حينما شرع في تشكيل

⁴⁰ - المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، م.س، ص.24؛

Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.92.

⁴¹ - Cornice, "Notice sur les cherarda", op.cit, p.36.

⁴² - Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.92.

⁴³ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.51.

⁴⁴ - الزباني، البستان الطريف، م.س، ص.103.

وحداته في سنة 1088هـ/1677م⁴⁵. ولوضع حد للفتن والقلقل التي كان يثيرها كل من زرارة والشبانات سواء بحوز مراكش أو بفاس، فقد لجأ المولاي إسماعيل إلى نقلهم إلى الجهة الشرقية من المغرب سنة 1090هـ/1679 وكتبهم في ديوان الجند ووضع على رأس قيادتهم العياشي بن الزويعر الزراري وأوكل إليه مهمة محاصرة بني يزناسن شيعة الأتراك ومنعهم من الحرث في سهل أنكاد، وفي الوقت نفسه، مراقبة التحركات التركية ومجابهة مخاطرهم المحدقة بالبلاد⁴⁶. غير أن استقرارهم في شرق المغرب لم يدم طويلا، إذ سرعان ما شرعوا في العودة إلى ديارهم بالحوز بعد وفاة المولى إسماعيل وعاثوا، أثناء طريق عودتهم، نهباً وتخريباً وتدميراً كل ما صادفوه من قبائل وأراضي زراعية ومواشي⁴⁷.

4- أولاد مطاع

تنتمي قبيلة أولاد مطاع إلى عرب بني معقل، وقد انتظمت ضمن كيش أهل سوس الذي انتقلت فرقته من السوس الأقصى لتستوطن مجال الحوز بعد أن استولى السعديون على مدينة مراكش واتخذوها عاصمة لمملكتهم في الجنوب. لم تحافظ قبيلة أولاد مطاع على وحدتها الإثنية الأصلية على غرار معظم قبائل عرب معقل كما سبق وأن أوضحنا هذا الأمر في أكثر من مناسبة من هذا البحث، ففي إطار رحلتها الممتدة في المجال والزمان واحتكاكها بقبائل من إثنيات وأصول مختلفة قبل وحتى بعد أن استقر لها القرار بدير أطلس الحوز جنوبي مراكش⁴⁸، اندمجت في كيائها عشائر وفخدت بربرية حتى صارت في بنيتها الاجتماعية خليطاً من العرب والبربر. شارك أولاد مطاع أسوة بباقي عرب السوس والحوز ممن بات يطلق عليهم في الأدبيات

⁴⁵ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.51.

⁴⁶ - الزياني، الترجمان، م.س، ص.730.

⁴⁷ - بن موسى الريفى، زهر الأكم، م.س، ص.248.

⁴⁸ - عمالك (أحمد)، "مطاع (أولا)،" معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1426-

السعدية "بجنود أنصار الدولة"⁴⁹ في مجمل العمليات العسكرية التي قادت السلطان محمد الشيخ المهدي إلى السيطرة على مدينة فاس عاصمة المغرب الشمالي. ومكافأة لهم ولإخوانهم من عرب أهل سوس ومراكش على مجهوداتهم وتضحياتهم فقد أقطعهم إقطاعات في أزغار لتشجيعهم من جهة، على الاستقرار ومواصلة أداء مهامهم العسكرية، ومن جهة أخرى، ليكونوا عينا تراقب عرب الغرب من الخلط وسفيان، ودرعا بشريا يحمي مدينة فاس وأحوازها من اعتداءات القبائل المجاورة.

لكن هؤلاء العرب كانوا كلما سنحت لهم الفرصة، يغادرون مواطنهم الجديدة بسهل الغرب ويعودوا ثانية إلى منازلهم الأولى بسوس أو الحوز. وهذا ما حصل حينما اندلعت الحرب بين محمد المتوكل وعمه عبد الله حول وراثة العرش. غير أنه وبعد أن تقلد السلطان أحمد المنصور أريكة الحكم، أعاد هؤلاء العرب إلى مواطنهم التي أقطعهم الدولة بأزغار. بيد أنهم وجدوا عرب الخلط وغيرهم من قبائل الغرب قد استولوا على مواطنهم وإقطاعاتهم "وبسطوا أيديهم على استغلالها"⁵⁰ عند مغيبهم. فكان أن اشتعلت الحرب بين الفريقين بعد أن استنكف عرب الدولة عن التجافي لهم عن أي حق من حقوقهم مما أدى بعرب الخلط وسائر قبائل أزغار إلى أن أوقعوا بأولاد مطاع من عرب مراكش "ونكسوا حللهم ولم يفلتوا إلا برؤوس الخيل"⁵¹.

وانتقاما منهم وعقابا لهم على سوء أحوالهم، فرض أحمد المنصور على الخلط وقبائل الغرب "الوضائع الثقيلة وكانت تسعين ألفا عوضا عما نهبوا لأولاد مطاع وسرح لاقتضائها منهم فأعطوها عن يد ردعا وعقوبة وأبعد عنهم ...أولاد مطاع فأقطعهم بلاد تالمغت"⁵².

⁴⁹ -- الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص.108.

⁵⁰ - نفسه، ص.110.

⁵¹ - نفسه، ص.111.

⁵² - نفسه.

ورغم أن أولاد مطاع كانوا من عرب الدولة وجنودها وتحملوا في سبيل خدمتها متاعب وأعباء كثيرة، إلا أنهم كانوا أحيانا، وعلى عادة قبائل الكيش في مناسبات عديدة، يسيؤون السيرة ويأتون من الجرائر وأفعال الفساد ما كان يغضب المخزن ويسخطه ويجر عليهم نقمته وعقابه.

5- الخلط

تنتسب قبيلة الخلط إلى عرب بني هلال، وقد اندمجت مع قبائل أخرى من الأثبج كبني قرة والمقدم والعاصم التي تشترك معهم في رابطة النسب في شعب جشم، فصاروا منهم وغلب على الجميع إسم جشم⁵³. نقل الموحدون هذه القبائل العربية من إفريقية ووطنوهم ضمن المجالات الممتدة ما بين تامسنا والحوز. ومنذ ذلك الحين، بدأوا يتحولون تدريجيا من حياة النجعة والترحال إلى حياة الاستقرار والتكسب بفلاح الأرض وتربية الماشية. وقد اشتهرت من بين هذه القبائل التي تركت بصمات خاصة ومميزة على وجه الخصوص في تاريخ المغرب الوسيط نذكر: بنو جابر وسفيان والخلط.

اكتسب الخلط قوة وسطوة أيام الموحدين وكان لهم دور ملحوظ في إضعاف نفوذ خلفائهم في الأطوار الأخير من عمر دولتهم. حيث كانوا يتحالفون ضدهم مع شيوخ ورؤساء اتحادية هسكورة، طورا ومع أمراء بني مرين طورا آخر، أو معهما معا في أحيان أخرى⁵⁴. وقد ظل الخلط في صراع مرير مع بني قومهم من عرب سفيان طيلة العصر الموحي بعدما اكتسب هؤلاء من الشوكة والجاه ما جعلهم ينفردون دونهم بأسباب الغلبة والسيادة على ما دونهم من قبائل جشم⁵⁵.

⁵³ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.168؛ بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.420.

⁵⁴ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج7، ص.38.

⁵⁵ Le Coz, *Le Gharb*, op.cit, p.336.

غير أنه وفي العصر المريني وبعد أن تحالف عرب الخلط مع أمراء بني عبد الحق وصاهروهم وصار لهم ولأشياخهم شفوف ودالة على الدولة، فقد تقوت مكانتهم وازدادت صولتهم على ما سواهم من أهل عصبيتهم من قبائل جشم⁵⁶. غير أن المجد والعز الذي تأثلوه وضربوا فيه بسهم وافر في عهد بني مرين سرعان ما تلاشى وتبدد بسبب ما "أصابهم من الخصب والترف منذ ماتين من السنين"⁵⁷ على حد قول ابن خلدون.

لكن ورغم تراجع وضعهم المادي ونفوذهم الاجتماعي، فقد استمر الخلط وعرب سفيان في العمل إلى جانب أمراء بني وطاس، حيث كانوا يمدونهم بقوات هامة من المتطوعة الفرسان للمشاركة في العمليات الحربية التي كانوا ينظمونها سواء لإخضاع القبائل والمناطق الخارجة عن طاعتهم أو للتصدي للقوات البرتغالية التي كانت قد احتلت خلال هذه الفترة بعض المدن والثغور في شمال المغرب⁵⁸.

وغني عن البيان الإشارة في هذا الإطار، إلى ما بلغته القبائل العربية ومشايخها في عهد بني وطاس من نفوذ وسلطان إذ "أصبح العرب يشكلون غالبية الجيش والحرس السلطاني، وكان شيوخهم وهم تابعون فيوداليين، مكلفين بوظائف في القصر ويحضرون إلى فاس لأداء مهامهم"⁵⁹. وبسبب احتكاكهم بهيئة المخزن ورموزها ازداد شيوخ هؤلاء العرب ترفا وجاها وعزة، كما ازدادوا، في الوقت نفسه، جشعا وتسلبا بهدف الحفاظ على نمط عيشهم المترف وتجنباً لضياع مكانتهم وجاههم⁶⁰. ولضمان ثقة هذه القبائل وولائها، فقد أصهر الأمراء

⁵⁶ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.175.

⁵⁷ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج7، ص.41.

⁵⁸ - كور (أوكست)، دولة بني وطاس (1420-1554)، ترجمة: محمد فتحة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1431-2010، ص.46.

⁵⁹ - نفسه، ص.67.

⁶⁰ - نفسه، ص.68.

الوطاسيون لبنات أشياخها، كما أقطعوهم الإقطاعات التي اختلفت في سعتها وأهميتها بحسب مكانة كل قبيلة من القبائل وطبيعة الخدمات التي قدمتها للدولة⁶¹.

ولما تسلم السعديون السلطة في المغرب، انضم إليهم عرب الخلط، وأقرهم السلطان محمد الشيخ "في أوطانهم وأمضى لهم ما كان بأيديهم من الإقطاعات ولم يغير عليه شيئا مما أترفهم به أمراؤهم بنو مرين"⁶². غير أنهم، وكما كان ديدنهم في الماضي في النكت بالعهود والخروج عن السلطان، فقد خذلوه في المعركة التي جرت بينه وبين الأمير الوطاسي الذي كان قد أتى بقوات تركية من الجزائر لمساعدته على استرجاع حكم أسلافه بفاس. لكن ما أن عاد محمد الشيخ المهدي ودخل فاس ثانية، وأنهى، وإلى غير رجعة، الوجود الوطاسي بها، حتى وجه حملة عسكرية تأديبة ضد الخلط إذ "...انتزع خيلهم وأرجلهم كافة وضرب عليهم الخراج ونظمهم في سلك الرعايا الغارمة". وبقوا على هذه الحال إلى أن وقعت معركة وادي المخازن، فلما رأى أحمد المنصور ما أبلوه من بلاء حسن فيها، عاد وألحق نصفهم بديوان الجند وأبقى نصفهم الآخر في عداد الرعايا الغارمة⁶³. فتحسنت، على إثر ذلك، أحوالهم وتقوت شوكتهم من جديد، فمدوا أيديهم على الأراضي التي كانت الدولة قد أقطعتها لكيش أهل سوس ومراكش بأزغار ومنعوهم من استغلالها فكان أن فرض عليهم المنصور مغرما بمقدار تسعين ألفا انتقاما منهم وتعويضا لأولاد مطاع عما نهبوه لهم. ولما كثرت تعدياتهم وفسادهم على من يجاورهم من القبائل وامتنعوا عن المشاركة في الحركة التي كان المنصور يعتزم توجيهها إلى تيكورارين، عاد فأسقطهم من ديوان الجندية وضرب عليهم الخراج وانتزع منهم جميع خيولهم. فكان هذا الإجراء العقابي

⁶¹ - نفسه.

Massignon, *Le Maroc*, op.cit, p.172 ; Marçais, *Les Arabes eb berbérie*, op.cit, pp.185,224,353,

⁶² - الفشتالي، *مناهل الصفا*، م.س، ص.108.

⁶³ - نفسه، ص.109.

مما فت في عضدهم وأذهب ريحهم وبقوا على هذه الحال من الخمول وأداء الجباية حتى عهد العلويين⁶⁴.

6- شراكة

هذه القبيلة هي في الأصل تجمع قبلي يضم أخلاطا من القبائل منها من ينحدر من أصل عربي كالشجع وبني عامر ومنها من ينتمي إلى أصل بربري كمدبونة وهوارة وبني سنوس. ولفظ شراكة هو في أصله لقب كان يطلق على "عرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم. وسموا بذلك لأنهم في جهة الشرق عن المغرب الأقصى، فأهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة"⁶⁵.

انضمت قبيلة شراكة إلى الجيش السعودي وظهر دورها على مسرح الأحداث بشكل بارز في فترة حكم السلطان أحمد المنصور ثم في عهد ابنه محمد الشيخ المامون الذي كان قد أنابه عنه بمدينة فاس. غير أن دورها الأهم والأخطر في تطور الأحداث قد ظهر بصورة ملفتة للانتباه في عهد عبد الله بن محمد الشيخ المامون في سياق المواجهات الدامية التي خاضها ضد عمه الأمير زيدان بهراكش⁶⁶.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المضمار هو أن القبائل الشرقية التي كونت كيش شراكة في العصر السعودي لم تكن هي ذات القبائل، حسب ما انتهت إليه بعض الدراسات، التي انضوت تحت كيش شراكة في عهد السلطان العلوي مولا رشيد، وحتى وإن كانت بعض الفروع أو الفرق

⁶⁴ - نفسه، ص.111.

⁶⁵ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.41.

⁶⁶ - مزين (محمد)، فاس وباديته مساهمة في تاريخ المغرب السعودي، (1549-1637)، منشورات كلية الآداب، الرباط،

مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ج1، ص.111.

هي التي استمرت، فإن هذا لا يمنع من القول بأن القبائل التي كونت كَيْش شراكة بفاس وضواحيها قد مرت بموجتين إثنتين:

موجة أولى، هي التي شكلت عناصر ما عرف بكَيْش شراكة في العصر السعدي.

ثم موجة ثانية، هي التي اشتملت على قبائل من إثنيات مختلطة شكلت مجتمعة قوام كَيْش شراكة في العصر العلوي الأول⁶⁷.

وقد كانت قبائل شراكة التي اتخذ منها السلطان العلوي مولاي رشيد كَيْشا خاصا به، قد انحازت إليه، إلى جانب قبائل أخرى من عرب أنكاد، حينما لجأ إلى المغرب الشرقي بحثا عن مناصرين وحلفاء لحركته. ومكافأة لهذه القبائل على ما قدمته له من دعم ونصير، فقد استقدمها معه وأنزلها بأحواز فاس وأمر عناصرها "ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار ملتون وعروة بن صالح وبذل لأصحابه وقواده ألف مئقال لبناء سورها وأمرهم ببناء الدور فيها وأعطى شراكة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس"⁶⁸. لكن لما تضايق أهل فاس منهم وضجوا بالشكوى من أعمالهم وممارساتهم المسيئة، أمرهم السلطان مولاي رشيد بالانتقال بحلتهم إلى بلاد صدينة وفشتالة بين نهري سبو وورغة "وأقطعهم تلك الأرض، وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم بقربه، وأعطاهم ألف دينار لبناء السور (أي سور القصبة) وجعلهم قبيلة واحدة"⁶⁹. فاندمجوا منذ ذلك الحين في كيان واحد حتى صار يصعب التمييز فيه بين من هو من أصل عربي وبين من هو من أصل بربري.

⁶⁷ - Lestrades- Carbonel (Georges), *Tribus des Cheraga*, Mémoires de stages des Controleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°117, s.d.

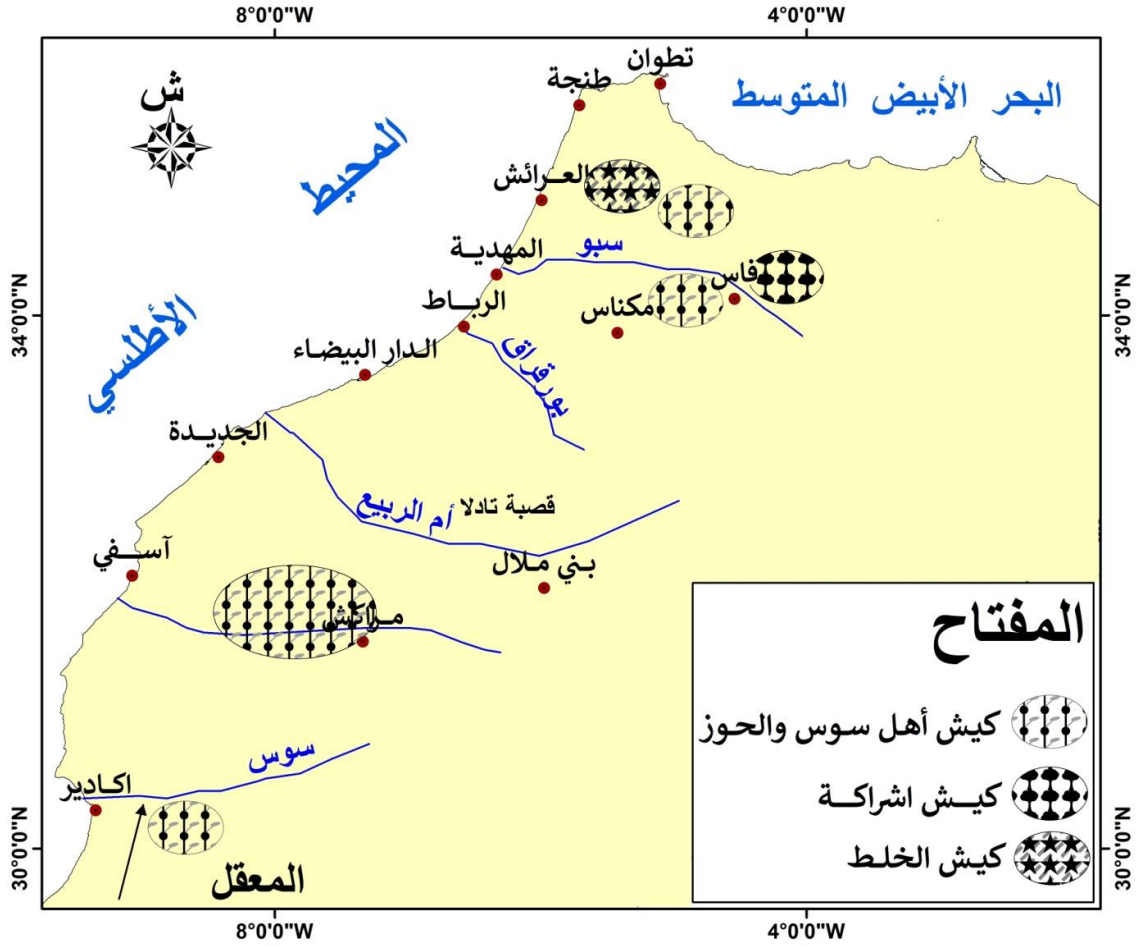
⁶⁸ - الناصري، الاستقصاء، م.س، ج7، ص.41-42؛ ابن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك بفاس الزاهرة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429-2008، ص.21.

⁶⁹ - الزياتي، البستان الطريف، م.س، ص.126.

هذا وقد لعب كيش شراكة في فترتي حكم مولاي رشيد ومولاي إسماعيل أدورا مهمة في المحافظة على الأمن والاستقرار بمدينة فاس والمناطق المجاورة لها وفي تأمين الطرق وحماية القوافل التجارية التي كانت تنطلق منها إما في اتجاه الشمال أو في اتجاه المغرب الشرقي⁷⁰. ورغم ما كان لهم من تأثير واضح في سيورة تطور الأحداث التي شهدتها المغرب في العهد العلوي الأول، إلا أن الزخم الذي أحدثه تدخل كيش الوادية في مجرياتها ومشاركتهم القوية في توجيه مساراتها، جعل حضور كيش شراكة أقل صدق وتريدا في الأستغرافية المغربية لهذه الفترة مقارنة مع ما سجلته لهم في زمن السعديين.

⁷⁰- Boufatma(A), *Karia et tribus prérfaines.changemen socio-economique et culturel*, éd.et imp. Bouregreg, Rabat, p.33.

خريطة توزيع قبائل الكيش في العهد السعودي



II - قبائل الكيش في العهد العلوي الأول

قبل استعراض القبائل التي انتمت إلى تنظيم الكيش في العهد العلوي الأول ، يجدر بنا أن نشير في البداية إلى أن تجربة هذا التنظيم الموروث عن الحقبة السعدية لم تعد حسب ما عبر عنه السلطان مولاي إسماعيل في مناسبات متعددة، لتستجيب للحاجيات والرهانات الجديدة التي باتت تطرح نفسها بإلحاح على الدولة العلوية في ظل التطورات والمستجدات التي شهدتها المغرب عقب الأزمة الهيكلية التي تلت انهيار الدولة السعدية، كما أن المشاكل والمتاعب التي سببها قبائل الكيش بعد أن أعلنت تمردا على الدولة والقائمين عليها من أولي الأمر، في خضم تلك الأزمة، دوغما اكتراث بما يجمعها معهم من روابط الخدمة والتبعية، كل هذا وذاك، جعل

من الاستمرار في الاعتماد على الخيار القبلي في التجنيد والتعبئة العسكرية خيارا غير مجدي ولا يحقق للدولة الأمن والاستقرار بشكل دائم ومنتظم وينأى بها من جهة أخرى، عن الارتهان للولاءات القبلية الخاضعة دوما لاعتبارات المصالح الظرفية والتحالفات المتغيرة.

وفي تبريره للأسباب التي دفعته إلى إنشاء جيش نظامي دائم من العبيد وأحمر الجلد، أبرز المولى إسماعيل أن لجوئه إلى هذا الخيار العسكري الجديد لم يتم إلا بعد أن لاحظ نفور الأحرار من الانخراط في الجندية وعدم تحمسهم للعمل في صفوف الجيش الدائم. ومما قاله في إحدى رسائله إلى عبد القادر الفاسي: "...رأينا أهل فاس (...) بالرماية وبخدمة الجند (...) تكاسلوا وادعوا الضعف وآثروا الراحة على غير أن الراحة إنما هي في الدخول تحت (...) غفلنا عنه ونظرنا في غيرهم من المدن والقرى والقبائل (...) فيهم غناء ولا قابلية لشيء"⁷¹. وقد عبر عن نفس الموقف في رسالة أخرى بعثها لعلماء الأزهر بمصر ومما ورد فيها: "وحيث جاء الله بنا لهذا المغرب (...) ووجدناه فارغا من الجيش والعيش وخفيف العمارة بعيد العهد بالخلافة والإمارة بسبب تلك الفترة التي اعترته ودامت فيه نحو الثمانين سنة تنوسي فيها أمور المملكة وسياستها واضمحلت فيها الأوضاع الملكية، وتوالت فتن وأوجاع وهرج كثير لا أعاد الله ذلك على المسلمين فصرنا نبحث حيث أقامنا الله (...) نبدئ السيرة والطرق من أولها ونعقدها من أصلها (...) ولما لم نجد في هذا المغرب أمنه الله منذ ولانا أمره جندا معينا مرتبا موفرا يعتمد عليه ويطمئن به خاطر وتركنا النفس إليه جعلنا بعون الله تعالى وتوفيقه الجميل نستخير الله تعالى وننظر من يصلح للجندية ومن يليق بها فرأينا الأحرار وأهل هذا المغرب لهذا العهد لا يصلحون للجندية ولا يليقون بها من وجوه شتى، لما جبلوا عليه من التكاسل والتخاذل وغلبة الشهوة وكثرة الأطماع المركوزة منهم في الطباع، بحيث لا يكفي الواحد منهم القليل ويستصغره ويقول إنه قليل، وحيث رأيناهم على هذه الأحوال أعفياهم وتركناهم على ما هم عليه من الاشتغال بمعاشهم والإقبال على منفعه، يؤدون ما يلزمهم لبيت مال المسلمين عمره الله وقصدنا إلى

⁷¹ - رسائل سعدية، ص. 45.

هؤلاء المماليك فاشتريناهم من ملاكهم بعد البحث عنهم والتفتيش فيهم على الوجه الشرعي والسني المرعي"⁷².

وبناء على هذه النقائص والعيوب التي ظلت تلازم الجيش القبلي، قرر المولى إسماعيل اتخاذ جيش منظم ومحترف من العبيد والحراطين يكون منقطعاً بشكل كلي ودائم للعمل العسكري ومخلص للدولة السلطانية ومتفان في خدمتها أشد ما يكون التفاني. كما يمكن تجنيده بأعداد كبيرة وكافية ودون أن تتكلف الدولة في سبيل الإنفاق عليه مصاريف باهضة الكلفة لأنه في الحقيقة جيش "غير ملحاح في مسألة المرتبات، ومطواع للأوامر والتعليمات، وتنتمي عناصره للشريحة الاجتماعية التي لا تدفع الخراج سلفاً، لعدم امتلاكها لوسائل الإنتاج"⁷³. وقد لخص المولى إسماعيل في رسالته لعلماء مصر المزايا والحسنات التي يختص بها هذا الجيش الأسود مقارنة مع الجيش القبلي والتي على أساسها تولدت لديه القناعة بجدوى المضي في مشروع إنشائه وتربيته ومما جاء فيها: "وآثرنا هؤلاء المماليك بتصييرهم جنداً وزرباً للإسلام، لأمر اختصوا بها دون غيرهم. منها أن هذا الجنس قليل المئونة راض بما تيسر من المعيشة، قنوع بما يجده دون كلفة ولا تكليف منهم، ومنها أن هذا الجنس من المماليك أقوى بهذا الشأن المبارك الذي عينوا له ودفعوا إليه من حراسة الثغور الجهادية، وحيطة البلاد الإسلامية. وهم أصبر وأقدر على حركاته وأسفاره والمصابرة عليه..."⁷⁴

وإذا كانت هذه الاعتبارات وغيرها هي التي دفعت المولى إسماعيل إلى التفكير بجدية في خلق جيش احتراقي ومنظم من "الوصفان" ليس له أي انتماء أو ارتباط بالواقع القبلي ولا يدين بالولاء والطاعة إلا للسلطان بوصفه قائده الأعلى، فإن هذا التوجه الإصلاحية الجديد لم يقده، مع ذلك، إلى التخلي عن الكيش القبلي أو تجاوزه رغم المساوئ والعيوب التي لمسها عن قرب في

⁷² - مجموع رسائل سعدية وعلوية، خ.ع. 12598، ص. 62-63.

⁷³ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص. 109.

⁷⁴ - مجموع رسائل سعدية وعلوية، ص. 62-63.

أداء فرقه ووحداته أثناء الحروب والحروب الداخلية والتي شخصتها رسائله بشكل واضح وصریح. وذلك لأن هذا الكیش غیر مكلف من الناحية المادية ويتقاضى تعويضاته من الأراضي التي تمنح له على شكل إقطاع ثم للأدوار التي تلعبها فرقه في ضمان ولاء وخضوع كثير من القبائل التي ترتبط معها بروابط شديدة العصبية فضلا عن أن استمرار هذا الكیش والمحافظة على وجوده يساهم في ضمان نوع من التوازن مع جيش العبيد داخل المؤسسة العسكرية.

1- الوداية

تنتمي قبيلة الوداية إلى معاقله الصحراء الغربية. تنحدر من ذوي حسان الذين كانت مواطنهم الأولى في نواحي ملوية قبل أن ينتقلوا إلى سوس على إثر استصراخهم من طرف علي بن يدر الزكندري لإعانتته في حربه ضد عمر المرتضي آخر حكام الموحدین⁷⁵. كانوا يقيمون، حسب ما ذكر الوزان، في الأراضي الصحراوية الواقعة ما بين ودان وولاتة، وكان نفوذهم يمتد جنوبا ليشمل أهل السودان⁷⁶. كما كانوا من الكثرة بحيث أن عدد مقاتليهم كان يقدر بحوالي سبعين ألفا وإن كانوا لا يملكون إلا عددا قليلا من الخيول.

كانوا يعتمدون في عيشهم بشكل أساسي على تربية الجمال⁷⁷ ولم يكونوا يتغذون إلا من ألبانها، مما جعل بعض الرحالة الأجانب في مطلع القرن العاشر الهجري/16م يصفهم بكونهم كانوا "جمالة خلص"⁷⁸. في مواطنهم بالصحراء كانوا يجاورون الرحامنة وأولاد أحمر وخصومهم البرابيش. وبعد أن احتل البرتغاليون سواحل سوس وأنشأوا مراكز تجارية في الصحراء الأطلنتية،

⁷⁵ - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.425.

⁷⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، م.س، ج1، ص.54.

⁷⁷ - نفسه.

⁷⁸ - Pascon, *Le Haouz*, op.cit,T.I, p.238

دخل الوداية في معاملات تجارية معهم وكانوا يصلون في تجارتهم حتى الصويرة شمالاً⁷⁹. مروا في هجرتهم من الجنوب إلى الشمال من نفس المحطات وربما تحت ضغط نفس الظروف التي دفعت أغلب القبائل المعقلية إلى مغادرة مضاربها في الصحراء والتوجه للاستقرار في الشمال بمجال الحوز بعد فترة من التوقف، لا نعلم مدتها، بمنطقة سوس.

وبسبب هذه الهجرة وما كان يتخللها من ظروف صعبة وقاسية ناتجة إما عن الحروب والنزاعات أو عن الكوارث الطبيعية وعلى رأسها الجفاف، تعرضت قبيلة الوداية، شأنها شأن كثير من القبائل المعقلية التي أشرنا إليها سابقاً، لانقسام وتفكك في وحدة كيائها مما جعل قسماً وافرقت منها تتفرقت وتنتشر بين قبائل مختلفة في مناطق مثلت محطات عبور لها ولغيرها أثناء رحلة هجرتها وتنقلها من الجنوب إلى الشمال. ولهذا السبب، استقرت بعض الفرق والعشائر منها بعد وصولها إلى البحيرة بحوز مراكز بجوار قبيلة الشبانات فكانوا يصاحبونهم إذا حلوا أو ارتحلوا.

وليس بين أيدينا في المصادر التاريخية المغربية ما يشير إلى أن قبيلة الوداية كانت قد انضمت إلى الكيش السعدي على غرار ما حصل مع معاقل أهل سوس. غير أن هذا الأمر لا يمنع من ترجيح فرضية مساندة هذه القبيلة للسعديين ووقوف عناصرها إلى جانبهم في الخطوات التي خطوها سواء عند بداية تحركهم في سوس أو عندما انتقلوا للاستيلاء على حوز مراكش.

وقد كان حصار السلطان مولاي إسماعيل، في إطار حربه مع ابن أخيه أحمد بن محرز والذي استغرق ثلاث سنوات (من 1085-1088 هـ/ إلى 1674-1677 م) المحطة التي وقع فيها اللقاء بينه وبين قبيلة الوداية، وهو اللقاء التأسيسي الذي سيحدد معالم العلاقة المستقبلية بينهما، بل وبين هذه القبيلة والمخزن العلوي حتى فيما سيأتي من مراحل تاريخية. وحسب رواية الزباني التي تناقلتها معظم المصادر التاريخية المغربية الأخرى، فإن رباط علاقة الخوالة

⁷⁹ - Ibid, p.239.

التي جمعت السلطان مولاي إسماعيل مع الوداية ثم علاقة المصاهرة التي انعقدت بينهما إثر حركته إلى سوس سنة 1089هـ/1678م، قد لعبا دورا أساسيا ومحفزا على تشكيل هذه العلاقة وتعزيز دعائمها فيما بعد بل والمحافظة عليها حتى في أشد الأوقات والظروف تأزما وتعقيدا⁸⁰.

وإذا كانت بعض الدراسات الحديثة قد أثبتت أن علاقة المولى إسماعيل بأخواله الوداية كانت قد تمت في الواقع قبل انطلاق عملية جمعهم وتجنيدهم بدليل أن "العناصر الأولى المشكلة لجيش الوداية قد شاركت إلى جانب السلطان في حصار مراكش والحروك الجانبية حولها"⁸¹، فإن ما تجب الإشارة إليه في هذا الشأن، هو أن عملية جمعهم وإرسالهم إلى مدينة مكناس لضمهم للكيش قد مرت بمراحل: كانت أول مرحلة فيها قد انطلقت سنة 1088هـ/1677م إذ انتقل في إطارها فوجان إثنان أتبع الأول بالثاني وعين لهما السلطان، بعد تسجيلهم في الديوان، مدينة الرياض للاستقرار فيها بجوار قصبته. وهاذان الفوجان معا كانا ينحدران من الجنوب، أما الفوج الثالث، فقد استقدمه السلطان من جهة الشرق على إثر حركة كان قد نظمها في اتجاه تلمسان، يقول الزياني في هذا الصدد: "ثم قدم عليه نجع آخر من القبلة، فكتبهم مع إخوانهم"⁸². وهذا الفوج الأخير كان يتكون، فيما يبدو، من عناصر عربية وبربرية، أدمجت في كيش الوداية وصار الجميع يحمل إسمها على وجه التغليب⁸³.

وبعد أن أنقل السلطان مولاي إسماعيل قبيلة زرارة والشبانات من حوز مراكش ووطنهم في وجدة، كما مر بنا في فقرة سابقة، وألحق بهم إخوانهم الشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع عبد الله الدريدي، فقد أنزل مكانهم بفاس الجديد نصف الوداية وعين محمد بوشفرة قائدا

⁸⁰ - Ducros, *Le Guich des Oudayas*, Mémoires de stages des Controleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°65, s.d.

⁸¹ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.88.

⁸² - الزياني، البستان الظريف، م.س، ص.150.

⁸³ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.89.

عليهم وأبقى النصف الآخر من الوداية بحي الرياض مكناس وعين عليهم أبوه القائد علي بوشفرة. وكان هاذان القائدان يتداولان فيما بينهما الإقامة مرة بفاس الجديد ومرة أخرى بحي الرياض مكناس إلى أن استقر بعد ذلك القائد علي بوشفرة بفاس الجديد والقائد محمد بن عطية بحي الرياض مكناس.⁸⁴

وقد قسم المولى إسماعيل جيش الوداية حسبما ما تواتر في أغلب الحوليات التاريخية المغربية إلى ثلاثة أرحاء: رحي أهل سوس ورحى المغافرة ورحى الوداية. وقد أطلق على الجميع إسم الوداية تغليبا لأنها كانت من أكبر الأرحاء الثلاثة وأقواها شوكة.⁸⁵

وبحكم كونها كانت تمثل إلى جانب جيش العبيد عماد الجيش الإسماعيلي، فقد اضطلعت بأدوار مهمة وأساسية في حماية أمن العاصمة مكناس ووقايتها من تهديدات القبائل المجاورة وعلى رأسها قبائل آيت أومالو في جبال الأطلس المتوسط التي ازدادت تحركاتها نشاطا في هذه الآونة التاريخية بهدف النزوح نحو الأراضي الواطئة في سهل تادلا وسائس. غير أن ما قامت به من أعمال عسكرية وتبنته من مواقف منحازة في فترة الأزمة السياسية التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل جعل دورها لا يقل تأثيرا وخطورة في تلك الأزمة وتداعياتها عن دور جيش العبيد وقادتهم وذلك من خلال تدخلها في تولية الأمراء وعزلهم ومحاصرة مدينة فاس وقصفها والعيث فسادا في الطرقات والأسواق ونهب مخازن الأقوات والحبوب وتخريب الأجنة والبساتين.

⁸⁴ - الزياتي، البستان الظريف، م.س، ص.150.

⁸⁵ - حول ظروف تكوين جيش الوداية والعناصر التي تكون منها أنظر: الزياتي، الروضة السليمانية، م.س، ص.58؛ الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولاي علي الشريف من المحاسن والمفاخر، م.خ.ع.د.1584، ورقة 172؛ ابن زيدان، إتحاف إعلام الناس، م.س، ج.1، ص.148؛ الناصري، الاستقصا، م.س، ج.7، ص.50؛

Terrasse (H), Histoire du Maroc, op.cit, T.II ; p.255 ; Pascon, Le Haouz, op.cit, T.I, p.240-241.

هي في الأصل فرقة من الوداية وبحكم ملازمتها لها في الحل والترحال صارت جزءا لا يتجزأ من تاريخها وذاكرتها الجماعية. كانت خلال منتصف القرن السابع الهجري /13م تنتجع رفقة الوداية وغيرها من قبائل معقل الطواعن في قفار الصحراء. وقد انتقلت في أواخر عهد الدولة الموحدية إلى بلاد سوس في ركاب من انتقل إليها من عرب ذوي حسان تلبية لصريخ علي بن يدر الزكندري⁸⁶. وبعد أن استطاب هؤلاء العرب مواطن سوس وغلبوا جزولة الطواعن و"أصاروهم في جملتهم ومن ظعنهم ووضعوا الإتاوات على المدن والقرى الموجودة"⁸⁷، اقتطعوا لأنفسهم أجود الأراضي وأوسعها في بسيط سوس وصاروا مع مرور الوقت هم أصحاب السيادة والغلبة في إقليم سوس بأكمله.

وبعد أن انطلق السعديون في سوس كانت فرقة من المغافرة من بين المجموعات المعقلية التي التفت حولهم وساندتهم فيما قاموا به من أعمال وتحركات عسكرية في سبيل تحرير المراكز المحتلة وإعادة لم شمل القبائل تحت قيادتهم السياسية الجديدة. وإذا كنا لا نملك من المعطيات التاريخية الكافية والمقنعة التي تسمح بالقول بأن المغافرة كانوا من بين قبائل معقل التي ألف منها السعديون نواة جيشهم العتيد بسوس، وهي ذات الملاحظة التي سبق أن سجلناها بخصوص قبيلة الوداية، فإن هذا الأمر لا ينفي كونهم كانوا من الداعمين لهم في كل الخطوات التي قطعوها في سبيل توحيد أطراف المغرب وبناء دولتهم الوليدة على أسس متينة ما دام أنهم كانوا من بين المجموعات القبلية المعقلية التي انحازت في وقت مبكر إليهم وتحالفت معهم نظرا لما بات يجمعهم من مصالح وتطلعات مشتركة.

⁸⁶ - بن منصور، قبائل المغرب، م.س، ج1، ص.425.

⁸⁷ -- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص.92.

وبعد أن انفطرت عقد الدولة السعدية ودخل المغرب مرحلة من الاضطرابات والصراعات السياسية والعسكرية الحادة⁸⁸، تشتت شمل قبائل بني معقل وعاد بعضها ممن كان في خدمة المخزن السعدي بفاس ونواحيها إلى مواطنهم الأولى بسوس أو الحوز، وهو ذات المصير الذي تعرضت له أيضا قبيلة الوداية إذ افترقت عشائرها وعناصرها وتشتت بين القبائل. ولذلك، فحينما التقى المولى إسماعيل عناصر هذه القبيلة بحوز مراكش أواخر القرن الحادي عشر الهجري 17م وجدهم منتشرين مع المغافرة في بسيط البحيرة في جوار قبيلة الشبانات.

وتفيد الرواية التاريخية المتداولة في شأن هذا اللقاء⁸⁹ أن المولى إسماعيل لما سأل الراعي أبو شفرة عن هويته وأصله انتسب إلى الوداية وأخبره بأن قومه من بلاد القبلة ورحلوا عنها بسبب جذب أصابهم، ثم قال له: "دخلنا السوس بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا إلى قبيلة فنزلت عليها، ونحن نزول مع الشبانات"، فقال له المولى إسماعيل "أنتم أخوالي وسمعتم بخبري ولم تأتونني"⁹⁰.

وتعود علاقة الخؤولة التي جمعت المولى إسماعيل بقبيلة الوداية والتي لطالما أشار إليها في أكثر من مناسبة في رسائله ومكاتيبه إلى أمه المغافرية، وهي جارية مولدة من سبي المغافرة كان أبو حسون السملالي قدأهداها للمولى الشريف يوم كان أسيرا لديه بإيليغ فأنجب منها المولى إسماعيل وأخاه المهدي⁹¹. وقد كانت هذه "الرابعة الدموية" وصلة القرابة التي تولدت عنها من أهم الأسباب التي حفزت المولى إسماعيل على ضم قبيلة الوداية ومعها فرقة المغافرة في صفوف الكيش حيث أسكنهم بالقرب منه بقصبة الرياض بمكناس للمساهمة في إقرار الأمن

⁸⁸ Voinot, "Les Tribus guich du haouz Merrakech", op.cit, p.13.

⁸⁹ - الزياتي، البستان الظريف، م.س، ص.149-150.

⁹⁰ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج 7، ص.52.

⁹¹ - المختار السوسي، إيليغ، م.س، ص.110.

بالعاصمة ومراقبة تحركات قبائل صنهاجة التي أصبحت مصدر قلق للمخزن في هذه المرحلة بعد محاولاتها المتكررة النزول نحو السهول⁹².

3- آيت إيمور

ينسب عبد العظيم الأزموري آيت إيمور إلى أصول عربية⁹³. غير أن المصادر التاريخية والرواية الشفوية تؤكد أنهم ينحدرون من أصول بربرية صنهاجية. ترجع المواطن الأولى لقبيلة آيت إيمور إلى أعالي غريس وقد تحركوا، ضمن من تحرك من جموع صنهاجة في ظروف لا نعلم توقيتها ولا حيثياتها، من الجنوب نحو الشمال حيث أقاموا بمنطقة أغباله. وحينما قامت الزاوية الدلائية وشرعت في تقوية وجودها وتوسيع دائرة نفوذها داخل وخارج مجال الأطلس المتوسط كانت قبيلة آيت إيمور من أوائل من انضموا إليها من حلفاء صنهاجة حيث اصطفت بمعيتهم خلف محمد الحاج الدلائي الذي تحولت الزاوية الدلائية في عهده من مجرد مؤسسة دينية تربية إلى إمارة سياسية تطلب الملك وتسعى لتحصيله. لذلك فحينما انطلق السلطان مولاي إسماعيل في عملية محاصرة القبائل الأطلسية ومنعها من ارتياد السهول كانت قبيلة آيت إيمور تقيم يومها في منابع وادي ملوية بالأطلس الكبير الشرقي ما بين توتغين وأراكو نايت أحمد وأغبالا⁹⁴.

ونظرا لأن هذه المنطقة تمثل مجال عبور وتدفق الهجرات القبلية من مجالات الصحراء جنوبا نحو شمال الأطلس، فقد تعرضت قبيلة آيت إيمور، نتيجة لذلك، لضغوط كبيرة دفعتها

⁹² - الإدريسي (الفقيه)، "تحاديث القبائل في الأطلس المتوسط وعلاقتها بالحكم المركزي. مقارنة وظيفية لآليات تدبير المخزن للمجال الجبلي"، مجلة أطلس، العدد 1، 2019، ص. 138.

⁹³ - الأزموري، تقييد لشرفاء المغرب وقبائله، ورقة 2.

⁹⁴ - بوعصاب (عبد العزيز)، "إيمور"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1411-

1991، ص. 792.

لمغادرة مواطن تمركزها والنزوح مجددا نحو مناطق جديدة في الأطلس المتوسط قبل أن تستأنف تحركها بعد ذلك في اتجاه الأراضي الواطئة بسهل تادلا. وفي كل هذه الفضاءات الأطلسية التي وطأتها لا تزال هناك آثار وبصمات كثيرة تدل على مرورها بها في فترة ما من تاريخ رحلات تنقلها.

كانت قبيلة آيت إيمور من القبائل التي تمردت على الحكم المركزي وتواجهت مع الجيوش المخزنية في سبيل الحفاظ على استقلالها. غير أن المولى إسماعيل، وبفضل نجاحه في إحداث اختراق وتصدع في تحالفات القبائل الصنهاجية بعد أن تمكن من إخضاع قبائل آيت إدراسن وآيت إيمور سنة 1094هـ/1682م وزمور وبني حكم سنة 1099هـ/1687م وإقامة تحالف معها، استطاع أن يوظف هذه القبائل في مواجهة القبائل الصنهاجية الأخرى المتمردة والمنضوية تحت حلف آيت أومالو. ففي الحركة السلطانية الكبرى التي نظمها المولى إسماعيل ضد هذه القبائل سنة 1104هـ/1692م كان قد وجه "علي وبركة مع آيت إيمور وآيت إدراسن، فنزلوا "تنتغالين"⁹⁵ و"علي ويشي مع زمور وبني حكم وأمره أن ينزل بعين توغا"⁹⁶ وكانت النتيجة التي أسفرت عنها هذه الحركة هي هزيمة آيت أومالو وتقتيل رجالها وسبي نساها وأطفالها والاستيلاء على أنعامها ومواشيها وانتزاع خيلها وسلاحها⁹⁷.

وتدعيما للتحالف الذي عقده المولى إسماعيل مع برابرة الدولة: آيت إدراسن وزمور وبني حكم، فقد أدرج قبيلة آيت إيمور ضمن صفوف الكيش وكلفها بمهمة مراقبة وتطويق قبائل آيت أومالو ومنعها من النزوح نحو السهول. وفي إطار هذه المهمة، أمر المولى إسماعيل "علي بن بركة أن يبني داره بتنتغالين وينزل معه إخوانه آي إيمور بين آيت ومالو وآيت أفلمان وأعطاه ألفا من الخيل بسلاحها لأخوانه ولم يبق الخيل عند أحد من قبائل المغرب غيرهم وغير أهل

⁹⁵ -الزياني، البستان الطريف، م.س، ص.178.

⁹⁶ - نفسه.

⁹⁷ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.80.

الريف والعبيد والوداية واستراح من عيث البربر بالاستيلاء على آيت أومالو وآيت يف المان...⁹⁸.

غير أن بقاء آيت إيمور في تنتغالين لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما طردهم آيت أومالو من معاقلم من أعالي ملوية فنزلوا إذ ذاك إلى تادلا. وبعد وفاة المولى إسماعيل وما تلاها من اضطرابات اجتماعية وصراعات سياسية بين أبنائه، استأنفت قبائل صنهاجة زحفها وضغطها مرة أخرى على السهول. وقد استغلت قبيلة آيت إيمور هذه الظروف لتفك علاقة ارتباطها بالمخزن وصارت كغيرها من القبائل المتمردة تمارس أعمال التهرب والتخريب والهجوم على القبائل المجاورة. وقد نظم السلطان مولاي عبد الله حملة تأديبية لردعها وفل شوكتها إلا أن ذلك لم يمنعها من مواصلة تشغيها وغيثها بالأمن وتعيدها على الناس في ربوع تادلا طيلة عهد الفترة تقريبا⁹⁹.

4- جيش أهل الريف

عرف هذا الجيش بأسماء مختلفة؛ فتارة نعت بإسم "جيش المجاهدين" أو "الجيش الجهادي الريفي" وتارة أخرى، "بالجيش الريفي" أو "المخازنية أهل الريف" تمييزا لهم عن بقية أفراد قوات القبائل المتطوعة التي كان يتم تجنيدها، بين الفينة والأخرى، من مناطق ومدن مختلفة للمساهمة في عمليات تحرير الثغور المحتلة بشمال المغرب أو للمشاركة، بعد إتمام تحرير معظم هذه الثغور، في أعمال الحصار والمراقبة على تخوم الجيوب والمدن المغربية التي بقيت تحت ربة الاحتلال الإسباني كمليلية وسبتة.

⁹⁸ - الزياتي، الترجمان، م.س، ص.738.

⁹⁹ - الزياتي، البستان الطريف، م.س، ص. 246.

وقد جاء تأسيس هذا الجيش بهدف تنظيم العمل الجهادي وتأطيره ضمن سياسة الدولة وتوجهاتها الرسمية في الوقت الذي كان فيه بعض المقدمين والرؤساء التقليديين في الشمال كأولاد أبي الليف وأولاد النقسيس والأعراسة وغيرهم يمارسون هذا النشاط في إطار غير منظم ويستغلونه لتحقيق طموحاتهم السياسية في الاستقلال عن السلطة المركزية وربط علاقات مع بعض القوى الأجنبية للاستقواء بها لتحقيق تلك الطموحات وتوسيع قاعدة نفوذهم بين القبائل.

وقد بدأت نواة تأسيس هذا الجيش في عهد المولى الرشيد حينما تمكن من القضاء على معارضيه في منطقة الريف الشرقي والتحالف مع بعض الزعماء المحليين الذين انضموا إليه وعززوا جيشه بعناصر من أهل الريف ساهمت في دعم سلطته والتصدي للمناوئين لها في هذه المنطقة. ويمكن أن نذكر هنا بالدور الذي لعبه الشيخ عمر بن محمد التمسسماني وأفراد أسرته في الوقوف إلى جانب المولى رشيد وفي إعادة فرض نفوذه في الجزء الشرقي من الريف بعد أن وضع حداً لتمرّد أحمد أعراص الذي كان موالياً لأخيه المولى محمد الشريف. وحسبما يستفاد من المصادر الإخبارية، فإن عملية تأسيس الجيش الريفي قد انطلقت مباشرة بعد التخلص من الخضر غيلان والقضاء على ثورته سنة 1673/1084، لأنه بعد تحقيق هذا الإنجاز العسكري الذي تمهدت على إثره جميع جهات الفحص لفائدة السلطان مولاي إسماعيل عين عليها "قائده عمر بن حدو وترك معه بعض الخيل والرمّة"¹⁰⁰. وبهذا التعيين توج، حينئذ، عمر بن حدو عاملاً على منطقة الفحص والهبط الممتدة بين طنجة ومدينة القصر الكبير التي اتخذها قاعدة لحكمه يساعده في تسير شؤونها أخوه أحمد بن حدو وابن عمه علي بن عبد الله بحوز تطوان.

وكان من أبرز المهام التي أنيطت بالقائد عمر بن حدو يومئذ هي تحرير مدينة طنجة من يد الإنجليز، وهي المهمة التي لم يوفق في إنجازها رغم تشديده الحصار عليها وهدم بعض

¹⁰⁰ - بن موسى الريفي، زهر الأكم، م.س، ص.158.

الأبراج التي كانت تتحصن بداخلها الحامية الإنجليزية وهو الهدف الذي واثته الفرصة لتحقيقه في المعمورة التي تم تحريرها من قبضة الإسبان سنة 1681/1092¹⁰¹. وبوصفه "قائد الغرب وثغوره البحرية"¹⁰² فقد كلف السلطان مولاي إسماعيل عمر بن حدو، فضلا عن مهمة متابعة شؤون الجهاد، بحل المشاكل المترتبة عن أعمال القرصنة وإجراء المفاوضات مع الدول الأوربية المعنية بها وتنظيم المبادلات التجارية معها، وهذه المهام هي التي ستصبح من اختصاص قواد الجيش الريفي بشكل رسمي بعد استكمال تحرير الثغور الشمالية.

تكون الجيش الريفي من عناصر تنتمي في عمومها إلى قبائل: بني ورياغل وبقوية وقلعية وبني توزين وتمسمان¹⁰³ التي احتكرت أسرة التمسانيين الحمانيين التي تنحدر منها قيادة الجيش الريفي منذ تأسيسه إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري /19م. وقد ارتبط انتقال هذه القبائل من الريف الشرقي للاستقرار بالفحص والشمال الغربي بعمليات التعبئة الجهادية التي طالت عناصر هذه القبائل منذ أن أسند المولى إسماعيل قيادة الجهاد، أول الأمر، للقائد عمر بن حدو التمساني، وقد تواصلت هجرة هذه العناصر منذ ذلك الوقت من مواطنها الأم في الريف الشرقي مع تزايد حركة الجهاد وظهور تجمعات سكنية لأهل الريف في قرى ومدامر الفحص بطنجة وتطوان وغيرها¹⁰⁴. وبعد تحرير المهديّة وطنجة والعرائش تركّز نشاط جيش أهل الريف على ثغر سبتة الذي بقي يخضع للاحتلال الإسباني رغم المساعي والمحاولات الحثيثة التي بذلت لتحريره في عدة مناسبات بسبب قوة ومناعة تحصيناته والإمدادات التي كانت

¹⁰¹ - بن العياشي، *زهر البستان*، م.س، ص.122-124؛ الإفرائي، *نزهة الحادي*، م.س، ص.431؛ الناصري، *الاستقصا*، م.س، ج7، ص.63-64.

¹⁰² - الفكيكي (حسن)، "التمسماني، عمر بن حدو"، *معلّمة المغرب*، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، ج8، 1995، ص.2551.

¹⁰³ - *Villes et tribus du Maroc, Tanger et sa Zone*, éditeur. Faculté des lettres et sciences humaines, Rabat-Tétouan, éd.2013, p.82.

¹⁰⁴ - Salamon (G), "Une tribu marocaine, les fahçia", A. M, T.I, Ernest Leroux, Paris, 1904, p.167.

تأتيه بحرا لتعزيز صموده ودفاعاته. وقد تناوبت عناصر هذا الكيش على الإدالة العسكرية المتمركزة قبالة هذا الثغر لضمان استمرار الحصار عليه وتشديد الضغط على أفراد حاميته. وعلى الواجهة الشرقية من الريف اضطلعت قبائل قلعية بذات المهمة حيث كانت تتناوب على محاصرة ثغر مليلية فيما بينها تحت قيادة مقدمين كانوا يشرفون على أنشطتها الجهادية ويسهرون على تنظيم التناوب على إدالتها ومن أبرز القبائل المشاركة في هذا التنظيم الجهادي على هذه الجبهة نذكر: قبيلة بني بو يفرور وقبيلة مزوجة وقبيلة الكعدة وقبيلة بني شكر وقبيلة بني بوكافر¹⁰⁵. ونظرا لأن هذه القبائل كانت تمارس نشاطها الجهادي داخل أراضيها الأصلية التي كانت تستقر فيها، فإنها لم تستفد من الحقوق والامتيازات التي يخولها في العادة نظام الكيش للقبائل التي تكون مندرجة في تنظيماته، عكس قبائل الجيش الريفي التي أقطعها المخزن إقطاعات في فحص طنجة وأحوازاها لاستغلالها في ميدان الزراعة وتربية الماشية علاوة على إعفائها من تأدية كل الكلف والضرائب غير الشرعية التي كانت تقع على كاهل قبائل النائية¹⁰⁶.

وقد لعبت فرق الكيش الريفي دورا مهما ومشهودا طيلة العهد الإسماعيلي في استتباب الأمن والاستقرار في أقاليم الشمال وفي تحرير الثغور المغربية المحتلة وفي التصدي لأي محاولة للاعتداء على السيادة الوطنية وفي تطويع القبائل المتمردة والثائرة وتحصيل مستحقات الجباية لفائدة بيت المال¹⁰⁷، غير أن الصلاحيات الواسعة التي منحت لقادته في تدبير شؤون الأقاليم الشمالية الغربية والاتصال مع ممثلي الدول الأوربية ومفاوضتهم في القضايا التي تهم الأسرى

¹⁰⁵ - فكيكي (حسن)، المقاومة المغربية للوجود الإسباني، مليلية (1859-1697)، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، ص. 124-159.

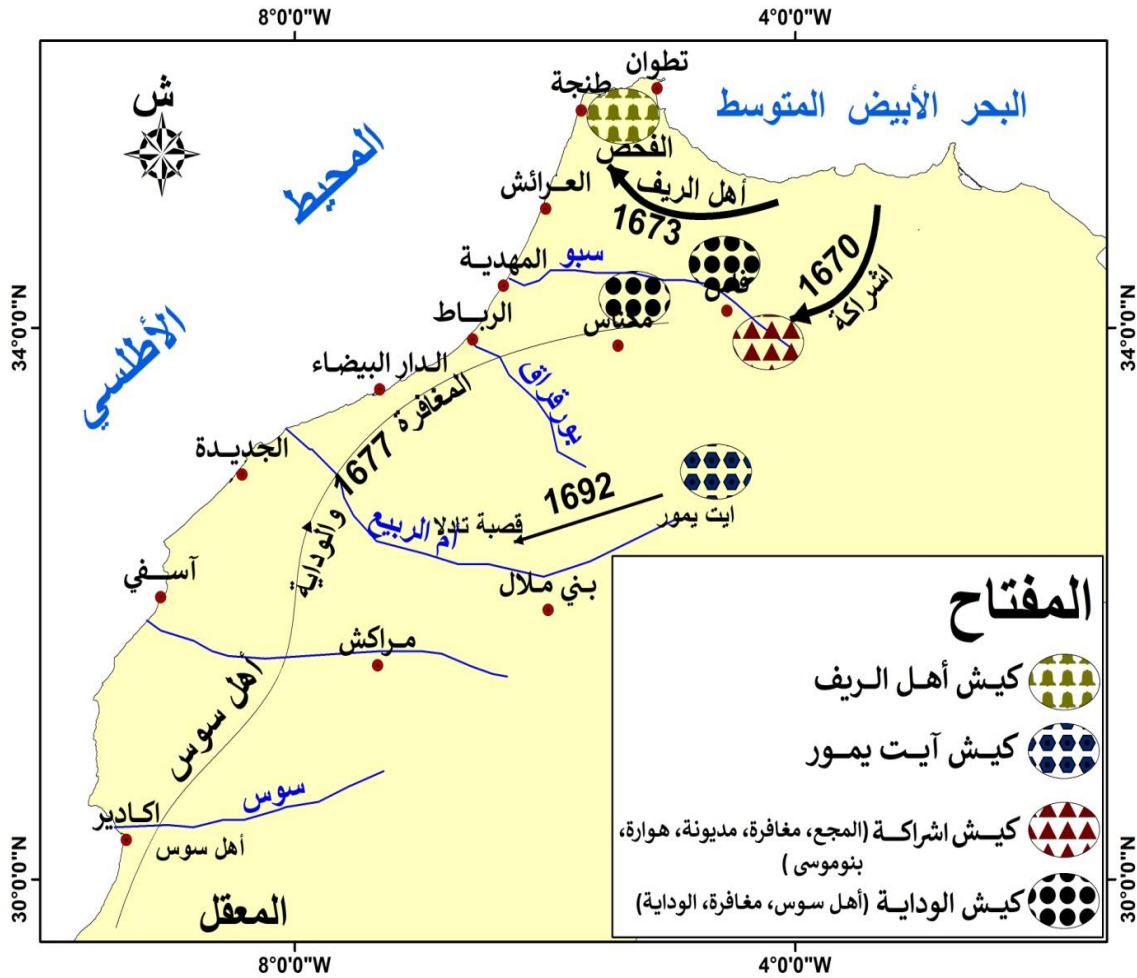
¹⁰⁶ - التعريتي (مراد)، مساهمة في دراسة تاريخ الجيش الريفي 1912/1666، د.و، كلية الآداب، القنيطرة، الموسم الجامعي، 201/2010، ص. 122؛

Villes et tribus du Maroc, Tanger et sa Zone, op.cit, p.85.

¹⁰⁷ - برادة، الجيش المغربي، م.س، ص. 66-70.

الأجانب والتجارة الخارجية للمغرب معها، جعلت بعضهم يتحول، في ظرفية الأزمة، إلى قادة مستبدين وإلى حكام إقطاعيين بفضل ما راكموه من ثروات وأموال طائلة من خلال سياسة التعسف التي نهجوها في جمع موارد الجبايات والتعدي على ممتلكات الناس وكذا من خلال عقد الصفقات التجارية مع التجار الأجانب ووكلائهم. وتقدم حالة الباشا أحمد بن عبد الله الريفى، في هذا السياق، النموذج الأبرز والدال على هذا الاستبداد القائدي، ففي ظل الأزمة التي أناخت بكلكلها على المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل سعى إلى طلب الملك والانفصال عن السلطة المركزية وتحالف من أجل تحقيق هذا المسعى مع الأمير مولاي المستضيئ في الإطاحة بأخيه السلطان مولاي عبد الله والانقلاب عليه.

خريطة توزيع قبائل الكيش في العهد العلوي الأول



الفصل الخامس:
قبائل الكيش: التنظيم والموارد
والوظائف

إذا كانت الفرق العسكرية التي كانت تابعة للقوات النظامية الدائمة في العهدين السعدي والعلوي الأول والتي كان تنظيمها الداخلي وهيكلها التراتبي والجوانب المرتبطة بتسليحها ورواتبها والمسؤوليات والأدوار التي أنيطت بها لا تطرح بوجه عام مشاكل أو صعوبات كثيرة عند محاولة فهمها ورصد تطورها، فإن فرق الكيش التي اعتمدتها دولة الأشراف في هذه المرحلة التاريخية، تطرح، على خلاف ذلك، جملة من التساؤلات والتعقيدات عند محاولة الاقتراب من فهم طريقة تنظيمها والموارد التي كانت تمثل مصدر رزقها ومعاشها والأسلحة التي كانت تستعملها والمواقع والقصبات التي كانت تنتشر بها في المجال، ويعود السبب في ذلك، بالدرجة الأولى، إلى شحة ومحدودية المعلومات والمعطيات الكافية والمطمئنة المتعلقة بهذه المستويات التفصيلية والجزئية من حياتها الوظيفية في أغلب المصادر التاريخية المعاصرة لهذه المرحلة. ولذلك سنحاول انطلاقا مما توافر لدينا من إفادات متفرقة ومنعزلة في مظان تاريخية مختلفة ومما قدمته بعض الدراسات والأبحاث المعاصرة التي أنجزت حول موضوع الجيش المغربي من توضيحات وإضاءات حول هذه القضايا المختلفة، أن نقدم صورة عامة عنها حتى وإن بقيت في بعض الجوانب غير مكتملة أو تعتيرها بعض الفجوات والبياضات.

I- التنظيم العسكري

1- تنظيم فرق الكيش

لم تكن قبائل الكيش منظمة تنظيميا عسكريا واضح المعالم والخصوصيات، كما أن الحدود الفاصلة بينها وبين عموم قبائل النائية لم تكن حدودا مستقرة وثابتة، بل كانت حدودا متغيرة وظرفية تتغير بحسب قوة امتداد نفوذ الدولة أو تراجعها وبحسب مدى انضباطها والتزامها بقواعد الخدمة المخزنية أو نقضها ومخالفتها. ويظهر من خلال النصوص التاريخية التي سلطت الضوء على قبائل الكيش ومسار علاقتها بالمخزن والقصبات التي أقامت بها داخل المدن

السلطانية والمناطق التي وطنت بها خارج هذه المدن، أنها كانت مقسمة في الغالب إلى شطرين:

- شطر يمثل نواة جيش نظامي دائم ويكون في خدمة المخزن المركزي في العاصمة ويضطلع أفرادُه بمهام المحافظة على الأمن وحراسة القصر السلطاني ومنشآته وتنفيذ أوامر السلطان وإبلاغ رسائله ومكاتيبه إلى من يهمله الأمر من موظفي وأطر الجهاز المخزني في الجهات والأقاليم من باشوات وعمال وقواد غيرهم¹. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم في مغرب القرن التاسع عشر إسم المسخرين أو المخازنية وكانوا يمثلون إدالات الجيش المتمركز باستمرار في العاصمة وتنتقى عناصره من أفضل أفراد الجيش "من الفرسان والرماة وخصوصا من قبائل البخاري وشراكة والودايا ويشكلون محلة المخزن في وقت الحركات"². كما كانت عناصر هذا الجيش أيضا في خدمة المخزن الجهوي في الأقاليم التي كانت تقيم فيه على نحو دائم إدالات من الكيش المخزني حيث كانت تتولى خدمة عمال المدن والباشوات وقواد القبائل سواء في إبلاغ وتنفيذ الأوامر والتعليمات أو في توفير الأمن وردع المخالفين والعصاة أو المساهمة في استيفاء مداخيل الجباية أو مراقبة الطرق التجارية وتأمين حمايتها خاصة إذا كانت عناصر تلك الإدالات تقيم في قصبات تقع على محاور تلك الطرق أو بالقرب من مجالاتها.

- ثم شطر آخر وتتكون أغلبية عناصره من بقية أفراد قبائل الكيش وعادة ما تكون هذه العناصر بمثابة جيش احتياطي للمخزن يستدعيها فقط للمشاركة في الحركات والحملات العسكرية ولا تتقاضى أي راتب أو مونة في الأوقات العادية على عكس عناصر الفئة الأولى من مسخرين وأعوان وإدالات جهوية. وغالبا ما تكون "مستوطناتها ومعسكراتها" في ضواحي المدن

¹ - سيمو (بهيجة)، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، م.س، 1844-1912، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري،

المطبعة الملكية، الرباط، 1421هـ - 2000م، ص.127

² - برادة، الجيش المغربي، م.س، ص.131؛ ابن زيدان، العز والصولة، ج1، م.س، ص. 132-150.

العواصم أو بعيدا نسبيا عنها وتتعاطى في سائر الأيام للأنشطة الفلاحية لكسب قوتها وعيشها على غرار بقية القبائل الأخرى.

وبخصوص التنظيم الداخلي لقبائل الكيش وتقسيماتها، فقد ذهبت أغلب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع إلى القول بأنها كانت مقسمة إلى ثلاث وحدات تضم الرحا والمائة والربايع. وفي إطار هذا التقسيم وضعت تراتبية للكيش حسب توزيعه العددي يوجد في أعلاها قائد الرحا الذي يترأس وحدة عسكرية تضم ألف جندي أو أكثر ثم قائد المائة الذي يتحكم في وحدة تتألف من مائة جندي يساعده مقدمين يرأسون وحدات تتكون من خمسة وعشرين جنديا.

وقد اعتبر نبيل ملين، في هذا الإطار، وهو يتحدث عن فرسان الجيش غير النظامي (يقصد الكيش) في العهد السعودي أنهم كانوا منتظمين "في أرحاء (مفردا رحي) من ألف رجل ويقودها ضابط يطلق عليه قائد الرحي وكل رحي ينقسم إلى فرق ثم إلى وحدات من مائة رجل يقودها مقدم"³ وفي عهد المولى إسماعيل اعتبرت Magali Morsy أن هذا التنظيم لم يكن إلا إجراء تنظيميا بسيطا فرضته المعركة ليس أكثر⁴. أما لحسن أغزادي الذي تناول بالدرس المشروع العسكري للمولى إسماعيل، فقد تبنى هو الآخر فكرة تقسيم وحدات الجيش بين قائد الرحا وقائد المائة والمقدم⁵، ولم يخرج Rollman عن نفس التصنيف على أساس الأراحي في

³ - ملين، السلطان الشريف، م.س، ص.303.

⁴ - Morsy, « Moulay Ismail et L'armée de métier », op.cit, p.101

⁵ - Aghzadi (lahcen), *L'ouvre militaire de Moulay Ismail*, Thèse de Doctorat, F.L.S.H, d'Aix, 1971, (Microfiche n° MC 414, F.R.A- E.IS.H) p.60.

حديثه عن كيش الوداية⁶ في عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل وابنه سيدي محمد بن عبد الله.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو: هل هذا التقسيم بهذه الاصطلاحات وبهذا النظام التراتبي كان هو التقسيم المعتمد فعليا في العهدين السعدي والعلوي الأول؟.

بالعودة إلى المصادر والوثائق التاريخية المغربية والأجنبية التي تحدثت عن التنظيمات العسكرية للدولة السعدية والعلوية إبان هذه المرحلة تحديدا لا نجدها تشير إلى هذه الألقاب والمصطلحات باستثناء أبو القاسم الزياني الذي أورد في كتابه الترجمان المعرب مصطلح "رحا" في موضعين على الأقل⁷ وهو يتحدث عن جيش الباشا أحمد الريفي أثناء حربه مع الأمير المستضيئ ضد أخيه السلطان عبد الله. مما يعني أن هذا التقسيم وبهذه الرتب والدرجات لم يكن سوى إسقاط للمصطلحات العسكرية التي شاع استعمالها في مغرب القرن التاسع وصارت متداولة آنذاك في معظم المصادر والوثائق المخزنية الرسمية⁸. أما التقسيم الذي جرى به العمل لوحدات الكيش في زمن السعديين والعلويين وكانت ينطبق أيضا على مختلف تشكيلات جيش العبيد في العهد الإسماعيلي فقد كان تقسيما تقليديا يميز بين الخيالة والمشاة وينتظم فيه الجنود ضمن وحدات تتوزع بين "المائة والمائتين والأربعمئة يرأسها قواد"⁹ وكان يتولى قيادة معسكر الجنود قائد عام يسهر، إلى جانب مهامه العسكرية، على الفصل في النزاعات والنظر في الجرح والمخالفات التي كانت تقع بين أفراد الكيش وهذه المهمة ذاتها كان يتولاها كبار القادة

⁶ -Rollman (W.J), *The New order in a Pre-colonial Muslim society military reforme in Morocco 1844-1094*. University microfilms international Ann Arbore Michigan. U.S. A. T.I, p.392.

⁷ - الزياني، الترجمان المعرب، م.س، ج2، ص.769 ، 771.

⁸ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.50-51 . وعن تفاصيل هذا التقسيم ورتبه وأطره راجع، ابن زيدان، العز والصولة.

م.س، ج2، ص.203.

⁹ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.162.

بتنسيق مع كبار أعيان وشيوخ الجماعات في المناطق التي كانت يستقر فيها سائر جنود قبائل الكيش الاحتياطين.

2- الأعداد

تطرح قضية الأرقام في شتى المجالات بالنسبة لتاريخ المغرب صعوبات بالغة ومعقدة عند محاولة معرفة نسبها وتحديد مستوياتها، ويعود السبب في ذلك إلى إمساك معظم المصادر التاريخية على اختلاف أصنافها عن تقديم معطيات إحصائية ومعلومات كمية يمكن على ضوءها وضع تقديرات رقمية أو رسم منحنيات بيانية تجسد تطور حالة من الحالات أو ظاهرة من الظواهر.

وينطبق هذا الواقع بشكل أوضح على القطاع العسكري بالرغم من أننا نجد كثيرا من المصادر التاريخية التقليدية تقدم أرقاما عامة تهتم أعداد الجنود ووحداتهم وتخصصاتهم في حمل الأسلحة وتجهيزات المحلات والمعسكرات ووسائل النقل المستخدمة في حمل المعدات والذخائر الحربية والمؤن والخيام وغيرها. ولعل الصعوبة التي يصادفها الباحث بصفة خاصة في معرفة وتحديد نسب أعداد الجنود المنتمين إلى قبائل الكيش، إنما تكمن في ندرة النصوص التاريخية التي تتحدث عنهم بشكل خاص ومستقل عن باقي القوات الحاركة التي كان يتم استنفارها في أوقات الحملات والحركات السلطانية، ثم حتى إذا حدث وأن أوردت بعض تلك النصوص رقما من الأرقام في سياق من السياقات العسكرية، فإنه لا يعكس العدد الحقيقي للجنود الذين كانوا ينتمون فعليا لهذه القبيلة أو تلك من قبائل الكيش وإنما يبقى رقما يعبر فقط عن العدد الذي تمت تعبئته استجابة لحاجة حربية طارئة أو لتنفيذ مهمة من المهام التي تقوم بها الدولة بشكل دوري واعتيادي لمراقبة المجال وتأمين حركة التنقل والمبادلات التجارية.

وهكذا ففي العصر السعودي لا نكاد نعثر إلا على أرقام عامة تهتم بشكل خاص أعداد الجيوش النظامية في فترات حكم بعض السلاطين ممن شهد في عهدهم التنظيم العسكري تطورا

ملحوظا عددا وعدة، كعهد محمد الشيخ المهدي وعبد الله الغالب وأحمد المنصور الذهبي¹⁰. وضمن تلك الأرقام لا يمكن الاهتداء إلى معرفة سوى أعداد بعض الفرق الأجنبية المؤلفة تحديدا من العلوج والأندلسيين والأتراك وزواوة وغيرها أما تلك التي تخص قبائل الكيش أو كما تسميهم بعض المصادر التاريخية "بالقبائل البدوية" أو "عرب الدولة" فلا نكاد نظفر من بينها إلا على إلماعات لا تفي بالغرض مهما جرى تقليب النظر فيها رصدًا وتأويلا.

فقد انطلق الشرفاء السعديون في بداية حركتهم بجيش كان كله من المتطوعة العرب والبربر في سوس بلغ تعداده يومئذ 500 فارس وقد تركزت مهمته بشكل أساسي على "الجهاد ضد النصارى المحتلين لأكادير"¹¹ ثم بدأ هذا العدد يتزايد بوتيرة مضطردة مع الانتصارات التي أصبحوا يحققونها ضد العدو البرتغالي في منطقة سوس بعد أن انضمت إليهم عدد من القبائل في مجالات حاحا والشيظامة وعبدة ودرعة وغيرها.

وبعد سيطرتهم على مدينة مراكش وقضائهم على أميرها الناصر الهنتاتي كان من أبرز التدابير التي اتخذوها من أجل التمكين لإمارتهم الناشئة هو "تجهيز محاربين يكونون دائما على أتم استعداد ورتبوا لهم أجرة حسنة ليبقى جانبهم مرهوبا"¹². ولم يبلغ عدد جنود الأخوين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ في المعركة التي واجها فيها الأمير الوطاسي عهدئذ أبو العباس أحمد على مشارف وادي العبيد سوى سبعة آلاف من الفرسان ومائتان من الرماة بينما كانت القوات الوطاسية تتألف من تسعة آلاف فارس وألفين من الرماة وسبعة عشر مدفعا¹³.

¹⁰ - نحيل هنا على سبيل المثال على ما أورده مارمول حول أعداد هذه الجيوش النظامية وتوزيعها في عهد الغالب بالله، أنظر: مارمول، إفريقيا، م.س، ج1، ص494-495.

¹¹ - نفسه، ص.453.

¹² - طوريس، تاريخ الشرفاء، م.س، ص.62.

¹³ - مارمول، إفريقيا، ج1، م.س، ص.458.

ولاحقا في معركة وادي درنة سنة 1545 ارتفع تعداد جيش محمد الشيخ السعدي تحت قيادة قواد مراكش وسوس إلى أزيد من "ثلاثين ألف فارس وثلاثمائة من رماة البنادق الأتراك مع ما ينيف عن ألف من رماة البنادق الإسلاميين وثمانى عشرة قطعة من المدفعية"¹⁴، هذا في الوقت الذي بلغت فيه أعداد قوات نظيره الملك الوطاسي "ثلاثين ألف فارس من فرسان فاس وبلش وغمارة ودبدو ومن العرب وثمانمائة من الرماة الأتراك أو مسلمي العلوج زيادة على ألف من الرماة المسلحين بالبندقيات وأربعة وثمانين مدفعا من النحاس"¹⁵

وبعد أن تقلد السلطان عبد الله الغالب بالله مقاليد الحكم في المغرب بعد حادثة اغتيال والده محمد الشيخ، بلغ تعداد وحدات الجيش النظامي التي صارت تؤدي مهامها بشكل منتظم في أهم المدن والأقاليم بالمغرب ما يناهز 60.000 جندي كلهم "مستعدون للمجابهات المسلحة، يربط خمسة عشر ألف بدرعة وسوس، وخمسة وعشرون ألفا بمراكش، وعشرون ألفا بفاس، من بينهم خمسة آلاف يشكلون حرس الملك. إلى جانب هذه الأعداد، كان يوجد في الجيش ألفان من الرماة العلوج منضوون تحت لواء المشاة وخمسمائة من الفرسان، وكذلك ألف من الرماة المنتمين إلى أهل سوس، وقد أنيطت بهؤلاء السوسيين مهمة السهر على استتباب الأمن بفاس الجديد، لأن الملك اختار أن يكون مقامه فيه"¹⁶.

وقد استمر هذا العدد نفسه من القوات النظامية في الخدمة العسكرية حتى في عهد ولاية ابنه محمد المتوكل بعد ذلك وهو "ستين ألف فارس مسلحين على الطراز المغربي: عشرون ألفا

¹⁴ - طوريس، تاريخ الشرفاء، م.س، ص.97.

¹⁵ - مارمول، إفريقيا، ج1، م.س، ص.469.

¹⁶ - نفسه، ص.494-495. راجع مناقشة هذه الأرقام ودلالاتها عند:

Dziubinski (Andrzej), « L'armée et la Flote de guerres marocaines à L'époque des sultans de la dynastie saadienne », *hesp. tam*, Vol.XIII, fasc, unique, 1972, pp.64-65.

بمملكتي فاس وباديس، ونفس العدد بمراكش، وعشرة آلاف بتارودانت، وعشرة آلاف بإقليم درعة وتافيلالت وتيكورارين"¹⁷

أما في عهد أحمد المنصور الذي أولى اهتماما كبيرا وواسعا لتطوير جند النار الذي تكونت وحداته بشكل خاص من العلوج والأندلسيين ومن شراقة وأهل سوس وبذل في سبيل تأهيلها وترقيتها نفقات مالية باهضة لأداء أجورها وتسليحها وكسوتها، فقد ارتفع عددها من عشرين ألف جندي عام 1582 إلى أربعين ألف مقاتل سنة 1603¹⁸.

لم يكن غرضي في الحقيقة من عرض هذه الأرقام حول أعداد وحدات الجيش النظامي وغير النظامي وتطورها الكمي إلا بيان مدى صعوبة تقديم رقم يمكن الاطمئنان إليه بخصوص عدد جنود قبائل الكيش إما مجتمعة أو منفردة في مغرب السعديين وذلك بسبب قلة، إن لم نقل انعدام، نصوص تاريخية تسلط الضوء على أعداد الجنود المفترضين لمجموع قبائل الكيش في هذه المرحلة، ومن جهة أخرى، عدم تمييز المصادر المتوفرة التي تقدم أرقاما بهذا الشأن بين فرق الجيش النظامي وغير النظامي ولا تأتي على ذكر أصول هذه الفرق وانتماءات عناصرها الإثنية أو الجغرافية إلا في النادر من الأحيان.

ومهما يكن من أمر، ولكي نأخذ فكرة عامة وإن كانت لا تهم في معظمها سوى مجموعات محددة من قبائل الكيش ولا تغطي زمنا سوى فترات متقطعة ومتباعدة عن بعضها البعض ضمن سياقات التطور التاريخي، سنكتفي ها هنا ببعض الأمثلة المتفرقة مما تحصل لدينا من قراءة مصادر المرحلة ووثائقها.

¹⁷ - طويريس، تاريخ الشرفاء، م.س، ص.235.

¹⁸ - المهناوي (محمد)، السلاح الناري بمغرب السعديين، ر.د.د.ع، كلية الآداب - ظهر المهرارز فاس، 1988، ص.194.

ففي معرض الرسالة التي بعثها المنصور لأبنيه محمد الشيخ المامون سنة 1011هـ/1602م أشار فيها إلى أن ابنه في ولاية فاس كان بإمكانه أن يحرك من قبائل أهل سوس ومراكش ستة عشر ألفاً¹⁹. وهذا العدد كان يرتفع في بعض المناسبات، كمناسبة عيد الأضحى مثلاً، إلى أكثر من هذا المستوى، ليصل إلى تسعة وعشرين ألف فارس كما أكد ذلك الشهاب أفوقاي لدى مشاهدته لمحلة السلطان أحمد المنصور وهي تقيم في مكان قريب من مدينة مراكش خوفاً من وباء الطاعون الذي كان قد نزل بالبلاد يومئذ²⁰، وقد يتجاوز هذا العدد هذه العتبة بنسبة أعلى بكثير إذا كان الأمر يتعلق بالاستعداد لمواجهة عدو أجنبي يمتلك جيشاً متطوراً ومتفوقاً عدة وعدداً وتدريباً ليلبلغ أربعين ألف كما حصل على سبيل المثال في معركة وادي المخازن التي استطاع أن يجمع فيها الأمير عبد الملك السعدي، استعداداً لمواجهة الجيوش المسيحية بقيادة دون سبستيان، جيشاً "يتألف من عشرة آلاف من المسلمين الأتراك المسلحين بالبنادق، وثمانية آلاف من المورسكيين الذي غادروا إسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة، وستة آلاف من حملة البنادق الذين تم اختيارهم من بين أكثر المغاربة شجاعة، وعدد كبير من المشاة من أصحاب

¹⁹ - ومما ورد في هذه الرسالة: "... ولو أعطى (يقصد محمد الشيخ المامون) لتلك القبائل لانتالت عليه لأن أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف وعند أولاد أبي عزيز نحو الألف ونصف وعند العزفي وعند أولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبي راس وعند أحمر وعند المنباهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد بن عبد وجعلت أعد له قبائل أهل سوس وقبائل أهل مراكش ، وأحصى له خيلهم بما أبهته. وقلت له: لو أنصفهم لحرك منهم نحو ستة عشر ألفاً وأكثر". الإفرائي، **نزهة الحادي**، م.س، ص.265.

²⁰ - يقول أفوقاي في هذا الصدد: "ولما أن بلغنا إلى محلة السلطان مولانا أحمد ابن محمد الشيخ الشريف الحسني وكان يقرب المدينة بنحو الستة أميال بسبب الوباء العظيم الذي نزل بتلك البلاد، وكان عيد الأضحى في اليوم الآتي من بلوغنا، وخرج السلطان في جنود - لم نطن ذلك - وعجني حال الرماة فحزامهم هو أفضل وأحسن وأزين من حزام النصارى بكثير. وأما العرب الذين جاءوا وحضروا مع قوادهم، فكانوا تسعة وعشرون ألف فارس وكذا مائة ما عدا السبيحية، وفرسان المدينة، والفردة، والجند كثير"، قاسم الحجري الأندلسي (أحمد)، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، منشورات كلية الآداب، عين الشق، تحقيق: محمد زروق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1407-1898، ص.43.

السيوف والسهام بجانب هذا كله كان هناك ثلاثة آلاف من الفرسان الآخرين المسلحين بالبنادق وأربعون ألفا من الأعراب أصحاب النبال والدروع"²¹.

لكن ما يلاحظ هو أن هذه النصوص وعلى الرغم من تأكيدها على حضور فرق من الجند القبلي، في تشكيلات الجيش السعدي إلا أنها لا تسمح بمعرفة ما إذا كانت هذه الفرق كلها من القوات المتطوعة من مختلف القبائل أم أن بعضها على الأقل والمكون أساسا من قبائل الكيش الحليفة للدولة كان هو الذي يستأثر بالحصة الأكبر فيها.

وفي ظل غياب نصوص تاريخية يمكن البناء عليها في تبديد هذا الغموض على الأقل خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/16م، فقد وافتنا بعض المصادر المسيحية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م ببعض الأرقام التي من شأنها أن تقدم فكرة ولو جزئية عن عدد عناصر بعض فرق الكيش في هذه المرحلة المتأزمة من تطور الدولة السعدية.

يشير أنطونيو دي صالدينيا إلى أن المنصور وغداة قفوله عائدا إلى مراكش من فاس بعد أن تلقى فيها البيعة الثانية من قبل أهل الحل والعقد، كان من بين الوحدات العسكرية التي استصحبها معه فرقة عسكرية من شراكة تضم 4000 جندي من حملة البنادق. وفي سياق آخر، أشار كذلك، إلى أن المنصور وفي محاولة منه للتخلص من كثرة الجيوش في العاصمة مراكش والتخفيف من ثقل رواتبهم، قسم أقاليم المملكة بين أبنائه وخص كل واحد منهم بحصة معينة من فرق الجند، فكان، تنفيذا لهذه السياسة، أن وضع القائد العلجي مصطفى باشا بعد أن صار هو القائد الأعلى لجيش محمد الشيخ بمدينة فاس 6000 من شراكة تحت قيادته إلى

²¹ - دي هنين، وصف الممالك المغربية، م.س، ص. 182.

جانب وحدات عسكرية أخرى مجهزة أحسن تجهيز وتتقاضى رواتب مجزية تتكون من خمسة آلاف أندلسي وما يزيد عن أربعة آلاف من العلوج.²²

وإذا انتقلنا إلى العهد العلوي الأول يستمر دائماً نفس الغموض فيما يتعلق بأعداد العناصر التي تم تجنيدها في هذه الفترة من بين قبائل الكيش للعمل في مجال الخدمة العسكرية. فأغلب أفراد جيش المولى محمد وأخيه المولى رشيد كان يتكون من أفراد قبائل متطوعة من العرب والبربر، فمن 5000 فارس و9000 من المشاة²³ التي كان يتألف منها جيش المولى محمد صار جيش المولى رشيد يضم 8000 من المشاة و2600 من الفرسان²⁴ وقد ارتفع هذا العدد بعد ذلك حينما انضمت إليه عناصر من جيش المولى محمد بعد موته، إضافة إلى فرق أخرى جديدة اندمجت في الجيش الرشيدي بعد أن امتدت عمليات التوسع العسكري لتتطال معظم جهات المغرب من شرقه وشماله إلى وسطه وجنوبه.²⁵

ومما يلاحظ تبعاً لذلك، أن المصادر العلوية لا تسعف في تحديد أعداد فرق قبائل الكيش المخزنية التي أصبحت مسجلة في ديون الجند. فشراكة الذين استقطبهم المولى الرشيد من شرق المغرب ومنحهم أراضي إقطاع بنواحي فاس وأنزل عزابهم بقصبة الخميس بفاس الجديد لا نعلم عن أعدادهم سوى أنها صارت أقل بكثير مما كانت عليه أيام السعديين الذين كانوا يجندون منهم زهاء عشرة آلاف رجل.²⁶ أما الشبانات وبعد أن انضموا إلى المولى رشيد واستقدمهم من مراكش للاستقرار بفاس الجديد، فقد كانوا 6000 راكب²⁷. في حين بلغ عدد

²² - نفسه، ص.111.

²³ - S.I.H.S., France, T.II, pp.21-22.

²⁴ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.38.

²⁵ - الإفرائي، نزهة الحادي، م.س، ص.426.

²⁶ - م.خ.ج.4490، المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.41.

²⁷ - مويط، المغرب في مطلع العهد العلوي، م.س، ص.58.

عناصر كيش الوداية بعد أن أنقلهم المولى إسماعيل من مراکش إلى مكناس وصاروا يشاركون في عملياته العسكرية حوالي 4000 راكب، كما وصل عدد الذين أنزلهم بفاس الجديد لمراقبة المدينة مابين ثلاثة وأربعة آلاف فارس²⁸، غير أنه في أواخر العهد الإسماعيلي كان بإمكان الوداية أن يجندوا أزيد من 15000 راكب للمشاركة في العمل العسكري²⁹.

وبخصوص قوات الجيش الريفي، فإن تحديد عدد مجاهديه يبقى من الصعوبة بمكان نظرا لكونه كان يتكون من عناصر ريفية وأخرى من القبائل المتطوعة ومن العبيد، وهذه العناصر كانت غير مستقرة لا في أعدادها ولا في المجموعات القبلية التي كانت تشارك مناوبة في عملية حصار مدينة سبتة والأعمال والأنشطة الجهادية التي كانت تتخللها. ولأخذ صورة تقريبية عن تعداد هؤلاء المجاهدين، يشير جون بريثويت إلى أن عدد من كانوا يحاصرون سبتة وكان يجري استبدالهم شهريا كان يتراوح ما بين أربعة وخمسة آلاف رجل³⁰، وإلى جانبهم كان الباشا أحمد بن علي الريفي يتوفر كذلك على ما بين ثلاثمائة وأربعمائة من عبيد السلطان كان يستخدمهم في حرسه الخاص. وقريبا من هذا الرقم يشير أيضا صاحب عمدة الراوين إلى أن الباشا أحمد الريفي وأثناء حصاره لمدينة تطوان في صفر عام 1140هـ / شتنبر 1727م كان عدد أفراد قواته يصل إلى ستة آلاف رجل³¹.

من خلال ما سبق تتضح إذن، صعوبة التوصل إلى معرفة أعداد جنود الكيش الذين كانوا يعملون إما بشكل دائم ومنتظم في الجيش المخزني أو كانوا يمثلون فقط قوات احتياطية لا تتم تعبئتها إلا في ظروف الحروب والمعارك الكبرى أو في أوقات الحركات والحملات العسكرية

²⁸ - بريثويت ، تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص.164.

²⁹ - Morsy, «Moulay Ismail et l'armée de métier »,op.cit, p.100.

³⁰ - بريثويت، تاريخ الثروات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص.65.

³¹ - الرهوني (أحمد)، عمدة الراوين في ذكر أخبار تيطاوين، تحقيق: جعفر بن الحاج السلمي، ج1، مطبعة فضالة،

المحمدية، 1989، ص.187.

الداخلية. غير أنه وانطلاقاً من الأرقام التي توقفنا عندها سابقاً يمكن أن نغامر ونقول، إن أعداد أفراد هذه القبائل في العهد السعودي كان يتراوح على الأرجح ما بين 10 إلى 20000 محارب، أما في العهد العلوي الأول فإن هذا العدد قد يكون قد ارتفع نسبياً ليصل إلى مستوى يتراوح ما بين 20 إلى 30000 محارب.

وبصرف النظر عن هذه التقديرات التي تبقى في نهاية المطاف مجرد تخمينات تفتقد إلى ما يبرر في الواقع إمكان الاطمئنان إليها أو الشك فيها، في ظل المعلومات المتوفرة حالياً حول قبا ئل الكيش خلال هذه الفترة التاريخية تحديداً، فإن المؤكد هو أن أعداد عناصر هذه القبائل، شأنها شأن باقي الفرق العسكرية الأخرى العاملة في صفوف القوات النظامية، كانت تتراجع وتتقلص أحياناً بشكل دراماتيكي كلما دخلت البلاد في دوامة من الحروب والصراعات المسلحة أو اجتاحتها موجات من الطواعين والأوبئة الفتاكة أو توالى عليها فترات من المسغبات والمجاعات الماحقة المدمرة.

وحتى نعطي فكرة دالة عن النزيف البشري الذي كانت تتعرض له البنية الديموغرافية لقبائل الكيش في ظروف الأزمات الدورية والمتجددة التي ألقت بظلالها القائمة على مغرب هذه المرحلة، نشير في هذا الإطار إلى بعض الأمثلة المنتقاة مما أوردته بعض المصادر التاريخية من وقائع وشهادات معبرة، بشكل من الأشكال، عن هذا المآل المأساوي.

ففي إطار الثورة التي أشعلها الناصر بن عبد الله الغالب بالله ضد عمه أحمد المنصور كان جنود كيش شراقة الذين كانوا يقيمون بفاس الجديد تحت حكم محمد الشيخ المامون قد انحازوا يومها لثورة الناصر وتآمروا معه لفتح أبواب المدينة فور اقترابه منها، غير أنه وبعد أن اكتشفت المؤامرة التي تورطوا فيها وهزم الناصر وانكسر جيشه كان قد بلغ عدد القتلى في كتيبة شراقة المتواطئة معه ثلاثة آلاف قتيل³². وقد تكرر نفس المشهد الدموي مرة أخرى في

³² - ديصالدانيا، أخبار أحمد المنصور، م.س، ص.159.

مدينة مراكش. ففي خضم الصراع الذي نشب بين زيدان وأخيه محمد الشيخ المامون حول وراثة العرش، كان عبد الله بن المامون المدعوم من قبل كيش شراقة قد تمكن من دخول العاصمة مراكش وطرد عمه زيدان منها، لكن ما أن استعاد هذا الأخير حكم المدينة مجددا بمساندة كيش الشبانات حتى أمر بقتل كل الشراكة الموجودين بها بعد أن تنهى إلى علمه أنهم قاموا بقطع رأس الباشا سليمان القرطبي قائد كتيبة تافيلالت، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل طالت آلة القتل حتى النساء والأطفال الأبرياء كذلك³³.

وقد تعددت في العهد العلوي الأول أيضا، فصول المعارك والمواجهات التي لقيت فيها أعداد كبيرة من أفراد قبائل الكيش حتفها. وحتى لا نطيل في تعداد الأمثلة التي تعكس، في كل الحالات، جدلية العلاقة المضطربة ما بين الحرب وموت عناصر الجند من كل الفصائل والجنسيات، نكتفي في هذا الإطار بمثال كتيبة أولاد جرار المعقلية التي أتي عبد الله بن إسماعيل على قتل كل أفرادها البالغ عددهم 800 جندي خوفا مما كانت تمثله هذه القبيلة، حسب زعمه، من خطر جدي على حكمه ومستقبله السياسي³⁴، ثم مثال قبيلة الوداية بفاس الجديد التي فقدت في أكثر من مناسبة عددا كبيرا من أفراد كيشها بسبب الحروب التي مافتتت تنفجر، من حين لآخر، بينها وبين ساكنة فاس البالي في ظل الأزمة السياسية والعسكرية التي استعر أوارها بين أبناء السلطان المولى إسماعيل بعد وفاته. ففي إحدى تلك الحروب التي وقعت في عهد المولى أحمد الذهبي بعد أن رفض أهل عدوة فاس الإدريسية "دفع ما كانوا يدفعونه لأبيه من الهدايا والوظائف كل شهر"³⁵ مات في يوم واحد "من ناحية الوداية أربعين رجلا"³⁶.

³³ - دي هنين، وصف الممالك المغربية، م.س، ص.65.

³⁴ - Morsy, *La relation de Thomas Pellow*, op.cit, p.168.

³⁵ -- القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1407-1986، ج3، ص.297.

³⁶ - نفسه.

وإلى جانب الحروب، فقد كان للأوبئة والأمراض الفتاكة التي كانت تتفشى في صفوف الجيش أثرها البالغ في موت أعداد كبيرة من عناصرهم ومنهم طبعا عناصر الكيش. وإذا كانت تعوزنا المادة المصدرة التي تسمح بإعطاء أرقام تبين بدقة عدد الوفيات التي كانت تخلفها هذه الأوبئة في وسط الجيش، فيمكن من خلال الشهادات والأرقام التي تركتها بعض المصادر التاريخية عن أعداد الموق الذين لقوا مصرعهم بسب الطواعين والمجاعات التي ترتبت عنها في بعض الحواضر المغربية كفاس ومراكش حيث كانت تتمركز غالبية العساكر السلطانية، أن نتلمس حجم الخسائر البشرية التي كانت تصيب وحدات الجيش. ففي الفترة الفاصلة ما بين 1597 و1610 التي تخللتها موجات متكررة من الطواعين الماحقة وتزامنت معها، في الوقت عينه، سلسلة من المجاعات والحروب الداخلية، ساد المغرب جو يوحى بالفناء والخراب الرهيب³⁷. ويقدم الناصري³⁸ في هذا السياق، وصفا معبرا، أصدق تعبير، عن هذا الوضع المأساوي إذ يقول: "كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع إلى سنة ست عشرة وألف، وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الأعيان، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله"³⁹. وقد قدرت بعض المصادر أنه بسب وباء سنتي 1597 و1598 كان يصل عدد الموق في اليوم الواحد بفاس إلى ألف ومراكش إلى ألفين⁴⁰. ومن التدابير الاحترازية التي اتخذها أحمد المنصور حماية للجنود من هذا الوباء الفتاك ومنع انتقال العدوى إلى صفوفهم فقد نقل محلته إلى خارج مدينة مراكش وأمر من كان معه من قواد بعض المدن

³⁷ - روزنبرجي (برنار) والتريكي (حميد)، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، ص.91.

³⁸ - ورد هذا النص نقلا عن الشيخ أبي عبد الله بن يعقوب السملالي

³⁹ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج5، ص.189.

⁴⁰ - يتحدث المؤرخ المجهول عن هذه الوفيات قائلا: "وفي سنة ست وألف كان الوباء بالمغرب إلى أن خرج من فاس ألف ميت كل يوم ورجع بعدما انتهى وخرج من مراكش ألفان إثنان من الموق كل يوم". تاريخ الدولة السعدية التكمدراتية، م.س، ص.99.

العودة على وجه السرعة إلى مناطقهم ولنا فيما سجله دي صالدينيا بشأن قائد القصر الكبير الذي كان يومها بمراكش ما يؤكد هذا الأمر إذ يقول: "توصل قائد القصر الكبير من الشريف بأمر الانصراف على جناح السرعة، فابتعد في اليوم ذاته بأربعة فراسخ عن مراكش. غير أن الطاعون كان قد اكتسح كل البلاد، وأدى تلويته للهواء إلى وفاة نصف عدد البشر في محلتي الشريف والقائد معا، والمؤكد أن الوباء انتشر في محلة القصر الكبير بعنف كبير إلى درجة أنني لم أر أحد أصيب به يستمر على قيد الحياة إلى غاية اليوم الثالث. وهكذا انصرفنا، ونحن نلاحظ مشاهد مثيرة للداء الذي كان يتعقبنا ورأينا أناسا فقدوا الحياة بعد ساعتين وكأن وفاتهم تتم بسبب سهم مسمم يخترق قلوبهم وليس بسبب تعرضهم لوباء شديد العدوى".⁴¹

ولم تختلف الوضعية في قساوتها كذلك في العهد العلوي، فبعد أن اجتاحت المغرب طاعونا 1742 و 1744، فقد أديا إلى هلاك أعداد كبيرة من أفراد جيش العبيد ونفس الشيء بالنسبة لباقي عناصر الكيش. وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر المغربية⁴² وأكدت، في نفس الوقت، بعض الوثائق الأجنبية بشكل أوضح حينما أفادت بأن عبيد مشرع الرملة كانوا يموتون بالمئات وبآلاف وأن الجيش الذي عبأه باشا تطوان أحمد الريفي حليف الأمير المستضيئ لمواجهة أخيه عبد الله "كان يخسر في كل يوم 25 إلى 30 ضحية".⁴³

وكما كانت الحروب والأوبئة الفتاكة تؤدي بحياة مئات، وأحيانا، آلاف الجنود بشكل دوري ورهيب، مما كان يخلق، في كل مرة، أعباء مالية مضاعفة للدولة من أجل تعويضهم وإعادة بناء وترميم المؤسسة العسكرية من جديد، كانت المجاعات هي الأخرى تتسبب في انتكاسات ديموغرافية مهولة خصوصا وأنها كانت تأتي في الغالب الأعم إما قبيل انتشار الأوبئة فتمهد

⁴¹ - دي صالدينيا، أخبار أحمد المنصور، م.س، ص.189.

⁴² - الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ج1، ص.247.

⁴³ - البزاز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط،

مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992، ص.55.

الأرضية لاشتعال لهيبها في جل المناطق، وإما بعيد ظهور هذه الأوبئة فتكون بمثابة معول إضافي من معاول تدمير الحياة وفناء الخلائق من كل الأعمار والفئات مدنية كانت أم عسكرية، حضرية كانت أم بدوية⁴⁴. ناهيك عن حالات الوفيات التي كانت تصيب الجنود، فرادى أو جماعات، بما فيهم أفراد الكيش، أثناء تأدية مهامهم وواجباتهم العسكرية إما بسبب الحرارة المفرطة وما ينتج عنها من عطش وغياء، أو بسبب كثرة الأمطار والعواصف الثلجية⁴⁵ وإما بسبب وخامة وتلوث الجو في بعض البيئات الجافة أو الرطبة⁴⁶ علاوة على الحرائق التي كانت تشب في معسكرات ومخيمات الجنود إما أثناء إقامتهم في قصباتهم ومستوطناتهم وإما أثناء تنقلاتهم صحبة المحلات السلطانية⁴⁷.

3- القيادة

تجمع كل النظريات العسكرية قديما وحديثا على أن قيادة الجيش تلعب دورا محوريا وحاسما في الحياة العسكرية للجنود وفي الإنجازات والمكاسب السياسية التي تحققها الدولة في ميدان الحروب سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي. وإذا كان هذا الطرح يصدق من الناحية المبدئية والعملية على كل أنواع الجيوش بغض النظر عن طبيعة البلدان والأنظمة السياسية التي تنتمي إليها، فإن دور القيادة في بلد كالمغرب، الذي كان جيشه يتكون من فرق مختلطة وغير متجانسة في أصولها وتركيباتها وغير متساوية في حظوظها ودرجة قربها من الدوائر المخزنية وفي الرواتب والامتيازات المادية المنعم بها عليها، يصبح هذا الدور أكثر

⁴⁴ - دي صالديانيا، وصف الممالك المغربية، م.س، ص.104.

⁴⁵ - نفسه، ص.87.

⁴⁶ - السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، تحقيق وترجمة هوداس، مطبعة بردين انجي، 1889، ص.155؛ آيت عدي (مبارك)، "السلح الناري في سياسة أحمد المنصور السودانية"، ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، مطبعة وورك بيرو، الطبعة الأولى، 2020، ص.421.

⁴⁷ - Morsy, La relation de Thomas Pellew, op.cit, p.159.

أهمية وإلحاحا لقيادة الجيوش وتسييرها واتخاذ القرارات الحربية المصرية التي تستلزمها طبيعة الظروف والتحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها البلاد بين الفينة والأخرى.

ولذلك ظل السلطان، الذي كان يمثل في زمن السلم إماما ورمزا دينيا وسياسيا بالنسبة لكل القبائل المغربية سواء تلك التي كانت تابعة لدائرة نفوذ الدولة أو تلك التي لم تكن تنالها أحكامها إلا لماما، لوجودها في مجالات نائية أو وعرة المسالك، هو القائد الأعلى الذي تأتمر بأوامره كل وحدات الجيش ويتولى التنسيق بينها واتخاذ ما تقتضيه تطورات الأوضاع على الجبهتين الداخلية والخارجية من تدابير ومبادرات عسكرية وأمنية لمواجهة. وتحت قيادته العليا كان يوجد قادة آخرون تباينت درجة رتبهم ونوعية أدوارهم في الأجهزة العسكرية والإدارية للدولة بحسب المسؤوليات والمهام التي كانت توكل إليهم ومستويات الثقة والإخلاص التي كانوا يجسدونها في علاقتهم مع أولياء أمورهم.

وبالعودة إلى تاريخ الدولة السعدية نلاحظ أن أشهر السلاطين الذين بنوا صرح مؤسساتها ووطدوا دعائم الحكم فيها، قد اختاروا كبار قادتهم من عناصر أجنبية تنحدر إما من أصول تركية أو أندلسية أو علجية واتخذوا من القوات الأجنبية فرقا خاصة لحراستهم الشخصية ولتأمين حماية قصورهم ومنشآتهم الإدارية والعسكرية الحساسة وتسيير وحراسة معامل ودور صناعة الأسلحة ومستودعات الذخائر والمعدات الحربية في المخازن المخصصة لها في القصور السلطانية وفي الإقامات الأميرية بمختلف الجهات والأقاليم. كما أسندوا إلى بعض القادة البارزين منهم، ممن برهنوا على كفاءة وولاء موثوق، قيادة الحملات والعمليات العسكرية الكبرى سواء داخل أو خارج المغرب كما حصل في المواجهات التي جرت، في أكثر من مرة، مع الأتراك على الحدود الشرقية للمغرب أو في معركة وادي المخازن ضد القوات البرتغالية أو في الحملة العسكرية التي استهدفت مملكة سنغاي ببلاد السودان الغربي.

ورغم المكانة الرفيعة التي حظي بها هؤلاء القادة الأجانب في الجهاز العسكري السعودي والرواتب المجزية التي أغدقتها الدولة عليهم والمواقع القيادية التي احتلوها في تنظيمات جيوش النار التي توزعت، كما هو معروف، بين جيش الفرسان أو "السباهية"، وجيش المشاة أو "الانكشارية"، فإن القادة الكبار الذين تبؤوا منزلة عليا وانفردوا بمزية القرب والتقديم لدى السلطان أحمد المنصور السعودي كانوا من العلوج على وجه التحديد⁴⁸.

وفي ظل خصوصية هذا التنظيم العسكري النخبوي، لم يحظ قادة قبائل الكيش إلا بمكانة أقل شأنًا وأهمية في المؤسسة العسكرية السعودية مقارنة مع تلك التي حظي بها قادة "عسكر الموالي المعلوجي ومن انضاف إليهم وعسكر الأندلس"⁴⁹، رغم الدور الذي اضطلعوا به، هم أيضًا، في "قيادة عساكر الخيل اليزنية"⁵⁰ والحظوة والتشريف اللذان حظيا بهما رؤساء العرب وأكابر الدولة منهم، من خلال الدور الذي خصهم به السلطان أحمد المنصور في مجال المشورة والتدبير⁵¹. ولذلك، فالقادة الذين تولوا قيادة بعض الفرق العسكرية من الكيش إما في المدن العواصم أو في غيرها من المراكز الأخرى الداخلية أو حتى البحرية، لم تسند لهم من المهام

⁴⁸ - يقول الفشتالي في هذا الصدد: "...واصطفى من العجم موالى أنبشهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى إلا أضخم حالا وأعظم شأنًا من أمكر ناحية فمن الأكابر المشاهير من الطبقة العليا منهم الذين لهم مزيد الحظوة والمكانة والتقدم على الجماعة كبيرهم سنا مولى أمير المؤمنين أيده الله ولزيم بابه العالي من قبل الخلافة منصور باي لأن باي لفظة عجمية معناها قائد القواد وهو لقب يختص به عندهم قائد جيش الإصباحية من جيوش النار شرفه أمير المؤمنين وميزه بتسميته تنويها لما رماه لهذا العهد من قيادة الانكشارية كانت له أولا إلى قيادة الإصباحية ثم للفتيان الخاصان المقدمان على سائر الموالي بأبواب الخلافة العلية أبو الثناء محمود صاحب خزائن الدار وقائد جيش الموالي المعلوجي من عساكر النار المعروف بجيش الانكشارية وصاحب فتح ممالك السودان الفتح الثاني ثم جودر قريعه في الحظوة والمكانة وقائد جيش الأندلس من جيوش النار وصاحب فتح الأقطار السودانية الفتح الأول بمزيد الاستعمال في الولاية وتقليد الخراج والجباية". **مناهل الصفا**، م.س، ص.201.

⁴⁹ - نفسه، ص.203.

⁵⁰ - نفسه، ص.201.

⁵¹ - نفسه.

والمسؤوليات الأكثر أهمية وخطورة إلا ما كان منها يتعلق على وجه الخصوص بالحملات والعمليات العسكرية الداخلية التي كانت تستهدف إما تأديب ومعاقبة القبائل العاصية والمتمردة أو تحصيل مستحقات الجباية أو تأمين حركة التنقل في الطرق والمسالك التجارية. ورغم كثرة أسماء قادة الجند القبلي التي تداولتها المصادر التاريخية في المغرب السعدي والذين كانت لهم مشاركات ملحوظة في عدد من الوقائع والمحطات العسكرية، فإن إن إسم القائد أبا إسحاق إبراهيم السفياني يبقى هو الإسم الأكثر ترددا وشهرة من بينها جميعا لما تمتع به من ثقة وحظوة لدى مولاه السلطان أحمد المنصور ولما اضطلع به من أعمال ومهام عسكرية وأمنية في غاية الأهمية والخطورة⁵². ولذلك، لم يكن من المستغرب، أن يرد ذكره في بعض المصادر السعدية مقتربا بأوصاف وتحليلات تؤكد في مجموعها على علو كعبه ومنزلته وقوة نفوذه وسلطانه من قبيل: "قائد القواد"⁵³، و"كبير الدولة وصدر الخاصة"⁵⁴.

⁵² - تظهر أهمية وخطورة هذه الأعمال التي اختاره المنصور للقيام بها على سبيل المثال لا الحصر في المهام التالية:

- تأديب قبيلة أولاد حسين بالغرب التي ضايق قبيلة أولاد مطاع التي أقطعتها الدولة أراضي بالمغت مقابل القيام بمراقبة قبائل الخلط . الفشتالي، **مناهل الصفا**، م.س، ص.98.
- عمارة الثغور وعلى رأسها ثغر العرائش في الوقت الذي توترت فيه العلاقة بين المنصور والسلطنة العثمانية وقرر قائد القوات البحرية العثمانية علوج علي غزو المغرب. يقول بن العياشي في هذا الشأن: " فنظر مولاي أحمد في خاصته فوق نظه على القائد إبراهيم، توثقا به في هذا الأمر دون غيره من القواد، فتولى القائد إبراهيم أمر الجند الذي توجه لعمارة الثغور، وخيم هو بمن معه في في ساحة العرائش، ودفع به مولاي أحمد في صدر الباشا علوج، وبقي مرابطا بتلك الثغور حتى وقعت المكاتب والمراسلة بين السلطانين، ووقعت الهدنة ورجعت رسل مولاي أحمد من اصطنبول بالصلح". **زهر البستان**، م.س، ص.154.
- القيام بكافة أعمال ابنه وخليفته بفاس محمد الشيخ المامون وتنفيذ أحكامه وأوامره، لأن القائد إبراهيم السفياني كان هو المكلف من قبل المنصور ب" مباشرة النقض والإبرام في الأحكام والسلطنة"، نفسه.

⁵³ - الفشتالي، **مناهل الصفا**، م.س، ص.98.

⁵⁴ - بن العياشي، **زهر البستان**، م.س، ص.154.

وإذا لم يكتب لقادة الكيش أن يلعبوا نفس الأدوار التي لعبها قادة العلوج والأندلسيين في مجال القيادة والتحكم في القرار العسكري داخل المغرب في عهد المنصور، فقد صار لهم في بلاد السودان إبان الفترة التي أعقبت وفاته دور مؤثر وملحوظ في مجمل الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية التي عرفها الحضور المغربي بتلك الأصقاع طيلة القرن الحادي عشر الهجري/17م، حيث برزت على الساحة خلافت حادة بين باشوات وقادة الجند وغيرهم من كبار مسؤولي الإدارة المغربية هناك لأسباب مختلفة، تطورت إلى صراعات بين قادة رماة مراكش وقادة رماة فاس بهدف احتكار السلطة والتحكم في عائدات الجباية والموارد المالية⁵⁵، وهي صراعات كانت تجسد في أبعادها ودلالاتها معادلة الصراع التي كانت قائمة في المغرب شمالا بين مملكتي مراكش وفاس والانقسامات التي أفضت إليها على مستوى القوى القبلية للكيش حيث ساندت قبيلة شراكة الأمير محمد الشيخ وابنه عبد الله بينما تحالفت قبيلة الشبانات وأهل سوس مع الأمير زيدان وأبناؤه فيما بعد⁵⁶.

وفي الفترة العلوية، وعلى الرغم من النفوذ والحضور القوي الذي تمتعت به قيادات جيش العبيد على اختلاف مراتبها وهيئاتها القيادية في مختلف مناحي الحياة العسكرية والسياسية للبلاد، فإن هذا الوضع، لم يمنع مع ذلك، بعض قادة الكيش من الوداية والجيش الريفي تحديدا من لعب أدوار مميزة، تباينت في درجة أهميتها وحدود تأثيرها من محطة سياسية إلى أخرى تبعا للتطورات والمتغيرات التي كان يعرفها المشهد السياسي والعسكري الوطني. ففي الوقت

⁵⁵ - Abitbol (Michel), *Tombouctou et Les Arma*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1979, pp.81-100.

⁵⁶ - حول أسماء بعض هؤلاء القادة والباشوات ودورهم السياسي والعسكري في التطورات التي عرفها الحكم المغربي في السودان بعد وفاة المنصور، راجع:

السعدي، تاريخ السودان، م.س، ص. 354-425؛ الغري (محمد)، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1972، ص. 373-374؛

Diadié Haidara (Ismail), *Jawdar Pacha et la conquête saadienne du Songhay (1591-1599)*, imprimerie.

Annajah El jadida, Casablanca, 1996, pp.125-129.

الذي أسهم فيه هؤلاء القواد بمعية عناصر قبائل الكيش التي ينتمون إليها في دعم مجهودات السلطانين مولاي رشيد وأخيه المولى إسماعيل بعد ذلك، في القضاء على زعماء المعارضة والإمارات الجهوية المستقلة وفي إعادة توحيد خريطة البلاد، فقد اضطلعوا، في مرحلة لاحقة، بعد إرساء دعائم الدولة واستتباب الأمن في مجموع التراب المغربي، على عهد السلطان مولاي إسماعيل على وجه الخصوص، بمهام ضبط ومراقبة الأمن في الحواضر والمراكز التي كانت تقيم فيها إدالاتهم على نحو دائم ومستمر، والحفاظ على استقرار الأوضاع الاجتماعية والتوازنات المجالية من خلال فرض طوق أمني على الاتحاديات القبلية الأطلسية التي صارت تهدد خلال هذه الفترة التاريخية الأراضي والسهول الداخلية من خلال نزوحاتها واعتداءاتها المتكررة عليها⁵⁷.

وكما اختلفت قيادات جيش العبيد⁵⁸ من حيث رتبها ووظائفها والمسؤوليات الملقاة على عاتقها ضمن الهياكل والتراتب العسكرية للدولة الإسماعيلية⁵⁹، اختلفت، بموازاة ذلك أيضاً،

⁵⁷ - المنصور (محمد)، المغرب قبل الاستعمار. المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمه عن الإنجليزية: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2006، ص. 177-179؛ الإدريسي، "اتحاديات القبائل في الأطلس المتوسط"، م.س، ص. 124-127.

⁵⁸ - يقسم جون وندوس أنواع القواد الذين شكلوا أركان إدارة الحكم الإسماعيلي إلى أربعة أنواع إذ يقول: "القواد الأولون أو الرئيسيون، ويعتبرون نواباً للسلطين يبعثون إلى الأقاليم ليحكموها، ويمنحون أحيانا لقب باشا لتشريفهم. سلطتهم غير محدودة كما أنهم لا يؤخذون على طغيانهم إذا عادوا إلى البلاط حاملين مالا وفيرا لترضية الإمبراطور. النوع الثاني هم رؤساء جيشه والفرسان الآمرون لفرق صغيرة من الفرسان أو المشاة. والنوع الثالث يتكون من حكام المدن الذين يعينهم الإمبراطور بنفسه مثل قواد مراکش وفاس وسلا ومدن كبرى أخرى، أو الذين يعينهم حكام الأقاليم على مدن صغيرة.

ويمكن إضافة نوع رابع لا يتمتعون إلا باللقب ولذلك يطلق عليهم (قواد رؤوسهم)، وندوس (جون)، رحلة إلى مكناس، ترجمه عن الإنجليزية: زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، دون تاريخ، ص. 86-87.

⁵⁹ - حول أبرز كبار قادة جيش العبيد في عهد المولى إسماعيل ومنهم: الباشا مساهل القائد العام لرماة الانكشارية الذين كانوا يقيمون بتانوت ووجه عروس، والباشا غازي القائد العام لجيش العبيد المنتشر في كافة القلاع والقصبات خارج

مكانة ووزن قادة الكيش بحسب درجة ونوعية قرابتهم من الدوائر السلطانية وسوابق الخدمة التي راكمتها القبيلة التي ينتمون إليها داخل المؤسسة المخزنية، ومن جهة أخرى، بحسب ما إذا كانوا يتولون قيادة كيش المدن والأقاليم الأكثر أهمية واستراتيجية، أم كانوا فقط قادة كيش في مراكز ومناطق هامشية بعيدة عن المركز المخزني.

ومن أبرز الأسماء التي سجلت حضورا لافتا في هذه الفترة نذكر: أبو الحسن علي المدعو بوشفرة الذي عينه السلطان مولاي إسماعيل قائدا على كيش الوداية بمكناس ثم عينه الأمير مولاي أحمد الذهبي لاحقا باشا على مدينة تطوان على إثر ثورة سكانها على الباشا أحمد الريفي⁶⁰، ثم القائد أبو البقاء العياشي بن الزويعر الزراري الذي تولى قيادة كيش زرارمة والشبانات حينما نقلهم المولى إسماعيل من مراکش إلى وجدة⁶¹ والقائد موسى الجراري الذي

العاصمة مكناس إضافة إلى قواد رؤوسهم الذين كانوا يشكلون ديوان الحضرة السلطانية (بلغ عددهم خمسمائة قائد وكانوا كلهم خيالة) المستقل عن ديوان جيش عبيد البخاري بمشرع الرملية، راجع المصادر والدراسات التالية: الزياتي، البستان الطريف، م.س، ص.103-104؛ القادري، نشر المثنائي، م.س، ج.4، ص.220؛ بن موسى الريفي، زهر الأكمل، م.س، ص.156-159؛ وندوس، رحلة إلى مكناس، م.س، ص.96.

Morsy, *La relation de Thomas Pellew*, op.cit, p.136 ; Meyers (A), « Note sur Les q'aid Ras-hu », *Hesp*, V.XVII, fasc.unique, 1976-1977, pp.85-96.

⁶⁰ - نظرا لأهمية ما تقدمه رسالة تعيين الأمير مولاي أحمد الذهبي لخاله عبد الملك بوشفرة باشا على مدينة تطوان والمناطق المحاذية لها من معطيات تهم الصلاحيات المخولة له في التدبير والتسيير بصفته قائدا ينحدر من كيش الوداية نورد هنا نصها كاملا، تقول الرسالة: "السلام على من اتبع الهدى، ليكن في علمكم أننا بعون الله عينا خالنا الباشا عبد الملك بوشفرة الوديني على كل المناطق التي كان ينعم بها الباشا أحمد بن علي بن عبد الله في مملكتنا، من جبال وهضاب باستثناء طنجة والعرائش وأصيلا داخل الأسوار، مناطق سكنى الريفيين وأصدقائهم وأقربائهم، وأمرنا خالنا أن يقيم في مدينة تطوان، كما أمرنا خديمنا سيدي محمد حكم بن علي وسيدي سليمان الحمدي، كاتبينا أن يرافقه حتى يستقر في منصبه برعاية الله. وإنكم ستتمتعون مع عبد الملك بنفس الأمان الذي تمتعت به مع أحمد بن علي، كما كلفناه بأن يعتني بالتجار في أشخاصهم وممتلكاتهم. والسلام. مكناس، في 20 ذي القعدة 1139". بريثويت، تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، ص.74.

⁶¹ - الناصري، الاستقصا، ج.7، م.س، ص.61.

اشتهر إلى جانب دربته وكفاءته القتالية في قيادة الحروب والحملات العسكرية، بمفاوضة أهل فاس عقب ثورتهم ضد الأمير مولاي أحمد الذهبي⁶² إضافة إلى أسماء أخرى عديدة لم يرد ذكرها إلا في سياقات منعزلة كالقائد مولود الجبيلي الودي⁶³ وأبا بكر الودي⁶⁴ وغيرهم . وممن اشتهر من قادة الجيش الريفى نذكر: عمر بن حدو التسماني وأخوه أحمد بن حدو وعلي بن عبد الله التسماني وإبنه أحمد الذي عرف بالباشا أحمد الريفى.

4- التداريب

ليس هناك فيما هو متداول في مصادر هذه المرحلة التاريخية المعنية بالدراسة ما يفيد بأن أفراد قبائل الكيش كانوا يتلقون تدريباً عسكرياً على طرق القتال وفنون الرماية والمبارزة والاشتباك مع العدو ضمن إطار منظم خاضع لإشراف الدولة أو أي قيادة عسكرية رسمية. فالتجربة التي اكتسبتها عناصر هذه القبائل في إطار التقاليد الحربية الموروثة لديها جيلاً بعد جيل، كانت هي الأساس والمرجع المعتمد في نوعية التداريب التي كان يقوم بها أفراد هذه القبائل، بشكل اعتيادي، على استعمال الأسلحة وتعلم مهارات الرمي والتسديد وركوب الخيل واكتساب القدرة على ممارسة أساليب الكر والفر وغيرها من فنون المبارزة والعراك التي اشتهرت بها القبائل العربية منذ دخولها إلى المغرب وصارت تتوارث تقاليدها وتقنياتها وتحافظ عليها خلفاً عن سلف باعتبارها مثلت أساس قوتها ومنعتها ورمز هويتها وذاكرتها الجماعية الموشومة بكثير من مظاهر البطولة والصولة والإقدام أثناء الحروب والغزوات.

وقد شكلت الرماية والفروسية أهم ما كانت تتعلمه عناصر الكيش في معظم أيام حياتها، وقد كانت الحصص التدريبية غير محددة بوقت معين أو محكومة بترتيبات يجري الإعداد لها

⁶² - Morsy, *La relation de Thomas Pellow*, op.cit, p.168 note. 433.

⁶³ - القادري، نشر المثنائي، م.س، ج 3، ص.380.

⁶⁴ - نفسه، ص.392.

سلفا، وإنما كانت تتم بشكل اعتيادي إما في أوقات الراحة والفراغ حيث عادة ما كان يجري التباري والتنافس بين أفراد الكيش في مجال الرماية وتعلم إصابة الأهداف برميات مسددة ومحكمة، وإما أثناء رحلات الصيد التي كانت تنظم، فرادى أو جماعات، وإما أثناء الاحتفال بمناسبة من المناسبات الجماعية حيث يستعرض لحظتها أفراد الكيش ما اكتسبوه من مهارات في فن الفروسية وما تعلموه من تقنيات في إطلاق العيارات النارية، وإما أثناء استقبال ضيف من الضيوف من علية القوم أو وفد من الوفود السفارية الأجنبية.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه ومن أجل تعليم فنون الرماية، انتشرت في المغرب تنظيمات شعبية محلية لتدريب الناس على الرماية بالبندق "لإستخدامها في الدفاع عن البلاد، والتكسب بها في مجال الصيد البري"⁶⁵. وصار لهذه التنظيمات الشعبية، مع مرور الوقت، نظام خاص وأصبحت لها "قيادة عليا تتألف من رئيس يسمى "شيخ الرماة"، ومساعد له يحمل لقب "مقدم"، والإثنان - معا - بالإضافة إلى سائر الرماة، يخضعون إلى قوانين يتعارفونها بينهم".⁶⁶

وإذا كان غير معروف تاريخ ظهور هذه التنظيمات الشعبية، فإن العلامة محمد المنوني، وانطلاقا من أقدم النصوص التي ألفت في شأن الرماية، أكد أن هذا الظهور لا يتجاوز، على الأرجح، المائة الهجرية العاشرة⁶⁷. وابتداء من هذه الفترة، انتشرت هذه "المدارس الشعبية" التي اختصت في تعليم فنون الرماية في شمال المغرب مع المقدمين المجاهدين المعروفين من أمثال: آل النقسيس في تطوان والخضر غيلان ببلاد الهبط. كما انتشرت في جنوب المغرب في منطقة شيشاوة وبلاد احمر التي صارت مع مرور الزمن "هي المدرسة الأولى للرماية بالمغرب، وانتزعت

⁶⁵ - المنوني (محمد)، "قطعة عن نشاط الرماية الشعبية بالجنوب المغربي"، مجلة الباحث، السنة الأولى، المجلد الأول،

1972، ص107.

⁶⁶ - نفسه.

⁶⁷ - نفسه، ص108.

تقدير الجميع من الملوك وسواهم"⁶⁸، حيث انتقلت تعاليم ومبادئ شيوخها ومقدميها في ميدان الرماية و تعلم ركوب الخيل فيما بعد إلى قبائل أخرى من المغرب كان من بينها وأبرزها قبيلة بني حسن في منطقة الغرب⁶⁹.

ولا يخامرنا أدنى شك، في أن ظهور السعديين في جنوب المغرب واعتمادهم في تأليف جيشهم على قبائل من سوس ودرعة والشيظمة وحاحا، أي مما بات يعرف بعرب معقل وأهل سوس، لتكوين النواة الأولى لجيشهم، قد ساهم في انتشار "مدارس تعليم فنون الرماية الشعبية" بجنوب المغرب، لأن حاجتهم إلى جيش ناري قادر على مواجهة العدو البرتغالي، قد استدعى وجود معلمين مهرة مختصين في فنون الرماية لتعليم عناصر الجند تقنيات استعمال السلاح الناري واكتساب المهارات اللازمة في الرمي والتسديد أثناء الحروب والمواجهات.

ولا شك، أن قبائل عرب معقل وأهل سوس التي ستتحول فيما بعد إلى قبائل كيش منخرطة في الجهاز العسكري للدولة السعدية، كانت قد تهرست على استعمال الأسلحة النارية وتدربت على فنون الرماية واكتسبت كل ما اشتهرت به من خبرات وكفاءات حربية و قتالية متميزة في ظل هذه المناخات والأجواء التي رافقت انطلاق الحركة السعدية في سوس ثم طورتها وأغنتها فيما بعد حينما احتكت مع فرق عسكرية أخرى أجنبية في الجيش السعودي كانت لها دربة وتجربة عسكرية أكثر تطورا وحادثة في استعمال وصناعة الأسلحة بكل أنواعها الخفيفة والثقيلة.

ولذلك، فالأساليب والتكتيكات الحربية التي كان يتدرب عليها جنود قبائل الكيش في الأوقات التي كانت تسمح بها الظروف؛ إما تحت إشراف قادتهم، إذا كانوا من فرق الجند المرابط في القلاع والقصبات، وإما بشكل إرادي اختياري، إذا كانوا من الجنود الاحتياطيين، كانت

⁶⁸ - نفسه، ص. 109.

⁶⁹ - نفسه.

تتركز بشكل أساسي على الرماية والفروسية، وهما النشاطان العسكريان اللذان كانت تدور حولهما أيضا الحصص التدريبية للجيش الأسود حتى في العهد الإسماعيلي.

وبالعودة إلى التجارب العسكرية لقبائل الكيش وتأمل طريقة أدائها وقتالها أثناء الحروب، يظهر جليا أن قوات هذه القبائل لم تكن تخضع لتنظيم أو تأطير عسكري يعيد تأهيلها وتدريبها على أسس وضوابط مخزنية مستوعبة، وإنما كانت تؤدي واجبها العسكري انطلاقا مما كانت تملكه من مؤهلات وخبرات فردية ومما كانت تفرضه ساحة الميدان من تكتيكات حربية أصبحت متعودة عليها باستمرار. ولعل هذا الواقع هو ما يؤكد أن المخزن الشريف لم يكن يولي كبير اهتمام لعناصر هذه القبائل الكيشية، قدر ما كان يوليه لتشكيلات الجيش النظامي الأخرى المكونة من الفرق الأجنبية، وذلك، من جهة، للثقة التي كان يضعها في عناصرها، ومن جهة أخرى، لحنكتها وتفوقها في استعمال كافة أنواع الأسلحة النارية، وإدارتها للمعارك بطرق وأساليب حديثة ومتطورة لم تكن تختلف، في شيء، عن تلك التي كان يستعملها الجندي النظامي في الجيوش الحديثة التي باتت تشكل عماد الأنظمة العسكرية لأغلب دول البحر الأبيض المتوسط.

وعلى هذا الأساس، فإن قوة جندي الكيش لم تكن ترتبط، في منظور المخزن، بما كان يملكه من قدرات ومهارات قتالية، لأنه لم يكن يتلقى أصلا لا تكوينا ولا تدريباً يؤهله لاكتسابها بطريقة تتماشى مع أساليب الحرب الحديثة، وإنما، مما كان يحمله من سلاح فردي، والفرس الذي كان يركبه أثناء إعلان النفير للحرب. ولهذا ظل بعيدا عن حيازة الأسلحة النارية المتطورة أو التخصص في استخدام قطعها التي ظل استعمالها حكرا على عناصر القوات الأجنبية من العلوج والمسيحيين.

ولهذا، بقيت طريقة تكوينه وتدريبه تسير على نفس الخطى والأساليب التقليدية التي توارثتها القبائل المغربية منذ أزمنة قديمة، وهي طريقة تركز أساسا على الإرادة الذاتية في التعلم والاستعداد الدائم والمستمر للانخراط في مغامرة الحرب.

وهكذا، وبينما كانت التدريبات العسكرية لأفراد الكيش تجري داخل ساحات القصبات التي كانوا يقيمون فيها تحت إشراف قادتهم⁷⁰ أو داخل الدواوير والمعسكرات التي كانوا يستوطنون فيها خارج المدن، من أجل تطوير مهاراتهم في الرمي بالبنادق والرماح والسهام والنبال وغيرها، أو تحسين قدراتهم على المبارزة بالسيوف والخناجر والسكاكين وباقي الأدوات الحادة الأخرى، فإن هذه التدريبات كانت تجري أيضا حتى أثناء تنظيم الحركات أو الحملات العسكرية⁷¹، أو في بعض المواسم الاحتفالية أو المناسبات الرسمية التي كان يجري فيها استقبال وفد من الوفود الأجنبية⁷².

⁷⁰ - راجع على سبيل المثال التدريبات التي كان يشرف عليها المولى محمد العالم بالنسبة لفرسان العبيد في قصبة تارودانت عند: المختار السوسي، المعسول، م.س، ج18، م.س، ص.313-315.

⁷¹ - جاء في نص رسالة جوابية من علماء فاس إلى المولى إسماعيل بتاريخ 25 جمادى الثاني عام 1125هـ بيان لأهمية الحركة في تدريب الجند وبث روح الحركة والنشاط فيه من جديد، ومما ورد فيها: "...ثم إن من أعظم الفوائد الحاصلة في هذه الحركة السعيدة والوجهة الموفقة الرشيدة تمرين الجند واختباره لأنه في راحة هذه مدة والماء الجاري يطول مكثه فيتغير وإن كنا نعلم والحمد لله أن جيش سيدنا مثل الذهب لا يزيده طول المدة إلا صفاء ولا يصيبه الغير. وقد علمنا أن قصد مولانا بإراحتهم تهيؤهم للعدو الكافر وتقويتهم، ونظر مولانا في جلوسهم عبادة فكأنما هم مرابطون في الثغور لنفع المسلمين على سائر السنين والشهور". ابن زيدان، المنزع اللطيف، م.س، ص.108.

⁷² - حول أهمية مثل هذه المناسبات في التدريب على السلاح والتمرن على ركوب الخيل يورد جون بريثويت مشاهد في رحلته تبرز مجموعات من كيش الوداية وهم يستعرضون مهاراتهم في الرمي بالبنادق والرماح والعدو بالخيول أمام وفد السفارة الإنجليزية حينما اقترب من حدود مدينة فاس. ومما جاء فيها: "...وكان الباشا (عبد الملك بوشفرة) يسير بأبهة المولع بالحرب، تسبقه مجموعة من الفرسان كانوا يتناوشون على طول الطريق. وقد لا حظنا أن الأعراب (الوداية) كانوا ماهرين جدا في قيادة خيولهم، ورمي رماحهم القصيرة، فكل من الحضر والأعراب كانوا يقودون خيولهم بأجمة طويلة جدا، وعندما يصوبون أسلحتهم لإطلاق النار على بعضهم البعض، وهو ما يفعلونه عندما يبلغون سرعتهم الكاملة، فإنهم

II- التجهيز

1- السلاح

كان السلاح الذي استعملته عناصر الكيش أثناء ممارسة واجباتها ومهامها العسكرية سلاحا تقليديا بسيطا لا يختلف في نوعيته وقيمته عن الأسلحة التي كانت تملكها أغلبية القبائل المغربية الأخرى. وقد كان هذا السلاح يتكون عموما من البنادق والسيوف والرماح والنبال والخناجر وغيرها.⁷³ وقد حرص السعديون منذ أن تقلدوا السلطة في المغرب على تطوير القدرات التسليحية لجندهم القبلي من خلال تزويد عناصره بأسلحة نارية تضمن نوعا من التوازن والكفاءة القتالية مع حاميات العدو في المراكز المحتلة، ومن جهة أخرى، تسمح بحسم

يضعون اللجام في أفواههم، ويستطيعون إدارة خيولهم في أي اتجاه شاءوا بواسطة ركبهم وثقل أجسامهم...وأثناء نزولنا من الجبل، رأنا رجال المعسكر (الوداية) وسكان مدينة فاس الجديد، فالتحقوا بنا في مجموعة كبيرة من الفرسان وخاصة كل أقرباء الباشا الكثيري العدد. وأعتقد أن عددهم قد يصل إلى ثمان مائة فارس، كلهم من الودايا، وكان رؤسائهم الذين ظهروا بأحسن مظهر هم أخوا الباشا...وهكذا قدم السيد روسل (Rusel). وبعد التحية المتبادلة بين كل الذين يعرفون بعضهم البعض، سرنا إلى الأمام في موكب ضخم...وهكذا على طول الطريق كانت فرق صغيرة من الخيالة تحت خيولها بمهاميزها فتبتعد عنا بمسافة، ثم تعود بسرعة فائقة إلى أماننا وتصوب بنادقها فتنتطلق النار نحونا. لقد رأينا هذا كثيرا إلى درجة أننا تعبنا منه بكل معنى الكلمة، ولكننا كنا مجبورين على رؤيته. وأحيانا لم تكن الخيول الصغيرة طيعة مثل الأخرى، فكان من الممكن أن تركز بسرعة كبيرة داخل مجموعتنا فتجعل الكل يندفع أمانا. ويعتبر هذا عار بالنسبة للفارس إذا لم يتمكن من توقيف فرسه في الوقت المناسب". تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص.150-156.

⁷³ - هذا السلاح لم يكن يختلف عن نوعية الأسلحة التي استعملها السكان الأمازيغ قديما في إفريقيا الشمالية. ولأخذ فكرة موسعة عن هذه الأسلحة راجع: الزبير (بوحجار)، "السلاح لدى السكان الأصليين ببلاد شمال إفريقيا". ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020، ص.94-108؛ أكرير (عبد العزيز)، "أسلحة المغاربة القدامى ونظام قتالهم دراسة إسطوريوغرافية"، ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020، ص.114-116.

المعارك بسرعة وفعالية مع مختلف القوى والأطراف المغربية التي كانت تقف في وجه توسع حركتهم وتمدد إمارتهم⁷⁴.

ولهذا عرف مستوى تسليح الجند النظامي على وجه الخصوص، الذي كان يتألف في أغلبيته من فرق أجنبية، تطورا مضطردا مع التقدم الذي كان يحرزه السعديون في مجال تحرير الثغور المحتلة وإعادة توحيد أطراف المغرب من خلال عقد صفقات اقتناء الأسلحة المتطورة والذخائر الحربية مع التجار الأجانب ثم من خلال الشروع في عمليات تصنيع بعض هذه الأسلحة في ورشات التصنيع المحلية التي أنشأوها لاحقا في كل من تارودانت ومراكش وفاس إضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من أسلحة أثناء الحروب الجهادية أو من خلال المصادرات.

وفي كل الأحوال، فقد بقيت عدة السلاح التي ظلت تميز جنود قبائل الكيش خلال هذه الفترة تتكون غالبا من "درع حديدية وخودات وتروس مستديرة من جلد الظبي وسيوف وحراب"⁷⁵. غير أن التطور العسكري الذي شهده المغرب أيام السلطان أحمد المنصور، والذي استهدف تنظيم جيش النار وتحديد مهامه واختصاصاته، فقد أدى إلى إدماج عناصر من أهل سوس وشراكة إلى جانب العناصر الأجنبية الأخرى من علوج وأندلسيين ضمن جيوش النار فأصبحت عندئذ عناصر هذه القبائل مزودة بأسلحة نارية متطورة. يقول الفشتالي في هذا الصدد: "والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقة وكل واحد من هذين العسكرين ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي المعلوجي ومن انضاف إليهم وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم وهذان العسكران المجران يسيران صفين متساويين لتعادلهما واتحاد رتبتهم

⁷⁴ - الإدريسي (الفقيه)، "حصيلة البحث التاريخي الجامعي حول السلاح: القضايا والمقاربات"، ندوة الأسلحة في تاريخ

المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020، ص. 54-57.

⁷⁵ - ملين، السلطان الشريف، م.س، ص. 303.

واستواء منزلتهما في كل شيء حتى في التقديم على سائر الأجناد عند العطاء فتارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء مناوبة..."⁷⁶.

لكن مع الأزمة التي عرفها المغرب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي بسبب الصراعات التي استعر أوارها بين أبنائه حول السلطة، ستراجع الإمكانيات التسلحية لفرق الجيش المغربي عامة⁷⁷ نتيجة لتقلص عمليات الاستيراد والإمداد من الخارج ثم بسبب التخريب الذي لحق معظم منشآت التصنيع المحلية وبالتالي صارت عناصر الفرسان في جيش شراكة بفاس وگيش الشبانات بمراكش تعتمد بشكل أساسي في عدتها الحربية على سلاح البنادق الخفيفة والسيوف والرماح والخناجر والمقالع⁷⁸.

وفي العهد العلوي لم تكن القبائل التي انضمت، أول الأمر، إلى المولى الرشيد في المغرب الشرقي تحارب إلا بأسلحة تقليدية بسيطة تتكون من بنادق وأقواس ورماح⁷⁹. وحتى في عهد المولى إسماعيل فقد كانت عناصر قبيلة الوداية التي كانت تستقر بأحواز مدينة فاس تستعمل نفس الأسلحة وهذا ما أكدته الضابط جون بريثويت الذي رافق المبعوث الأنجليزي روسل في

⁷⁶ - الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص.203.

⁷⁷ - في سياق حديثه عن الخصاص في مصادر التزود بالسلاح الذي كان يعاني منه جيش الأمير زيدان في حروبه مع إخوته ومع أبي حسون في سوس يقول خورخي دي هنين: "ولم يكن قد بقي مع مولاي زيدان قواد أو جنود يمكنه الاعتماد عليهم كما انعدم السلاح من بنادق ورماح وسهام، ونفذت النعال المخصصة للخيول والمواد المخصصة لصناعة الرصاص وذلك في وقت لم تعد فيه خزائن مولاي زيدان تتوفر على الأموال التي يمكن بواسطتها شراء الأسلحة، وإن كل هذا جاء نتيجة للمعارك الكثيرة التي كان هذا الملك يأمر بخوضها. ومما زاد في حدة هذا الوضع توقف التجار الأنجليز عن جلب السلاح، والفرنسيين عن جلب الحديد. هذا الخصاص كان يقابله فائض في شيء واحد هو وباء الطاعون الذي استفحل بشكل رهيب وأتى على الأعراب والخضر على السواء". دي هنين، وصف الممالك المغربية، م.س، ص.104-105.

⁷⁸ - نفسه، ص.154، 162، 198.

⁷⁹ - مويط، المغرب في مطلع العهد العلوي (1659-1682) تاريخ مولاي رشيد ومولاي إسماعيل. ترجمة حسن أميلي، دار أبي رقراق للترجمة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2015، ص.37.

رحلته إلى مكناس حينما لاحظ أن مجموعة من فرسان الوداية كانت قد أتت للتعرف عليهم وهم على التلال المطلة على مدينة فاس كانوا يطلقون الرصاص من بنادقهم ويرمون الرماح القصيرة بمهارة عالية وهم يمتطون خيولهم⁸⁰.

هكذا إذن يمكن القول، إن عدة الجندي في قبائل الكيش بقيت تحافظ على نفس الأسلحة منذ العهد السعودي حتى العهد العلوي. فالخيالة ظلوا يحملون البنادق والسيوف والرماح أما المشاة فكانوا يستعملون البنادق والقاذفات والسيوف والرماح القصيرة بينما الأسلحة النارية المتطورة كالمدافع مثلا فقد ظلت تحتكر استعمالها فرق أجنبية متخصصة من العلوج و الأندلسيين أو من الأسرى.

2- اللباس

ليس في المصادر التاريخية لهذه المرحلة ما يسمح بتحديد شكل اللباس الذي كان يرتديه جنود الكيش ممن كانوا في الخدمة الدائمة للمخزن على الأقل. فقد نظفر أحيانا ببعض الإشارات التي تهم لباس عناصر الجيش ولكن غالبا ما يكون المعني بها إما فرق نظامية من أصول علجية أو أندلسية أو تركية وإما قادة وضباط عسكريون من الصف الأول كانوا يشغلون مناصب عليا في الجهاز العسكري للدولة. ويبدو هذا الأمر واضحا في الوصف الذي خص به خورخي دي هنين على سبيل المثال جنود الفرق النظامية الأجنبية التي كانت تعمل في جيش المنصور السعودي إذ يقول: "ومن الأشياء التي أعطت لمولاي أحمد شهرة خاصة، وجود مجموعة من النبلاء البرتغاليين أسرى في مملكته، وكان يوجد كذلك عدد كبير من الجنود الأتراك والعلوج والأندلسيين المورسكيين، وقد كان عليه أداء النفقات الباهضة لهؤلاء والمتمثلة في الأجور،

⁸⁰ - بريثويت، تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص. 149-150.

والسلاح واللباس الذي يتكون عادة من الحرير الأحمر والقطيفة، كما أن الأسلحة المسلمة للجنود الأجانب كانت مزينة بالذهب والفضة...⁸¹.

وفي وصفه للمسخرين من البواخر والوداية وشراكة وأهل سوس الذين كانوا متأهبين دائما للانطلاق في حركات سلطانية في عهد الحسن الأول، يقول لويس أرنو في وصف لباسهم: "إلى جانب العسكر كان هناك "المسخرين" رجال المخزن، الذين كانوا كلهم تقريبا .. في المحلات على صهوات الجياد، هندامهم مغربي عادي، قفطان ملون، وفرجية غالبا ما تكون رقيقة وشفافة، وسلهام غليظ، وشاشية حمراء مقرنة ومديلة في الأخير "ببلوطة" من حرير سوداء. وكان لقوادهم نفس الهندام، لكن كانوا يتميزون عنهم بإدارة عمامة بيضاء غليظة حول الشاشية"⁸². وبموازاة هذا الوصف يقدم إيركمان وصفا آخر للخيالة إذ يقول فيه: "الفرسان يحملون سروالا عربيا من القماش أو الصوف، قميص أو عدة قمصان تلبس فوق السروال، قفطان مغطى بقميص كبير أبيض، برنوس، شاشية وبلاغي صفراء".⁸³ وحسب الضابط الفرنسي فوانو Voinot، فإن الشاشية الحمراء والحادة تبقى هي "العلامة المميزة لرجال المخزن"⁸⁴.

وأمام الصعوبات التي تطرحها مسألة تحديد شكل ونوعية اللباس الذي كان يحمله أفراد الكيش في الفترة موضوع هذه الدراسة بسبب ندرة المعلومات وغموضها وغلبة الطابع التعميمي عليها، لا يسعنا إلى أن نفترض أن لبسهم كان على الأرجح شبيه بلباس عموم المغاربة كما وصفه جون ويندوس في أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع الميلادي قائلا: "يلبس الرجال قمصانا قصيرة ذات أكمام واسعة جدا تتدلى أحيانا، لكن غالبا ما يشمرونها. كما يلبسون

⁸¹ - دي هنين، وصف الممالك المغربية، م.س، ص. 31.

⁸² - أرنو (لويس)، زمن المحلات السلطانية. الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912م، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص.15.

⁸³ - Erckman (Jules), *Le Maroc moderne*, Challamel, Paris, 1895, p.267.

⁸⁴ - Voinot, « Les Tribus guich du Haouz Merrakech », op.cit, p.5.

سراويل من الكتان تربط حول الخصر ملاصقة للجلد وتصل إلى ركبهم تاركة سيقانهم عارية، ينتعلون أحذية أو بالأحرى "بلاغي" من الجلد الأحمر أو الأصفر، خفيفة جدا، بدون كعب. يرتدون فوق قمصانهم صدرية من أي لون شاءوا، وقصيرة لصوقة بأجسامهم تزرر بأزرار وحلقات صغيرة خيطة متقاربة جدا وتكون بها غالبا خيوط ذهبية أو فضية. حول خصورهم يضعون أحزمة من الحرير أو القماش، حسب إمكانياتهم المالية يغرزون فيها سكيناً عريضة يعملون على أن يكون مقبضها مرصعا ببعض المعدن الثمين أو العاج وغمدها من الفضة. لباسهم الخارجي عبارة عن حائك أو برنس. والحائك قطعة من النسيج الأبيض الصوفي الرفيع طوله خمس أو ست ياردات وعرضه حوالي ياردة ونصف. يلتفون بهذا الحائك ويجعل فوق الأذرع أو تحتها وتصبح هيئتهم غير مختلفة عما يرى في متاجر الأجواخ القديمة"⁸⁵.

3- الخيل

استأثرت الخيول في المجتمع العربي الإسلامي بمكانة متميزة وأحاطها بكثير من مظاهر العناية والإعزاز والتكريم لدرجة ساوى فيها بينها وبين الإنسان في المأكل والمشرب والرعاية وتبادل مشاعر المحبة والألفة والتقدير. وقد استمدت الخيول في الثقافة العربية الإسلامية هذه المكانة المتميزة مما ورد بشأنها في القرآن الكريم من آيات كريمات تشني على دور الخيول في مجاهدة الكفار وتعلي من قيمتها كوسيلة للركوب والتنقل والزينة⁸⁶. وهي نفس المعاني والقيم

⁸⁵ - وندوس رحلة إلى مكناس، م.س، ص. 43.

⁸⁶ - يقول الله تعالى في سورة الأنفال: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"

(الآية 61)، ثم يقول في سورة النحل: "والخيل و البغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (الآية 8).

التي من أجلها أيضا خصتها الأحاديث النبوية الشريفة بكثير من دلالات التعظيم والتشريف والتكريم⁸⁷.

ونظرا للأدوار الحيوية والهامة التي اضطلعت بها الخيول في حياة الإنسان العربي وعلاقات الحب والعشق الشديدين التي نسجها معها عبر الزمن حتى أنه بلغ به الأمر، أحيانا، إلى حد تقديمها عن النفس في المطعم والمشرب وإيثارها، أحيانا أخرى، عن الزوج والولد، فقد حظيت باهتمام خاص في مجالات التأليف والإبداع على اختلاف ألوانها وأجناسها، غطت في تنوعها وغناها مجمل مظاهر وامتدادات حضور الخيول في حياة المجتمع العربي والعلائق التي تشكلت بينهما في وعيه ووجدانه الجماعي⁸⁸.

وتبعاً لذلك، لم يكن بدعا أن تحظى الخيول في تاريخ المجتمع المغربي بمكانة مميزة عكستها العديد من الممارسات الاجتماعية والتعبيرات الثقافية والمظاهر الاحتفالية، كما لم يكن مستغربا، البتة، أن تحظى بعناية واهتمام كبيرين من قبل الحكام والسلاطين المغاربة في مختلف العهود والأزمنة لما كان لها من دور حاسم وفعال في ميادين الجهاد والمواجهة مع العدو الكافر في عدوة الأندلس، وفي معارك تحرير الثغور والمدن المغربية المحتلة حينما اختلت موازين القوى

⁸⁷ - حول هذه المظاهر يقول النبي الأكرم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: "الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة" صحيح مسلم، الحديث رقم: 3479.

⁸⁸ - الأعراي (أبي عبد الله محمد بن زياد)، كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها، تحقيق ودراسة، الدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1404هـ / 1984م؛ الكلبي الغرناطي (عبد الله بن محمد بن جزي)، كتاب الخيل، حققه وقدم له، محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986/1406؛ ابن الكلبي (هشام بن محمد)، أنساب الخيل، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، 1965؛ أبو عبيدة (معمر بن المثنى) الخيل، حيدر آباد، الدكن، 1368؛ الأصمعي (عبد الملك بن قريب)، الخيل، تحقيق الدكتور نوري القيسي، بغداد؛ 1970؛ محمد النصيح (حسن)، الخيل في أشعار العرب، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى، 1416هـ.

لصالح الممالك المسيحية وانتقلت، على إثر ذلك، علاقة المغرب معها، من موقع المبادرة والهجوم إلى موقع الدفاع والانكفاء على الذات⁸⁹.

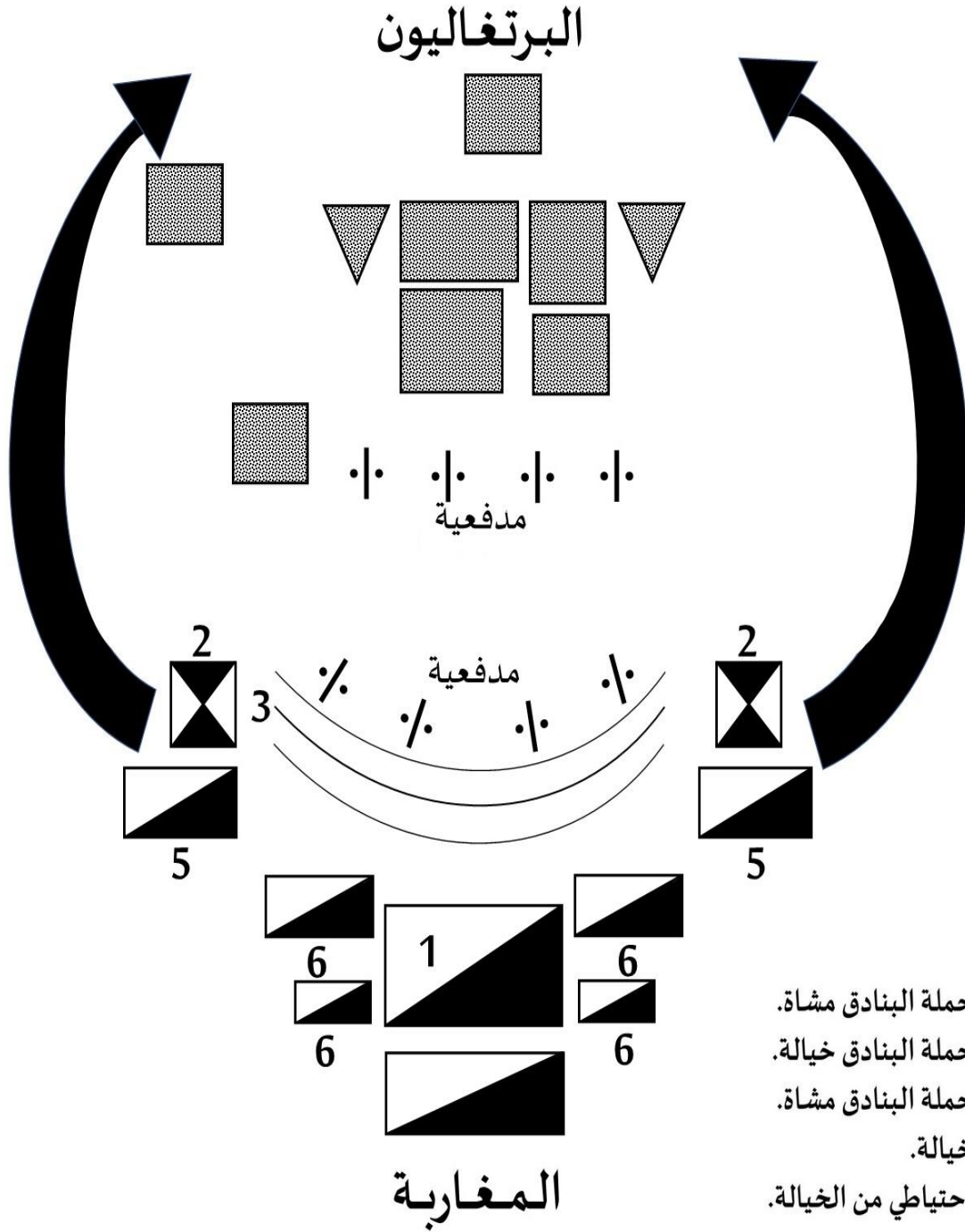
ولا شك أن اعتماد السلاطين المغاربة بشكل أساسي على فرق الخيالة أو الفرسان في جيوشهم منذ القديم إلى فترة متأخرة، إنما كان يجسد رؤيتهم لاستراتيجيه الحرب وتكتيكات المواجهة مع العدو، وهي رؤية ظلت تنظر إلى الحرب على أساس طريقة الكر والفر التي درج عليها العرب في غزواتهم وحروبهم منذ صدر الإسلام، وانطلاقا من هذه الرؤية، أولوا لجيش الفرسان وسلاح الخيالة اهتماما خاصا جعلهم يعطونه الأولوية والأفضلية في الرواتب والتسليح والتجهيز على باقي وحدات الجيش الأخرى⁹⁰.

⁸⁹ - راجع في هذا الخصوص: الإدريسي، "صفحات من عطاء الخيول في تاريخ الحضارة المغربية"، أعمال اليوم الدراسي الذي

نظمتها جمعية معرض الفرس في موضوع: ثقافة الفرس في حوض البحر الأبيض المتوسط، 2010 ص. 55-58.

⁹⁰ - نفسه.

رسم يوضح تموضع فرق الخيالة في جيش المغرب أثناء معركة وادي المخازن



وقد تعددت أنماط وأشكال اهتمامات المغاربة، حكاما ومحكومين، بالخيول في حياتهم العامة، وقد عبرت شهادات الرحالة والموفدين الدبلوماسيين الأجانب الذين ترددوا على المغرب في فترات تاريخية مختلفة عن شغف المغاربة بالخيول والحب والتقدير الذي كانوا يكونونه إليها في حياتهم اليومية، وقد اعتبروا أن ذلك الحب والتعلق بها بتلك الدرجة التي عاينوها في كثير من المناطق المغربية لم يكن بالنسبة إليهم أمرا عاديا، لأنهم هم أيضا كانت لديهم الخيول وكانت تلعب في حياتهم دورا حيويا في كثير من المجالات قبل أن تعوضها لاحقا الآلة في ميداني النقل والحرب، غير أن تعلقهم بها وتكريمهم لها لم يكن بنفس القدر من الحب وهالة التعظيم التي لا حظوها في بلاد المغرب. وقد عبر جون وندوس في شهادته عن هذا الحب المفرط للخيول لدى زيارته لمدينة مكناس قائلا: "إن المغاربة يحبون الخيل كثيرا لدرجة أنها لا تعد فقط من الأشياء الثلاثة التي تتحدث عنها أمثالهم - وهي الفرس والمرأة والكتاب - بل يحتفظون أيضا بسلالات منها تعود لقرنين أو ثلاثة قرون. كما أن لهم خبرة في التمييز بين النسل الأصلي والمختلط. وهم يسيطرونها بطريقة خاصة حيث يقطعون القسم الأمامي من الحافر ويشكلون حدوة على هيئة مثلث تلتقي نهايته تقريبا عند الكعب. وقد صنعت النهايتان دقيقتين جا. وبعد أن تلتصق الحدوة بواسطة ثلاثة مسامير في كل جهة تطرقجيدا في الحافر. لكن منذ مدة أصدر الإمبراطور أمرا ينص على قتل كل من لم يسيطر الجياد بواسطة حدوات مستديرة حيث أقنعه بعض الأتراك بأفضلية هذه الطريقة.

لا تتعرض هذه الخيول للأمراض، والمغاربة لا يعرفون ماذا يعني الخنب، ولم أر قط جردا داخليا. أما بالنسبة للبرابرة في الجبال فإنهم يسيطرون خيولهم فمن المؤكد أن قوائمهم أصلب من قوائم خيولنا لأن الفرس هنا مثلا قطع المسافة من تطوان إلى المعسكر ثم عاد في اليوم الموالي إلى نفس المدينة، وهي مسافة خمسين ميلا، بدون حدوة رغم أنه أجبر على اختراق جبل مليء بالصخور ذهابا وإيابا، ولذلك لعدم إثمانيه المرور من المناطق الواطئة بسبب الأنهار، ولم يلاحظ أقل انقصاص في حافره، كما لا يشكو من أي ألم في قوائمه.

تعمّر خيولهم طويلا وتكون نشطة جدا في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى اللطف في طريقة استعمالها.

يتميز مظهرها بالركة حينما تكون سائرة. لكن عندما يمارسون الرماية يعملون على إثارتها لغرض ما⁹¹.

ونظرا للأهمية القصوى التي حظيت بها فرق الخيالة في تشكيلات الجيش المغربي بحكم أدائها الفعال والحاسم في ساحات الحروب والمعارك، فقد خصص لها السلاطين إسطبلات لتربيتها وحمايتها ووفروا لها كل أسباب الرعاية والتكاثر من علف ومياه وبيطرة وحراس وسائسين متخصصين لترويضها وتدريبها وتأهيلها لتكون جاهزة لأي عملية عسكرية محتملة. يقول الحسن الوزان في هذا الإطار: "وهناك قائد للاصطبلات يعتني بجميع خيول الملك وبغاله وجماله، ويأخذ من العلاف ما يلزمه للدواب ولجميع المستخدمين المكلفين بشؤونها؛ ومندوب للحبوب مكلف بنقل الشعير وكل ما هو ضروري لعلف الدواب، يساعده كتاب ومحاسبون لضبط حساب توزيعاته، ويقدم تقريراً بذلك لكاتب الدولة"⁹².

وفي عهد المنصور السعدي، فقد جرى الاهتمام بخيول المخزن التي كانت توضع فيما سمي آنذاك بـ"الرواء" اهتماما بالغا من حيث المأكل والمشرب والإعداد والتدريب، وكان يشرف عليها قائد خاص سمي بقائد الرواء وقد وضعت علامات على هذه الخيول لتمييزها عن بقية خيول عموم الناس حتى إذا ما وقعت في أيدي غريبة يتم التعرف عليها بسرعة بالعلامة التي تحملها على ظهرها⁹³.

⁹¹ - وندوس، رحلة إلى مكناس، م.س، ص. 101-111.

⁹² - الوزان، وصف إفريقيا، م.س، ج 1، ص. 287.

⁹³ - الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص. 198.

وفي عهد المولى إسماعيل، وبعد أن بنى مدينة الرياض وشيد قصبته ومرافقها ومنشآتها وأبوابها المختلفة، بنى إسطبلًا للخيول بطريقة متقنة ومتطورة أثارت إعجاب واندعاش كل من زاره ووقف على مرافقه من المبعوثين الأجانب. قول الزياني في وصفه لهذا الإسطبل: "... وجعل بها إسطبلًا (أي القلعة) لمربط خيله وبغاله، طوله فرسخ مسقف الدائرة بالبرشلة على سوار وأقواس هائلة. كل فرس مربوط في قوس، وبين الفرس والفرس عشرون شبرًا. يقال إنه كان (به مربط) إثني عشر ألف فرس، مع كل فرس، سائس ونصراني (من الأسارى لخدمته) وفي هذا الإسطبل، ساقية الماء مقبوة الظاهر، وأمام كل فرس محل مفتوح كالمعدة لشربه.

وفي وسط هذا الإسطبل، هري مقبو تحت الأرض وعلوه فوقها نحو القامتين، مقبو قنوط واحد، وله مضاي (من أعلاه) يفرغ منها الشعير المعد لعلف الخيل (يسع) شعير المغرب كله، من شرق الإسطبل إلى غربه⁹⁴.

ونظرا للأهمية البالغة التي احتلتها الخيول في أوساط المجتمع المغربي والدلالات الرمزية التي حملتها في الثقافة المغربية بوصفها مثلت مصدرا للخير والبركة والنماء ورمزا للكرامة والشهامة والإباء، فقد اختارها السلاطين المغاربة في كثير من المناسبات لتكون على رأس الهدايا التي قدموها لملوك وحكام بعض البلدان العربية والإسلامية وحتى المسيحية منها، كما كان قادة وباشاوات المدن والبوادي ثم وجهاء القبائل وكبار أعيانها وشيوخها، يختارون أجمل أنواع

⁹⁴ - الزياني، البستان الطريف، م.س، ص.154-155؛ وأثناء زيارته لهذا الإسطبل ترك جون وندوس شهادة فيها وصف دقيق لهذا الإسطبل إذ يقول: "وفي اليوم الرابع من هذا الشهر (يقصد شهر يو ليوز من سنة 1721) ذهبنا لرؤية إسطبلات الإمبراطور التي كانت تبعد عن المدينة بحوالي فرسخ. وتتكون هذه الإسطبلات من بنائتين مستطيلتين عريضتين جدا، تحيط بهما أقواس جميلة يقف تحتها الخيول، فرس تحت كل قبو، ويقف كل إثني عشر من الخيول منفصلين بطريقة تجعل هذه الإسطبلات تسع حوالي ألف فرس. في وسط هذه الساحة تجري قناة صغيرة بنيت على جانبيها بيوت صغيرة يحتفظون فيها بالعلف ولوازم الخيول. ويتوفر الإمبراطور أيضا على عشرة آلاف أخرى من الخيول يحتفظ بها مجتمعة في مكان بعيد بحوالي ثلاثة فراسخ عن مكناس، مستعدة للاستعمال في أية مناسبة". رحلة إلى مكناس، م.س، ص.109.

الخيول وأبهاها جمالية وهيئة، لتقديمها للسلطان بمناسبة الأعياد الدينية الثلاثة أو لدى مرور موكبه بين ظهرانيها، أثناء تنظيم حركة من الحركات أو أثناء القيام بجولة من الجولات التفقدية، كعربون محبة وتقدير له، ومن جهة، أخرى، كشكل من أشكال التعبير عن الولاء والطاعة لعرشه.

وبحكم كونها كانت وسيلة من وسائل قوة القبائل وتفوقها ورمزا من رموز عزتها وكبريائها، فقد كان المخزن المغربي، وفي إطار سياسة تأديب القبائل العاصية والمتمردة ومعاقبتها، يعمل على تجريدها من خيولها وسلاحها ويضع عليها المغارم والوضائع الثقيلة حتى لا تعود ثانية إلى إعلان عصيانها أو الإخلال بواجباتها تجاه الدولة وحقوقها.

وانطلاقا مما سبق يتضح، أنه من الأسباب الأساسية التي دفعت المخزن الشريف في العهدين السعدي والعلوي الأول إلى اختيار قبائل بعينها، وهي في أغلبها قبائل عربية معقلية، لتكون شريكة له في تنظيمات الكيش المخزني، هو امتلاك هذه القبائل لأعداد كبيرة من الخيول ولتمرسها على ركوبها وتربيتها ولمراكمتها لخبرات كبيرة في خوض الحروب المواجهات المسلحة على متنها.

وتبعا لهذه الاعتبارات، فقد كان بإمكان السلطان أحمد المنصور مثلا: أن يعبأ من هذه القبائل البدوية ما بين "ألف وخمسمائة وتسعة آلاف"⁹⁵ ويمكن أن يرتفع هذا العدد في بعض المناسبات الكبيرة، كمناسبة عيد الأضحى، ليصل إلى مابين "تسع وعشرين ألفا وثلاثين ألف فارس"⁹⁶ بل قد يجاوز هذا السقف إلى ما هو أعلى كثيرا، إذا تطلبت الظروف ذلك، ليصل إلى مائتي ألف فارس حسب ما ذهب إلى ذلك الأنجليزي هنري روبرتس (Henry Roberts) ⁹⁷.

⁹⁵ - ملين، السلطان الشريف، م.س، ص.302.

⁹⁶ - قاسم الحجري الأندلسي، ناصر الدين على القوم الكافرين، م.س، ص.43.

⁹⁷ - S.I.H.M, Ang, T.II, p.22.

وفي العهد العلوي، فقد استطاع المولى الرشيد أن يجند ستة آلاف راكب من الشبان⁹⁸. بينما كان بإمكان خلفه المولى إسماعيل أن يحرك ما يناهز 15000 راكب من جيش الوداية على الأقل في الأطوار الأخيرة من حياته.⁹⁹ أما بالنسبة للجيش الريفي، فقد بلغ عدد المجاهدين المرابطين على حدود سبتة ما بين أربعة وخمسة آلاف رجل¹⁰⁰. كما وصل عدد المقاتلين في الهجوم الذي شنّه الباشا أحمد الريفي على مدينة تطوان حوالي ستة آلاف من الفرسان والمشاة¹⁰¹.

وتؤكد هذه الأرقام مجتمعة، رغم الفوارق العددية التي توجد بينها، واختلاف عناصر قبائل الكيش التي تمثلها، الأهمية البالغة التي ظلت تمثلها الخيول في حياة هذه القبائل البدوية والاهتمام الكبير الذي كانت توليه لتربيتها وتنميتها وتكثيرها حتى يصبح لها نفوذ أكبر وتأثير أوسع ليس فقط داخل الأجهزة المخزنية للدولة، وإنما أيضا بين سائر القبائل الأخرى التي لم تحصل على شرف الانتماء إلى المنظومة المخزنية وبقيت تؤدي الضرائب وتسهم في الحروك دون أن تتمتع بنفس الحظوة أو التفضيل اللذين انفرادت بهما قبائل الكيش الحليفة للمخزن.

4- القصبات

في ظل غموض المعلومات وتركيز المصادر التاريخية بشكل أساسي على القصبات والقلاع التي كانت تتمركز بها القوات النظامية من جيش النار من العلوج والأندلسيين والأتراك في العهد السعدي، وعلى حاميات جيش العبيد في العهد الإسماعيلي، يصبح من الصعوبة بمكان

⁹⁸ - Mouette, *Histoire de Moulay Er-Rachid et de Moulay Ismail*, op.cit, p.40-41.

⁹⁹ - القادري، نشر المثنائي، م.س، ص.293؛

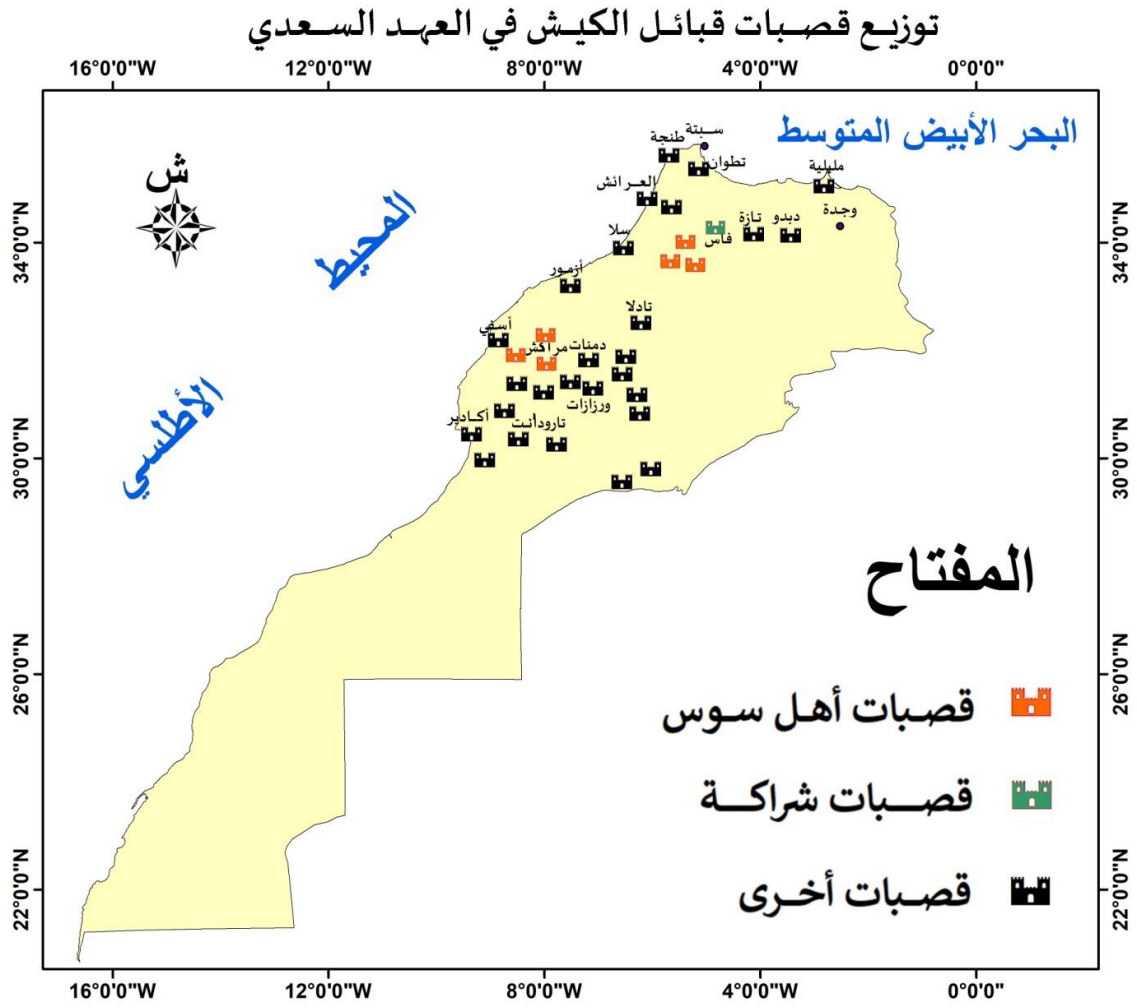
Morsy , « Moulay Ismail et l'armée de métier », op.cit, p.100

¹⁰⁰ - بريثويت، تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س.ص.65.

¹⁰¹ - نفسه، ص.98.

تحديد المواقع والقصبات التي كانت تنتشر بها الفرق العسكرية للكيش بشكل واضح ومضبوط، خصوصا وأن العلاقة التي كانت قائمة بين المعسكرات والمخيمات التي كانت تقيم فيها قبائل الكيش خارج المدن، وبين القصبات المخزنية التي كان تستقر فيها عناصر الجند الدائمين من الكيش، كانت غير ثابتة أو منفصلة. فالمخزن كلما احتاج إلى مزيد من عناصر الكيش لدعم قواته النظامية في الظروف التي كانت تتطلبها الأوضاع العسكرية أو السياسية أو الاجتماعية للبلاد، كان يعبأ مجموعات إضافية من العناصر الاحتياطية للكيش التي كانت تعيش في المعسكرات والمخيمات خارج المدن ويلحقها بتلك الموجودة داخل القصبات. وهذا الوضع هو الذي يخلق في الواقع التباسا وارتباكا عند محاولة وضع خريطة لتوزيع القصبات التي كانت تقيم فيها بشكل دائم وقار أهم الفرق والوحدات العسكرية للكيش المخزني إبان الفترة موضوع الدراسة.

لكن وانطلاقا من المعطيات التي استقيناهما من مجموعة من المصادر التي أشارت إلى عمليات نقل وتوطين بعض قبائل الكيش سواء في العصر السعدي أو العلوي، إضافة إلى ما أوردته من إفادات تهم الأحداث التي شاركت فيها هذه القبائل في كثير من المحطات السياسية والعسكرية على امتداد هذه الفترة التاريخية، تبين لنا أن القصبات التي كانت تنتشر بها هذه القبائل في العهد السعدي كانت تتركز بشكل خاص في فاس حيث كانت تقيم قبيلة شراكة ومراكش العاصمة حيث كانت تقيم عناصر أهل سوس.

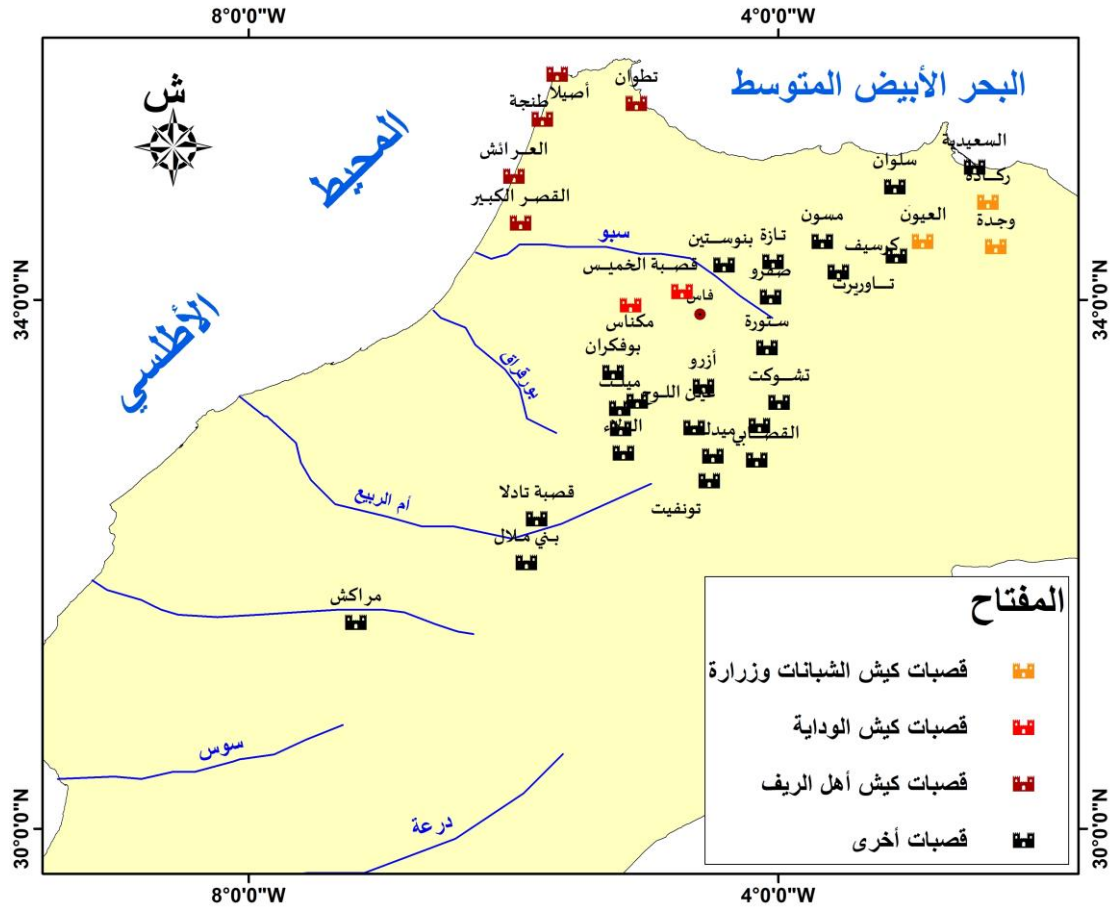


أما في العهد العلوي الأول، فقد كانت قبيلة كيش شراكة تقيم بالقصبة الجديدة بفاس الجديد (بديار ملتون وعرصة ابن صالح) ، أما كيش الوادية، فقد كانت فرقه موزعة بين حي الرياض وقصبة هدراش بمكناس، وبقصبة الخميس بفاس الجديد¹⁰² التي كان يقيم فيها عزاب شراكة بعد أن أمر مولاي رشيد مجموع عناصر القبيلة بالانتقال للاستقرار ببلاد صدينة وفشتالة بين نهري سبو وورغة بعدما تضرر أهل فاس من سوء تصرفاتهم¹⁰³. وفي شمال المغرب كان كيش أهل الريف يقيم بفحص طنجة ومجموعات أخرى في تطوان والعرائش.

¹⁰² - الزياتي، البستان الظريف، م.س، ص.179.

¹⁰³ - الناصري، الاستقصا، ج7، م.س، ص.42.

توزيع قصبات قبائل الكيش في العهد العلوي الأول



وقد ساهمت القصبات التي كانت تقيم فيها قبائل الكيش في العهد السعدي إلى جانب القصبات والقلاع الأخرى التي كانت تنتشر فيها قوات عسكرية متعددة نظامية وغير نظامية في مجالات مختلفة من التراب المغربي كان أبرزها تلك التي تركزت على وجه الخصوص في المناطق الجنوبية حيث تنشط المبادلات التجارية مع السودان الغربي وأيضا تلك التي كانت تنتشر في مناطق الشمال حيث المخاطر والأطماع التركية والإسبانية التي كانت تتهدد السيادة المغربية

باستمرار¹⁰⁴، في إقرار الأمن بين الناس والحفاظ على سلامة الطرق التجارية وفي مواجهة التهديدات الخارجية على الواجهتين الشمالية والشرقية من المغرب¹⁰⁵.

وهي ذات الوظائف التي اضطلعت بها القصبات التي كانت تقيم فيها وحدات الكيش الدائمة في العهد العلوي الأول، حيث ساهمت هي بدورها في الحفاظ على أمن العاصمة وفي تأمين طرق المواصلات والمبادلات التجارية وفي حماية الحدود الشمالية والشرقية من البلاد من التهديدات الخارجية.

5- السكن

يمكن التمييز بين فضاءين للسكن بالنسبة لقبائل الكيش. فبالنسبة للفرق التي كانت تمثل كيش المدن، فقد كانت مقرات سكنها في القصبات التي وطنها فيها المخزن بالقرب من المنشآت والإقامات السلطانية، حيث كانت أغلبية عناصر الكيش تستقر فيها إلى جانب آبائهم وعائلاتهم إما في دور بسيطة مبنية بمواد تقليدية، وإما في نوازل وخيام على شكل معسكر جماعي. بينما كان كبار قادة الكيش يسكنون في دور أنيقة وواسعة لا تختلف في مواصفاتها وجمالياتها عن باقي دور ومسكن كبار القادة من الفرق العسكرية النظامية الأخرى التي شبهتها بعض الكتابات الأجنبية بالقصور التي عادة ما يقطنها عليا القوم من كبار السادة والحكام.

¹⁰⁴ - حول توزيع وانتشار القصبات في العهد السعدي والخلفيات والأهداف التي كانت تتحكم فيها سياسيا واقتصاديا وعسكريا، راجع: المهناوي (محمد)، السلاح الناري بمغرب السعديين، ر.د.د.ع.، في التاريخ كلية الآداب، ظهر المهرار، فاس، 1988، ص. 287-289.

¹⁰⁵ - حول الدلالات السياسية والرمزية والمجالية للقصبات وغيرها من المنشآت العسكرية من قلاع وحصون وأبراج التي أنشأها المخزن الشريف في العهدين السعدي والعلوي الأول، أنظر: جادور (محمد)، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2011، ص. 205-208.

أما بالنسبة لمجموع عناصر قبائل الكيش التي كانت تقيم خارج المدن في قرى ودواوير جماعية¹⁰⁶، فقد كانت تستقر، في الغالب الأعم، في نوازل وخيام تشبه، في شكلها ومقوماتها، تلك التي كانت تستعملها في مواطن استقرارها الأولى قبل ترحيلها وتوطينها في مجالات نزولها الجديدة¹⁰⁷. وهذا النمط من السكن كان، في واقع الأمر، يعكس، من جهة، الطبيعة البدوية الرعوية لهذه القبائل، ومن جهة أخرى، كان يمثل علامة دالة على محدودية ارتباط هذه القبائل بالأرض وبحياة الاستقرار عموما وما تقتضيه، استتباعا، من ترقية لنوعية وشكل السكن وتطوير للأنشطة الزراعية والإنتاجية المختلفة..

¹⁰⁶ - فالسكن في النوازل لم يكن فقط خاص بأفراد الكيش، وإنما كان هو السكن المستعمل أيضا من قبل عناصر جيش العبيد بعد إنهائهم مراحل التكوين في مكناس وتوجيههم للسكن في مشرع الرملة. يقول الزباني في هذا الصدد: "فإذا أكملوا السنة، صاروا من حساب الجند، فيخرج لهم السلطان البنات اللاواتي قدمن معهم، ويدفع لكل واحد من الأولاد واحدة يتزوجها، ويدفع للرجل عشرة مثاقيل مهرها، وللبنت خمسة مثاقيل ويقيدهم عليهم من آبائهم الكبار، ويعطي له ما يبني به داره والنوازل لأصحابه. ويوجههم للمحلة بمشروع الرمل، فيكتبون في ديوان العسكر." البستان الظريف، م.س، ص.170.

¹⁰⁷ - يقدم جون بريثويت في نص رحلته وصفا دقيقا للخيمة التي كان يقيم فيها أحد الأعراب بالقرب من مدينة فاس وهو، على الأرجح، عنصر من عناصر قبيلة الوداية ومما جاء فيه: "كانت الخيمة وطيفة جدا مما يمكنها من مقاومة شدة الرياح، وهي مصنوعة من وبر الجمال، تشابه إلى حد ما قطع الأقمشة الصوفية التي تستعمل لتغطية السلع عندنا. وهذه الخيمة مدعمة في الوسط بعمود ممتد تحت سمنة السقف، يقوم على عمودين لهما رأس متفرع كالمذراة، ومسكت الجوانب بنفس الطريقة. ونظرا لقلّة ارتفاعها، فإنه لا يمكن للمرء أن يقف مستقيما إلا في تمام وسطها. ولا تصل الجوانب إلى الأرض بل تبقى مرتفعة عليها بحوالي قدمين، مما جعلهم يسسجون الخيمة بشجيرات مشوكة قطعت لهذا الغرض. وقد تمكنا من رؤية بعض نسائهم، كن واقفات على بعد مسافة، تسارقن النظر إلينا، وبعد أن أكرمونا بشرب الحليب انصرفنا." تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص.151.

وفي وصفه لنمط عيش عناصر الوداية الذين كانوا يقيمون في ضواحي مدينة فاس وأسلوب تغذيتهم، يقول جون بريثويت: "وفي الليل نصبنا خيامنا (يقصد وفد السفارة) على بعد مسافة قليلة من مخيم أول الأعراب الذين التحقوا بنا، فبعث لنا زعيمهم الذي كان قد سار معنا خلال النهار بثور صغير وبعض حليب النوق. وكان يتوفر على قطيع مهم من الماشية والجمال، الشيء الذي يمثل أكبر قسط من موارد عيشهم. وأثناء الليل، وعلى الرغم من أننا كنا نعتقد أننا بين أصدقائنا، فإننا شددنا الحراسة كأننا بين أعدائنا، حيث كان كل حارس ينادي الآخر، وهو الشيء الذي دأبنا عليه طيلة الرحلة." تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب، م.س، ص.150-151.

III- الموارد

1- الرواتب

ليس من السهل تحديد قيمة الرواتب التي كانت تتقاضاها عناصر فرق الكيش التي كانت منخرطة بشكل دائم ومنتظم في سلك الخدمة العسكرية على غرار باقي أفراد القوات النظامية الأخرى من علوج وأندلسيين وأتراك في عهد السعديين أو ما على شاكلة عناصر جيش العبيد في العهد الإسماعيلي، لأن أغلب المعلومات المتعلقة بالأجور والمرتبات المالية التي تتحدث عنها معظم المصادر التاريخية لهذه المرحلة لا تشير إلا إلى تلك التي كانت تمنح لعناصر الكتائب العسكرية الأجنبية التي كانت تحظى لدى السلاطين والحكام بالثقة والتقدير الكبيرين فكانوا يكافؤونها، نتيجة لذلك، برواتب مجزية وعالية حتى تبقى وفية لهم وتؤدي واجباتها ومهامها العسكرية بجدية وإخلاص.

وتبعاً لذلك يصبح من الصعوبة بمكان الحسم في مسألة رواتب عناصر الكيش الدائمة وتحديد قيمتها السنوية أو الشهرية بحسب الطريقة التي كانت توزع بها. غير أن ما هو مؤكد في هذا الإطار، هو أن هذه الرواتب كانت أقل قيمة من تلك التي كانت تسلم للفرق النظامية الأخرى الأجنبية المقربة من الدوائر المخزنية والموثوق في ولائها. فأجور جيش النار في العصر السعدي كانت تتراوح بين خمسين وثلاثمائة دينار كل ستة أشهر¹⁰⁸ وكانت تقدم على شكل دفعات على امتداد السنة إلى جانب اللباس والسلاح والخيول وغيرها من اللوازم الأخرى¹⁰⁹. كما كانت "الأجور تختلف حسب درجات الجند ونوعية الفرق، حيث كان المشاة أقل أجراً من الفرسان، وكان الأندلسيون والعلوج مقدمين في العطاء عن بقية الفرق النارية الأخرى"¹¹⁰. وفي هذا السياق، فقد قدر دزيبينسكي DZIUBINSKI معدل أجر الفرسان في عهد عبد الله الغالب

¹⁰⁸ - S.I.H.M, Espagne, T.I, p.148.

¹⁰⁹ - مارمول، إفريقيا، م.س، ج1، ص495.

¹¹⁰ - المهناوي، السلاح الناري، م.سن ص.196.

ب250 دينار، ومعدل أجر جند المشاة ب 60 دينار، فأنتهى إلى نتيجة أكد من خلالها أن عبد الله الغالب كان يتعين عليه أن يدفع سنويا 1.836.000 دينار دون مصاريف اللباس والسلاح والخيول وغيرها من اللوازم العسكرية والمتطلبات التموينية الأخرى¹¹¹. أما بالنسبة للفرق الموجودة في الأقاليم فقد كانت تتقاضى سنويا ما بين 25 إلى 30 دينارا¹¹²، ومن المحتمل أن يكون هذا الأجر هو نفسه الذي كانت تحصل عليه عناصر فرق الكيش في المدن التي كانت تقيم بها قواتها أسوة بباقي أفراد الحاميات العسكرية الأخرى التي كانت تنتشر في باقي الأقاليم. وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن القواد في هذه الأقاليم كانوا هم الذين يتولون أداء رواتب الجنود المنضوين تحت إمرتهم، كما كان يتعين عليهم تزويدهم بالملابس والمؤن في وقت السلم وبالخيول والسلاح واللباس في وقت الحرب¹¹³. وحسب بعض الباحثين، فإن جنود حاميات الولايات لم تكن تتقاضى الرواتب إلا في أوقات الحملات العسكرية "وفي بقية الأوقات يسند إليه السلطان نصيبا من ضرائب المنطقة المتواجدين فيها إلى جانب العطايا بين الفينة والأخرى. وبالتالي فإن الأغلبية الساحقة من المجموعات غير النظامية تتمتع فقط...بالإقطاعات والامتيازات الضريبية"¹¹⁴.

ويشير مارمول مؤكدا في ذات السياق، إلى ما كان يقدمه عبد الله الغالب لفرق كيش جزولة الذين كانوا يرافقونه حيثما حل وارتحل إلى جانب فرقتين من العلوج والزنوج بقوله: "إن الشريف الحالي له زهاء خمسة آلاف من الرماة الفرسان، يزودهم بالأسلحة، والخيول، والملابس والمال، وجلهم جزوليون أو زنوج من مملكتي مراكش وسوس. وله علاوة عن ذلك ستمائة

¹¹¹ - حركات (إبراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي، مطبعة الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة 1408-1987، ص.222.

Dziubinski, «L'Armée et la flotte de guerre », op.cit,p.85.

¹¹² - Ibid, p.86.

¹¹³ -Ibidem

¹¹⁴ - ملين، السلطان الشريف، م.س، ص.303.

إسلامي، يصحبهم دائما معه، لكن ليس في حرسه أترك أصلا، بسبب خيانتهم لأبيه"¹¹⁵. وبالنسبة للأعراب الذي كانوا يستدعون للمشاركة في العمليات العسكرية في بعض المناسبات فقط، ومنهم عناصر القبائل العربية التي كانت تندرج ضمن الكيش الاحتياطي خارج المدن، يشير مارمول إلى أنهم كانوا "يقيمون في دواويرهم ويعرفون أين يجب الالتحاق عند الحاجة. ولهم كذلك خيول، ويعفون من كل مؤونة، ولا يؤدون أي شيء عن حرتهم ولا علف مواشيهم، لكن تجهيز معظمهم سيء جدا، سواء من الخيول أو من حيث الأسلحة والأزياء، باستثناء بعض الخواص الذين يعتزون أكثر بالشرف. وهم لصوص كبار يعيشون فسادا في أي مكان مروا به. وحيث إنهم لا يتقاضون أي أجر فإنهم يعودون إلى منازلهم ويتركون الجيش إذا طالت الحرب أو تضرروا بأي شيء مهما قل. وهم مستعدون بالأحرى للنهب والفرار أكثر من القتال، ولا يهجمون إلا على الساقطين على الأرض كما تفعل الكلاب. وأكثرهم ثروة هم الخلط وبني مالك وسفيان، الذين يلزمون بإمداد الملك بأحد عشر ألف فارس عند الاقتضاء..."¹¹⁶.

وبالنسبة للعهد العلوي، فتشير بعض الدراسات، إلى أن الجيش النظامي الذي كان مقيما بمكناس والمناطق القريبة منها كان يتقاضى من طرف السلطان مولاي إسماعيل راتبا شهريا إلى جانب المؤونة والكسوة في الأعياد الدينية والمواسم، وهذا الراتب الشهري، الذي لم تحدد المصادر التاريخية مبلغه بالضبط، كانت تتقاضاه دون شك، عناصر كيش الوادية التي كانت تقيم بمكناس و بفاس الجديد بحكم أنها كانت هي أيضا من عساكر الجيش النظامي الدائم. وإذا كان مبلغ مائة ألف مثقال الذي كان يمنح لجيش العبيد، دون أن يتم الحسم بين الباحثين في مدته هل كان أجرا سنويا أم فقط نصف سنوي، هو نفس المبلغ الذي كان يسلم أيضا لعناصر الكيش، فالمؤكد أنه كان، في كل الحالات، أجرا هزيلا وضعيفا لا يفي بالحد الأدنى من متطلبات العيش اليومي للجندي سواء أكان من جيش العبيد أم كيش القبائل. وهذا ما كان

¹¹⁵ - مارمول، ج1، م.س، ص.167.

¹¹⁶ - نفسه، ص.167.

يضاطر الكثير من أفراد الجيش إلى مزاوله أنشطة أخرى لتعويض هذا النقص في الرواتب كالنشاط الفلاحي¹¹⁷.

وبغض النظر عن الأجور والرواتب التي كانت تؤدي للجنود بانتظام وخلال مدد زمنية معلومة، فقد كان السلاطين يقدمون لهم أيضا عطايا ومنح مالية تحفيزية بعد نجاح كل عملية من العمليات العسكرية¹¹⁸، كما كانوا في ظروف الأزمات والصراعات المسلحة مع الخصوم والفرقاء، يمنحون للجنود أجورهم مقدما بثلاثة أو ستة أشهر وأحيانا سنة مقدما، وذلك، لكسب ثقتهم وولائهم وعدم خذلانهم أثناء المعارك تحت إغراءات المال أو غيره من المكاسب المادية الأخرى¹¹⁹.

2- الإقطاع

أثارت مسألة الإقطاع في تاريخ العالم الإسلامي¹²⁰ بوجه عام وفي تاريخ المغرب على نحو خاص¹²¹ عدة سجلات ونقاشات بين الباحثين والمختصين في قضايا التاريخ الاقتصادي الإسلامي

¹¹⁷ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.193.

¹¹⁸ -Morsy, *La relation de Thomas Pellew*, op.cit, pp.115-120-127.

¹¹⁹ - ديصالدانيا، أخبار أحمد المنصور، م.س، ص.160-169؛ دي هنين، وصف الممالك المغربية، م.س، ص.33-34-37.

¹²⁰ - حول الدراسات التي تناولت مسألة الإقطاع في العالم العربي والإسلامي راجع:

- آشور شتاروس (إلياهو)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، طبعة دمشق، 1985؛ الرئيس محمد (ضياء الدين)، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، طبعة القاهرة 1985؛ سعد (أحمد صادق)، تاريخ العرب الاجتماعي، تحول التكوين المصري من النمط الأسوي إلى النمط الرأسمالي، بيروت، 1981؛ طرخان (إبراهيم علي)، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، 1986؛ العمري (عبد الله)، الإقطاع بين النظرية والواقع خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) ومقارنته بالفيودالية، د.د.ع، كلية الآداب، فاس، 1989؛ محمود (إسماعيل)، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي. محاولة تنظير، دار الثقافة، الدار البيضاء، جزان؛ العملي، نظام الإقطاعات الحربية، م.س؛ الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، م.س الحبيب (الجنحاني)، "الإقطاع في المجتمع العربي الإسلامي، المفهوم والممارسة، (القرن الأول- القرن السادس)"، مجلة عالم الفكر، العدد 31، الكويت، 2002؛

وأتماط الملكيات العقارية التي شهدها المجتمع العربي بعد الفتح الإسلامي والتطورات التي لحقتها في ظل الدول التي تعاقبت على سلطة الحكم ابتداء من العصر الراشدي إلى حدود الفتح العثماني للعالم العربي والإسلامي.

وفي المغرب، فقد أولى الفقهاء لمسألة الإقطاع اهتماما ملحوظا بحيث لا يخلو مصنف من مصنفات الفقه النوازلي من تناول هذه الظاهرة وإبداء رأي الشرع في مختلف الجوانب التي تطرحها من الناحية النظرية والدينية وكذا من النواحي التي تهم النوازل والقضايا التي باتت تثيرها كثير من أنواع الإقطاعات السلطانية والأميرية لفائدة قادة الجند وشيوخ القبائل وموظفي ومسؤولي الدولة والعلماء والمتصوفة وغيرهم.

وبغض النظر عن اختلاف الفقهاء في تحديد بعض الجوانب الفقهية المتعلقة بأراضي الإقطاع، إلا أنهم يجمعون على أن الإقطاع هو حق موقوف على الإمام¹²² وأنه هو وحده له

Cahen ©, « L'évolution de L'iqta du IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une Histoire comparée des sociétés médiévales », A.E.S.C., N°1, N.Orleans; Poliak (A.N), *La féodalité islamique*, J.R.A.S, London, 1939.

¹²¹ - للإمام ببعض ما طرحته بعض الدراسات التي عالجت مسألة الإقطاع في تاريخ المغرب وأصنافه وعلاقته بأنماط الإنتاج التي انتهت إلى صاغتها على ضوء ذلك، راجع: بوتشيش، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي، م.س، ص.69-134؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص.141-148؛ لهروي (الهادي)، القبيلة، الإقطاع والمخزن. مقارنة سوسولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الهراس، القبيلة والسلطة، م.س، ص.94-98؛ بولقطيب (الحسين)، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، د.د، كلية الآداب، الجديدة، 1989-1999، ص.142-167.

Halim (Abdejalil), *L'iqta' et L'appropriation de la terre au Maroc (le cas du gharb)*, Mémoire de 3^{ème} cycle en sociologie, Faculté des lettres. Rabat, 1977 ;

Lazarev (G), « Les Concessions foncières au Maroc », A.M.S, 1968 ; Verdier (Desparu) ; *Structures foncières et développement rural au Maghreb*, Paris, 1968; Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, op.cit ; Le Coz, *Le Gharb*, op.cit .

¹²² - التعارجي (العباس بن إبراهيم)، الإمتاع بأحكام الإقطاع، م.خ.ع.رقم.13، الرباط، ورقة 16.

حرية التصرف في إقطاع الأراضي الخاضعة لسلطانه و"لايصح فيما تعين ماله ومستحقه"¹²³ وكذلك "فيما هو موقوف لصالح المسلمين"¹²⁴. ولذلك اتفقوا على أن الأراضي التي يجوز للإمام التصرف بإقطاعها هي تلك التي تقع في الأراضي الموات وقسموا هذه الأراضي إلى قسمين: قسم الأرض الموات القريبة من العمران ثم قسم تلك البعيدة عنه. وفيما اعتبروا أن إذن الإمام يعد "شرطا مسبقا لاستغلال الأرض القريبة من العمران"¹²⁵، فإن الإمام سحنون قد اعتبر أن الأرض الموات البعيدة عن العمران "بمسيرة يوم ونحوه مما لا تدركه المواشي في غدوها ورواحها لا يحتاج فيه إلى إقطاع ولا إذن. ومن اعتمره بالحرث والغرس والبناء والهدم، وحفر الآبار وشق العيون كان له"¹²⁶.

وقد أكد الفقهاء في هذا الإطار على أن للإمام الحق في إلزام المقتطع بعمارة الأرض المقتطعة له وإلا انتزعها وأقطعها غيره¹²⁷، غير أنهم اختلفوا في جواز انتقال أرض الإقطاع إلى ملكية خاصة. ففي الوقت الذي لم يمانع بعضهم في جواز هذا الإمكان ولكن في أصناف محددة من الأراضي¹²⁸، ذهب البعض الآخر إلى القول بأن "إقطاعها إنما هو إقطاع انتفاع لا ملك"¹²⁹، فيما أقر آخرون بأن للمقتطع "حق التصرف فيما أقطع، بعمارة أو بيع، أو صدقة، أو تورث عنه"¹³⁰.

¹²³ - الماوردي (أبو الحسن علي)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978، ص.190.

¹²⁴ - الزياتي (عبد العزيز بن الحسن)، الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل من جبال غمارة، م.ع.ع، رقم 3832، الرباط ص.45.

¹²⁵ - الكناني (أبو عبد الله)، مختصر النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، م.ع.ع. وقم 3660، الرباط، ص.194.

¹²⁶ - نفسه، ص.194-195.

¹²⁷ - بولقطيب، الدولة الموحدية، م.س، ص.140.

¹²⁸ - الماوردي، الأحكام السلطانية، م.س، ص.190.

¹²⁹ - الوئشيسي، المعيار المعرب، م.س، ج9، ص.73.

¹³⁰ - التعارجي، الإمتاع بأحكام الإقطاع، م.س، ورقة. 94.

لقد تعددت أنواع إقطاعات الأراضي من طرف الخلفاء والسلاطين المغاربة لفائدة الأمراء وقادة الجند وكبار الموظفين وشيوخ ورؤساء القبائل الذين استأثروا بنفوذ واسع داخل تشكيلات الجيوش القبلية التي كانت تعتمد عليها الدولة في إنجاز أعمالها ومشاريعها العسكرية والجهادية. وقد عرف الإقطاع الحربي القبلي تطورا وتوسعا ملحوظا منذ أن استقدم الخليفة يعقوب المنصور الموحدى أعدادا كبيرة من عناصر القبائل العربية من إفريقية والمغرب الأوسط وأقطعها أراضي واسعة بسهول تامسنا والحوز والغرب¹³¹. ومنذ ذلك الحين صار إقطاع الجند القبلي تقليدا راسخا ومتداولاً بين السلاطين والحكام يلجؤون إليه استرضاء لسادة وشيوخ القبائل ذات الشوكة والغلبة، كما كانوا يقدمونه للقبائل التي اصطنعوها لتكون حليفا لهم، يعتمدون عليها في إنجاز المهام والعمليات العسكرية الصعبة، وفي الحفاظ على أمن ونفوذ الدولة والتصدي لمن يريد العبث باستقرارها ووحدة أراضيها من قبل الأعداء والخصوم في الداخل والخارج على السواء.

وقد اقتفى السلاطين السعديون أثر من سبقوهم من الملوك والحكام المغاربة سواء في العهد الموحدى أو المريني أو الوطاسي على هذا الصعيد، فأقطعوا القبائل العربية، التي صارت تحمل في عهدهم إسم قبائل الكيش، أراضي لاستغلالها في مجال الفلاحة وتربية الماشية لقاء ما كان يطلب منهم، بين الفينة والأخرى، من خدمات عسكرية. وقد تطورت هذه الممارسة الإقطاعية مع العلويين الذين أعطوها طابعا تنظيميا أكثر مأسسة وهيكلية، بعد أن منحوا لقبائل الكيش وضعاً امتيازياً خاصاً صار فيما بعد قاعدة ومرجعاً في التعامل مع هذه القبائل من قبل سائر سلاطين الدولة العلوية لاحقاً.

وتجدر الإشارة إلى أن إقطاع قبائل الكيش في الفترة عالجها البحث تطرح عدة صعوبات وعلى أكثر من مستوى:

¹³¹ - بولقطيب، الدولة الموحدية، م.س، ص.148.

- ففي ظل غياب الظواهر السلطانية التي تسمح بمعرفة أسماء القبائل التي حظيت بامتياز إقطاع الكيش والمواطن التي شملها هذا الإقطاع يصعب وضع خريطة لهذه الأراضي المقطعة، ولعل هذا ما دعانا إلى العودة والاستئناس ببعض الظواهر السلطانية التي أنعم بها على بعض قبائل الكيش في مغرب القرن الثالث عشر الهجري/19م، والتي هي في أغليبيتها امتداد واستمرار لنفس قبائل الكيش التي سبق للسعديين والعلويين الأوائل أن جندوها للقيام بوظيف الجنديّة، وذلك بهدف الاستفادة منها في معرفة مواطن استقرار بعض هذه القبائل، بالرغم من حركة التنقل وإعدادة التوطن التي طالتها في أكثر من مناسبة، ثم لتسليط الضوء على طبيعة ومط استغلال الأراضي التي أقطعت إليها؛ هل كانت إقطاعات استغلال أم حولتها مع مرور الوقت إلى إقطاعات تمليك، مع العلم أن هذه الفرضية قد استبعدتها إلى حد بعيد على الأقل في هذه المرحلة، لأن قبائل الكيش التي تناولت تجربتها العسكرية في هذا البحث، لم تعرف في المناطق التي وطنت بها شروط استقرار دائمة ومتواصلة تمكّنها من الارتباط بالأرض ارتباطا دائما ومستمرّا يسمح لها بمراكمة شروط استغلال أكثر تجذرا وإنتاجية، بسبب الحروب والصراعات المسلحة التي انخرطت فيها خلال الفترات الانتقالية للحكم، ومن جهة أخرى، لأن هذه القبائل، وانطلاقا من النصوص التي تحصلت لدينا من قراءة المصادر المعاصرة لهذه الفترة، قد ظلت تميل أكثر إلى ممارسة الرعي وتربية الماشية، وحتى وإن تعاطت للأنشطة الزراعية، فإن ذلك قد بقي يقتصر فقط على بعض الزراعات الموسمية كالحبوب والشعير.

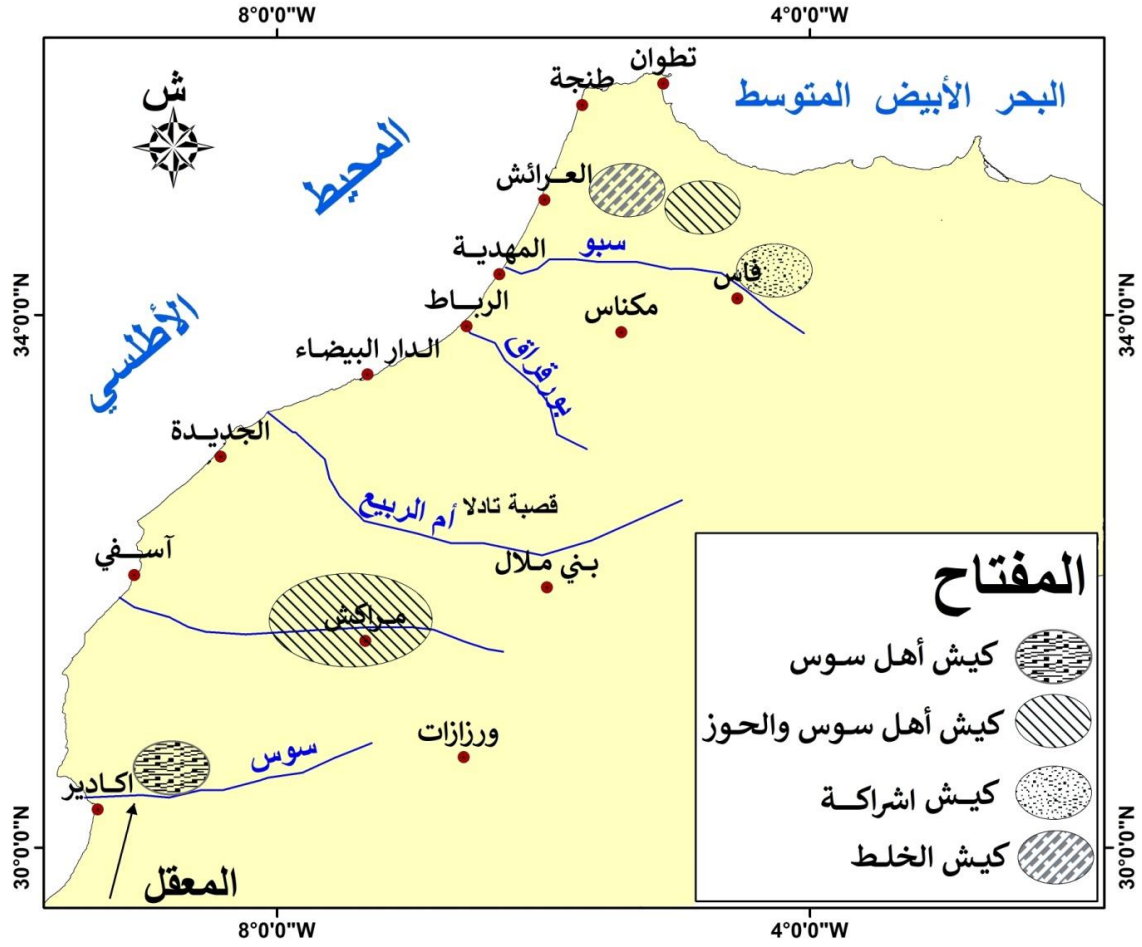
- ومن الصعوبات الأخرى المرتبطة أيضا بإشكالية أراضي الإقطاع نفسها، ما يتعلق بكيفية توزيع حصص الأراضي المقطعة بين أفراد قبائل الكيش: هل كان يتم توزيعها بشكل متساو بين مجموع المخازنية المنتمين لهذه القبيلة أو تلك من قبائل الكيش، كما أصبح عليه الحال خلال مغرب القرن الثالث عشر الهجري/19م؟، أم أن عملية التوزيع كانت تخضع لمعايير واعتبارات أخرى، ترتبط بموازن القوة والنفوذ داخل واقع قبيلة الكيش نفسها، بحيث إن الجماعات

المتغلبة والأقوى، والمالكة لأسباب الحظوة والجاه هي التي كانت تستحوذ على حصة الأسد فيها؟.

هذه الأسئلة وغيرها، حتى وإن بقيت في مجملها بدون إجابة مقنعة ومطمئنة، فإن طرحها، على الأقل، في ظل شروط البحث التاريخي الراهنة حول مسألة الإقطاع عموما في مغرب ما قبل القرن الثالث عشر الهجري/19م، يفتح، دون شك، أفقا رحبا للتفكير وإعمال النظر في هذا الموضوع الحيوى والشائك، عسى أن تتوفر في المستقبل المنظور المصادر والوثائق التاريخية المطلوبة والمفترضة لإمطة اللثام عن الغوامض والعتمات التي لاتزال تلف هذه المسألة، في بعديها العقاري والاقتصادي، والأسئلة المؤرقة التي تطرحها في هذه المرحلة الهامة من تاريخ المغرب.

ليس بين أيدينا، كما أكدنا سابقا، ما يسمح بتوطين مواقع أرضي الكيش توطينا دقيقا في هذه المرحلة التاريخية التي اشتغل عليها البحث، ولكن انطلاقا من المعلومات المتناثرة التي جمعناها بين تضاعيف بعض المصادر الإخبارية، تبين أن خريطة توزيع إقطاعات الكيش في العهد السعدي كانت تتركز بوجه خاص في ضواحي مدينة مراكش وفاس وكذا بمنطقة الغرب، أما في العهد العلوي الأول، فإن خريطة توزيع هذه الإقطاعات قد انحصرت في أحواز مدينتي مكناس وفاس ومنطقة الفحص بطنجة.

خريطة توزيع أراضي الإقطاع في العهد السعودي

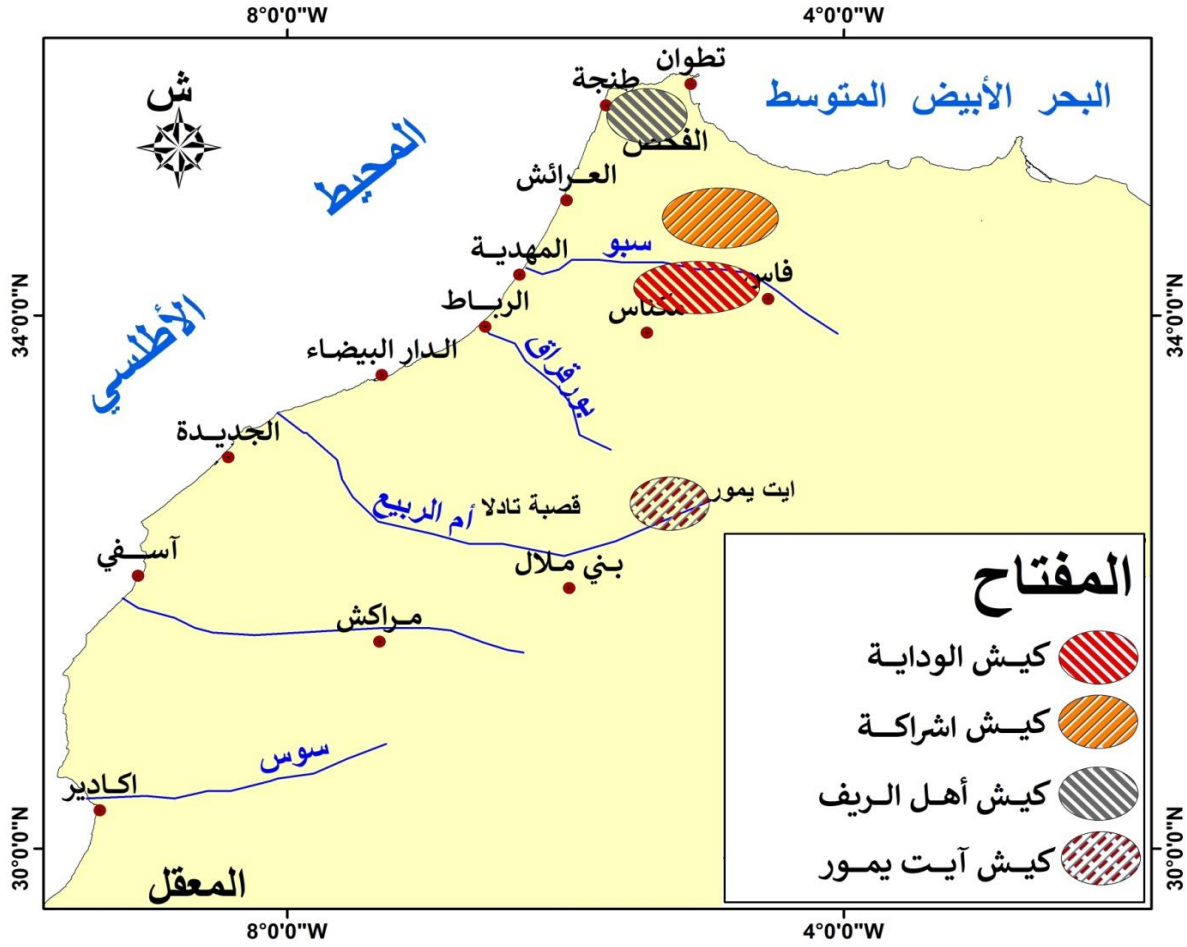


وبخصوص عملية استغلال أراضي الإقطاع وتوزيعها، فالمرجح أنها كانت تستغل بكيفية جماعية وكان أعيان جماعة القبيلة ووجهائها الذين من بينهم كان يتم عادة اختيار وانتقاء كبار قادة الكيش كانوا هم الذين يشرفون على عملية التقسيم أو التوزيع إن تمت، كما كانوا هم الذين يتولون التدخل لحسم مادة الخلاف أو النزاع بين أفراد قبيلة الكيش إذا حدث ما يدعو لتدخلهم: كأن يستولي طرف على أرض طرف آخر أو يستولي على جزء من محصوله الفلاحي أو يعتدي عليه بأي وجه كان هذا الاعتداء ماديا كان أو معنويا¹³².

¹³² - لأخذ فكرة عن كيفية توزيع أراضي الكيش في بعض المناطق التي استقرت فيها قبائل الكيش خلال مغرب القرن

الثالث عشر الهجري/19م نحيل هنا، تمثيلا لا حصرا، على الدراسات والأبحاث التالية:

خريطة توزيع أراضي الاقطاع في العهد العلوي الأول



-IV الوظائف

اضطلعت قبائل الكيش، رغم كونها لم تكن تحظ بنفس المكانة والاهتمام اللذين كانت تحظى بهما باقي الوحدات العسكرية النظامية الأخرى من أصول أجنبية سواء في العهد

- زرين (محمد)، الاستراتيجيات العقارية باعتبارها رهانات اجتماعية تاريخية. المحيط القروي لسيدي قاسم نموذجاً، د. في علم الاجتماع، كلية الآداب، الرباط، 2004-2005، الملحق الوثائقي، ص.1-14؛ برادة، الجيش المغربي، م.س، ص.110-

.111

Le Coz, « Les Tribus guichs au Maroc »,op.cit, pp.7-9 ; Boufatma, *Contribution à l'étude du changement socio-économique et structurel dans la société rural. Cas de Karia Bamohamed*,op.cit, pp.58-61 ; Le Coz, *Le Gharb* ,op.cit , pp.282-289 ; Delmas Fort, *Les guichs Marocains*, op.cit, pp.16-19.

السعدي أو في العهد العلوي الأول، بمهام ووظائف متعددة اختلفت في نوعيتها وطبيعتها بحسب المواقع التي كانت تنتشر بها، وكذا بحسب الحاجات والظروف المتسجدة التي كانت تدفع السلاطين والحكام إلى تكليفها بها، من حين إلى آخر.

1- تزكية البيعات السلطانية

لما كانت البيعة في دلالتها الشرعية والسياسية العامة هي تزكية للحاكم من قبل أهل الحل والعقد وسائر كبار موظفي وقادة الدولة وأعيان المدن والقبائل وشيوخ الزوايا وغيرهم، بوصفه إماما يترأس جماعة المؤمنين وسلطانا يتولى تدبير شؤون الرعية وحماية مصالحها والذود عن حمى سيادة البلاد والدفاع عن مقدساتها¹³³، فقد كان من اللازم والمفترض أن يشارك فيها كل من كان محسوباً في المقام الأول من طبقة الخاصة ومن أركان الدولة وحاشيتها. وهذا التقليد صار من الطقوس المخزنية المرعية التي دأب الملوك والسلاطين المغاربة على تنظيمه وفق المراسيم والتراتب الجاري بها العمل في النظام المخزني، كلما اعتلوا سدة الحكم حتى ينالوا ثقة الرعية واعترافها بمشروعية حكمهم، ومن جهة أخرى، حتى يقطعوا الطريق على أي منافس أو معارض محتمل من داخل الأسرة الحاكمة نفسها.

وقد سجلت المصادر التاريخية في مناسبات متعددة حضور قادة قبائل الكيش إلى جانب قادة العسكر الآخرين والعلماء والكتاب وصدور الدولة وأعيانها في المحافل والاجتماعات التي

¹³³ بخصوص نظام البيعة ودلالاتها السياسية والشرعية في النظام السياسي المغربي، راجع:

ابن خلدون، المقدمة، م.س، ص.209؛ ابن زيدان، العز والصولة، م.س، ص.8-35، العروي، الأصول الاجتماعية والثقافية، م.س، ص.94-108.

Lahbabi (Mohamed), *Le gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle*, éd, Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1958, pp.45-60.

توجت ببيعة كثير من سلاطين دولة الأشراف وتزكية شرعية توليهم السلطة في البلاد. والأمثلة على مشاركة هؤلاء القادة في هذا الاستحقاق السياسي تمتنع عن الحصر في تاريخ تجربة حكم السلطان الشريف، غير أن أهمية هذه المشاركة وثقلها كانت تزداد بصورة ملحوظة في الفترات الانتقالية للحكم أو في زمن الصراعات السياسية بين الأمراء المتنافسين على السلطة حتى يثبت كل طرف أحقيته في الحكم ضد باقي الأطراف الأخرى. وهذا ما ظهر بجلاء بعد وفاة السلطان المولى إسماعيل حيث سعى كل أمير من الأمراء المتصارعين على العرش للحصول علىبيعة أكبر عدد من قادة جيش العبيد والكيش وعلماء مدينة فاس للظفر بمشروعية التولية في الحكم على حساب إخوته الآخرين. يقول الزياتي في هذا الإطار على سبيل المثال: "لما مات السلطان إسماعيل اجتمع قواد العبيد وقواد الوداية وقواد رؤوسهم وعلماء الدولة وكتابها وبايعوا ولي العهد السلطان أحمد"¹³⁴

2- الخدمة كمسخرين في القصور السلطانية

لا شك أن الحناطي الداخليين والخارجيين التي تحدث عنها بتفصيل واف المؤرخ والنقيب ابن زيدان خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م وغيره من المراقبين الأجانب، حتى وإن لم تتحدث عنها الأدبيات التاريخية المعاصرة لهذه المرحلة بنفس الترتيب أو التوصيف، إلا أن وجود مسخرين وأعوان من عناصر الكيش كانت موجودة داخل القصور السلطانية غير أننا لا ندري أعدادهم والأشغال التي كانوا يسهرون على تنفيذها بشكل واضح ودقيق في المرافق والمنشآت التابعة لهذه القصور، عكس عناصر العبيد التي توسعت المصادر المغربية والأجنبية على السواء في العهد الإسماعيلي على وجه الخصوص في تسليط الضوء على مختلف المهام والأعمال التي كانوا يقومون بها داخل وخارج الإقامات السلطانية والأميرية والمؤسسات والمرافق التابعة لها.

¹³⁴ - الزياتي، الترجمان المغرب، م.س، ج2، ص745

غير ما يؤكد حضور عناصر الكيش إلى جانب السلاطين سواء في أيام السعديين أو العلويين هو مشاركتهم وملازمتهم للمحلات السلطانية التي كانت تخرج من العاصمة بين الفينة والأخرى لتفقد شؤون الرعية أو لتأديب القبائل الناكثة للطاعة، حيث كان يوجد من بين هذه العناصر من كان يسوس الخيول وينظف مرابضها أو ينصب الخيام وإعداد لوازمها أو يقوم بحراسة فسطاط السلطان وخيام الأمراء والقادة أو يتولى إبلاغ أمر من الأوامر الإدارية أو تنفيذ مهمة من المهام الأمنية أو العسكرية في المناطق التي تقع في خط سير المحلة السلطانية. ويقدم لويس أرنو صورة متكاملة ودالة عن هؤلاء المسخرين في القصر السلطاني وأصولهم وطوائفهم والأشغال التي كانوا يتولون القيام بها في الأيام العادية داخل القصر وأخارجه أثناء تنظيم حركة من الحركات السلطانية إذ يقول: "وهؤلاء المسخرين يأتون من القبائل المخزنية، حيث يتوارثون هذه المهنة أبا عن جد. فقد كانوا يجتمعون متأهبين للانطلاق في حركات تحت قيادة قائد الرحي مكونين مجموعة مهمة بعض الشيء (1500 من البخاريين، و500 من الوداية و500 من الشراقة، و400 من أهل سوس).

وقد كان هؤلاء المسخرين، خلال الأيام العادية، موزعين في مختلف أجنحة القصر: مروضي خيول، سعاة، منظفي إسطبل الخيول والبغال، مشيدي خيام، أصحاب سلاح، معدي أسرة، معدي شاي، مهئي نظافة السلطان...وعندما تكون هناك حركة ما فإنهم يأخذون أسلحتهم ويصحبون السلطان، حيث يبنون من خيامهم دائرة حول الفراخ، مكونين بذلك حزاما أمنيا قويا. أما في المدن الكبرى فقد كانوا يعيشون مع عائلاتهم في نوايل مجتمعة أو في دور أو منازل مجاورة لدار المخزن إنهم في ملك السلطان، وأبنائهم في خدمة المخزن، سواء في سلك الجندية أو في أحد أروقة المسخرين، أو سواء اشتغلت فتيانهم لدا العائلات المخزنية أو داخل القصر¹³⁵.

¹³⁵ - لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية، م.س، ص.15.

3- الحفاظ على أمن العواصم وحماية منشآتها

يبدو من خلال خريطة تتركز أغلب قصبات قبائل الكيش في المدن العواصم أن الوظيفة الأساسية التي أوكلت إليها كانت تتمثل، في المقام الأول، في إقرار الأمن داخل العواصم السلطانية والتصدي لكل محاولة للإخلال به إما داخل هذه العواصم نفسها من طرف القوى الاجتماعية النافذة فيها كما كان يحدث في زمن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي كانت تعقب وفاة سلطان من السلاطين الكبار، أو من خارجها من قبل المجموعات القبلية التي تستقر في ظهيرها المجاور. ولذلك كانت هذه القبائل أشبه ما تكون بسور بشري مسلح يحمي ويحصن القصور السلطانية والمنشآت المخزنية وغيرها من المرافق الإدارية داخل هذه العواصم من أي اعتداء من الاعتداءات المحتملة، فكان بذلك دورها على هذا المستوى يتكامل مع نفس الأدوار التي كانت تضطلع بها مختلف الأسوار والأبراج والحصون التي كانت تحيط بالمجال الأوسع للمدينة السلطانية من كل الجهات، ولهذه الغاية كانت قصبات فرق الكيش عادة ما تكون مجاورة للقصر السلطاني، كما أن قبائل الكيش التي كانت تمثل تجمعا احتياطيا من الجنود والمخازنية في المعسكرات والمستوطنات التي كانت توجد خارج العواصم السلطانية في مناطق قريبة منها تشكل هي الأخرى حزاما بشريا وقائيا ثانيا يحميها من أي هجوم من الهجومات المحتملة التي كانت تشنها القبائل، كلما وجدت إلى ذلك سبيلا في زمن تراجع قبضة السلطة المركزية وانحباس نفوذها، بسبب ما كانت تعاني منه من جور وظلم الحكام ومن تعسفات القواد وشططهم في جمع فروض الجباية و فرض الكلف التسخيرية. وهذا الدور الذي كان بمثابة دور الشرطة الدركية هو الذي لعبه كيش شراكة في مدينة فاس إبان العصر السعدي¹³⁶ كما لعبه كيش الوداية بعد ذلك في كل من مدينتي فاس ومكناس في العهد العلوي الأول¹³⁷.

¹³⁶ - ديسا لدانيا، أخبار أحمد المنصور، م.س، ص.162

¹³⁷ -Morsy, La relation de Thomas Pellew, op.cit, p.38

4- تأمين الحدود وحمايتها من الاعتداءات الأجنبية

لعبت الكيش المخزني دورا مهما وحاسما في حماية الحدود المغربية على الواجهتين الشمالية والشرقية من الأطماع التركية والإسبانية التي ما فتأت تهدد التراب المغربي في أكثر من مناسبة لاسيما في العهد السعودي مقارنة مع العهد العلوي الذي خفت فيه هذه التهديدات بشكل واضح مع النجاحات التي حققها الجيش الريفي في تحرير مجموعة من الثغور المغربية المحتلة من طرف الإسبان في المنطقة الشمالية وإنشاء السلطان المولى إسماعيل لسلسلة من القلاع والقصبات التي امتدت على أهم الطرق والنقاط الاستراتيجية في المغرب الشرقي.

ولذلك فقد اضطلع كيش شراكة في الفترة السعدية بدور أساسي في حماية مدينة فاس ومحيطها من تدخلات القوات التركية التي سعت غير ما مرة إلى السيطرة عليها. ولدعم المنشآت العسكرية التي أنشأها المنصور السعدي بالجهة الشمالية لاسيما في العرائش وباديس والقصر الكبير وأصيلا التي بنى ورمم فيها عدة أبراج وحصون، فقد أنشأ على الواجهة الشرقية كذلك مجموعة من الحصون والقلاع بتازة ودبدو ووطن بها حاميات عسكرية لمراقبة التحركات التركية والتصدي لتدخلاتها. وقد عرفت هذه الخطة الأمنية والعسكرية أوجها في عهد المولى إسماعيل الذي أنشأ هو بدوره عدة قلاع وحصون في المغربي الشرقي وشحنها بحاميات من جيش العبيد وكيش الشبانات وزرارة لتتولى المهمة نفسها والتصدي للقبائل التي كانت متحالفة مع الأتراك وتتعاون معهم في الإخلال بالأمن والإعتداء على السكان في سهول وبسائط المغرب الشرقي. وعن المهمة التي كلفت بها قبيلتا زرارة والشبانات بعد نقلهم من من حوز مراكش إلى وجدة يقول الناصري: "فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان، وولى عليهم أبا البقاء العياشي بن الزويعر الزراري، وتقدم إليه في التضييق على بني يزناسن إذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة و متمسكين بدعوة الترك، فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد، وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى عليهم قلعة من ناحية الساحل قرينة وجدة بالموضع المعروف برقادة، وأمر القائد العياشي أن ينزل بها خمسمائة فارس من إخوانه يمنعونهم النزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حرث وغيره، ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى

بطرف بلادهم بالعيون، وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من إخوانه أيضا، وأمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك، وجعل للقائد المذكور النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الدفتر ألفين وخمسمائة¹³⁸.

5- تأمين الطرق التجارية

هذه المهمة كانت من بين أبرز المهام التي كلفت قبائل الكيش بتنفيذها ضمن المجالات التي كانت تراقبها وتقوم فيها بما يشبه "دوريات دركية" للحفاظ على الأمن في الطرق وتأمين حركة التنقل بالنسبة للتجار والمسافرين. وقد كان يجري تنفيذ هذه المهمة مع حاميات الجنود المنتشرين في كافة القلاع والقصبات التي كانت تغطي في خريطة تموضعها أهم المواقع والنقاط الاستراتيجية التي كانت تمر بها أو بمحاذاتها أهم الطرق التجارية التي كانت تربط المدن والمراكز التجارية الكبرى¹³⁹. ولذلك وبحكم وجود حاميات جنود الكيش في المدن التي كانت تمثل ملتقى لأهم المحاور التجارية التي كانت تربط شمال المغرب بجنوبه وشرقه بغربه، فقد اضطلعت بدور أساسي في تأمين الطرق والمسالك التجارية وحماية قوافل التجار والمسافرين ضمن أهم المجالات والمحاور التي كانت تقع تحت حراستها ومراقبتها من اعتداءات قطاع الطرق والعابثين بالأمن خصوصا في أوقات الاضطرابات والأزمات السياسية التي كانت تكثر فيها أعمال اللصوصية والحراية والسطو على الممتلكات العامة للناس.. فقبيلة شراكة مثلا وبحكم وجودها على الشريط الشمالي لنهر سبو، فقد عملت على حماية الواجهة الشمالية لفاس في زمن الفوضى والفتنة الاجتماعية، كما ساهمت، الوقت ذاته، في تأمين الطريق التجارية التي

¹³⁸ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.61-62؛ الزباني، البستان الطريف، ص.150؛ الورطاسي الحسني (قدور بن علي)، بنو

يزناسن عبر الكفاح الوطني، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396-1976، ص.71.

¹³⁹ - الأدريسي (الفقيه)، "القصبات الإسماعيلية واستراتيجية احتواء المجال"، مجلة كلية الآداب، بني ملال، العدد5، 2002،

كانت تربط بين فاس وطنجة والممرات والمنافذ النهرية التي تتفرع عنها أو تؤدي إليها¹⁴⁰، وهذه المهمة نفسها لعبها كَيْش الوداية أيضا بقصبة الخميس حيث كانوا: "يحرصون طريق سايس إلى المهدومة"¹⁴¹ ولم تكن الأدوار التي قامت بها قبائل الكَيْش في هذا المجال، على اختلاف فصائلها ومواقع تمركزها، سوى تكملة للأدوار التي لعبتها حاميات العبيد في العهد الإسماعيلي التي كانت تنتشر في أهم المناطق الحساسة والحيوية التي كانت تمر منها قوافل التجار وتسلكها عبر محطاتها ومراحلها أيضا المحلات السلطانية أثناء تنقلاتها بين أرجاء التراب الوطني¹⁴².

6- مراقبة وتطوير القبائل الأطلسية

فبحكم الضغوط التي باتت تمارسها قبائل آيت أومالو على السهول المجاورة للعاصمة مكناس خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين/17 و18م وما كان يرافقها من اعتداء وتطاول على الطرق والمسالك التجارية ونهب للسكان المستقرين في الأراضي الواطئة، لم يتردد المولى إسماعيل في تنظيم حملات عسكرية واسعة ومنتالية من أجل كسر شوكتها وتفكيك وحدة تكتلها ووضع حد للتهديدات التي كانت تمارسها على العاصمة مكناس، كما قام، في الوقت نفسه، بتشييد سلسلة من القلاع والقصبات على طول جبهات الأطلس المتوسط والكبير امتدت من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بهدف تطوير تحركات قبائل اتحادية أومالو ومنعها من النزوح نحو السهول وخلخلة خريطة التوازنات القبلية وما قد يترتب عنها من هجرات اضطرارية وتأثير على حركة المواصلات والمبادلات التجارية وتقلص في عائدات الجباية ومواردها.

¹⁴⁰ -Boufatma, *Contribution à l'étude du changement socio-économique* ; op.cit, p.52-53.

¹⁴¹ - الزباني، الترجمان المغرب، م.س، ج2، ص.477.

¹⁴² - الإدريسي، "القصبات الإسماعيلية"، م.س، ص110-

وهكذا وبمساعدة القبائل البربرية التي صارت حليفة للدولة كآيت إدراسن وآيت إيمور بقيادة علي وبركة وزمور وبني حكم بقيادة علي ويشي، نظم المولى إسماعيل حملة عسكرية سنة 1792م تعد من أكبر وأقوى الحملات العسكرية التي استهدفت الأطلس المتوسط في عهده بهدف الإجهاز كلية على اتحادية آيت آمالو وآيت السري على وجه الخصوص. وقد تمكن بعد إلحاق هزيمة قاسية بتحالف آيت أومالو وتمزيق قبائله شر ممزق كمل، له كما قال الزياني، "فتح المغرب، ولم يبق به من ينبض له عرق، أو ينطق ببنت شفة. وكتب من آيت إيمور ألف فارس وأنزلهم مع علي وبركة بقلعة "تنتغالين"، وأنزل حلتهم على رأس آيت آمالو، ولم يترك الخيل والسلاح إلا عند آيت إيمور، والعبيد، والوداية وأهل الريف"¹⁴³.

وبعد هذه الحركة العسكرية صارت قبيلة آيت إيمور أول قبيلة بربرية تندمج في الكيش المخزني، حيث منحها المولى إسماعيل الأراضي التي تقع بنواحي أغبالا بالقرب من منابع ملوية العليا للاستفادة منها في الأنشطة الفلاحية مقابل "القيام بوظيفة مراقبة القبائل البربرية وخاصة آيت مالو وآيت أفالمان، ومنعهما من النزول من جبالهما"¹⁴⁴. غير أن وظيفة الحارس الدركي هاته التي أسندت إلى قبيلة آيت إيمور لم تستمر فيها طويلا إذ سرعان ما ثارت عليها مجددا قبائل آيت أومالو بعد وفاة المولى إسماعيل، فاضطرت إلى ترك وظيف الجندية وصارت هي الأخرى تعيث فسادا في أراضي تادلا وتعتدي على قبائلها¹⁴⁵.

7- الجهاد وتحرير الثغور المحتلة

ارتبطت وظيفة الجهاد في الثغور الشمالية للمغرب بالجيش الريفي الذي أسسه المولى إسماعيل سنة 1084هـ/1673م، و كان القائد أحمد بن حدو الحمامي وأخوه عمر هما اللذان

¹⁴³ - الزياني، البستان الظريف، م.س، ص.179.

¹⁴⁴ - المهناوي، التنظيم العسكري، م.س، ص.93.

¹⁴⁵ - الزياني، الترجمان المغرب، م.س، ص.230.

تولا، في بداية الأمر، تشكيل نواة الجيش الريفي، ومن مدينة تطوان، التي جعلها السلطان مولاي إسماعيل قاعدة ومنطلقا للعمليات الجهادية، عملا على تعبئة المجاهدين من عناصر ريفية تنتمي إلى قبائل بني توزين وبقوية وقلعية وبني ورياغل.

وبفضل القوات الأولى التي تمت تعبئتها من جيش المجاهدين الريفيين شرع القائد أحمد بن حدو في محاصرة ثغر سبتة وشن بعض العمليات الجهادية على حاميته المتحصنة داخل قلعة المدينة، كما قام، في الوقت نفسه، أخوه عمر بن حدو بتشديد الحصار على مدينة طنجة ابتداء من سنة 1089هـ/1678م ونجح بعد سنة ونيف من الحملات العسكرية من الاستيلاء على أكبر التحصينات التي كانت تقع بالميدان الخارجي¹⁴⁶.

وكان أول عملية تحرير أثبت فيها القائد عمر بن حدو قدرة وكفاءة عالية في التخطيط والمناورة وشل دفاعات العدو هي تلك التي توجت بتحرير ثغر المعمورة سنة 1681م ثم تبعتها بعد وفاته، عمليات تحرير باقي الثغور المغربية المحتلة الأخرى، حيث تم في سنة 1095هـ/1784م تحرير مدينة طنجة من يد الأنجليز على يد القائد علي بن عبد الله الحمامي بعد سنوات من الحصار وتدمير للأبراج والتحصينات والاشتباكات المتواصلة مع جنود الحامية العسكرية المرابطة داخل القلعة المحصنة بالأبراج والأسوار المنيعة رغم فترات السلم التي كانت تتخللها أحيانا¹⁴⁷، ثم تلا ذلك تحرير مدينة العرائش سنة 1100هـ/1689م التي شاركت فيها إلى جانب مجاهدي الجيش الريفي قوات من جيش العبيد ومن المتطوعة الذين أتوا من تطوان وطنجة وأصيلا، وبفتحها يقول ابن العياشي: "حصل للمسلمين... سرور ونظرة للكفار ندامة وحسرة ودخل الرعب الكفار برا وبحرا، بدخول المسلمين لها عنوة وقهرا"¹⁴⁸. وبعد هذا الإنجاز، وعلى

¹⁴⁶ - الفكيكي (حسن)، "التمسماني، عمر بن حدو"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1435-1995، ج8، ص. 2548-2549.

¹⁴⁷ - الزياتي، البستان الطريف، م.س، ص166؛ الناصري، الاستقصا، م.س، ج7، ص.67.

¹⁴⁸ - بن العياشي، زهر البستان، م.س، ص.133.

إثر حصار دام قرابة عام من تحرير العرائش استعاد المجاهدون ثغر أصيلا سنة 1101هـ/1690م، ثم في شهر رمضان من سنة 1113هـ/1702م استطاعوا افتتاح برج بادس بعد أن قطعوا الإمدادات عن الباستيون الذي كان اختطه الإسبان في محجر بادس¹⁴⁹.

وبعد إتمام تحرير كل هذه الثغور المحتلة التي أبلى فيها مجاهدو الجيش الريفى البلاء الحسن بدعم من كتائب جيش العبيد والقوات المتطوعة من القبائل الشمالية وحصلوا على إثرها من عديد الأسرى ووافر الأسلحة والغنائم ما أعزهم ورفع من شأنهم وقدرهم، اتجهوا إلى حصار ثغر سبتة وبذلوا في سبيل تحريره عدة محاولات لاستنقاذه دامت عدة سنوات إلا أن مناعة التحصينات والامدادات التي كانت تصله بحرا باستمرار ، فضلا عن تراجع عدد المجاهدين المرابطين على حدودها بسبب طول مدة الحصار ودخول الباشا أحمد بن عبد الله الريفى في الصراعات التي جرت وقائعها بعد وفاة المولى إسماعيل بين أبنائه، كلها عوامل حالت دون مواصلة الجهود التي بذلت من قبل لتحريره من براثن الاحتلال الإسباني.

¹⁴⁹ - يقول بن العياشي متحدثا عن الخطة التي اعتمدها القائد علي بن عبد الله في فتح هذا البرج قائلا: "...فأحاطت بهم الجيوش المظفرة من كل جانب، وانقطع عنه كل ما يأتيه من من بلاد النصارى الذين بالحجرة التي بوسط البحر، فضاقت بأهله الخناق، واشتد لأجل ذلك عليهم الوثاق، ودب إليه المسلمون ليلا، ودخلوا تحت رماية النصرى، وتمكنوا من نصب السلايم على سوره وهجموا على النصرى فيه مات من المسلمين من سبقت لهم الشهادة وانفض الباقون على النصرى في متمنعهم ، وشرعوا فيهم بالسيوف فتمكنوا منهم والقوا السلاح ونادى الفتح حي على الفلاح فسيباهم المسلمون وغنموهم..."، **زهر البستان**، م.س، ص.135.

الفصل السادس:
علاقة قبائل الكيش بالمخزن
الشريف

يجد الدارس لتجربة قبائل الكيش في علاقتها مع دولة الأشراف بصفة عامة ودولة السعديين على وجه الخصوص، عدة صعوبات معرفية ومنهجية في رصد تطور هذه التجربة وتتبع مساراتها في ارتباطها مع التطور التاريخي الذي مرت به الدولة السعدية ، ويمكن إجمال هذه الصعوبات في المستويات التالية:

أولاً: صعوبة تحديد اللحظة التاريخية التي ظهرت فيها بالضبط "مؤسسة الكيش" إن جاز وصفها بهذا التوصيف، ومعرفة القبائل التي اصطفت إلى جانب المخزن السعدي وتحالفت معه، منذ البداية، بوصفها قبائل مخزنية محسوبة تنظيمياً على هذه المؤسسة العسكرية وساهمت إلى جانبه في مجمل الاستحقاقات السياسية والعسكرية التي أقدم عليها في سبيل توحيد البلاد وبناء أجهزة الدولة.

ثانياً: صعوبة تتبع حضور هذه القبائل ومساهماتها في تطور الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها الدولة السعدية منذ انطلاقها في سوس إلى غاية نهاية القرن العاشر الهجري/ 16م . فكل الأخبار التي وردت بشأنها في معظم الحوليات الإخبارية السعدية، يقتصر ذكرها فيها، على عبارات مثل: "أهل سوس" أو "قبائل الحوز" أو "عرب الدولة" أو غيرها من العبارات العامة والغامضة التي لا تسعف، بأي حال، في معرفة هوية هذه القبائل وانتماءاتها الإثنية وحجم القوات التي ساهمت بها لدعم مجهودات الإمارة السعدية الناشئة في الحروب والمواجهات التي خاضتها ضد القوات البرتغالية في المراكز المحتلة آنذاك أو ضد الوطاسيين في المعارك التي اشتبكت معهم فيها، سواء على مشارف مراكش أو في تادلا أو على أبواب فاس، خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ 16م.

ثالثاً: صعوبة تقدير حجم وأعداد المقاتلين من قبائل الكيش الذين شاركوا إلى جانب وحدات الجيش السعدي الأخرى من المرتزقة والأجانب سواء في معارك التحرير الجهادية ضد القوات البرتغالية وحلفائها من القبائل العربية في سوس وحاحا وعبدة، أو في المعارك التي

اصطدموا فيها مع القوات الوطاسية قبل الانتصار عليهم في معركة درنة الحاسمة التي فتحت لهم الطريق للسيطرة على عاصمة ملكهم بفاس.

رابعاً: صعوبة التعرف على خريطة توزيع قبائل الكيش ومراحل انتشارها في المدن والمناطق التي صارت خاضعة للدولة السعدية بعد استكمال سيطرتها على معظم أجزاء التراب المغربي والقضاء على مختلف القوى السياسية الجهوية والزعامات المحلية المستقلة، فضلاً عن الأراضي التي منحت إليها كإقطاع لاستغلالها في ميدان الفلاحة نظير الخدمات العسكرية التي صارت تقدمها للدولة في مجالات متعددة تتعلق بإقرار الأمن والمحافظة على الاستقرار وتحصيل مستحقات الجباية والدفاع عن السيادة الوطنية.

ومهما يكن من أمر، فإننا سنحاول في هذا المحور، قدر الإمكان، أن نتوقف عند بعض المحطات التاريخية التي مر منها التطور السياسي للدولة السعدية لنستجلي من خلال ذلك حجم وحدود مساهمة قبائل الكيش في ذلك التطور ودورها في مجمل الأحداث التي جرت آنذاك على واجهات متعددة.

I. قبائل الكيش وعلاقتها بالمخزن السعدي

1- دور قبائل الكيش في حركة الجهاد والصراع السعدي - الوطاسي

بعد أن توافق أهل الحل والعقد في منطقة سوس الذين كانوا في أغليبتهم من أقطاب حركة التصوف الجزولي علىبيعة الشريف محمد بن عبد الرحمن السعدي بعد أن رفضوا في البداية دعوة السكان إليهم من أجل قيادتهم في حركة الجهاد ضد النصارى المحتلين وتولي تدبير شؤونهم في ظل انحسار سلطة الوطاسيين عن إقليم سوس، كان أول شرط اشترطه الأمير السعدي بعد تلقيه هذه البيعة مباشرة هو أن تقدم كل قبيلة من القبائل السوسية عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بالأسلحة والعتاد الحربي حتى يتمكن من القيام بفريضة الجهاد وإنجاز المهام التي طوقته بها قبائل سوس بقيادة شيوخ التيار الجزولي الذين كانوا هم أصحاب

السلطة الدينية والاجتماعية الأولى بدون منازع في أوساط المجتمع السوسي¹، وتبعاً لهذا الطلب، اجتمع للشريف السعدي كتيبة عسكرية مكونة من 500 رجل بسلاحهم وخيلهم كانت بمثابة النواة الأولى للجيش السعدي الناشئ².

وإذا كانت المصادر التاريخية لم تشر إلى القبائل التي دعمت الشريف السعدي بهذه العناصر المحاربة، فالمرجح، أنها كانت من قبائل جزولة التي تبنت منذ البداية المشروع الجهادي للسعديين نظراً لما لحقها من أضرار ومعاناة شتى من جراء سيطرة القبائل المعقلية على الأراضي التي كانت تمتلكها في بسائط سوس واضطرت إلى مغادرتها تحت الضغوط والإتاوات التي فرضتها عليها هذه القبائل البدوية عنوة وغلبة³، ومن جهة أخرى، بسبب تحويل الغزاة البرتغاليين لتجارة القوافل مع إفريقيا جنوب الصحراء من مسالكها التقليدية الصحراوية عبر سوس ودرعة إلى واجهة السواحل الأطلسية⁴.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن البرتغاليين وبعد أن احتلوا حصن فونتي (أكادير) ووضعو فيه حامية عسكرية مؤلفة من 700 جندي و1000 من العناصر المحلية المتحالفة معهم سنة 1513⁵، تضاعفت شوكتهم وتزايد نشاطهم التجاري مع السكان المحليين خاصة بعد أن تحالفت معهم قبيلة كسيمة وغيرها من القبائل العربية وصار لهم عدد كبير من المتعاونين

¹ - الإفراي، نزهة الحادي، س، ص. 41-44.

² - مارمول، إفريقيا، م، س، ج 1، ص 453.

³ - القبلي، المجتمع والحكم والدين، م، س، ص. 307.

⁴ - قدوري (عبد المجيد)، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثمان عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء، ص. 93.

⁵ - Meunié, *le Maroc saharien*, op.cit, T.I, pp.342-344.

والحلفاء من شيوخ وزعماء القبائل السوسية: كسيدي مالك بن داوود وسيدي بوعكاز وسيدي بوجمعة⁶ ومزواربي وادي درعة الذين أمدهم البرتغاليون بالأسلحة النارية لمواجهة السعديين⁷.

وبسبب ضعف السلطة الوطاسية وعجزها عن مقاومة التوسع البرتغالي في شمال وجنوب المغرب، فقد استغل البرتغاليون تحالف القبائل العربية وزعمائها معهم وعلى رأسهم يحيى أوتعفت لمهاجمة مناطق حاحا والشياطمة وأجبروا سكانها على أداء الضرائب لهم قهرا، كما شنوا عدة هجمات على الحوز بلغ بعضها حتى أسوار مدينة مراكش بهدف إخضاع أميرها مولاي إدريس الهنتاتي الذي رفض الاستسلام للحاكم البرتغالي بأسفي⁸. وحتى يثبت مدى ولائه للعرش البرتغالي قرر يحيى أوتعفت سنة 1521م تنظيم حملة عسكرية كبرى للاستيلاء على مراكش وإعلان تبعيتها للملك البرتغالي إمانويل، غير أن اغتياله من قبل أشياخ قبيلة أولاد عمران وهو طريقه لتنفيذ هذه الحملة، قد قضى على حلمه وأصيب النفوذ البرتغالي، نتيجة لذلك، بضربة موجعة أثرت بشكل كبير على مستقبل وجوده في المغرب لاحقا.

وفي ظل هذه الظروف، وبسبب الأضرار التي كان المسيحيون والمغاربة المتحالفون معهم يلحقونها بنواحي سوس ولاسيما أهل مدينة أكير⁹، فقد تمكن الشرفاء السعديون، بعد أن انضمت إليهم "طوائف من البربر والأعراب الذين كانوا منتشرين هنا وهناك بدون رئيس"¹⁰ من استعادة مدينة تدنسييت والمضي قدما في شن الغارات على القبائل المتحالفة مع البرتغال¹¹. وفي سبيل تشديد الحصار على حصن سانتاكروز، منعوا أي تعامل تجاري مع المراكز المحتلة وعملوا،

⁶ - Bellakhdar et autres, *Tissint*, op.cit, p.100-101.

⁷ - البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م.س، ص.81؛

⁸ - كور، دولة بني وطاس، ص.88-89.

⁹ - طوريس، تاريخ الشرفاء، ص.30.

¹⁰ - نفسه، ص.31.

¹¹ - مارمول، إفريقيقا، م.س، ج1، ص.452.

في المقابل، على تطوير علاقاتهم التجارية مع التجار الأجانب من أجل الحصول على الأسلحة والذخائر الحربية، وفي نفس الوقت، كسر الاحتكار التجاري الذي كان يفرضه البرتغاليون في منطقة سوس. ولإنجاح هذه الخطة احتل أحمد الأعرج مركز تافتنا الذي كان يمثل همزة وصل تجارية مع حصن سانتاكروز.

وقد تكلفت هذه الخطوات التي قام بها أحمد الأعرج بالسيطرة سنة 1516 على مدينة تارودانت التي كانت تمثل أهم مركز تجاري في وادي سوس وأيضاً على مدينة ماسة الساحلية التي قلب سكانها ظهر المجن لحلفائهم البرتغاليين وصاروا يتعاونون مع الشريف السعدي في حملاته ضد زعماء القبائل الحليفة للعدو وعلى رأسهم مالك بن داود¹²، كما احتل في إطار سياسة تشديد الخناق على حصن سانتاكروز على مركز تاركوكو واتخذ من قصبة أزرو القريبة من هذا الحصن مقراً لتجمع قواته المحاربة¹³.

وبسبب هذه الإنجازات والانتصارات التي حققها أحمد الأعرج بتعاون مع أخيه محمد الشيخ ضد البرتغاليين وحلفائهم من "مغاربة الاستسلام"¹⁴، توترت العلاقات بينهم وبين الوطاسيين الذين لم يعودوا يرون في هذه التحركات السعدية سوى خطوة للانتقال إلى ما وراء الأطلس الكبير للسيطرة على الحوز والشياطمة وعبدة. أما بالنسبة للبرتغاليين وإدراكاً منهم لخطورة هذا التوسع السعدي على مستقبل مصالحهم ومشاريعهم الاستعمارية في المغرب، فقد نجحوا بعد دخولهم في مفاوضات مع السعديين وخصومهم الوطاسيين في عقد هدنة سلم معهم سنة 1523م، استغلها أحمد الأعرج لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الإسبانية بحصن

¹² - كريم (عبد الكريم)، المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر

الحضارية، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، ، الطبعة الثانية، 1398هـ - 1978م، ص.47.

¹³ - نفسه

¹⁴ - حول هذه الشريحة من المغاربة التي فضلت التعاون مع المحتل البرتغالي والانخراط في أعماله العدائية ضد إخوانهم في

الملة والوطن، راجع، قدوري، المغرب وأوروبا، م.س، ص.100-114.

سانتاكروز عند وادي نون سنة 1524م، وفي نفس الوقت، لتنظيم حملة عسكرية ضد الإمارة الهنتاتية بمراكش انتهت باستيلائه على المدينة واتخاذها عاصمة للإمارة السعدية الناشئة في الجنوب.

وقد شكل دخول السعديين إلى مراكش في هذه الفترة التاريخية، منعطفًا حاسمًا في تاريخ مستقبلهم السياسي لأن ما ترتب عن هذه الخطوة من نتائج ميدانية لاحقًا، قد أفضى إلى توسعهم شمالًا وتضييق الخناق على الوطاسيين والإجهاز بعد ذلك على إمارتهم المتداعية بفاس.

وكان من بين الإجراءات التي اتخذها السعديون من أجل توطيد نفوذ إدارتهم في مراكش "تجهيز محاربين يكونون دائمًا على أتم استعداد ورتبوا لهم أجرة حسنة ليبقى جانبهم مرهوبًا"¹⁵. وحتى وإن لم تحدد المصادر بشكل واضح العناصر التي تكون منها هؤلاء المحاربين، فالمرجح أنهم كانوا من قبائل جزولة التي ساندت الحركة السعدية منذ انطلاقها الأولى، وعرب معقل الذين انضموا إليها بعد أن أصبحت كفة الصراع مع البرتغاليين في سوس تميل لصالح الشرفاء السعديين.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار، إلى أن السعديين قد حرصوا خلال هذه المرحلة على العمل على واجهتين إثنين: واجهة ترتيب شؤون إدارة إقليم سوس وعاصمته تارودانت التي استقر بها محمد الشيخ ونظم فيها جيشًا من عناصر بربرية وعربية¹⁶، ثم مواصلة "شن الغارات على حدود رأس أكير وآسفي، والمغاربة المتحالفين مع ملك البرتغال، الذين جرت معهم عدة معارك بشأن جباية الخراج، عاملين باستمرار على تفرقة صفوفهم وفصلهم عن التبعية البرتغالية"¹⁷، ثم واجهة توسيع نفوذهم في منطقة دكالة واستيفاء الخراج والأعشار من القبائل والمراكز القريبة

¹⁵ - طوريس، تاريخ الشرفاء، م.س، ص.62.

¹⁶ - مارمول، إفريقية، م.س، ص.457.

¹⁷ - طوريس، تاريخ الشرفاء، م.س، ص.62.

من مراکش التي أعلنت تبعيتها لسلطتهم الجديدة، وقد استفادوا مما حصلوا عليه من غنائم وموارد جبائية، لمضاعفة عدد حنودهم وتزويدهم بالأسلحة والخيول التي كانوا يفتقرون إليها¹⁸.

وفي هذه الأثناء وبعد أن تضاعفت قوات أحمد الأعرج وأخوه محمد الشيخ وصارت تزداد بوتيرة مضطردة واتخذوا لنفسيهما لقب ملك، استشعر الملك أحمد الوطاسي الخطر فنظم حملة عسكرية على مراکش انتهت بالفشل بعد أن ثار عليه ابن عمه مسعود بن الناصر بمكناس. وستتجدد مرة أخرى المواجهة بين السعديين والوطاسيين في معركة بوعقبة على مشارف وادي العبيد سنة 1536م وسيتلقون فيها هزيمة قاسية بسبب تخلي قبائل الخلط عن الملك الوطاسي وانضمامها للسعديين. وعلى إثر هذه المعركة تم تقسيم مناطق النفوذ بين الطرفين حيث أصبح الشمال للوطاسيين والجنوب للسعديين واتخذ وادي أم الربيع كحد فاصل بين مملكتيهما.

ونظرا للتقارب الذي حصل بين الملك الوطاسي والأتراك والفرنسيين بهدف كسب دعمهم في المواجهة مع السعديين، فقد اضطر البرتغاليون، نتيجة للظروف الجديدة الصعبة التي باتت تعرفها مستعمراتهم في أمريكا والهند والتي لم تعد تسمح لهم بالقيام بأي عمل عدائي داخل المغرب قد يعطي المبرر لتسرب الأتراك في الأراضي المغربية، إلى الدخول في مفاوضات مع السعديين والوطاسيين انتهت بتوقيع اتفاقية هدنة مع السعديين لمدة ثلاث سنوات انطلاقا من سنة 1537م، وأخرى مع الوطاسيين امتدت لمدة إحدى عشر عاما¹⁹.

وقد استغل السعديون هذه الهدنة الموقعة مع البرتغاليين لتعزيز نفوذهم وتقوية جيشهم الفتى بالأسلحة والمعدات الحربية اللازمة، وقد تمكنوا سنة 1541م من هزيمة القوات البرتغالية

¹⁸ - مارمول، إفريقيا، م.س، ص.456.

¹⁹ - كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، م.س، ص.62.

في حصن سانتاكروز العتيد وهي الهزيمة التي اضطرت الملك البرتغالي جان الثالث إلى اتخاذ قرار إخلاء قاعدتي آسفي وأزمور من الحاميات التي كانت تتمركز بهما²⁰.

وقد شكل الانتصار على البرتغاليين في أكادير منعطفًا حاسمًا ليس فقط "في تاريخ النفوذ البرتغالي بالمغرب"²¹ ولكن في تاريخ الإمارة السعدية على نحو أخص وذلك بسبب الأصدقاء الإيجابية والواسعة التي خلفها هذا الانتصار داخل المغرب وخارجه، والأسرى والغنائم الكثيرة التي وقعت بين أيدي محمد الشيخ، فضلا عن العديد من القبائل والمدن في جهات مختلفة من المغرب التي أعلنت مبايعتها للأميرين السعديين والدخول تحت طاعة إمارتهم الصاعدة²².

غير أن الأهم من كل هذه النتائج السياسية والاقتصادية بالنسبة للموضوع بحثنا، هو انضمام القبائل العربية التي كانت تتعاون مع البرتغاليين إلى السعديين وصارت عناصرها تشكل ابتداء من هذا التاريخ، فيما يرجح، أهم الفرق العسكرية في الجيش السعدي، وهي الفرق التي سيطلق عليها إلى جانب العناصر الجزولية إسم كيش أهل سوس²³.

²⁰ - حول كيفية استيلاء الجيش السعدي تحت قيادة محمد الشيخ على هذا الحصن المنيع والتدابير والأساليب التي استعملت في اقتحامه، راجع: مجهول برتغالي، تاريخ سانتاكروز، ترجمة: أحمد صابر، منشورات كلية الآداب، أكادير، المطبعة الوطنية مراكش، الطبعة الثانية 2007، ص. 32-85.

²¹ - كور، دولة بني وطاس، م.س، ص. 104.

²² - مارمول، إفريقية، م.س، ص. 460.

²³ - يتحدث مارمول عن هذا النصر غير المسبوق والنتائج التي أفضى إليها على عدة مستويات قائلا: "حقق الشرفاء نصرا مبينا بقضائهم على البرتغاليين في أكادير، ورفعهم هذا النصر إلى المقام المرموق الذي وصلوا إليه اليوم. أما أخبار الحرب والمغانم الكثيرة التي وقعت بين أيديهم، والأسرى الذين عادوا بهم من أكادير، والأصدقاء التي خلفتها الواقعة في الداخل والخارج، كل ذلك تظافر لحمل البرابرة وأهل المدن والأمصار، على الإعراب لهم عن الولاء والوفاء، زد على هذا أن القبائل العربية التي كانت تتعاون مع البرتغاليين أعرضت عنهم وأصبحت تأتمر بأوامر الشرفاء، فعظمت شوكة هؤلاء، إلى درجة رأى معها ملك البرتغال أن مستعمراته بالمغرب أصبحت تكلفه كثيرا، فقرر الجلاء عن بعضها، وأخص بالذكر أصيلا والقصر

وإذا كان هذا الانتصار قد مثل نكسة كبرى للمشروع الاستعماري البرتغالي بالمغرب، فإنه قد شكل، في المقابل، سببا في الصراع الذي انفجر بين الأخوين السعديين لأسباب متعددة اختلفت المصادر التاريخية والدراسات الحديثة²⁴ في تحديد دواعيها وخلفياتها وإن كانت تتفق في معظمها على أن التنافس من أجل احتكار السلطة والتفرد بثمراتها كان هو السبب غير المعلن في ذلك الصراع الذي تطور، كما هو معلوم، إلى مواجهة مسلحة بين الأميرين السعديين.

وهكذا وبعد أن تمكن محمد الشيخ من الانتصار على أخيه أحمد الأعرج، رغم محاولات الصلح التي أجريت بهدف ردم الهوة بين الأخوين وتسوية الخلاف بينهما سلميا، دخل محمد الشيخ إلى مدينة مراكش واستولى على كنوز وثروات أخيه ومخازن الأسلحة التي كانت بالقصبة، كما ضم الجنود الذين كانوا يحاربون إلى جانبه "فأحسن إليهم ووزع عليهم النقود والهبات وأدمجهم في قواته"²⁵ وبذلك ستلتحق بجيش محمد الشيخ عناصر الجند التي كان قد استقدمها أحمد الأعرج معه من سوس بعد سيطرته على مراكش سنة 1524 وقضائه على الإمارة الهنتاتية وهي عناصر كانت تتألف في أغليبتها من عرب معقل، وهذه العناصر هي التي سيرد ذكرها في الحوليات السعدية تحت إسم عرب مراكش²⁶.

ومنذ هذه اللحظة التاريخية، فيما يبدو، صار لقبائل الكيش من عرب معقل في الجيش السعدي دور مهم وأساسي في كل العمليات الحربية التي سيقدم عليها الأمير محمد الشيخ في صراعه مع الوطاسيين أو تلك التي سيقوم بها خلفاؤه من بعده من أجل إقرار الوحدة الوطنية

الصغير وأزمور وآسفي، مع تهديم بعض تحصيناتها. أما الجيوش التي كانت ترابط بها، فإنها التحقت بالمواقع الباقية." إفريقيا، م.س، ج1، ص.460.

²⁴ - استيتو (عبد الله)، الدولة السعدية. جوانب من تاريخ المغرب الحديث، الطباعة BJ PRINTK أكادير، الطبعة الثانية، 2019، ص.109-111.

²⁵ - مارمول، إفريقيا، م.س، ج1، ص.466.

²⁶ - الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص.110.

والقضاء على كل مظاهر التمرد والانتفاض التي سيتزعمها إما أمراء من البيت الحاكم أو ثوار لهم خلفيات اجتماعية وفكرية مختلفة.

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا المضمار، هو أن الجيش السعودي سيعرف تطوراً ملحوظاً في عهد محمد الشيخ عدة وعدداً بفضل تعدد الفيالق العسكرية التي صار يتكون منها في هذه الفترة والتي أصبحت تضم عناصر من الأتراك والعلوج إضافة إلى قوات من الكيش القبلي²⁷ التي ستعزز وحداتها بفرق من قبائل الخلط التي فرت من جيش الملك الوطاسي والتحقت بجيش محمد الشيخ السعودي في اللقاء الذي جمعهما في معركة درنة سنة 1545م.

وفي إطار سعيه إلى السيطرة على مدينة فاس، فقد استغل محمد الشيخ عدم التزام أحمد الوطاسي بشروط الاتفاق الذي أبرم بينهما إثر الهزيمة التي مني بها الجيش الوطاسي في معركة درنة، والخلافات التي باتت تعصف بالبيت الوطاسي، ليقود حملة عسكرية على مدينة فاس "فشكلاً جيشاً قوياً يتألف من جميع فرسان سوس ومراكش، ومدعماً بأربعة وعشرين مدفعاً، وعدد من الجمال تحمل الذخائر والمؤن، ونصب على رأس الجيش ابنه محمد الحران وعبد القادر وأمرهما بالزحف نحو فاس"²⁸ كما استفاد أيضاً في حملته هاته من مساندة قائدي تطوان وشفشاون ومن إعلان ولاية القصر الكبير والعرائش والغرب مبايعتهم له. وقد ساعدت هذه الظروف مجتمعة في دخول محمد الشيخ إلى فاس سنة 1549 م والإجهاز على الإمارة الوطاسية وتخريب ملكها إلى مراكش ونفي إبنه أحمد القصري وأبا النصر إلى تارودانت.

²⁷ - يشير طوريس متحدثاً عن جيوش محمد الشيخ وهي تستعد لمواجهة الجيش الوطاسي على وادي درنة سنة 1545م قائلاً: "ولما أطلع الشريف على ما يجري بفشتالة، وعلم بمجيئ المريني، حشد قواد سوس ومراكش، وأزيد من ثلاثين ألف فارس وثلاثمائة من رماة البنادق الأتراك، مع ما ينيف عن ألف من رماة البنادق الإسلاميين وثمانين عشرة قطعة من المدفعية وكل ما يلزم من الأسلحة" تاريخ الشرفاء، م.سن ص.97.

²⁸ - مارمول، إفريقي، م.س، ج1، ص.475.

لكن عودة أبا حسون الوطاسي بمساعدة قوات تركية إلى المغرب مكنته من استرجاع العرش الوطاسي بفاس سنة 1545، غير أن محمد الشيخ وبعد عودة القوات التركية أدراجها إلى الجزائر عاد ودخل إلى فاس ثانية ليتأق له بذلك حكم المغرب بأكمله تحت سلطته السياسية الجديدة .

2- دور قبائل الكيش في تأطير المجال والمحافظة على الأمن الاجتماعي

تنذر في المصادر التاريخية التي راعت أخبار المغرب خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/16م المعلومات التي تسمح برصد الدور الذي لعبته قبائل الكيش خلال هذه المرحلة في تأمين المجال المغربي والحفاظ على مظاهر الاستقرار الاجتماعي. غير أن هذا لا يمنع من القول بأن هذه القبائل التي كانت تستقر إما في قصبات عسكرية داخل فاس ومراكش وإما كانت تنشر بالضواحي المجاورة لها كانت تشارك في كل العمليات العسكرية التي كانت تستهدف القضاء على الثورات الاجتماعية التي كانت تندلع بين الحين والآخر في عدة مناطق من البلاد بسبب الضغط الجبائي للقواد وتعسفاتهم أو تلك التي كان يقودها أمراء من البيت الحاكم من أجل أهداف سياسية تتعلق بالسيطرة على الحكم.

وإلى جانب الحركات المتعددة التي شاركت فيها هذه القبائل سواء في عهد عبد الله الغالب أو في عهد السلطان أحمد المنصور بهدف قمع الانتفاضات والتمردات القبلية وإجبار سكان المناطق التي كانت تندلع فيها على العودة إلى سلك الطاعة وأداء واجبات الجباية، فقد كان لهذه القبائل أيضا مشاركة ملحوظة في الحملات التي كانت تستهدف الدفاع عن السيادة الوطنية والتصدي للأطماع الأجنبية كما حصل في حملة محمد الشيخ على مدينة تلمسان أو كما حدث في الحملة المشهورة التي قادها أحمد المنصور ضد بلاد السودان. غير أن ما ينبغي لفت الانتباه إليه في هذا الإطار هو أن حضور عناصر هذه القبائل الكيشية في مثل هذه العمليات العسكرية كان أقل وزنا، كما وكيفا، كما أن قيادتها غالبا ما كانت تسلم للعناصر العلجية وذلك

نظرا للمواقف المتقلبة لهذه القبائل وميلها في كثير من الأحيان إلى مساندة الثوار والمعارضين للحكم.

ويقدم مثال قبيلة الخلط التي انقلبت على محمد الشيخ في المواجهة العسكرية التي جرت مع أبي حسون الوطاسي ومثال قبيلة شراكة التي انضمت إلى ثورة الناصر بن الغالب بالله في عهد أحمد المنصور السعدي الدليل الواضح على هذه المواقف المتقلبة وغير المستقرة والتي كانت تدفع السلاطين إلى وضع الثقة في غيرها من العناصر الأجنبية من الأندلسيين والعلوج على نحو خاص.

ففيما يتعلق بخذلان قبيلة الخلط لمحمد الشيخ السعدي نترك الكلمة للفشتالي ليقربنا من طبيعة هذه القبيلة وسلوكها الاجتماعي في لحظات الحرب والمواجهة: "هؤلاء العرب من الخلط ومختار وسفيان وكلهم من جشم على ماذكر نسابة المؤرخين كانوا شيعا لبني مرين سائر أيامهم ومتميزين بشعار الجندية في دولتهم حتى إذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة النبوية...وجرى بينهما وبين مرين أمراء فاس من الحروب والوقائع ما أجلت فيه العاقبة عن اجتثاث أصل الدولة المرينية واستيصال شأفتها كان هؤلاء العرب ممن أبلى البلاء الحسن في الدفاع مع بني مرين وشمر للحمامات دونهم حتى ظهر عليهم امر الله وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا طعمة لسيوف الدولة الكريمة العلوية وأسرى مقرنينفي الأصفاد من قهرها وغلبها فاصطنعتهم الدولة واستنبعثهم الإمام أبو الخلفاء رضي الله عنه في مراكزهم من الخدمة واقربهم في أوطانهم وأمضى لهم ما كان بأيديهم من الإقطاعات ولم يغير عليه شئ مما أترفهم به أمراؤهم بنو مرين حتى إذا كان زحف صالح ريس من الجزائر بجنود الأتراك مع الأعور بوحسون المريني مستنفرهم على حين ما كان الإمام رضي الله عنه منفردا عن جنوده أنصار الدولة بما كان أطلقهم منذ فتح مدينة فاس لمواطنهم بالسوس ومراكش...واكتفى بجنود بني مرين الذين اصطنعهم بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الأعراب ممن عليه المدار منهم فزحف بهم من فاس تلقاء العدو معولا عليهم في الدفاع ومعتقدا بغنائهم عملا

على ما خولهم من نعمته واحتقاراً لشان الأعور بوحسون مستنفر الأتراك لخمول مكانه في قومه وعدم أهليته التي يوم وانه ليس لها بكفاء عند الناس... فلم يبعث أحداً لذلك عن احد من جنوده ولا شهد معه الحرب من أنصار دولته إلا ستمائة فارس التي خف بها ولد ابن جمادى انفذه بها أبوه ليحضر بهام علا أمير المؤمنين الإمام رضي الله عنه... وعندما التقى الجمعان بكية المخالي من ساحة فاس ودارت رحى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للإمام رضي الله عنه فزحزح الأتراك عن مرتكزهم واستولى على مدافعهم لم ينشب أن انفضت كتائب بني مرين من حوله قاطبة لانطوائهم على النكت وتواطؤهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقلبوا ظهر المجن للإمام رضي الله عنه وقد تركوه في حومة الوغى وحده في الفئة القليلة من أنصاره فكان خذلان العصاة المرينية سبب نكوصه رضي الله عنه ولحاقه بمراكش" ²⁹.

أما فيما يتعلق بانحياز قبيلة شراكة لثورة الناصر فيقول الفشتالي بشأنها أيضاً: "...جرد من عساكره محلة وافرة من عساكر الأسل والنار عقد عليها للقائد أبي عبد الله بن بجة وعززه بجماعة من القواد أولي الرأي وتدير الحروب فسلك بها لاعلى جارت وارتحل هو أيدهم الله سائر جنوده على تنافراطا ذات اليمين ليسد بذلك مسالك النجاة على النصر وكان من أيدهم الله قد نهي إليه قبل ذلك بمراسلة بين جيش الشراكة من جيوشه وبين الناصر على سبيل الاستمالة والانحراف فاتهم ذلك واعتقد بعده عن الصدق لما يرى أن القوم ممن أرغد له في العيش وبسط بالنعمة وأوفى به على مراتب الاصطفاء للخدمة والاعتزاز بعز الرماية تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيسيل عليهم منها سيل العطاء فيسقيهم علا ونهلا ولا يد عليهم للناصر وسابق خدمة ولا سابق نعمة ولا مجرد معرفة حتى بالعين وما فيهم من حصرهم طرفاً من دولتهم في أيام أخيه وأبيه ومع ذلك فما أضع الحزم في أمرهم بل أوسعهم حين نهي إليه ذلك عطاءه ونشر فيهم نعماءه ووطأ لهم أكنافه وأفاض عليهم سجال هباته وطيب نفوسهم من ذلك بما يستميل به العدو إلى الصدقة فكيف بمن يمتري أخلاف نعمته لعشرين سنة ثم استوثق منهم

²⁹ - الفشتالي، مناهل الصفا، م.س، ص. 108-109.

بعد ذلك بالإيمان الغليظة عرضوا المصحف والبخاري بها واحدا واحدا عرض البيعة فزحف بهم حينئذ أيده الله حتى إذا افترقت المحلتان اغتنمها الأشقياء الذين منهم مع ابن بجة فثاروا بقائدهم من ممالك الأمير أبي عبد الله ولي العهد أيدهم الله فقتلوه ثم وثبوا على ابن بجة أيضا فعلته سيوفهم ثم نجاه الله من كيدهم وطار الخبر إلى الذين في محلات ولي العهد منهم فركبوا الليل متسايلين لأخوتهم فميز الله الخبيث من الطيب وجعل الأشقياء وجوههم إلى الناصر وكانوا زهاء خمسة آلاف كلها من عساكر النار فلما سدى للمولى أبي عبد الله الشيخ أيدهم الله ما كان من غدر الأشقياء وانتزاعهم للعدو ورءا يرجع لفاس حتى يستأنف الأهبة وعاود النهوض فانقلب بسائر عساكره...حتى نزل على فاس...³⁰.

3- قبائل الكيش وأزمة ما بعد وفاة المنصور

في ظل الأزمة العامة التي شهدها المغرب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي، تفككت مؤسسات الدولة المركزية بسبب الصراعات التي انفجرت بين أبنائه حول وراثة العرش، كما انقسمت وحدات الجيش بين مؤيد ومعارض لهذا الأمير أو ذاك من المطالبين بالسلطة، وامتنعت الرعية عن أداء ما كانت تؤديه سابقا من واجبات وفروض جبائية وعادت ظاهرة اللصوصية والنهب لتطفو من جديد على الساحة الاجتماعية مما أثر بشكل خطير على حركة المبادلات التجارية بين المراكز والأسواق الداخلية وبين إفريقيا جنوب الصحراء. وقد استغلت عدة زوايا ظروف التجزئة السياسية والاجتماعية التي استشرت مظاهرها في مجموع البلاد وما رافقها من موجات من الطواعين والأوبئة الفتاكة التي ضربت أغلب جهات المملكة لتعلن انفصالها عن السلطة الشرعية وتؤسس إمارات سياسية جهوية تنازعت النفوذ والسيادة فيما بينها في جنوب ووسط المغرب.

³⁰ - نفسه، ص175.

وفي إطار هذه الأزمة الهيكلية التي عصفت بكل المكتسبات والمنجزات التي تحققت في عهد المنصور، انقسمت قبائل الكيش إلى معسكرين متنافرين: معسكر شراكة المساند لمحمد الشيخ المامون وابنه عبد الله بمملكة فاس ومعسكر الشبانات الذي وقف إلى جانب زيدان وأبنائه فيما بعد بمملكة مراكش. وقد جرت في إطار فصول هذا الصراع بين هاذين المعسكرين وقائع حربية تسببت في الإخلال بالأمن في أوساط المجتمع الفاسي والمراكشي وفي التعدي على ممتلكات الناس ومصادرة أموالهم وثرواتهم وانتهاك حرماهم وبيوتهم.

وقد كان أبرز تجل لهذه الأزمة التي ساهمت قبائل الكيش بدورها في تعميق مفاعيلها وآثارها السلبية داخل المجتمع خلال هذه الفترة التي اتسمت بكل مظاهر الفرقة والنزاع والفوضى في مجموع ربوع البلاد هو استيلاء أبي بكر الشباني أحد قادة كيش قبيلة الشبانات بمراكش على السلطة بعد مقتل آخر أمير سعدي وهو أبو العباس بن محمد الشيخ الأصغر.

4- كروم الحاج وتأسيس الإمارة الشبانية بمراكش

ينتسب عبد الكريم الشباني الذي اشتهر إسمه على السنة العامة بكروم الحاج، إلى قبيلة الشبانات المعقلية بحوز مراكش، وارتبط ذكره في الإستوغرافيا المغربية بشكل خاص بالإمارة السياسية التي أسسها بمدينة مراكش عام 1069هـ/1659م على إثر مؤامرة الاغتيال التي ذهب دبرها ضد الأمير أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ السعدي آخر رموز السلطة الشرعية المتداعية بمراكش³¹. وتجمع المصادر التاريخية في هذا السياق على أن واقعة الاغتيال هاته لم تأت عبثا وبمنعزل عن أي سبق ترصد أو تخطيط، بل جاءت في واقع الأمر تجسيدا لإرادة سياسية تملكت قبيلة الشبانات بصورة غير مسبوقة في إطار ما أصبحت عليه السلطة السعدية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م من تفكك وانحسار من جراء تزايد

³¹ -Terasse, *Histoire du Maroc*, op.cit, T.II, p.280.

نفوذ الإمارات الجهوية المستقلة وتفاقم ظاهرة الانقسامات القبلية وتكالب الأطماع الأجنبية على السيادة الوطنية.

ولا شك أن إقدام القوى الشبانية على هذه الخطوة السياسية خلال هذه الفترة، إنما يعكس بعمق حجم المكانة التي كانت تتمتع بها في دواليب المخزن السعودي وذلك بحكم علاقات الخؤولة التي كانت تجمعها بالأسرة المالكة في مملكة مراكش، ومن جهة أخرى، نتيجة لماضيها الراسخ في الخدمة المخزنية، حيث انتظمت فرق الشبانات في سلك تنظيمات الكيش السعودي منذ نشأة الإمارة السعودية بسوس إبان مطلع القرن العاشر الهجري/16م.

ومما لا ريب فيه، أن هذه الحثثيات مثلت مجتمعة القاعدة الخلفية التي أسندت طموح العصبة الشبانية إلى تملك السلطة والانقلاب بدون تردد على أولي نعمتهم، وهو الطموح الذي تحول إلى فعل ملموس، مع بداية النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م بعد أن استسلمت الشبانية أم الأمير أبي العباس السعودي لإرادة كروم عبد الكريم الشباني "كبير حي الشبانات" منقادة وراء مشاعرها العاطفية غير عابئة بمصير ابنها ومستقبل عرشه الآيل إلى زوال. ولعل هذا الأمر هو ما تشير إليه بعض المدونات الإخبارية حينما تؤكد في هذا السياق أن السيدة الشبانية "أحبت كروما الحاج حبا شديدا" فكان يتردد عليها في العلن بقصد الضيافة فترسل عليه العلف وألوان الطعام فتضع أسفل القصع قطع من الذهب والفضة وتجعل فوقها ما لذ من أصناف المطعومات، فكان كروم الحاج "يأخذ الذهب والفضة ويتلاك الطعام لمن حضر معه هنالك حتى طمع... في المملكة لأجل ما حصل بيده من المال"³².

وبحكم هذه الحظوة البالغة التي نالها كروم الحاج لدى سيدة قصر مراكش نتيجة تعلقها وحباها الشديد له، فضلا عما شهده، بموازاة ذلك، مسار الحركة القبلية بمجال الحوز في هذه الآونة التاريخية بالذات، من اشتداد لشوكة الجماعات الشبانية وتطلعها الجامح إلى فرض

³² - ابن الحاج، الدر المنتخب، م.س، ج7، ص338.

وصايتها وهيمنتها على المؤسسة المخزنية³³، بادر كروم الحاج وبتواطؤ مع السيدة الشبانية إلى تدبير مؤامرة اغتيال الأمير أبي العباس السعدي، تحقيقا لمسعاه الحثيث في الاستئثار بالسلطة، ومن جهة أخرى، تلبية لمطلب السيدة الشبانية التي راودته عن بإلحاح عن نفسه.

وتكريسا لهذه الإرادة الجماعية الناقمة أحكمت الجموع الشبانية المتوثبة حصارها على مدينة مراكش وأمعنت في مضايقة الأمير أبي العباس لعدة أشهر متتالية. وحيث لم تعد الحالة تزداد غلا صعوبة وتعقيدا، أقنعت السيدة الشبانية أبناها أبا العباس بزيارة أخواله الشبانات حتى يجبر خواطريهم ويزيل ما بأنفسهم، وهي في ذلك إنما تريدان الإيقاع به ليس غير، فما كان منه خوفا من سوء العاقبة إلا أن امتثل لأمرها فبعثت لكروم الحاج تخبره بذلك. وهكذا خرج أبو العباس قاصدا أخواله فاستقبله في منعطف الطريق القائد عبد الكريم الشباني بالترحيب والإكرام في موضع خال بوادي النفيس يعرف "بالمراح الواسع تحت زيتونة... وأمره لأن ينزل على فرسه وكان تلقاه بالطعام فلما نزل وجلس بالأرض قتله غدرا"³⁴. وبتفويض مؤامرة الاغتيال الخسيسة هاته في حق الأمير أبي العباس سنة 1659، انتهت وإلى غير رجعة دولة الأشراف الشديدين.

وعلى إثر هذه الحادثة المروعة دخل عبد الكريم الشباني إلى مراكش خلصة من دون أن يطلع أحدا على فعلته، وسار حتى وصل إلى قصر الإمارة فأدخلته أم أبي العباس جهارا "وفرق الأموال وأعطى ما لا حد له ولا قرار"³⁵. وبذلك تحققت اللحظة الموعودة التي لطالما انتظرتها السيدة الشبانية بشغف شديد، حيث تزوجها القائد عبد الكريم الشباني ودعا الناس لبيعته وإجبارهم على الانقياد لطاعته، وبحكم ما أظهره من شدة وحزم "انتظمت له مملكة مراكش

³³ -Cour, *L'établissement des dynasties*, op.cit, p.168.

³⁴ -الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ج1، ص.147.

³⁵ - ابن الحاج، الدر المنتخب، م.س، ج7، ص.338.

ونواحيها"³⁶. ولدعم نفوذ إمارته على الصعيد الجهوي، لم يتورع عبد الكريم الشباني في هذا السياق عن توجيه حملة عسكرية ضد آسفي وأعمالها" بهدف إلزامها على الاعتراف بشرعية سلطته وتقديم فروض البيعة له، غير أن هذه الحملة منيت بفشل ذريع³⁷.

أما فيما يخص طبيعة التوجه الذي نهجه في مجال غدارة الشؤون العامة ، فقد اختلفت الرؤى والأحكام بشأنه في المتن الإستوغرافي، تقييما وانطبعا، ففي الوقت الذي يؤكد فيه الإفرائي على طابع "السيرة الحميدة" بوصفه الخاصة التي ميزت ذلك التوجه، يقر الأسير مويط عكس ذلك، إذ يشير إلى أن نهج إدارة عبد الكريم كان مصدر استياء وامتعاض شديدين من قبل الأهالي بمدينة مراكش، لأنه أوكل مهام الحكم في إدارته لشخص يهودي³⁸. على أن أبرز حدث شهده عبد الكريم الشباني، وتلازم معه في الخطاب المصدري تلازم علة بمعلول، هو حدث القحط المفرط الذي اجتاحت البلاد عام 1070، إذ خلف آثارا بالغة الخطورة على حياة الناس أفرادا وجماعات، بسبب ما نتج عنه من ارتفاع مهول في الأسعار وانتشار مفعج للجماعات، لدرجة اضطر معها الناس إلى "أكل الجيف"³⁹.

وبالرغم من اغتصابه السلطة الشرعية، فقد تمكن القائد عبد الكريم الشباني استنادا إلى عصبية بني جلدته ممثلة في التجمعات القبلية الشبانية، الاستمرار في حكم إمارته مدة تنيف عن عشر سنوات (1079/1069) إلى أن قتله أحد جنوده سنة 1668 (الإعلام، 8، 180)، ثم خلفه ابنه أبو بكر من بعده في زعامة الإمارة الشبانية، إلى أن قضى عليها كلية السلطان العلوي المولى الرشيد في إطار خطة عسكرية شاملة استهدفت كل الإمارات الجهوية المستقلة، وقام في هذا الاتجاه كذلك بإخراج القائد عبد الكريم من قبره وأحرقه بالنار جزاء ما اقترفه من بشيع الأفعال

³⁶ - الإفرائي، نزهة الحادي، م.سن ص.408.

³⁷ - ابن إبراهيم، الإعلام، م.س، ج7، ص.180.

³⁸ - Mouette, *Histoire de Moulay Er-Rechid*, op.cit, p.4.

³⁹ - الإفرائي، نزهة الحادي، م.س، ص. 408؛ اللجائي، المفاخر العلية، م.س، ص.205.

يوم دخوله قصر المملكة بمراكش حيث "فتك بالأبكار الشريفة بنات مولاي العباس وأخواته وغيرهن"⁴⁰، كما طارد بدون هوادة الجموع الشبانية حيثما اتجهت إلى أن كاد أن يفني جمعها قتلا وتشريدا.

تولى أبو بكر رئاسة الإمارة الشبانية مباشرة بعد مقتل والده عبد الكريم بطعنة رمح من قبل أحمد جندة عام 1079⁴¹. بيد أنه لم يلبث على كرسي السلطة سوى أربعين يوما حتى داهم السلطان المولى الرشيد مدينة مراكش وأجهز على الإمارة الشبانية بصفة نهائية دون أن يخلف أبو بكر أثناء هذه المدة الوجيزة أثرا يذكر به أو عملا يحسب له. ويفيد الأسير مويط في هذا الإطار، أن المولى الرشيد لم يجد مقاومة كبيرة من قبل أبي بكر وإخوانه من العصبة الشبانية، حينما هم باقتحام أسوار مدينة مراكش، ويعزى ذلك -حسب زعمه- إلى أن أبا بكر كان لحظتئذ منشغل العواطف بأخت الأمير أبي العباس التي كانت قد وعدته بالزواج منها، ومن جهة أخرى، جنده من الشبان كانوا أقل انضباطا وعلى درجة كبيرة من التسبب وعدم الانتظام⁴².

ونتيجة لهذا الوضع، لم يجد المولى الرشيد فور زحفه على مراكش أية صعوبة في القبض على القائد أبي بكر وأفراد عشيرته، كما لم يلق في الوقت ذاته، أية مواجهة من قبل سكان المدينة، بحكم ما كانوا يشعرون به من ضجر وسخط عميقين من جراء طبيعة أسلوب مؤسسة الحكم التي كان أبوه عبد الكريم الشباني قد أسند شؤون إدارتها إلى شخص يهودي غريب عن المجتمع المحلي. ولعل هذا الموقف هو ما يفسر من جهة أخرى، انضمام هؤلاء السكان للمولى الرشيد ومبايعتهم له عند أول ظهور له على مشارف المدينة. وتؤكد معظم الأدبيات التاريخية في هذا السياق، أن المولى الرشيد قام بإعدام أبي بكر وعشيرته بعد أن كان يستعد للفرار إلى

⁴⁰ - الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، م.سن ج1، ص.148.

⁴¹ - ابن إبراهيم، الإعلام، م.س، ج8، ص.180.

⁴² - Mouette, *Histoire de Moulay er-Rechid*, op.cit, p.34.

الجبال المجاورة بهدف التحصن بها، كما أخرج، في نفس الآن، أباه عبد الكريم من قبره وأحرقه بالنار، وذلك انتقاما لمقتل الأمير أبي العباس السعدي وتراميه على السلطة الشرعية بدون وجه حق، ومن ناحية أخرى، ثارا لأفراد الأسرة المالكة التي انتهكت حرمتها واستبشعت كرامتها. وحتى يفل شوكة التكتلات الشبانية المتسلطة ويجهز على قواعد تحصنها وتجمعها قام المولى الرشيد بإبادة كل الجماعات الشبانية التي وقفت مدافعة معاندة في وجه جيوشه الحاركة، كما طارد بشدة كل العناصر الأخرى المنهزمة التي لاذت بالفرار إلى القسبة الموجودة بأحد الجبال القريبة من المدينة حيث حكم السيف برقابها بدون هوادة إلى أن "قتل من أعيانهم نحو أربعة وعشرين رجلا، وعلقهم على أبواب مراکش"⁴³، واستنزل في المقابل "الفئة الشريفة من الصياصي وأخذهم بالأقدام والنواصي"⁴⁴.

وعلى إثر هذه الحملة العسكرية الكاسحة وما أسفرت عنه من نتائج ميدانية، اختفت الإمارة الشبانية -وإلى غير رجعة- من الوجود السياسي، وانتهت معها كلية طموحات الجموع الشبانية الهادفة إلى الاستبداد بالسلطة ضمن كيان سياسي قبلي مستقل بذاته. وقد عمل المولى الرشيد، في محاولة منه لتفكيك روابط اللحمة العصبية بين فصائل التجمع الشباني ومنع أية محاولة محتملة للتمرد في المستقبل على السلطة الشرعية، على ترحيل بعض الفرق الشبانية إلى جهة المغرب الشرقي، كما ألحق البعض الآخر منها بتنظيمات جيش القبائل ووطنها بالقرب منه بالحاضرة الإدريسية فاس⁴⁵.

⁴³-ابن موسى الريفى، *زهر الأكمل*، م.س، ص. 139.

⁴⁴- الإفرائى، *نزهة الحادي*، م.س، ص. 428.

⁴⁵-Mouette, *Histoire de Moulay Er-Rechid*, op.cit, pp.39-67.

II. قبائل الكيش والمخزن العلوي.

1- المحاولات الأولى على طريق بناء جيش دائم ومستمر

قبل تشكيل كيش شراكة في عهد المولى الرشيد، بقي الجند القبلي الذي اعتمده المولى محمد بعد أن انطلق في بناء إمارته السياسية بمجال سجلماسة، يتكون من عناصر محلية تضم الشرفاء والعبيد بالإضافة على العناصر العربية والبربرية التي تنتمي إلى المناطق المجاورة. وقد أشار صاحب البدور الضاوية أسماء هذه القبائل مثل دخيسة وذوي منيع والصبح والمعاuid وأولاد غنام وحميان وهي قبائل معقلية كانت تسقر في المناطق المجاورة لتافيلالت⁴⁶.

وقد استعمل المولى محمد عناصر هذا الجيش القبلي في الحملات العسكرية التي قادها ضد أبي حسون السملالي بدرعة⁴⁷ أو تلك التي خاضها ضد الزاوية الدلائية⁴⁸. ونظرا للضعف الذي كان يعاني منه على مستوى الموارد المالية، فإن المولى محمد لم يتمكن من تطوير جيش قبلي قادر على مواجهة الأعداء وإلحاق هزائم مؤكدة عليهم. ولذلك فالعمليات العسكرية التي قام بها في شرق المغرب ضد الأتراك كانت أشبه ما تكون بحرب العصابات حيث كان يستخدم بعض القبائل ويسرحها بعد الحصول على الغنائم. وبسبب ما كان يعاني منه الجيش الذي عمل على تكوينه في واحة سجلماسة بوسائل بسيطة من ضعف في التجهيز والتسليح وقلة الموارد المالية، فإنه لم يغامر في الدخول في مواجهات مباشرة مع القوات التركية على الحدود الجنوبية الشرقية للمغرب حيث كان يكتفي ببعض المناوشات ليعود بعدها إلى وطنه بسجلماسة.

⁴⁶ - سليمان الحوات (أبو الربيع)، البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، تحقيق عبد الرحمان كطيمي، ر.د.د.ع.

كلية الآداب، الرباط، 1992، ج 3، ص. 468.

⁴⁷ - الناصري، الاستقصا، م.س، خ 7، ص. 16.

⁴⁸ - نفسه.

وعلى خلاف المولى امحمد، فالمولى الرشيد الذي فر من سجلماسة وهو لا يزال في ريعان الشباب ولا يتوفر على أي سند حقيقي سوى انتماؤه لأسرة شريفة تتمتع بسمعة شهيرة في جنوب المغرب، تمكن من اسغلال هذه النسبة وهذه السمعة استغلالا محكما حينما انتقل إلى شرق المغرب. فبعد أن التقى بالشيخ اللواتي زعيم أكبر قبيلة في بلاد بني يزناسن أكرم وفادته وزوجه بإحدى بناته وساعده على تكوين النواة الأولى للقوة العسكرية التي سيوظفها في بناء أولى دعائم إمارته السياسية بشرق المغرب⁴⁹. وكان لنجاحه في مقتل اليهودي ابن مشعل وسيطرته على أمواله وثرواته⁵⁰ الأثر البالغ فيما سيحققه من انتصارات على بعض الأطراف المعادية له في المنطقة وعلى رأسهم علي سليمان زعيم شيخ كبدانة. ونظرا للعلاقة الوثيقة التي باتت تجمعها مع الشيخ اللواتي، فقد نجح هذا الأخير في جمع عرب معقل وأنكاد وحلفائهم بربر بني يزناسن وكبدانة وخاض بهم المعركة التي جمعتها مع أخيه المولى امحمد في بسيط أنكاد في مطلع سنة 1664م⁵¹ وكان قد بلغ تعداد الجيش الذي شكله يومئذ 8 آلاف راجل و2600 راكب⁵² وأغلب عناصره كانت من القبائل العربية والأحلاف وسقونة وبني يزناسن. وسيزداد عدد هذا الجيش بعد مقتل أخيه المولى امحمد حيث انضم إليه أغلب المقاتلين الذين كانوا يحاربون على جانبه. وعلى إثر الفتوحات التي حققها بنجاح في شمال المغرب ضد الخضر غيلان وعلى زعماء الثورة بفاس ارتفعت أعداد الجيش الرشيدي إلى أكثر من ثمانية عشر ألف راكب. واعتقد أنه بفضل هذا الجيش ومن سينضاف إليه بعد الانتصار الذي حققه على زاوية الدلاء هو الذي يمكنه من الدخول إلى مراكش والتوسع جنوبا في الواحات الصحراوية التي دانت له فيها مجموع القبائل بالطاعة والولاء.

⁴⁹ - القادري، نشر المثنائي، م.س، ج2، ص103-104.

⁵⁰ - الناصري، الاستقصا، ج7، ص32.

⁵¹ - الزباني، الترجمان المغرب، م.سن ص7.

⁵² - Miurette, Hitoire de Moulay Er-rachid, op.cit, pp.21-22.

ويبقى تشكيل المولى الرشيد لكيش شراكة من أهم الخطوات التي قام بها على طريق بناء جيش دائم وقوي ، وقد ضم هذا الكيش قبائل من إثنيات مختلطة عربية وبربرية وهي بني سنوس ومديونة وبني عامر والشجع وهوارة⁵³. وكان قد أنزل هذا الجيش أول الأمر في بالقرب من فاس غير أنه حينما حصل الضرر به لأهل فاس نقلهم "بحلتهم لبلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الأرض، وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم بقربه، وأعطاهم ألف دينار لبناء السور، وجعلهم قبيلة واحدة"⁵⁴.

2- مساهمة قبائل الكيش في تأطير المجال وإرساء أسس الدولة المقتدرة

من أهم ما يميز تجربة المولى إسماعيل على المستوى العسكري هو تكوينه ولأول مرة في تاريخ المغرب لجيش احترافي ومنظم من العبيد بعد أن أدرك معايب ونقائص الجيش القبلي الذي كان مصدر العديد من المشاكل والأزمات التي عرفها المغرب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي. وأعتقد أن تشخيص المولى إسماعيل لمكامن النقص والخلل التي تعترى بنيويا الجيش القبلي في الرسائل التي تبادلها مع ولده المامون بتايفالالت ثم مع الشيخ عبد القادر الفاسي بفاس هي التي أقنعت به ضرورة إنشاء هذا الجيش الاحترافي من العبيد والحراطين. لكن هذا الخيار العسكري وبحكم التكاليف المالية والتنظيمية الباهضة التي يتطلبها بالإضافة إلى حاجته إلى قبائل حليفة يمكن الاعتماد عليها في مراقبة المجال وضبط الحركة القبلية في بعض المناطق التي صارت تعرف نزوحا متكررا للاتحاديات القبلية من مواطنها الجبلية نحو السهول وتهديدها لأمن الطرق التجارية بل وللمجال الحيوي للعاصمة نفسها، دفعه إلى تجديد مجموعة من القبائل المعقلية بالأساس وادمجها ضمن تنظيماته العسكرية وكان من أبرزها كيش الوداية والشبانات وشراكة وأيت إيمور. وقد أوكلت لكل قبيلة من هذه القبائل مهامها ووظائف محددة

⁵³ - الزياتي، البستان الظريف، م.سن ص.106.

⁵⁴ - الزياتي، الروضة السليمانية، م.س، ص.57.

للاضطلاع بها في تكامل وتناغم مع تلك التي كانت تقوم بها حاميات جيش العبيد الموزعة على محاور وجبهات متعددة من جغرافية المجال المغربي. وإذا كان هاجس المحافظة على الأمن من بين أهم الوظائف التي كلفت قبائل الكيش بالسهر على تنفيذها ضمانا للاستقرار الاجتماعي ودعما لسيولة الأنشطة التجارية وحركة تنقل البضائع والأشخاص، فإن هذه القبائل أيضا لعبت أدوارا أساسية في تحصيل موارد الجبايات ومعاينة القبائل التي كانت تمتنع عن أدائها، كما اضطلعت قبائل الجيش الريفي بمهام تحرير الثغور المغربية المحتلة والمرابطة على ثغري سبتة ومليلية بعد أن استعصت عملية تحريرهما من قبضة الاحتلال الإسباني رغم المجهودات التي بذلت في العهد الإسماعيلي على الصعيدين الرسمي والشعبي.

3- قبائل الكيش من المساهمة في بناء الدولة إلى المشاركة في تفكيكها

بعد وفاة المولى إسماعيل لعبت قبائل الكيش إلى جانب قوات الجيش الأسود دورا أكثر خطورة في تأزيم الوضع الاجتماعي والسياسي في المغرب وذلك من خلال تدخلها في تولية الأمراء وعزلهم وفي الاعتداء على القبائل المجاورة لمعسكراتها ومصادرة زروعها ومواشيها وفي قطع الطرق ونهب قوافل التجار. وقد مثلت حالة قبائل الوداية بفاس نموذجا متفردا في هذا الإطار. ويكفي أن نعود إلى مختلف المصادر الإخبارية لهذه المرحلة التاريخية العvisية والمتأزمة لنكتشف حجم الأدوار السلبية التي لعبتها هذه القبائل الكيشية في أكثر من اتجاه. فبعد كل عملية انقلاب على هذا الأمير أو ذاك حينما لا يستجيب لمطالب هذا الفريق أو ذاك من جيش العبيد أو من كيش الوداية، فإن الوضع كان يزداد تعقيدا والتحالفات بين أجنحة تشكيلات جيش العبيد كانت تأخذ مسارات جديدة تتغير اتجاهاتها تبعا لموازن القوى العسكرية والمصالح الخاصة بكل جناح من هذه الأجنحة. غير أن الثابت في كل الحالات التي كان يحدث فيها الصراع بين هذه الأطراف العسكرية، كانت قبائل الوداية تحاصر مدينة فاس القديمة وقطرها بوابل من قذائف البمب والمدفعية كما كانت لا تتردد في تضيق الخناق على تجارها والمتكسبين من حرفيها ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ونهب أسواقهم وبساتينهم.

ونظرا لما أفضت إليه أزمة السلطة في هذه المرحلة من تحالفات وتحالفات مضادة بين قادة الجيش وغيرهم من القوى الاجتماعية الأخرى المؤثرة على الساحة السياسية من علماء وتجار ورجال زوايا وغيرهم من رموز النخبة الحضرية، فإن حسابات المصالح الضيقة والرغبة في الحفاظ على شبكات النفوذ داخل ما تبقى من أجهزة الدولة المأزومة والمفككة، كان يؤدي إلى مواجهات وصراعات مسلحة، كانت تنتهي في الأغلب الأعم بتدمير المرافق الحيوية والمنشآت الإنتاجية وإلى قتل العديد من القادة العسكريين والعلماء والتجار وكبار الموظفين. وهذا الواقع هو ما طرح بحدة في ظل هذه الفترة المتسمة بكثير من مظاهر التخريب والتدمير للبنى المجتمعية والاقتصادية وما رافقها من آلام وجراح أثرت بشكل رهيب على الوعي الاجتماعي والمخيل الذهني للسكان، مسألة مفهوم التراكم والتطور في سيورة تاريخ المغرب. فبعد كل أزمة كان المغرب يعود إلى نقطة البدء والعودة من جديد إلى إعادة البناء واستئناف المسار بخطى متعثرة. وهذا الوضع الأزموي، إن صح التعبير، إن دل على شيء، فإنما يدل على أن معادلة الأزمة وغياب التراكم قد شكلت ثابتا من أهم ثوابت تاريخ المغرب في مرحلة ما قبل الاستعمار.

خاتمة البحث:

في ظل مجتمع قبلي كان كل أفراد من الذكور يتعلمون منذ الطفولة كيفية استعمال السلاح والتدرب على ركوب الخيل كان يجعل كل فرد فيه جنديا بالطبيعة والضرورة مستعد لخوض الحرب والدفاع عن مجال قبيلته وحرمة ترابها في كل وقت وحين. وهذا الواقع هو ما جعل الحياة المدنية والحياة العسكرية في إطار خصوصية هذا المجتمع مندمجة اندماجا كاملا. وهذا الامتزاج والتداخل بين البعدين المدني العسكري قد انعكس في كثير من مظاهر الحياة القبلية في المغرب منذ أزمنة بعيدة وتجسدت معاملته وتجلياته في نواحي ومجالات مختلفة ابتداء من السكن المحصن الذي كانت طريقة بنائه وهندسته تحيل بكثافة إلى الهاجس الأمني والدفاعي الذي كانت تستحضره القبيلة في اختيار هذا النمط من العمران السكني لحماية نفسها وممتلكاتها من المخاطر المحدقة بها باستمرار، مروراً بالعناية بتربية الخيول والاهتمام بترويضها والتمرس على ركوبها حتى تكون على أهبة الاستعداد لاستعمالها في أي حرب محتملة ثم أيضا في طريقة اللباس التي كانت تأخذ في بعض المناطق المغربية وخاصة الجنوبية منها شكلا حربيا يعكس حالة الجاهزية الدائمة للدخول في أي مواجهة أو لرد أي هجوم مفترض وصولا إلى بعض الأنماط الغنائية التي تختلط فيها معاني العشق والحب بتعابير الحرب والبطولة كما هو الحال في فن العيطات وإزنان إضافة إلى بعض أشكال الرقصات التي تخلط فيها حركات الرقص ودقات الدفوف مع تلويحات السيوف وطلقات البنادق في عدد غير قليل من القبائل المغربية.

في ظل هذا الواقع القبلي إذن ، الذي لم تكن فيه جماعة تهتم بالأشغال المدنية وجماعة أخرى تختص بالأعمال الحربية كما كان يجري في بعض المجتمعات التي طورت مع مرور الوقت نظاما اجتماعيا مبني على أشكال محددة من تقسيم العمل بين جماعاتها وأفرادها، كان يبدو من الصعوبة بمكان أن تستمر فيه الدولة في ممارسة مسؤولياتها وواجباتها إذا هي لم تعمل على

احتكار وسائل القوة والعنف المشروع حتى تكون هي الأقوى والأقدر على التحكم في المجال وتدير دينامياته بما يحقق الأمن والاستقرار لكافة مكونات المجتمع.

من هذا المنطلق فحينما طورت الدولة السعدية نظام الكيش لأول مرة في تاريخ المغرب ثم الدولة العلوية التي عملت على تأسيسه وتنظيمه أكثر في مرحلة لاحقة، إنما كان الهدف من ذلك هو وضع تمايز وظيفي بين قبائل الكيش الحليفة لها والمنخرطة في مجال الخدمة العسكرية مقابل تمتيعها بأراضي إقطاع وإعفاؤها من أداء الضرائب غير الشرعية ثم قبائل النائية التي كانت مكلفة بأداء الضرائب بشقيها الشرعية وغير الشرعية والمساهمة بعدد من الحراك أثناء تنظيم الحركات والحملات العسكرية. وهذا التمايز الذي دشنه الشرفاء السعديون الأوائل من خلال توزيع القبائل ضمن إطار هذه الثنائية الوظيفية هو الذي شكل أرضية ومنطلقا للعلاقة التي أقامتها الدولة السعدية مع عرب بني معقل والتي تحولت من مجرد علاقة مشاركة في مجاهدة العدو البرتغالي، في بداية الأمر، الذي أضر بمصالحها التجارية حينما عمل على تحويل طرق التجارة الصحراوية التي كانت تذر عليها موارد مالية مهمة من مسالكها التقليدية إلى واجهة الساحل الأطلسي، إلى علاقة تحالف مصلي مبنية على معادلة الخدمة العسكرية مقابل الاستفادة من الإقطاعات والإعفاءات الجبائية.

واعتقد أن اختيار السعديين لهذه القبائل المعقلية التي ساهمت مع قبائل جزولة سواء بسواء في مجمل الأعمال والتحركات العسكرية التي أفضت إلى انتقال الإمارة السعدية الناشئة من طور الدعوة والجهاد إلى طور بناء الدولة وهيكله مؤسساتها الرديفة، ستمثل بالنسبة إليها هذه القبائل العربية المعقلية ما أطلقنا عليه في هذا البحث عبارة عصبية ظل دائمة ومخلصة إليها، إذ سترتكز عليها في إنجاز مشاريعها العسكرية والأمنية وفي الحفاظ على الأمن والاستقرار داخل المجال لا سيما في المناطق التي وطنت فيها وهي مناطق كانت تقع في الأغلب الأعم إما بجوار المدن العواصم أو في المجالات القريبة منها والتي كانت تعتبر قواعد خلفية لحماية أمن الدولة وتأمين طرق التجارة والتصدي للقبائل التي كانت تمثل مصدر تهديد لاستقرار واستمرار

التوازنات الاجتماعية بين قبائل الطاعة التابعة للمخزن والقبائل السائبة التي كانت ترفض الإذعان لسلطته أو الاستجابة لمطالبه.

غير أن ما يلاحظ من خلال التجربة التاريخية التي بلورتها هذه القبائل في إطار علاقتها بدولة الأشراف في العهدين السعدي والعلوي الأول هو أن هذه القبائل التي وُطنت في أراضي منحت إليها على شكل إقطاعات استغلال للاستفادة منها في عيشها وكسبها لم تستطع أن تطور علاقة ارتباط دائمة بالمجال الذي وُطنت فيه. ويعود السبب في ذلك في هذه المرحلة على الأقل التي اشتغل عليها البحث إلى عدم تأقلمها مع المحيط الاجتماعي الجديد الذي حلت به والذي كان يختلف، بهذا القدر أو ذاك، عما ألفته في محيطها الأصلي حيث الأهل والعشير، ثم إلى كثرة تنقلها في إطار المهام والأعمال العسكرية التي كانت توكل إليها بشكل يكاد يكون غير منقطع، ناهيك عن الصراعات والحروب التي كانت تنشأ بينها وبين القبائل المحلية التي كانت ترى فيها دائماً طرف دخيلاً على مجالها المحلي وبالتالي كانت تستغل أي فرصة سانحة لإبعادها وإزاحتها عن الأراضي التي اقتطعت منها، ولنا، سواء في الفترة السعدية أو العلوية، من الأمثلة والشواهد ما يؤكد العودة المتكررة والمتجددة لهذه القبائل إلى مواطنها الأصلية كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، خاصة في ظروف الأزمات والاضطرابات السياسية التي كانت تعقب وفاة سلطان من السلاطين أو دخول الدولة ككل مرحلة التراجع والانحيار. ولعل هذا ما طرح خلال هذه المرحلة إشكالية توطين هذه القبائل في إطار رهان الدولة على إعادة تنظيم المجال وتأطيره من خلال إحلال قبائل حليفة لها في مجالات كانت تمثل بالنسبة إليها صمام أمان لحماية وجودها وتأمين شبكات نفوذها في وسط قلما كان يتمحض لسلطانها إلا بحد القوة والإكراه.

و يظهر من خلال الأدوار التي قامت بها هذه القبائل في مراقبة المجال وحماية الأمن الاجتماعي أن موقعها ووزنها في إطار المنظومة المخزنية كان يختلف من قبيلة إلى أخرى، وذلك بحسب علاقة قربها أو بعدها من الدوائر المخزنية، ثم بحسب عدد المخازنية والمحاربين الذي كانت تجندهم للخدمة العسكرية كلما طلب منها ذلك. ولذلك تألفت واكتسبت بعض قبائل

الكيش حظوة ومكانة خاصة على حساب قبائل أخرى في الفترتين السعدية والعلوية. ففي الوقت الذي اشتهرت فيه قبيلتا الشبانات وشراكة بمشاركتها الواسعة والملاحظة في الأحداث والتطورات التي جرت في زمن السعديين، احتلت قبيلة الوداية مركز الصدارة في العهد العلوي الأول من خلال الأدوار الذي لعبتها في كثير من الاستحقاقات والأعمال العسكرية سواء في زمن استقرار الدولة وتطورها أو في زمن تراجعها واضمحلالها. ولا شك أن هذه الحظوة والمكانة المتميزة التي اكتسبتها هذه القبائل لم تكن مرتبطة فقط بخبرتها وتفوقها العسكري على غيرها من قبائل الكيش الأخرى، وإنما بما كان يربطها مع بعض السلاطين من علاقات مصاهرة ترتبت عنها روابط دموية عززت مع مرور الوقت أواصر القرابة والالتحام بينهما.

لكن وبالرغم من كل ما قدمته هذه القبائل من أدوار وخدمات لفائدة دولة الأشراف في مجالات العسكرية والحماية والأمن، إلا أن إخلاصها وولائها للدولة كان دائما على المحك. فقد كانت تنحاش لصف المعارضين والثوار كلما لمست ضعفا أو اهتزازا في هيبة الدولة وسلطانها وهذا ما لا حظناه في انضمام قبيلة شراكة لثورة الناصر بن عبد الله الغالب في عهد السعديين وفي انضمام قبيلة الشبانات لثورة الأمير أحمد بن محرز في عهد العلويين. كما لم تكن هذه القبائل لتتوان في الانخراط في جل الصراعات والتوترات التي كانت تندلع حول السلطة بين أمراء البيت الحاكم حينما كانت تنزلق الدولة في مهاوي الفتن والاضطراب والانقسام. حيث كانت كل قبيلة من القبائل تنحاز لمعسكر هذا الأمير أو ذاك وتدافع عن مواقفه واختياراته كما لو كانت تدافع عن عصبية قبلية سياسية متحيزة. وقد لمسنا هذا بوضوح مع قبيلة الشبانات التي وقفت إلى جانب الأمير زيدان السعدي في مدينة مراكش واستماتت في الدفاع عن مطلبه في السلطة ضد أخيه محمد الشيخ المامون وابنه عبد الله في مدينة فاس الذي كانت تقف هو الآخر في جبهته المناوئة لأخيه زيدان قبيلة شراكة. كما لا حظنا نفس المشهد يتكرر في العهد العلوي الأول حينما وقفت قبيلة الوداية واحتضنت الأمير عبد الله بن إسماعيل ضد أخيه الأمير

المستضيئ الذي كان قد ساندته وتحالف معه الباشا أحمد الريفي قائد جيش أهل الريف في شمال المغرب.

وإذا أضفنا إلى كل سبق ما تميزت به هذه القبائل كذلك من خذلان وتواطؤ مع الخصوم أثناء المعارك والحروب وإيثارها الغنائم والأسلاب في ساحات المعارك بدل الاستماتة في الدفاع عن الهدف أو القضية التي من أجلها شاركت وانخرطت في الحرب، كل هذا وذاك، كان يطرح في كل مرة سؤال مدى أهلية هذه القبائل في أن تكون درعا عسكريا مخلصا ووفيا للدولة يحمي كيانها وتحتمي به هي ضد أعدائها في الوقت الذي لم تكن تتلقى فيه تدريبا أو تأطيرا يسمحان بإعادة تربيتها وتكوينها على أساس الولاء والوفاء للدولة وهويتها الوطنية لا على أساس الولاء للقبيلة وعصبيتها المقيتة.

وأعتقد أن ما قام به السلطان مولاي إسماعيل حينما اختار تكوين جيش احترافي من العبيد ليس له أي انتماء قبلي، مطواع للأوامر ومخلص في تنفيذ التعليمات كان يندرج ضمن رؤية كانت تتطلع إلى التخلص من الاستمرار في الاعتماد على قبائل الكيش كخيار عسكري أثبتت التجربة والأحداث التي شهدتها المغرب خلال عهد الفترة أنه خيار فاشل ومتجاوز وليس له أي جدوى أو فائدة عملية. وإذا كانت الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة والمعقدة التي صادفها المولى إسماعيل قبل أن يستقر له الوضع في المغرب إضافة إلى محدودية الموارد المالية والاقتصادية التي كانت تتوارد وقتئذ على بيت المال لم تسمح له بأن يمضي قدما في تنفيذ رؤيته هاته لتجاوز خيار الكيش القبلي في مؤسسة الجيش والتي لطالما عبر عنها في رسائله سواء مع الشيخ عبد القادر الفاسي أو مع ولده المامون، فإن الهزيمتين المروعيتين التي مني بهما الجيش المغربي في معركتي إيسلي وتطوان قد أجبرت المخزن المغربي على ضرورة إعادة النظر في تنظيمات الجيش المغربي التقليدي وعلى رأسها قبائل الكيش وذلك من خلال العمل على خلق جيش احترافي منظم وحديث دعي بجيش "النظام" يشبه في بنية تكوينه وتدريبه وأساليب

تسليحه وأدائه نموذج الجيوش الحديثة سواء تلك التي جسدتها تجربة الدولة العثمانية ومصر في المشرق العربي أو تلك التي مثلتها كثير من التجارب الأوربية في شمال المتوسط.

الملاحق

- I. ظهائر سلطانية حول إقطاعات قبائل الكيش
 - II. رسائل صادرة عن مولاي إسماعيل في شأن موقفه من قبائل الكيش
 - III. رسائل إسماعيلية وأخرى صادرة عن الباشا أحمد الريفي قائد كيش أهل الريف
- ت و ضح دوره في مجال العلاقات المغربية الخارجية.

I- ظهائر سلطانية حول إقطاعات قبائل الكيش

1- ظهير اقطاع السلطان مولاي عبد الرحمان لقبيلة المغافرة

يعلم من هذا الكتاب السامي المخرار الحائز من تملك بالله تم به العز والفخار أننا لما نقلنا رعى المغافر الودايا من فاس الجديد واحوازه وانزلناهم بحواز حاضرة مراكش بزاوية الشراذي وما والاها خلف ضفة وادي نفيس وقبلتها اقتضت الاوامر الالهية والرحمة الربانية والشرعية المحمدية والشفقة الانسانية ان لا ييقون عالة يتكففون الناس وان صدر منهم ما صدر من الراء والباس وتعويض املاك المنتقلين عنها بتعويض كافة البلاد المذكورة المنتقلين اليها مع ما اشتملت عليه من جميع العيون وراء الوادي وامامه وساقية كينت وساقية تزاونت الكائنتين خلفه فقد ملكناها لهم عوضا عما خلفوه بفاس الجديد واحوازه وراءهم.. الكل ومرافقه وشهرة المعوض به المنتقلين اليه اغنت عن التجديد والوصف وتصرفوا فيها منذ انتقلوا اليها كاف عن البيار والكشف تعويضا وتمليكا تامين شاملين مطلقين عامين يتصرفون فيها بجميع انواع التصرفات من حرث وغرس وقسم وغيرها من البناء وسائر وجوه التبرعات تصرف المالك في ملكه ومراعاة لما اوجبه الله علينا لرعايانا من العدل ورد المظالم بالقول والفعل وقد قال صلى اله عليه وسلم كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته وقال ما من وال يتولى ولاية الا جاء يوم القيمة ويده مغلولتان فاما عدل يفكه واما جور يوبقه وقال سييدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه انه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا فاسق روع المومنين ونظر لما بينه وبين الامام الاعظم والاجد الافخم من المصاهرة والتخويل في سالف الاعصار قبل الانتقال والتحويل فنامر الواقف عليه من عمالنا وولاة امرنا ومن ولاه الله الامر بعد بعدنا ان يعلمه ويعمل به بمقتضاه ولا يحيد عن كريم مذهبه ولا يتعاداه والسلام في 6 ربيع الانور النبوي عام 1268

المصدر: برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، ص. 112.

2- ظهير السلطان مولاي عبد الرحمان لايت ايمور

يعلم من كتابنا هذا اسماء الله واعزه زجعل فيما يرضي الله ورسوله طيه ونشره اننا عوضنا بحول الله وقوتها لقبيلة ءال ايتمور القاطنين بالحوز البسيطة التي احللناهم فيها عوضا عن بلادهم بسلفات والولجة الطويلة بالغرب لظهور توبتهم ورافة بصيبنهم واراملهم...عليها وابحنا لهم التصرف بمنافعها ومرافقها وكافة حقوقها من غير ما يناقض اسباب الملكية فالواقف عليه من خدامنا وولات امرنا ان يملوا بمقتضاه ويقف عند مضمونه ولا يتعداه والسلام في شوال عام 1261.

المصدر: برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، ص.113

II - رسائل صادرة عن مولاي إسماعيل في شأن موقفه من قبائل الكيش

الرسالة الأولى :

ولدنا مولاي المامون أصلحه الله وأرشده سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد بلغنا كتابك وقرأناه وفهمنا ما تضمنه لفظه ومعناه وقد وجدناك

تذكر فيه استعدادك وأهبتك لهذا الوجه المبارك الذي أمرناك به وأكدنا عليك في حجتك، فاعلم أن تلك البلاد التي ألزمتك بغزوها هي بلاد متسعة المفاوز قليلة

الماء والمرافق يحتاج من يريد أن يفوز بمزيتها إلى أهبة كبيرة ومؤونة كثيرة، وقد علمت أننا كنا أولا نلزم بغزوها عرب تلك الجهة الصحراوية فيتوجهون إليها

على غير أهبتها ويزيدون على ذلك قلة الضبط والحزم فيتفرق لهم أولئك الحراميين أولاد ادليم ويهربون أمامهم في مفاوز صحراء الشريكية وغيرها فيكل في طلبهم الخف والحافر ويفرغ الزاد فلا يحصلون منهم على طائل. وفي هذه المرة التي توجه فيها معهم أخوك مولاي أبي النصر استكثر الأهبة وبالغ فيه، وكانت معه قوة في زمله وزاده وخزائنه ومع ذلك فما اتصل الفريق منهم حتى كل لأولئك العرب الذين كانوا معه جميع ما عندهم من الخف والحافر ولم تكن معه سرية من الجيش الرواتبي يثق بها وتطمئن نفسه معها فما رأى لاتباعهم وجها ولولا أن الغزلي الذي كان حاز ذلك الفريق منهم إليه من أخواننا الوداية ما اتصل بهم ومع جده وضبطه للعرب وحزمه ما شفى لنا غليلا فيهم. ونحن نريد تتوجه على بركة الله لتلك البلاد توجه رجل وتعمل فيها ما

تستجلب به رضى الله سبحانه، فإن أولئك المارقين فرقة باغية خالفت حكم الإمام وخرجت من ربة المسلمين والاسلام يجب قتالهم والإعانة بما لهم عليه (ولا) تجوز معاملتهم ولا مناكرتهم ولا البيع والشراء معهم، ومن وقعت منه معاملة معهم فهو عاص فما داموا على تلك الحالة الشاقة وهم على حكم القتل لكل من ظفر بهم، وقد جرت عادة الله سبحانه في أمثالهم في قبائل شتى شرقا وغربا من جميع من يشق عصا المسلمين إن الله تبارك وتعالى يحسم مادتهم ويستأصل بحوله وقوته شفتهم وما هم مقبوضين إلا في رجل نجيب يعمل بحساب بلادهم

ويتأهب لها أهبتها ويستعد لها استعدادها ويستكثر من كل شيء ويعرف أنه يحتاجه في بلادهم ومع هذا كله يتأق في جميع أموره ويتوجه على مهل إلى

طرف بلادهم ويقيم بها وقوافله تأتيه من المشمس وغيره، وعيونه ماثوثة على أولاد ادليم وعلى غيرهم من أولئك الجواليت جزوله الذين صاروا يعضدونهم - ويكثرون موادهم. وإذا وجد حاجته يثب عليها وثبة رجل فيستأصل شفة جميع كل قبيلة اتصل بها ولا يقتص منهم إلا قتل الكبير والصغير والذكر والأنثى يقع بهم وقعة الدهر، فإذا وقع بقبيلة وقعة تسير بها الركبان، وإذا بقي منهم أحد فلا يسعه إلا التطارح على الحرب أو الجلا الذي تتناوشه به المفاوز وتأكله الصحرا ويريح الناس من سماع حس أولئك الماردين في مرة واحدة، فمثل من يكون على هذه الحالة نحبه يتوجه إليهم، وقد فهمنا من كلامك في براءتك بعض العجلة على

الحركة، وقد أحببنا تكون تلك العجلة في الاستعداد والأهبة وتقوية كلما تحتاج إليه، وتفقد أولئك العرب الذين تتوجه في وسطهم تفقد الجدة منهم إذا كنت لاهم معهم في الموضع الذي تحتاجهم فيه وأما العجلة بالخروج فافتان أصلحك الله تأنى في أمورك

واعرف ما أمامك واعمل بحسابه ولا تهمل من جميع ما نوصيك به كلمة واحدة
ومسألة الخمسين عودة التي طلبت منا والله إلا عرفنا أنك

تحتاجها لكن لو كنت أعلمتنا بها قبل هذه الساعة لكننا وجهنا إليك حتى
مانة وهذه الساعة فقد كانت عندنا أزيد من ثلاثمائة عودة من نتاج حرائر هذه الخيل التي
أحيا الله عروقتها على أيدينا وتفضل علينا بأجدها وادخارها وأولعنا بنتاجها فكنا نختار نتاجها
على كل شيء فسخرنا على العودات أصلحها الله وكنا اخترنا منها ستين عودة لسروجنا وما عندنا
غيرها، وقد ربطناها على ذمكنا فلا نست بها. وحتى أنت ما نحب أن نحشموك بعودة
واحدة منها إذا نحن أعطيناها لك ووجدنا فيها شيئا لعزتها عندنا والعودات التي نسحق لك
بها هي التي ذكرنا لك أننا سخرنا عليها. وأما الحراميات عودات الغرب فما يصبرون لتلك
المهامة مع أن العودات هذه الساعة كلها عامرة إلا النزر منها، لكن عندنا سرية نثق بك أن
تكون في وسطها وتطمئن نفوسنا لطبائعها من قلة الطمع وقلة التفت منهم

وقوة الفائدة والنجدة والصبر والحزم والعزم وهي أربعين فارسا خيل فرادى المنابهة.
والله إلا هي أولى لك من العودات ومن مائة من الخيل. والله إن شاء الله إذا زين الله عليك
حتى يعمل الله لك بها مزية. فاعلمنا نبعث بها إليك مع أصحابك الذين معك وما لك منهم
إن شاء الله إلا ما يسرك ويرضيك. فليعرف ولدنا أصلحه الله ما خاطبناه به ويفهمه والتأني
لك في الخروج مليح، التأني لك حتى تتأهب أهبة ترتضي منك حالها مليح، وقد أرشدناك والله
يعينك ويوفقك بمنه وكرمه. واعلم أننا كنا أمرنا العرب حيث كانوا هنا عندنا يتوجهون
معك بأولادهم ولا يبقون إلا من أضعفه الكبر وحازت الصغر، فقالوا لنا أن الواشين

بثقلنا وكأنهم ثقل عليهم ذلك، وأنت انظر كبار العرب، ووجوههم ومن له قدرة
وفيه قوة من ذوي منيع وغيرهم والزم كل واحد منهم يتوجه معك بزوجه فإذا عملوا
دواوين أو ثلاثة من الذين بنسائهم فعليهم يرسمون. وحتى أنت انظر خادما أو

خادمين واجعلهما معك في غيبتك ليلا تضيق روحك. وقد بينا لك كيفية أهبتك وخروجك في سلامة وغنيمة إن شاء الله. وإذا وصلت بلاد ذا وبلال فكاتبهم وقل لهم أنتم غير محسنوبين مع أولاد ادليم ولا تقبضهم فيهم، وما كنا ننكر عليكم إلا هذه الميرة التي كنتم تمدونهم بها، وهي اليوم مقطوعة عليكم وعليهم وأنتم دائما تتعلقون بحالها وأميرها دائما منكم. وقد توجه مع أخينا أبي النصر ثلاثة منكم فارجعوا لبلادكم واعقبونا لمواطنكم وانظروا من يرد منكم على والدنا نصره الله وواحاه(?) تسلف لكم تعطوننا بعض امنيرات وارجعوا في حالكم وراءنا لبلادكم، فبمثل هذا الكلام تكلمهم من غير أن تنفرهم منك ولا أن يفهموا من كلامك. ولا من مكاتبك حرفا واحدا من العيب فينفرون منك بسببه ومن غير أن تعطيهام أمانا ولا تكتب لهم به، فلا تكلمهم ولا تكتب لهم إلا ، در بالكلام الذي يسكنهم ولا ينفرهم، واعرض عنهم ولا تذكر عيبتهم لقريب ولا لبعيد فإن رأيتهم رجعوا وراءك واجتمعوا وعملتهم بينك وبين الشمس واستقروا وعرفت أين تتصل بهم فسر إليهم على حين منهم، وإن ظفرك الله بهم فلا تبقي على أحد من الجواليت، فمندهم نجع كبير من الابل وأما الغنم فلا تحصى كثرتها.

وهذه إحدى مسائل السر وإحدى المسائل التي يستعمل الناس فيها ضروبا من السياسة والدهاء، وقد أريناك طرفا بما تخاطبهم به ومداره أنك تخاطبهم بما يسكنهم ولا ينفرهم وتغفل عنهم وتقول لهم ارجعوا لبلادكم وابعثوا بكباركم لسيدنا نصره الله، لكن على وجه لا يصدر منك أمان لهم وإذا استوثقت من رجوعهم ورصدت فيهم الفرصة فقد أريناك ما تعمله لهم والله يوفقك إل الخير بمنه وكرمه وواحدة زناها لهم في مخاطبتك إياهم قل لهم أنا ما يرى والدي نصره الله فيكم بأمر واحد مخصوص ولكن قال لي واحدة وهي أن كل من كان مع أولاد ادليم وانفصل عنهم وتركهم فما عليك فيه اتركه وراءك وانبذه خلفك، وأنتم من جملة من كان معهم وكان يواصلهم ويمدهم، فإذا أنتم فارقتموهم وتخلفتم عنهم فباعدوهم في

النجعة والرتعة واتركوهم عنكم وشبه هذا الكلام الذي يأنسون به ولا ينفرون والله
يعينك وييسر عليك بمنه وكرمه آمين آمين آمين والسلام. خامس ربيع الثاني عام تسعة ومائة
وَأَلَف

المصدر: مجموع، م.خ.ج. 12598، ص 163-166.

الرسالة الثانية:

ولدنا الأرضى المامون أصلحك الله و حفظك سلام عليك و رحمة الله وبركاته.

أما بعد ، فأخوك محرز ها نحن وجهنا إليه عمك عمر بن يوسف يرحله بالعقل من القصة و يمشي بالسلامة هو و أخوه شقيقه. و إذا خرج، فسكن بتلك القصة مملوكنا عبد الله بودشيش و عشرة من الأعلاج معه بأولادهم و هو يقبض لك تلك القصة و يحضيها ويكفيك إن شاء الله أمرها إلى أن نوجه لك من عندنا من يعمرها ويسكنها و يشدها. و عبدالله بودشيش تحت نظرك كل ما تقوله له يفعلوه و الله الله في أولائك العلوج الذين تسكن بالقصة و الذين بالمنصورية.

فالجميع تحت نظرك لايعملون إلا بكلامك، وأنت اتهلا فيهم واستوصي

بهم

خيرا، فقد أعجبنا سيرتهم وشغلهم، فشد روحك فيهم ورد بالك منهم ولا تفرط فيهم، ولا يصلنا منك في جانبهم إلا ما يسرنا إن شاء الله ويرضينا. وهانحن كتبنا لهم يكونون تحت نظرك والله الله في إخوانك الله الله في إخوانك ولدنا الشيخ وولدنا السعيد اتهلا فيهم واستوصي بهم خيرا وإحسانا، وكل ما يخصصهم لديارهم بالقصة اعطه لهم واكفيهم في كل ما يحتاجون الله الله في إخوانك ثم الله الله في إخوانك فأنت الوصي عليهم اتهلا فيهم وشد روحك معهم ولا يصلك في جانبهم إلا الخير فإنهم إخوانك واعلم أن مطلب توات بطاً مجينه هذه السنة، فنأمرك أن تحرص في مجيئه وعزم أولائك الذين بقصد قضه، واكتب لهم عليه وعزمهم بمجيئه. وإذا جاءك فاحضر العدول بين يديك وادفعه لعمك عمر بن يوسف عن آخره، بحيث لا تبقي منه عندك ولو درهما واحدا، واشهد عليه إذا دفعته

له. بالعدول واكتب عليه بذلك واعلمنا بكم دفعت له، وأما الوصفان الذين يأتون على العادة من توات فوجههم لنا كلهم يأتوننا ولا بد بالعزم، وثق بما يقوله لك عمك عمر بن يوسف، ثق به وشد رورك في أشغالك، وكن ضابطا لكل ما هنالك والله ييسر عليك بمنه وكرمه والسلام. في الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة ثمان وتسعين وألف.

المصدر: داء العطب قديم، م.خ.ج. 12598، ص 167-168

الرسالة الثالثة:

ولدنا المامون أصلحه الله سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فالذي يكون في علمك وتشد عليه يدك أن أولئك الحراميين أولاد ادليم والله لا نسيتهما فيهم

أبدا وحتى يحفر الله جدرهم بحوله وقوته على يد عبده. وأنت حيث توجهت إليهم في هذه المرة والله إلا توجهت إليهم في عدد واستعداد، ولكن لم تحسن تدبيرا ولم تجد رأيا في شغلك، وفاتك من الحزم أكثر مما عملته ومن الرأي جاءك ما جاءك من التزليح. ولو كنت أحسنت تدبيرا في وجهتك لفزت بمزية كبيرة عن جميع من غزى أولاد ادليم، فالرأي هو المقدم في كل شيء أو ما علمت أن ابن عمك أحمد بن مجوز رحمه الله ذلك العام حين أخرجه الله من مراكش على أيدينا وتوجه لدرعة واستوطن قسبة أغلال وكان بها، فلما سمع حسنا بملوية وعرف أن الله لا يبقيه في ذلك المكان، وأيقن أننا إن صبحناه أو مسيناه في درعة لا يجد مفلتا ولا مهربا ضرب الخماسي في السداسي وردها للرأي والتدبير وكان مع يعيش العربي ورح بن بني وأولاد الزبير، فأجمع عليه جماعة متهم وقال لهم إن هذا الموضع لا ننجوا فيه من عمنا والرأي هو أن نخرج له منه وندع فيه ادالتنا ونقبض هذه البرية التي على المشمس وننظر ما يعملها فإن هو رجع من ملوية لبلاده أو شرق فنرجع لبلادنا ، وإن هو أتى لدرعة فنجد معنا الوسع وما والانا إلا القفر، فقالوا له جميعا هذا هو الرأي فجعل خباءه في وسط حللهم وجمعهم عليه كلهم وضبطهم وصار بهم جميعا وبمن معه لذلك المشمس، فتلقاه أهله فأكلهم بكل من أحبه منهم وتلقاه حربيل فأخذهم وقتلهم ووطاهم وطئة مليحة وتلقاه التمناري وحاباه ونفعه، ودخل لتمريرت وتلقاه آيت بو عمران، فشاوره نحو العامين إلى أن ظفر بهم وعمل فيهم تلك المقتلة التي ارتعدت بها أهل سوس كلهم، ومن أيت

بوعمران وما وجد من يشاره ووصل لتارودانت واستولى على سائر قبائل سوس، ولا بقي من يرفد يده من سائر سوس، وجعل منهم الجيش والعيش وأعطوه كل ما أراد منهم حتى امتلأت يده، وطلبهم في الحراطين فجمع عليه بتارودانت أربعة وعشرين ألف وشحن تارودانت بالزرع والزيت والرصاص والبارود وكل ما يحتاجه والله إلا حتى الدراهم جمع منها وعمل فيه حوائج كبارا. ولما أتى الله بنا لتارودانت وجدناه محتالا من كل شيء فشارنا نحو العامين وشارتنا تلك الحزمة التي كان جمع بعده نحو العام. وهذا كله من حسن التدبير وجودة الرأي وعمل هذا كله وهو يخاف من حق الله على نفسه وعلى من معه، وأنت إن أحببت مزية أو أردت نتيجة أو أحببت فائدة تنسي بها هذه التزليحة التي فاتت لك فما أنا أدلك بتوفيق من الله على رأي مبارك سعيد إن شاء الله تبدأ في الاستعداد إليه من اليوم إن أحب ولدنا نتيجة وفائدة وذلك أن تعلم عرب الركيطة كلهم من اليوم المنيعي والصباحي والمحمدي والعريبي تعلمهم يكونون كلهم على أهبة واستعداد

يرتحلون معك يحللهم ولا يتخلف أحد منهم عنك لا بمال ولا بغيره وعرف كل من لم ينزل معك بخيمته تقتله. فبهذا تعلمهم يعملون على حسابه فإذا علمتهم وتهيأت أنت فليقدم إلينا ولدنا نتكلم معه ونريه من الرأي ما يبارك الله له فيه وذلك أنك إذا كملت استعدادك وجعلت خزانة وإقامتك وكل ما يليق بك للحركة تجعل خباءك في وسط حلل العرب، وإن كان عندك سرية تتوجه بها يحمل العرب علفها ومؤنتها على إبلهم وتريح نفسك من ذلك ولا يعرفوا أصحابك إلا عدتهم. وفي كل ليلة يقبضون علفهم ومؤنتهم من عند من كانت فيه النوبة من العرب وترتب أصحابك هؤلاء علفهم ومؤنتهم عند بني فلان وهؤلاء عند بني فلان حتى يعرف كل واحد صاحبه ويرفد كل واحد من العرب من هديك ما يكفيه لصاحبه كما عمل أخونا مولاي الرشيد رحمه الله، حيث حرك للبيض أولاد أخينا فجعل نجوع العرب في صدره وأمرهم بحمل علف أصحابه ومؤنتهم من

هريه وكانوا كل عشية يقبضون علفهم ومئونتهم كل واحد يعرف أصابه، فلم يشغله مخزني ولا وصيف عما أراد فروح أصحابه ونفسه بذلك حتى قضى غرضه، وكذلك نحب ولدنا يعمل في هذه الحركة المباركة إن شاء الله وتظل مع كبراء العرب وأشرافك ورأيك أمامك ويجهدون لك المياه ويرتادون لك الربيع وأنت تشاور مع أشياخهم هذه الدار تليق بنا فتساعفهم في غرض شبع ابلهم هوينه هوينه بحيث لا تتقلق ولا تضجر من المهمل، فالمخزن كما قال الناس يقبض الغزال بالكريطة، فكلما اعجبتكم دار أو موضع الكسب أقمتهم به واسترحتم فيه، وكل من أحب الكيل حينئذ من ووالته درعة أو المشمس أو غيرهما، فلا بأس به، وأما كيل اليوم فلا تدع أحدا يكتال وتبقى بالرحلة والنزلة إلى أن تجيء في طرف بلاد أولاد ادليم وتنظر ما يعملونه ساعتند فإن هم هربوا للشريقية على عاداتهم فأربعمائة من الخيل تكفيك فيهم تجلس أنت في موضعك وتزمل لها وتبقى حتى يأتونك بهم، فأى شيء عندهم يعملونه أنت في بلادهم والعطش أمامهم والخيل وراءهم، وإن هم هربوا للساحل فذلك ما تريده منهم فمن حاز نفسه على البحر ما بقى ما يعمله وليس عندك أهون من ذلك تجعلهم بين عينيك وتقصد إليهم فأنت من جهة والبحر من جهة: وهذا هو الرأي لمن أراد استنصال شفة أولاد ادليم، وهل غزوك إياهم ونهوضك إليهم من طرف بلادهم كفزوك إياهم من تافلات ما تصلهم حتى تكل الخيل وتعي الابل ويفرغ الزاد وهم فرق نعام ما عندهم معول إلا الهروب في تلك البرية فإن غزوتهم في طرف بلادهم لا ينفعهم هروب، سواء كانوا مجتمين أو متفرقين. فهذا هو الرأي الذي يهلكهم الله به بحوله وقوته فليشتغل ولدنا بالاستعداد والكلام مع العرب من اليوم وفي وقت الربيع إن شاء الله يكون النهوض بحول الله وقوته، وإذا قرأت كتابنا هذا أسماء الله وأعزه فاتكل على الله في التعويل عليه، واكتب لكل قبيلة من قبائل هؤلاء العرب الذين ذكرنا لك نسخة من كتابنا هذا أسماء الله، وانظر من يقرأ على كل قبيلة كتابها بعد أن يجمع عليه خاصتها وعامتها، وقل لهم بالله الذي لا إله إلا هو يا عربي منكم تخلف في هذه المرة أو لم يقف قيام استعداد صحيح لهذه الحركة كبرا كان أو صغيرا

ضعيفا أو قويا حتى أقتله واحفر جدر قبيلته هو منها. واقسم لهم بأيمان يعرفون منها الجد حتى لا يحدث أحد منهم بالتخلف عنك. والله والله إن شاء الله - إن تخلف أحد عنك حتى أحفر جدره بحول الله وقوته ولا أمنت فيه إن شاء الله والسلام.

المصدر: داء العطب قديم، م.خ.ج.11400، ص.230-234.

الرسالة الرابعة:

ولدنا الأرضى مولاي المامون أصلحه الله سلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا زائد بحمد الله إلا الخير والعافية. أما بعد في فتلك الهدية والعادة التي كانت تصل من الله تعالى للشرفاء على يد أبيك في كل سنة هدية وصلة تؤكد عليك أشدل التأكيد أن تقف وقوف الجد والاعتناء أنت وخدمنا دحمان غرنيط وادفعوها لهم كما نحب ولا تقطع عن أحد من الشرفاء (...). وخدمنا دحمان غرنيط عنده زمام ذلك ودوانه لأنه مارسه وعرفه ودفع المال على يده للشرفاء والشريفات كم من سنة فتعاونوا على ذلك واضبطوه ضبطا كليا حتى لا يضيع لأحد حق تعوده وألفه منا وأما إخوانك المزوجون وإخواتك المستحقين فلا بأس عليك أن تحاول عليهم بزيادة تجبر قلوبهم بها ويستعينون بذلك على قضاء أغراضهم ومآربهم وضرورياتهم. غير أن الشرفاء والشريفات لا تنقص لأحد منهم قليلا ولا كثيرا من عاداته فأنا لا نقبل ذلك ولا نرضاه منكم. وها نحن بعثنا لك من هنا مع خدمنا دحمان غرنيط قنطارا من المال فاجمعه إلى تلك التسعمائة مثقال التي بقيت عندك من المال الذي دفعه لك عبد العزيز بوطاهر وادفع لكل واحد من الشرفاء والشريفات متاعه وعاداته. وإذا لم يوف لك المال الغرض الذي هو عندنا كالواجب المفترض فسلف علينا ما تستكمل به حاجتك في مسألة الشرفاء ويأتينا دحمان غرنيط بزمام ذلك ونهايته ونرده لك إن شاء الله قريبا كل ما ام استسلفته ولا نغفل عنك ولا نتركك تتعب ولا تتمرت بحمل الدين وما زلنا إن شاء الله نعطيك قبيلة كبيرة معتبرة تتوسع فيها وتستعين بها على مروءتك - وشغلك وعملك وتجد في يدك ما يعينك على مصالحك و مصالح إخوانك وبنات أبيك لأنك رجل ذو شفقة وحنانة على إخوانك وأخواتك بل وعلى سائر الشرفاء والشريفات نعرف ذلك فيك وتتحققه منك وسبب ذلك كنت عزيزا علينا وملحوظا بعين الرضى لدينا فلا نتركك تتمرت ولا تحتاج ولا تتحمل شغل دين أبدا فكلما تستلفه مما يكمل لك عادة الشرفاء نرده لك بالفور إن شاء الله. فاجتهد في ذلك واضبطه والله يعينك ويرضى عنك. ومسأل النخيل الذي كنا اشتريناه في مزكيدة لأولاد ولد أخينا مولاي أحمد

بن محرز وعاملناهم بشرانه لوجه الله تعالى إذا هم أحبوا متاعهم فالله يهنيهم فلا نحب لأولاد ابن أخينا إلا ما نجبه لأنفسنا وأولادنا و إذا أحبوا أن تعوضه لهم فاشتر النخيل وعوض لهم بمحضر أعيان الشرفاء وكبارهم وأما اشتراؤه منهم بالدراهم فلا تساعدهم على ذلك ولا تشتريه منهم بالدراهم أصلا فتلك المعاملة التي عاملناهم بها لوجه الله نحب أن يبق أجرها وثوابها متصلا بالأبد إن شاء الله ومسألة نزائل العرب الذي جمعت عليك لا حاجة لك بهم ولا بجميلهم ولا بكثرة كلامهم فلا فائدة ولا نتيجة يظنون كل ساعة يتجملون عليك ويقولون ها نحن مخازنية ها نحن مرايين ها هم كذا ها هم كذا وذلك مما يتعبك ويشوشك ويضرك ولا ينفعك. فاتكل على الله لا تتكل على العرب واعمل أصحابك الذين ينفعونك وها أنت عرفت وجربت وبقيت منيفا عن دارك سنتين وأكثر وعرفت من تنفعك خدمته ممن يضرك قربه وعشرته فالصاحب والخدم إذا كان بالمنة والجميل والكره. ليس هو صاحباً ولا خديماً وإنما هو عدو مبين لا ينفع عند الحاجة إليه ولا يتكل الرجل الحازم عليه . فاجعل اتكالك في الله واعمل أصحابك الذين تستريح فيهم وتنفعك خدمتهم وشد روحك شد روحك شد روحك وتدارك ما فاتك من الغفلة والتراخي والله يوفقك ويعينك على أمور دينك ودنياك. وها نحن كتبنا براءة لأخيك مولاي محمد بن الشريف وأمرناه فيها بالصحة معك والمودة لك وعرفناه بما عرفنا الله فيه وفيك فابعتها له واعملوا بمقتضاها والله يوفقكما ويعينكما واستدراك خير. وتلك الدراهم التي كنا قلنا تستسلفها وتكمل بها واجب

الشرفاء ولازمهم ها نحن كملنا لهم من هنا ودفعناها لغرنيط ونقصنا عنك كلفة سلفها. والآن فلا تسلف شيئاً ولا تتكلف إلا بدفعها لأربابها على الوصف الذي أشرنا به عليك والله يعينك ويرضي عليك والسلام، في العشرين من محرم الحرام ثمانية ومائة وألف.

المصدر: رسائل سعدية وعلوية.م.خ.ج.12598، ص.207-208.

الرسالة السادسة:

إلى المأمون أما بعد فانظر ما كتب لنا به ولد مغفر وامعن النظر في وتصفحه وتفهمه يلوح لك منه ما كنا نبهناك عنه من مخالطة الشرفاء وصحبتهم ومنادمتهم ومعرفتهم و اين هل بك حال معرفتهم إلى أن صار علي بن حمادي بعمل الديار والقصور في الرتب ويجمع ويشغل بمسائله وحراميته ونقاسته على عاداته الفاسدة ورغبك فيه عبد الرحمان بن هاشم (...) ونتركه على شغله نأي محبة لعبد الرحمان بن هشام في أبيك وأي محبة أو حنانة فيه وفي أبيك وإن كنت أنا أقبلها وأحبها ولا أكرها بما لها هي في محبة ولا حنانة ولا في أخينا (...) كانت أمين رحمها الله تعس علي منها وأنا في الكمايط وعصمني الله والحمد لله منها ومازال بغضها في أبيك إلى اليوم فصرت أنت تقبل شفاعة ولدها عبد الرحمان بن هاشم في علي بن حمادي و تخالطه وتعاشره وتبر به وهل ما عرفنا عداوتهم وحالتهم وحالة أهل بوحاميد الذين صاروا يجتمعون ويملكون الأصول (...) أنت لهم في الغمارة وفي التجمع وتتغافل عنهم والرعية (...) غيرهم فلكون الأصول والنخيل على رؤوسهم وأنت تنظر ذلك بعينك ويرغبك الرحمان بن هشام في علي بن حمادي وتجوze لوجهه وتركه على نقاسته في وسط العامة الذين هم رعية، وآخرها حيث وجهنا بو محمد بن جعفر بمدغرة ورد على قصر السوق يسد في وجهه صاحبك أبواب القصر ويطلع على الأبراج ويقول له أنا لست على يد سيدي هنا أنا على يد مولاي المأمون أو ما علمت أن محرز لم يكن له سبب مثل هذا إلا أنه دخل تيزمي وجلس بها وها أنت تنظر أين آل به حاله وأين وقف به رأيه ..) فاشتغل بنفسك ودونك وإياها وذلك الزرع الذي كنا نفذنا لك من أيت يوسي لا يدخل هريك منه ولو مدا واحدا فجميعه يصل (...) على خدينا الحاج الطيب وإن دخل إليك منه ولو مدا واحدا وخزنته فأنت أخير والذي هنالك يظهر لك إن شاء الله حيث صرت تخالط من نهيناك عنه ولم تعتبر بأخيك أين صارت به مخالطتهم ومعرفتهم امبارك امبارك الذي تم تراه إن شاء الله ونعم كذلك صار لمحرز من قبلك حيث اشتغل برأيه ورأى السفهاء وحبس

كتبه عني مدة من أشهر ولا عرفت ما هو عليه إلى أن أفاق من نومته وانتبه من غفلته (...) من سكتته إنها ليست على طائل ولا عرف ما يكتب ولا ما يكتب له وكذلك أنت هذه مدة لن تأتينا براوتك وكتبت لك قبل هذا وقلنا لك إن محرز ما وقع له ما وقع حتى كانت براوته تتعطل علينا ولا (...) كل وقت إلينا ولو كل (...) وكذلك أنت هذه المدة وأنت ساكت وإذا بك لست منطويا على شيء لكن والله إن شاء الله لا عزلتك عزلة محرز ولا عزلتك إلا العزل الصحيح الذي يشفا به غيرك إن شاء الله. فقد تحققت أنك هنالك لا جيشا وما أنت هنالك شكل إلا على عمارة الأحواش بذوي منيع وبحرشاتهم ويقولون لك أعطنا عولتنا وتحسب أنك رجل وأنت عمرت تلك البلاد (...) أي والله أنت رجل أي والله أنت رجل (...) ممن يتكل على عمارة الأحواش بحريشات ذوي منيع ويروم أن يجعلهم مخازنية هما فما عملت المزية في بلاد مراکش التي منها كانت تخرج السرية ومنها كانت تخرج الرجالة (...) انظر إلى مزيتك وكأني أشاهدها بعيني فما عرفت إلا عمارة الأحواش بذوي مضيع بعد أن غزوهم أهل أنكاد مسيرة شهر وأخذوهم وانصرفوا الحلل إليك. وقد علمت أن والدك الذي عليه ضل الله ما كان كثرة كلامه إلا في أهل أنكاد أهل المزاريف والحرشان الذين هم أشد بأسا من ذو منيع (...) وحازوهم إليك حتى وجدتهم يسكنون عندك في الأحواش وتعتز بسيرتهم. فوالله إن أردنا (...) على سريتك كما وجدتها سرية فالذي يبحث السرية يعملها من الرجال أهل النجدة والعهد ومن الوصفات والحراطين والموالي ولها الأعراب أهل الحرشان فوالله ما يعدهم جيش ولا يرضاهم وفي سرية إلا قليل العقل ناقص الرأي فكيف بك إذ بحثناك في السرية أو أردنا الاطلاع عليها واستظهرت بحريشات ذوي منيع أي والله حينئذ تظهر فائدتك تزين وجهك و لا تظن أن أنسا مسائلك وما زلت إن شاء الله أعدها عليك واحدة واحدة فتعرف حينئذ والدك وهو عبد الله حقيقة أو هو من الذين تتلاها عليهم أقرانك والسلام. بتاريخ 20

شوال 1100

المصدر: رسائل سعدية وعلوية. م. خ. ج. 12598، ص. 205-203.

الرسالة السابعة:

إلى المامون بعد السلام: اعلم أننا كنا نظن أنك عمارة وأن فيك نجدة وفائدة وأنك حصلت على نتيجة تجلب لك من الله تعالى رضانا رتجوز بسببها مزية ومرتبة وأصدرنا إليك تولية إقليم كبير من الاقاليم اشتمل على قبائل عديدة ومداشر كثيرة وبلاد وافرة من الخنف ومدغرة والرتب وكير وغريس وفركلة وتافلالت (...) إلى غير ذلك من أحواز الصحراء التي هي أوسع بلاد وأنفع وأعظم وقلنا أنا إن أعناك هذه الساعة بشيء من العولة ووسعنا عليك بها ريتما يتسير عليك هنالك أمرها وتقدر على روحك فيها وتعرف كيف تسايس ذلك ومن أين نخرجه وأما لو كنت اشتريت ذلك أو بعثت من يسوقه لك بالمال والثلثن لما كفاك ذلك ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مثقال فاشفقنا عليك نحن من ذلك واعناك ووجهناه إليك لتستعين على مسألة أخرى وترد بالك لأمر آخر من صدور لك فإذا بك بالضيع تطلب منا الكسوة من الملف والكتان فكيف بك تطلب ذلك طمح إليه من هذه البلاد بعد أن كان في يدك كل ذلك الاقليم وهل ما هنالك يتسببون الذين يعمرن بالكسوة والملف والكتان التي تليق بتلك البلاد وبعث إليه بكساوي من كسلويه فردها عليه وقال له وهل أنت تعبر على الجهد بالمال ما عندك علم بمولاي احفيد بن محمد رحمه الله حيث ضربه والده عشر مائة من از فل بسبب شكاية أمواس إذ لم يجدها عنده وحسب عليه ألف مثقال سلاوية قبضها من عند دراوة وتريد أنت أن تأتيك الكسوة من هنا بعد تصرفاتك في ذلك، والله إن شاء الله حتى اقطع عليها كرشك والله إن شاء الله حتى أقطع عليها كرشك أما رأيت أن . سبب معونتنا لك هذه الساعة بما عاوناك با من العولة على ما زيد عليك من مسألة تزويج إخوانك لبنات أخينا مولاي الرشيد رحمه الله وبشرناهم بتزويجهم لهم وجمعنا ألفتهم وعاوناك فذلك حتى تستقدر وتقف على رجلك فإذا بك ما عاوناك هذه المرة حتى أردت أن تطيرها على نمادة بها كل ساعة آرا آرا وفي كل

وقت فإن كنت لا تنجم إخوتك ولا تنجم روحك رعيالك وعيالهم فتعالى في حالك نقبض لك
لوحة تقرأها وأن أخدم عليك وعليهم بفضل الله والمنة لله سبحانه وتعالى والسلام.

المصدر: رسائل سعدية وعلوية. م.خ.ج. 12598، ص. 205-206.

الرسالة الثامنة:

رسالة من المولى إسماعيل إلى علماء الأزهر من عبد الله المتوكل على الله المعتمد عليه في سره ونجواه المفوض لجميع العالمين الشريف الحسني أموره إلى مولاه، أمير المؤمنين المجاهد في سبيل يده الله ونصره.

إلى السادات العلماء الأعلام، والفقهاء الأجلة الكرام أهل الفتوى والأحكام الذين اشتملت عليهم بلاد الإسلام بالبلاد المشرقية حضرة مصر أمنها الله.

خصوصاً أهل الفتوى منهم والتدريس بجامعة الأزهر عمره الله بدوام ذكره. وغمره بسوابغ نعمه، وأنواع بره، نور الله بصائرهم وبنى على نور الهداية والتوفيق ضمائهم، وأطلع في سماء المعارف والعلوم شمسهم وأقمارهم، وأدام النفع بهم للمسلمين، وجعلنا وإياهم من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته تعم مقاماتكم الرفيعة وتعبق أرجاءكم البديعة، وتحول بينكم وبين المكاره والأسواء بأيدي منيعة أمين. وإلى هذا وصل الله سعدكم وبلغكم من فضله العميم قصدكم ولاءه عندكم فإذا كتبناه إليكم من حضرتنا العالية بالله المحفوظة بعناية الله قاعدة الخلافة أيدها الله بتأييده، لهذه الأقطار المغربية والثغور الجهادية حرسها الله. أثرتنا بتعريفكم ببعض نعم الله المتزايدات، وشرح بعض الأحوال المتوالية بالخير المتجددات، إقامة لرسوم الاخلاص في التعريف ببعض حسناتها الأعلى وإن قل مودة خالصة في الله عز وجل، ولما نعلمه في العلماء العاملين من حسن النيات وكرم الطويات وجميل الاعتقاد في الأمور الدينية والدينيويات فأنتم معشر العلماء ساداتنا المقلدون، والقُدوة المقدمون المعتمدون فبعلوكم توضح المشكلات. وتزاح الشبهات المعضلات، وبفتاويكم المنورات يستضاء في ليال الجهل المدلهيات، فأنتم القضاة ونحن المنفذون العلم والخلافة إخوان متساويان في التقدير كركبتي البعير. والعلماء يحتاجون إلى

الخلافة، والخلافة تحتاج إلى العلماء لأغناء لأحدهما عن الآخر. وقد أردنا وفقكم الله استفتاءكم ومشاركتكم والمفاوضة معكم في مسألة مهمة في الدين ابتغينا فيها بفضل الله تعالى سلوك المهتدين واقتفاء أثار الأئمة المجتهدين المصبيين محطها على سبيل الاختصار وما في يتأكد عليه من فضولها الاقتصار خشية السامة والملل وخير الكلام ما كفى وعلى المقصود دل. وهي أن هذه الأقطار المغربية هي في الحقيقة كلها ثغور ورباط لقربها من مجاورة العدو الكافر واحتياجها إلى المناضل في دين الإسلام في أدانيها وأقاصيها والمدافع والمثابر، فلا جرم يحتاج من ولاه الله أمرها، وأسند إليه تدبيرها إلى جند كثيف وجيش متظافر حصين. يتأتى به الادفاع عن البيضة الإسلامية والحماية والكفاية لهذه الأمة الحنفية. وقد كانت بهذا المغرب آمنه الله دول من قديم الأوان متصلة متوالية، وكلما ذهبت دولة من تلك الدول الإسلامية عقبته أخرى بأثرها، وكل دولة جاءت بعد أخرى تجد الجيش قدامها موجودا موفرا مدربا على سلوك طريقة المخزن، ومعرفة قوانينه وضوابطه وطرقه وسيرته، وتجد بيوت الأموال معمورة مدخرة والعدة مختزنة موفرة. فكل دولة تستمد من الدولة التي كانت قبلها على عادة الدول في سيرها الأول. وحين جاء الله بنا لهذا المغرب وولانا أمره وأقامنا فيه بمحض فضله واختياره، جئناه على حين فترة من الملك، ووجدناه فارغا من الجيش والعيش وخفيف العمارة معيد العهد بالخلافة والإمارة، بسبب تلك الفترة التي اعترته ودامت فيه نحو الثمانين سنة حتى تنوسي فيها أمور المملكة وسياستها واضمحلت فيها الأوضاع الملكية، وتوالت فتن وأجواع وهرج كثير لا أعاد الله ذلك على المسلمين، فصرنا نحن حيث أقامنا الله ونصبنا لهذا المنصب المبارك المحفوف بالخير المتدارك نبتدى السيرة والطرق من أولها ونعقدتها من أصلها نقاسينا في ذلك وكابدنا فيه من العمل ما الله أعلم به لولا أن الله سبحانه بمحض فضله واختياره أعاننا وعاملنا بعونه وطوله وقوته وحوله، ومن كان الله كان الله له. ولما لم نجد في هذا المغرب آمنه الله منذ ولانا أمره جندا معينا مرتبا موفرا يعتمد عليه ويطمئن به خاطر وتركب النفس إليك جعلنا بعونه الله تعالى وتوفيقه الجميل نستخير الله تعالى وننظر من يصلح للجندية ومن في يليق بها فرأينا الأحرار وأهل هذا المغرب لهذا

العهد لا يصلحون للجنسية ومن يليقون بها من وجوه شتى، لما جبلوا عليه من التكاسل والتخاذل وغلبة الشهوة ال

وكثرة الأطماع المركوزة منهم في الطباع، بحيث لا يكفي الواحد منهم القليل ويستصغره ويقول إنه قليل، وحيث رأيناهم على هذه الأحوال أعفيناهم وتركناهم على ما هم عليه من الاشتغال بمعاشهم والإقبال على منافعهم، ويؤدون ما يلزمهم لبيت مال المسلمين عمره الله، وقصدنا إلى هؤلاء المماليك فاشتريناهم من ملاكهم بعد البحث عنهم والتفتيش فيهم على الوجه الشرعي والسني المرعي ووجدنا هؤلاء المماليك الكثير منهم قد أبي لسيده وخرج عن حكمه وتصرفه ويده. وما منهم واحد إلا وقد لحقه وصف الإباق وعرف به من قبل أبيه أو أجداده أو جداته ، وقد ألفوا هذا الإباق وعرفوه وأدركوه، فما ينتزعون عنه ولا يتوبون منه. ومن أول وهلة أبقوا لملاكهم، وخر جوا عن يدهم وأحكامهم وقرروا عليهم. فيخرج الواحد منهم عن سيده ويتولى غيره وينحاز إلى قبيلة أو يستند إلى شيخ أو كبير ذي عصبية فيتعصب به ويراي به سيده الذي له ولاءه وأصل ملكيته، وتشتتوا هكذا في البلدان والأقطار ولا سيما حين عموم القحط والهرج حين تقلص ظل الخلافة في هذه الأقطار المغربية لا أعاد الله ذلك على المسلمين حتى أكلت الأجواع السنون الكثير من هؤلاء المماليك، هذا مع أن أصلهم من كفرة السودان المجاليب من هنالك على طريق الشراء ممن يجاورهم ويغير عليهم ويغزوهم، ولم يزل البيع فيهم والشراء في كل وقت وحين. والمشترون لهم في كل عصر متفائلون بحسب الرغبة فيهم وتأكد الحاجة إليهم، فمنهم المكث ومنهم المقلل لأهل المشرق فيما يملكون من رقيق الروم والحبشة ومن في معناهم من أجناس كفرة الأقاليم الجنوبية، ثم مع طول المقام عرض لهم التناكح والتناسل. وربما وقع التناسل منهم لا عن سابق صحيح نكاح، بل بغيره من الإثم والجناح. ولا سيما في مواطن البوادي المتهورين في أمورهم، وتناول على ذلك الأمر وامتدت الأحقاب والأوقات وتعددت الأجيال والطبقات، إلا أن الغالب عليهم الإباق. كما ذكرنا لكم فقلما يوجد واحد منهم تحت الرقية والعبودية في أحكام الذي يملكه وفي حوزته

وتصرفه لعدم إمكان توصل ساداتهم اليهم من عدم حاكم بحكمهم أو زاجر يزجرهم أو رادع يردعهم وينصف سادتهم منهم. ولما يسر الله سبحانه علينا في مسألة هؤلاء المماليك، ورأينا مسألتهم قريبة سهلة ومن علامة الاذن التيسير. إذا أذن الله في حاجة أذاك النجاح بها يركد وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. فإذا كان إثماً أبعد منه، والأعمال بالنيات وإثماً لكل امرء ما نوى ونية المؤمن خير من عمله. وكتب سيدنا سالم بن عبد الله إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، اعلم يا عمر أن عون الله للعبد على قدر نيته. فاعملنا البحث الشرعي في أصول هؤلاء المماليك حتى رددنا كل واحد لأصله وفصله وفرعه وشكله، وبحثنا على ملاكهم وعلى تعدد ورثتهم ومناسختهم وعلى موجبات ذلك كله على حكم منا اقتضاه الطريق الشرعي وسبيله وبرهانه ودليله، على الواجب في ذلك كله حسبما تضمنته الأسئلة والأجوبة الواصلة إليكم إن شاء الله تعالى من كون ذلك كله وقع عن شراء صحيح مستقيم على سنة المسلمين في بيوعاتهم و أشريتهم، ولأجل ما شاهدنا في مسألتهم من التيسير ورأينا فيها من الصلحة العامة، وكل من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين يجب عليه أن ينصح لهم ويتحرى الصواب في مصالحهم فيقدم المصلحة الراجحة على المرجوحة. ويجب على الناس التسليم لهم والانقياد إليه فيما اقتضاه نظره. وقد قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: إذا ظهر لمن ولاه الله أمور المسلمين مصلحة أو منفعة في أمور الدين والدنيا فإنه يجب على الناس المصير إلى قوله وتقليده فيها ولو في الأمور التي لا يعرفون حكماتها ولا عاقبتها وأثرنا هؤلاء المماليك بتصييرهم جنداً وزرباً للإسلام، لأمر اختصوا بها دون غيرهم، منها أن هذا الجنس قليل المتونة راض بما تيسر من المعيشة، فنوع بما يجده دون كلفة ولا تكليف منهم، ومنها أن هذا الجنس من المماليك أقوى بهذا الشأن المبارك الذي عينوا له ودفعوا إليه من حراسة الثغور الجهادية، وحيطة البلاد الإسلامية، وهم أصبر وأقوى على حركاته وأسفاره والمصاهرة عليه، فكانوا بذلك له لمباشرته على الوجه الأكمل أولاً، ومنها أننا قصدنا إنقاذهم من ورطة اللجنة التي تورطوها على التأييد واقتفى أثر الوالد فيها الوليد، بسبب توليتهم غير مواليتهم بغير إذنه، كما دل عليه الحديث وهو: من تولى فرقاً بغير إذن

مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ولا يقبل منه صرفا ولا عدلا، ومنها الرغبة في
تحصيل الثواب الكثير من الله تعالى لحسين تأليفهم وتربيتهم وتدبيرهم وتهذيبهم وما يحصل
لهم من التحلي بحسن الأدب ومحاسن الأوصاف والأخلاق لملازمتهم للديوان وخدمة
دار الخلافة عمرها الله وأدام عنايتها بمنه أمين بعد أن أمعنا النظر وتحرينا المصلحة في
مراعاة هذه الوجوه كلها في تمليك هؤلاء المماليك وتصييرهم زربا للإسلام، وشاورنا وتفاوضنا مع
العلماء والفقهاء والقضاة وأهل الفتوى والمدرسين والعدول المبرزين وأهل الصلاح والدين،
وخاصة أهل هذا المغرب آمنه الله وجوهه وأعيانه في مسألة هؤلاء المماليك، وشرحنا لهم
سيرتهم وأخبارهم وما كانوا عليه قبل جمعهم هذا الجمع المبارك من الإياق وارتكاب
الأمر الشيعي والقبائح البشعة، فقد كان منهم قاطع الطريف، والناهب للرفيق
والمختلس والسارق والغادر والمارق والمتزوي بغير زيه. وبيننا ذلك كله للفقهاء والعلماء حتى
فهموه وعرفوه ووقفوا على بعض ذلك عيانا، فعند ذلك أجابوا كلهم بالفور من غير توقف
ولا تلعثم بهذه الأجوبة المحررة الجارية على مذهب المالكية الواصلة إليكم إن شاء الله صعبة
حامله من أصحابنا إليكم، وها أنتم تقفون عليها في هذا الكتاب المشتمل عليها مسطرة
بخطوطهم وأيديهم، وأبرزوا فيها ما استندوا إليه وعولوا عليه من النصوص الفقهية
والأقاويل المشهورة المرضية، وهم جم غفير وعدد من أهل الفتوى والرواية كثير. وما من واحد
من هؤلاء العلماء أهل المغرب إلا وقد اشتهر صيته في الأقطار، وشهد له في العلم والتبريز أهل
النظر والاعتبار، يعول عليه في الفتوى والمعقول والمنقول بصيرا إذا أفتى أو قال بما يقول، وقد
ورد أن عشرة من هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ويد الله مع الجماعة.

وهذه المسألة وإن كنا والحمد لله في غنى عنكم في أصلها ولا نحتاجوكم لأجلها، لأننا
قلدنا علماء هذا المغرب حرسه الله، ومن قلد عالما لقي الله تعالى سالما. لكن أردنا
مشاركتكم في أخبارها والاستظهار با عندكم من العلم في أمرها، فإن الحق لا
يخفى على اثنين ولا على من أمعن النظر فيه بعينين وقوف البحث تزيد الحق وضوحا،

فأجيبونا أعزكم الله عن هذه المسألة بما يقتضيه طريق الحق وسبيله، ويرشد إليه برهانه ودليله، وقد كفيتم المؤنة في المسألة لتقديم فتاوي هؤلاء العلماء الأعلام، ومقصودنا التبرك بخطوطكم وخطابكم والسلام.

المصدر: رسائل سعدية وعلوية.م.خ.ج. 12598، ص 60-63.

III- رسائل إسماعيلية وأخرى صادرة عن الباشا أحمد الريفى توضح دوره في مجال للعلاقات المغربية الخاجية

الرسالة الأولى:

رسالة من المولى إسماعيل إلى ملك فرنسا

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى عظيم الروم وكبير مملكة فرنسية لويش الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإنه لما ورد على إيالتنا السعيدة خديمكم الأنباشدور عرفنا بخبر مجيئه خديمنا الأرضى القائد علي بن عبد الله، وطلب منا الإذن في قدومه لحضرتنا العلية بالله، فأذنا له في القدوم، وكنا نحسبه أنه ما جاء إلا بسبب أمور أكيدة ومسائل مهمات كبار بحيث نقضوا منكم جميع ما نريده، وتقضوا منا جميع ما تريده؛ فلما وصل إلى مقامنا العلي بالله وتكلمنا معه ولا وجدنا بيده تفويض عام يتضمن العقد والحل فيما هو زايد على مسئلة الأسارى، فاستصغرنا ذلك حيث ما وجدنا مع من نتكلم في مهمات الأمور العظام، ولا يخفى أن هذه المسئلة التي جاء لأجلها وبسببها يقوم بقضائها تاجر من التجار ممن هو أدنى مرتبة منه.

ولما انفصل عنا راجعنا في قضيته خديمنا الأنصح القائد علي بن عبد الله بما أسندنا إليه من التفويض عن علي أمرنا في جميع مراسينا وما يواليها من المدن والقرى والقبائل، فأذنا له في الكلام معه، وفوضنا له في كل ما يعقده ويبرمه معه في المسائل المهمات الكبار إن كان بيد خديمكم تفويض لا ينقض ولا يحل كما هو بيد خديمنا، فليعمل معه خديمنا بحسب ما يظهر له في الحال والاستقبال. والسلام على من اتبع الهدى.

وفي العاشر من ذي حجة الحرام متم عام أربعة ومائة وألف.

المصدر: S.I.H.M.2^{ème} Serie, France,T.IV, pp.135-136

الرسالة الثانية:

رسالة أرسلها الباشا أحمد بن عبد الله الريفى إلى الملك الفرنسى عن طريق سفيره

السيد دو سانت-أولون

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إلى من علت في قومه رتبته ومكانته، وعظمت على سائر أجناس الروم همته وصولته، عظيم مملكة فرنسية وكبيرها لويش الرابع عشر، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن صاحبكم الأنباشدور بن شان طري“بلغنا بأصحابه، وتكلفت معه الوقوف والاستيزان على الضيف أيده الله من موضعنا هذا إلى حضرته العلية بالله فأذن لنا في وصوله، وبلغناه إلى مقامه أيده الله؛

ثم بعد ذلك لما انفصل عن مقام سيدنا قصد محروسة تطوان ووجدنا الحال نحن بمدينة طنجة حرسها الله، فكتب لنا صاحبكم وخبرنا أنه لم يستوف غرضه من حضرة سيدنا، فبادرنا نحن بمراجعة سيدنا، وكررت له الكتب في ذلك نستفهمه عن مراده ما هو في هذه المسألة مرتين أو ثلاث، وفي كلها يجيبني ويقول لي إن مرادي كله هو في انعقاد مهادنة صحيحة ومهمات صريحة من الأمور العظام الكبار تبقى جارية مستمرة، يقضى بها أهم الأمور وأعظمها كما هي لهم مع أهل صطنبول، وهذا الأنباشدور جاء بقصد الأسارى، ولا يخفى أن هذا العدد الذي جاء إليه لو طلبهم مني لجدت عليه بهم ولا نكبرهم في جانب مملكته.

ومسألة مهادنة البحر لا طائل تحتها عندنا نحن، فما تعلق لنا بها ما نحتاج فيه إلى عقد مهادنة إذ أمرها خفيف. فهذا ما أجابنا به سيدنا أيده الله، وإنا يعلم الله أن لو طلب منا صاحبكم أن نكون له معيناً وواسطة لمقام سيدنا في كل ما يعرض من الأغراض لوقفنا معه كما

نقف لنفوسنا أو أكثر، وها أنا تكلمت معه مشافهة، وأمليت عليه من فصول كلامنا ما فهمه بعقله واستقر في نفسه، فهو يقص عليك كما قصناه عليه.

والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب في الخامس عشر من ذي الحجة الحرام عام أربعة ومائة وألف.

خديم المقام العلي بالله

علي بن عبد الله الحمامي

رعاه الله

المصدر: I.H.M.2^{ème} Série, France, TIV, pp.147-148

الرسالة الثالثة:

رسالة القائد علي بن عبد الله الريفي إلى الوزير الفرنسي السيد دو بونشارطران

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى وزير عظيم الروم بن شان طري السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فقد بلغنا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم، وما طلبته منا من الوقوف مع الأنباشذور سنطلون، أنه كيف وصلنا وحل بموضعنا الذي نحن فيه رفعنا خبره إلى سيدنا المنصور بالله واستدناؤه عليه، فإذن له بقدمه، وكان في ظن ضيفنا أنه ما جاء إلا بالتفويض التام من قبلكم، فلما وصل لعل مقامه واختبره ما وجد بيده إلا الكلام في الأسارى، فتعذر كلام سيدنا معه بسبب عدم التفويض،

فلما انفصل عن مقام سيدنا راجعناه نحن مرتين أو ثلاث فأجابني سيدي بأن قال لي نحن فوضنا لك في كل ما تعقده وتبرمه مع الأنباشذور إن كان بيده تفويض جامع للأمور المهمات العظام الموصول لقضاء الأغراض كلها، ولما لم يكن ذلك بيده تعذر وجه العقد والحل معه. وها سيدنا المنصور بالله كتب لسيدكم واستوفى له الخبر، وحتى نحن كلمنا الأنباشذور سنطلون مشافهة، وألقينا عليه ذلك، وفهمناه في جميع الأغراض كله، وبيننا له الأمور على الوفاء والكمال. فبعد ما يصل حضرتكم ويقص عليكم الأمور كلها كاتبونا أنتم بما يظهر لكم، ونجيبكم نحن عن جميع أغراضكم. ولا تزال مراسلتنا معكم في كل ما فيه صلاح الجانبين. والسلام على من اتبع الهدى. وكتب في منتصف ذي الحجة عام أربعة ومائة وألف.

خديم المقام العلي بالله

علي بن عبد الله الحمامي رعاه الله

المصدر: S.I.H.M, 2ème Serie, France, T.IV, pp150-152.

الرسالة الرابعة:

رسالة من القائد علي بن عبد الله إلى سفير فرنسا

" الحمد لله، والصلاة على محمد رسول الله

إلى السفير المبعوث من قبل الأسمى والأعظم من بين الفرنسيين، عاهله، السلام على من
اتبع الهدى.

سررنا بقدومكم الميمون على مولانا نصره الله، وسنكون عندكم إن شاء الله للقيام بكل ما
ترغبون فيه وتطلبونه من مولانا أيده الله، وبإمكانكم القدوم في أمان الله ورعايتنا، ولتطلعونا
على غرض مقدمكم، وما جلبتموه بين أيديكم لإعلام سيدنا نصره الله هي العادة المألوفة لدينا.
كما عليكم إطلاعي على ذلك وحسن تفسيره، وإرساله إلى حبيبنا الحاج محمد الوقاش حتى
أخبر مولانا به، جعله الله مظفرا، ليمنحكم الإذن

بالقدوم إن شاء الله. والسلام على من اتبع الهدى.

كتب في مستهل رمضان عام 1104 هـ ."

بختمه في الأسفل حاملا اسمه

جواب السفير الفرنسي

"إلى السيد الأجل والأسمى، نائب السلطان على بلاد الغرب، والحاكم العام للشعور البحرية
لإمبراطورية مراكش.

السيد الأجل والأسمى

تلقيت بمسرة عظيمة الرسالة التي شرفتموني بكتابتها إلى، فكانت لتكون أعظم من شرف
لقيامكم، لأن شهرتكم وسمو الرفعة التي أكنها لجدارتكم لا تجعلني صابرا أقل على الإفصاح عن
شعوري الشخصي الذي - على ما يبدو - وجب جذب تعجيل أكبر باستقبالي.

لا يخفى عليكم، سيدي، أن ما استقدمني إلى هنا، بما أنكم تدركون أفضل من أي شخص
آخر رغبة إمبراطور مراكش التي أعرب عنها شخصيا لسيدي الإمبراطور، والذي شرفني أن أكون
سفيره إلى هنا، في إقرار وإبرام سلم جيد ودائم معه. هذه هي الغاية من مقامي، وشروط ذلك
السلم هي الأوامر التي كلفت بها، كما أن هذا ما استقدمته معي وما سأفصله بشكل خاص
للإمبراطور سيدكم حينما أتشرف بذلك، ويشدد طموحي في قبولها في حضرته، أو مع وزرائه
الذين سيمنحهم التفويض. حينذاك باسم سيدي الإمبراطور

سأعرض على جلالته الإمبراطورية صداقة أسمى عاهل في أوروبا دون رياء ولا ادعاء، أما
بالنسبة لي، فإنني سأكون أمجد الأشخاص في العالم إن لم يرفض إمبراطور مراكش السماح لي
شخصيا بعرضها عليه.

إليكم، سيدي، لجأت للحظوة بهاته المساندة، وبكل سرور سأبذل ما في مستطاعي للالتزام
به، مثلما شرعت فيه سلفا عند نزولي برا قبل وصولكم حتى أتيح رغبتكم في إتمام حفلات
الزفاف التي كنتم منشغلين بها. ومعرفتي بانتهائكم منها أمل عدم الإبطاء مستقبلا، وألتمس
منكم كامل الثقة.

سيدي الأجل والأسمى

خديمكم المتواضع والخاضع

في الثامن من ماي 1693

المصدر: في بلاط مولاي إسماعيل. سفارة دوسانت- أمانس (أكتوبر 1682- فبراير 1683)،

ص.235-236.

الرسالة الخامسة:

رسالة السفير الفرنسي إلى القائد علي بن عبد الله

" إلى القائد علي بن عبد الله

صاحب السمو والسعادة

انتظرت مكاتبة سعادتكم حتى أتمكن من إخباركم بنجاح مساعي الطيبة ومساع

مهمتي، وبما أنني لم أنته من ذلك حتى الآن لم أطق الانتظار لاستغلال فرصة توصلي

بخطابكم لأنبئكم بأنني منذ ثمانية أيام خلت تشرفت برؤية مولاي إسماعيل - نصره

الله

وحظيت لديه باستقبال حافل أشكره عليه، بحيث لم أشك في مساهمتكم في ذلك. وقد
قدم لي جلالته القائد محمد حدو كمفاوض، ولم يقم الشعور الذي كونته عنه سلفا بناء على
الحقائق التي أنبأتموني بها إلا بمضاعفة أسفي على عدم وضعي بين يديكم، وليس بمقدوري
إرجاع السبب إلا إلى عدم وجودكم، وإلى بؤسي، ولتكن مشيئة الله في ألا تكون عاقبة هذا كله ما
أخشى حدوثه.

لم أتمكن من ملاقة هذا الوزير إلا مرتين، وكما لو كان في حالة ركض عارضني في كافة بنود
الاتفاقية التي أطلعتكم عليها وأقررتها؛ ومن دون الرغبة في التطرق إلى موضوع المستعبدین
نصب أمامي صعوبات لا تطاق وغير منتظرة بخصوص ما يتصل بالحماية المتبادلة ضد السفن
المعادية حتى أنني بدأت أشك في سوء نواياه حيال تلك الاتفاقية، والتي ترون رغبته في إسقاط
أساسها الرئيسي والوحيد.

ومع هذا، أكد لي الجميع أنني لن أغادر هذا المكان إلا راضياً، وأتمنى ذلك، وأعتقد بأنني سأتلقي توضيحاً في العاجل، إن كان صحيحاً كما أشيع - بأن مولاي إسماعيل مضطر إلى الخروج في غضون أيام ثلاثة. لن تكون لي أية مخاوف إن تم ذلك عبر قناتكم، أو إن كنتم هنا لمعالجة ودعم مهمتي، وإن شاء الله تصل إلى خاتمتها الطيبة، جازاكم الله

بكل ما تأملونه.. إلخ".

المصدر: في بلاط مولاي إسماعيل. سفارة دوسانت- أمانس (أكتوبر 1682- فبراير 1683)،

ص. 272-273.

فهرست المصادر والمراجع

I-المصادر المخطوطة والمطبوعة

- الأعرابي (أبي عبد الله محمد بن زياد)، كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها، تحقيق ودراسة، الدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م.
- التعارجي (العباس بن إبراهيم)، الإمتاع بأحسان الإقطاع، م.خ.ع. رقم. 13، الرباط.
- الزياتي (عبد العزيز بن الحسن)، الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل من جبال غمارة، م.ع.ع. رقم د3832، الرباط.
- الكناني (أبو عبد الله)، مختصر النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، م.ع.ع. رقم 3660، الرباط.
- الماوردي (أبو الحسن علي)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978.
- مويط، المغرب في مطلع العهد العلوي (1659-1682) تاريخ مولاي رشيد ومولاي إسماعيل. ترجمة حسن أميلي، دار أبي رقراق للترجمة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2015.
- ابن أبي زرع (علي)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- ابن أبي زرع الفاسي (علي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

- ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ومكتبة المثنى، بغداد، 1382هـ/1963م.
- ابن الحاج (أحمد بن محمد)، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، م.خ.ج. 12187.
- ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية 1393هـ/1973م.
- ابن القاضي (أحمد)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1986.
- ابن الكلبي (هشام بن محمد)، أنساب الخيل، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، 1965.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، مقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الهوامش والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1417-1996.
- ابن زيدان (عبد الرحمن)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع إديال، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 1990.
- ابن زيدان (عبد الرحمن)، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، 1381-1961.
- ابن زيدان (عبد الرحمن)، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1413-1993.
- ابن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك بفاس الزاهرة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429-2008.

- ابن صاحب الصلاة (عبد الله)، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك)، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: عبد الحادي التازي، دار الغرب الإسلاميين بيروت، الطبعة الثالثة، 1987.
- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني- محمد زنيير- محمد بن تاويت- عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1406-1985.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- أبو عبيدة (معمّر بن المثنى) الخيل، حيدر آباد، الدكن، 1368..
- الأزموري، تقييد لشرفاء المغرب وقبائله، خ.ع. 1595 مجموع.
- الإسحاقى (الشرقيين محمد)، رحلة الوزير الإسحاقى، الحجازية، دراسة وتحقيق، محمد الأندلس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1438هـ-2017م.
- الأصمعي (عبد الملك بن قريب)، الخيل، تحقيق الدكتور نوري القيسي، بغداد؛ 1970.
- الإفرائي (محمد الصغير)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1419-1998.
- المولى إسماعيل، إلى ولدي المامون، المطبعة الملكية، الرباط، 1387-1967.
- بن العياشي (محمد)، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا ومولانا زيدان، تحقيق ودراسة: أحمد قدور، مطابع الرباط نت، الرباط.
- البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، راجعه وحققه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1425هـ.

- الجزنائي (علي)، جني زهرة الأسى في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411هـ/1991م.
- دي هنين (خورخي)، وصف الممالك المغربية (1603-1613) مذكرة خوشي دي هنين، ترجمة: عبد الواحد أكميز، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- رسائل سعدية وعلوية.م.خ.ج.12598.
- رسائل سعدية، تطوان، دون تاريخ.
- الرهوني (أحمد)، عمدة الراوين في ذكر أخبار تيطاوين، تحقيق: جعفر بن الحاج السلمي، ج1، مطبعة فضالة، المحمدية، 1989.
- الريف (عبد الكريم بن موسى)، زهر الأكم، دراسة وتحقيق: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992.
- الزياني (أبو القاسم)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى 1992.
- الزياني، الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية، م.خ.ع.د.1275.
- السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، تحقيق وترجمة هوداس، مطبعة بردين انجي، 1889.
- الضعيف (محمد بن عبد السلام)، تاريخ الضعيف الرباطي، دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشخي، دار الثقافة- الدار البيضاء الطبعة الأولى، 1408هـ-1918م.
- طوريس (دييكودي)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: محمد حجي- محمد الأخضر، مطابع سلا، سلا، 1988.

- العلوي (مولاي عبد الحفيظ)، داء العطب قديم، م.خ.ح . 111400.
- العياشي (عبد الله بن محمد)، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2011.
- الفشتالي (عبد العزيز)، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، مكتبة ومطبعة عصرية، الرباط، 1972.
- في بلاط مولاي إسماعيل سفارة دوسانت- أمانس (أكتوبر 1682- فبراير 1683) وسفارة بيدو دو سانت- أولون (1693)، ترجمة: حسن أميلي مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الأولى 2012.
- القادري (عبد السلام)، مختصر تاريخ الشرفاء. السعديون- العلويون، تحقيق وتعليق وتقديم، عبد السلام المنصوري، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2012.
- القادري (محمد بن الطيب)، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م.
- القادري (محمد بن الطيب)، كناشة، م.خ.ع، رقم ك1574.
- القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1407-1986، ج3.
- قاسم الحجري الأندلسي (أحمد)، ناصر الدين على القوم الكافرين، منشورات كلية الآداب، عين الشق، تحقيق: محمد زروق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1407-18987.
- القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، 1987، ج4.

- الكراسي (أبي عبد الله محمد)، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفصائل، المطبعة الملكية، الرباط، 1963/1383.
- الكردودي (محمد)، الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولاي علي الشريف من المحاسن والمفاخر، م.خ.ع.د. 1584 مجموع.
- الكلبي الغرناطي (عبد الله بن محمد بن جزي)، كتاب الخيل، حققه وقدم له، محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986/1406.
- الكنسوسي أحمد (أبو عبد الله محمد)، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق وتعليق: أحمد يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش.
- اللجائي (عبد السلام)، المفاخر العلية في الدولة الحسنية العلوية، م.خ.م، رقم 460.
- مارمول (كاربخال)، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي- محمد زنيبر- محمد الأخضر- أحمد التوفيق- أحمد بنجلون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1408-1989-1988/1409.
- مجهول برتغالي، تاريخ سانتاكروز، ترجمة: أحمد صابر، منشورات كلية الآداب، أكادير، المطبعة الوطنية مراكش، الطبعة الثانية 2007.
- محمد النصيح (حسن)، الخيل في أشعار العرب، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى، 1416هـ.
- المراكشي (إبن القطان)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه، الدكتور محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
- المراكشي، المعجب (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة 1978.

- المشرقي مصطفى (محمد بن محمد)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق، إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة الأمانة الرباط، الطبعة الثانية، 1440-2018.
- المقرري (أحمد بن محمد)، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1403-1983.
- المقريري (تقي الدين)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، 1987، ج1.
- مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1994.
- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية، حققه الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1405هـ/1984م.
- ميكيايلي (نيقولا)، الأمير، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية عشر، 1402هـ/1982م.
- الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.
- الوزان الفاسي (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي-محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983 بيروت.
- وندوس (جون)، رحلة إلى مكناس، ترجمه عن الإنجليزية: زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، دون تاريخ.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1401هـ-1981م

المراجع العربية

- - أرنو (لويس)، زمن المحلات السلطانية. الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912م، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
- - حركات (إبراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي، مطبعة الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة 1408-1987.
- - كريم (عبد الكريم)، المغرب في عهد الدولة السعودية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1398هـ - 1978م.
- ابن شقرون (محمد بن أحمد)، مظاهر الثقافة المغربية. دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني. دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406/1985.
- أبو ضيف (مصطفى)، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين (524-876هـ/1130-1472م)، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، 1982.
- الأخضر (محمد)، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1977.
- الإدريسي (الفقيه) الجبابة في عهد الدولة السعودية. مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، ر.د.د.ع. كلية الآداب، ظهر المهرارز، فاس، 1994-1995.
- أرنو (لويس)، زمن "المحلات" السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912، ترجمه: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
- استيتو (عبد الله)، الدولة السعودية. جوانب من تاريخ المغرب الحديث، الطباعة BJ PRINTK أكادير، الطبعة الثانية، 2019.

- استيتيتو (عبد الله)، التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2011.
- آشور (آي)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبله، مراجعة غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1985.
- آشور شراوس (إياهو)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبله، طبعة دمشق، 1985.
- أفا (عمر)، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906) منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1408-7989.
- أندرسون (بيري)، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظيمي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1983.
- أومليل (علي)، الخطاب التاريخي دراسة منهجية ابن خلدون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة 2005.
- إينجاليف (خليل)، مشكلات الأرض في التاريخ التركي، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، مجموعة بحوث ودراسات لإسلامية مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.
- برادة (ثريا)، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1977.

- البزاز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.
- بك حليم (إبراهيم)، تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.
- بن عبود (امحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشويخ، تطاون، 1983.
- بن منصور (عبد الوهاب)، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1388-1964.
- بنعبد الله (عبد العزيز)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976.
- بنيس (عبد الحي)، الاحتلال الأيبيري لسواحل المغرب (1471-1554)، ر.د.ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1407-1408هـ/1987-1988م.
- بهيني (عبد المجيد)، المجتمع والاقتصاد ببلاد الشام في القرن السادس الهجري، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، توجد مرقونة بكلية الآداب، بني ملال، السنة الجامعية، 2001-2002.
- بوبريك (رحال)، زمن القبيلة. السلطة وتدير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2012.
- بوتشيش (إبراهيم القادري)، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250هـ-316هـ) منشورات عكاظ، الرباط، 1992.
- البوزيدي (أحمد)، التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 ومطلع القرن 20) دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، مطبعة سونير.

- بوشرب (أحمد)، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481-أكتوبر 1541)، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1404-1984.
- بو لقطيب (الحسين)، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، د.د.، كلية الآداب، الجديدة، 1989-1999.
- بيرك (جاء)، في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا، الأنثروبولوجيا والاستعمار، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.
- تاريخ المغرب: تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الرباط.
- التعرّبي (مراد)، مساهمة في دراسة تاريخ الجيش الريفي 1912/1666، أ.د.ت، كلية الآداب، القنيطرة، الموسم الجامعي، 2010/2011.
- التوفيق (أحمد) المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1920)، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986.
- الجابري (محمد عابد)، فكر بن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 1984.
- جادور (محمد)، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2011.
- جب (هاملتون) وبوون (هارولد)، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- جرادة (سعيد)، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، توجد مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1991-1992.

- جغلول (عبد القادر)، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، دار
الحداد، بيروت، الطبعة الثالثة 1982.
- جوليان (شارل)، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار
التونسية للنشر، فيفري، 1983، النشرة الثانية.
- حامد الماحي (علي)؛ المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار
البيضاء، 1986.
- حركات (إبراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر الأموي، منشورات دار الآفاق، مطبعة
فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م.
- حركات (إبراهيم)، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1045-1984.
- حركات (إبراهيم)، النظام السياسي والحربي، منشورات مكتبة الوحدة العربية، مطبعة
المشهد الحسيني، القاهرة.
- حريش (شغالي)، القبيلة والسلطة. مقدمة في التاريخ السياسي للصحراء، دار أبي رقرق
للطباعة والنشر، الطبعة 2017.
- الحصري (ساطع)، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960.
- حمودي (عبد الله)، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة،
ملاحظات حول أطروحات كلنير، الأنثروبولوجيا والاستعمار. حالة المغرب العربي، ترجمة:
عبد الأحد السبتي عبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1988.
- حمودي (عبد الله)، الشيخ والمريد. النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة،
ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 200.
- حناوي (محمد)، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، دار أبي رقرق
للطباعة والنشر، مطبعة فيديرانت، الرباط، الطبعة الأولى، 2003.

- الخطيبي (عبد الكبير)، المراتب الاجتماعية بالمغرب قبل الاستعمار- النظريات، النقد المزدوج، منشورات عكاظ، الرباط، 1930.
- خماش (نجدة)، الشام في صدر الإسلام، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى 1987.
- داود (محمد)، تاريخ تطوان، دار كرياديس للطباعة، الطبعة الثانية، تطوان، 1382-1963.
- الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت، 1982؛ الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، بغداد، 1970.
- دوفوكو (شارل)، التعرف على المغرب، 1883-1884، ترجمة: المختار بالعربي، دار الثقافة، الطبعة الأولى 1419-1999.
- روزنبرجي (برنار) والتركي (حميد)، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط.
- الرئيس محمد (ضياء الدين)، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، طبعة القاهرة، 1985.
- زرين (محمد)، الاستراتيجيات العقارية باعتبارها رهانات اجتماعية تاريخية. المحيط القروي لسيد قاسم نموذجاً، د. في علم الاجتماع، كلية الآداب، الرباط، 2004-2005.
- زرهون (محمد)، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1280-1863/1290-1873) منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة فضالة، المحمدية، 1998.
- السبتي (عبد الأحد)، بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.

- السبتي (عبد الأحد)، بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.
- سبيلمان (جورج)، آيت عطا الصحراء و"تهدئة" درعا العليا، ترجمة وتقديم، امحمد احدى، طباعة، BJ Print، الطبعة الثانية، 2011.
- سعد (أحمد صادق)، تاريخ العرب الاجتماعي، تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي، بيروت، 1981.
- السوسي (محمد المختار)، المعسول، الدار البيضاء، 1960.
- السوسي (محمد المختار)، إيليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، 1426هـ-2005م.
- السوسي (محمد المختار)، خلال جزولة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
- سيمو (بهيجة)، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، 1844-1912، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، المطبعة الملكية، الرباط، 1421هـ - 2000م.
- الشابي (مصطفى)، الجيش المغربي في القرن التاسع عشر. 183-1912، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2008.
- الشادلي (عبد اللطيف)، التصوف والمجتمع. نماذج من القرن العاشر، مطابع سلا، سلا، 1989.
- طرخان (إبراهيم علي)، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، 1986.
- العاملي (محمد)، نظام الإقطاعات الحربية والأزمة المالية في مصر الأيوبية 565هـ-648م/1169-1250م، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب بني ملال، السنة الجامعية 2003-2004، ص. 147.

- عباس نصر الله (سعدون)، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م.
- عبد الرحيم مصطفى (أحمد)، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م.
- عبد الله عنان (محمد)، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1389هـ/1969م.
- العروي (عبد الله) مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.
- العروي (عبد الله)، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية. 1830-1912، تعريب: محمد حاتمي- محمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016.
- العروي (عبد الله)، ثقافتنا في ضوء التاريخ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1984.
- العطري (عبد الرحيم) الرحامنة القبيلة بين المخزن والزواوية، منشورات دفاتر العلوم الإنسانية، طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 2012.
- العطري (عبد الرحيم)، سوسيولوجيا الأعيان، آليات إنتاج الواجهة السياسية، طوب بريس، الرباط، الطبعة الثالثة، 2013.
- العظمة (عزيز)، ابن خلدون وتاريخيته، ترجمة: عبد الكريم ناضيف، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، تموز (يوليو) 1981.
- العلوي القاسمي (هاشم) ، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1415هـ-1995م.

- العماري (عبد الله)، الإقطاع بين النظرية والواقع خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) ومقارنته بالفيودالية، د.د.ع، كلية الآداب، فاس، 1989.
- عمران (محمود سعيد)، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1982
- الغربي (محمد)، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1972.
- الغنای (مراجع عقيلة)، سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1409هـ/1988م.
- فائز (عبد الحميد)، الحرب في المجتمعات الرعوية: آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضاوي قبل الاستعمار، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة، 2015.
- فريد بك المحامي (محمد)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، 1397هـ/1977م.
- فككي (حسن)، المقاومة المغربية للوجود الإسباني، بمليية (1697-1859)، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطابع النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- القبلي (محمد)، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط. علائق وتفاعل، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1997.
- القبلي (محمد)، مساهمة في التمهيد لظهور دولة السعديين، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987.
- القبلي (محمد)، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، تأليف وتعريب محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 2017.

- قدوري (عبد المجيد)، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثمان عشر (مسالة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- كاروبروخا (خوليو) دراسات صحراوية، ترجمة: أحمد صابر، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة 2015.
- كستلان (جورج)، تاريخ الجيوش، ترجمة: كمال دسوقي.
- كور (أوكست)، دولة بني وطاس (1420-1554)، ترجمة: محمد فتحة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1431-2010.
- لهروي (الهادي)، القبيلة، الإقطاع والمخزن. مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- لوتورنو(روجي)، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب الدكتور أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، طبعة ثانية منقحة، 1419هـ/1998م.
- المبكر (محمد)، المسيحية والترومن في شمال أفريقيا القديم من عهد ديوكليتيانوس إلى الغزو الوندالي (284م-429م)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2004.
- محمود (إسماعيل)، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي. محاولة تنظيم، دار الثقافة، الدار البيضاء، جزءان.
- مزين (محمد)، فاس وباديته مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، (1549-1637)، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- ملين (محمد نبيل)، السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة: عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة كوثر برانت، الرباط، 2013.

- المنصور (محمد)، المغرب قبل الاستعمار. المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمه عن الأنجليزية: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2006.
- المنوني (محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996.
- المهناوي (محمد)، التنظيم العسكري وعلاقته بالسلطة والمجتمع في العهد العلوي الأول، منشورات كلية الآداب، الجديدة، الطبعة الأولى، 2018.
- المهناوي (محمد)، السلاح الناري بمغرب السعديين، ر.د.د.ع، كلية الآداب - ظهر المهرارز فاس، 1988.
- المودن (عبد الرحمن)، البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1995.
- موسى (عز الدين أحمد)، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م.
- موسى (عز الدين عمر)، الموحدون في الغرب الإسلامي. تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م.
- الناجي (محمد)، العبد والرعية والسلطة والدين في العالم العربي، ترجمة: مصطفى النحال، المكتبة الوطنية، المحمدية، الطبعة الأولى، 2009.
- ناعمي (مصطفى)، الصحراء من خلال بلاد ثكنة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية، منشورات عكاظ، الرباط، 1988.
- نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون. تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه، دار الطليعة، بيروت، ، الطبعة الثانية، 1985.

- الهراس (المختار)، القبيلة والسلطة، مطبعة الرسالة، الرباط، 1988.
- هو بكنز (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الإنجليزية، الدكتور أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، طبعة ثانية ومنقحة 1420هـ / 1999م.
- الوارث (أحمد)، الطريقة الجزولية. التصوف والشرف والسلطة في المغرب الحديث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1431 - 2010.
- الورطاسي الحسني (قدور بن علي)، بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 - 1976.

المراجع الأجنبية

- - Abitbol (Michel), Tombouctou et Les Arma, Maisonneuve et Larose, Paris, 1979.
- - Berque (Jacques), Structures sociales du haut-Atlas, Presse universitaires de France, Paris, 1955.
- - N.Orleans ; Poliak (A.N), La féodalité islamique, J.R.A.S, London, 1939.
- - Terrasse (H), Histoire du Maroc, Edition Atlantides, Casablanca, 1950, T2.
- -Aghzadi (lahcen), L'ouvre militaire de Moulay Ismail, Thèse de Doctorat, F.L.S.H, d'Aix,1971, (Microfiche n° MC 414, F.R.A- E.IS.H) .
- Bellakhdar (Jamal) et autres, Tissint une oasis du Maroc saharien. Monographie d'une palmeraie du moyen Dra, éd. AlBirunia, Rabat, 1992.
- Berque (Jacques), Ulamas, Fondateurs insurgés du Maghreb XVII siècle, éd. Sindibad, Paris, 1982.
- Boufatma (A), Karia et tribus prérfaines. Changements socio-économique et culturel, éd.et imp. Bouregreg.
- Boufatma (Abdessalam), Contribution à l'étude du changement socio-économique et structurel dans la société rural. Cas de Karia Bamohamed, Région de Fès, Thèse de doctorat, Université ParisV.
- Brignon et autres, Histoire du Maroc, Hatier, Paris, 1990.
- Briquet (Jean.Louis) et Sawicki (Frédéric), Le clientisme politique dans les sociétés contemporaines, PUF, Paris,1998.
- Busnot (Dominique), Histoire du règne de Moulay Ismail, imprimerie Hérissé, France, 2002.

- Cagnat (M.René), L'armée Romaine d'Afrique et l'occupation militaire de L'Afrique sous les Empereurs, éd. Ernest Leroux, 1913.
- Contamine (philippe), Guerre, Etat et Société à la fin du moyen âge. Etudes sur les armées des rois de France 1337-1494, édit Moutory Paris, 1972.
- Contamine (Philippe), La guerre au moyen âge, Presses universitaire de France, 2e édit, Paris 1986.
- Corvisier (André), Histoire militaire de la France de 1715. A 1871, Presse Universitaires de France, 1re édit. Quadrige, Paris 1997.
- Cour (Auguste), L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc, éd. Ernest Leroux, Paris, 1904.
- Daoudi (Ahmed), Mode de fonctionnement du statut guiche et la mise en valeur agricole (Cas de cherrada), Mémoire de troisième cycle-Agronomie, Institut Agronomique et Vétérinaire Hassan II, Rabat, 1986.
- De La Verronne (Chantal), Vie de Moulay Ismail roi de Fez et de Maroc d'après Joseph de léon (1708-1728) étude et édition, Paris 1974.
- Delmas Fort (Cne), Les guichs Marocains, Document du Centre des Hautes Etudes Administratives sur L'Afrique et L'Asie Modernes, Université de Paris, N°1.666.
- Deroualle (Jacques), Le Guich de cherarda (Historique, Terres Collectives), Mémoires de stages des Controleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°52, s.d.
- -Diadié Haidara (Ismail), Jawdar Pacha et la conquête saadienne du Songhay (1591-1599), imprimerie. Annajah El jadida, Casablanca, 1996..
- Drague (Georges), Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, J.Peyronnet et Cie, éditeurs, Paris.

- Duby (Georges) ;Guerriers et paysans VII-XIIe siècle. Premier essor de l'économie européenne, édit Gallimard, 1973.
- Ducros, Le Guich des Oudayas, Mémoires de stages des Controleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°65, s.d.
- -Erckman (Jules), Le Maroc moderne, Challamel, Paris, 1895.
- Gellner (Ernest), saint of the Atlas, London, 1966.
- -Halim (Abdejalil), L'iqta' et L'appropriation de laterre au Maroc (le cas du gharb), Mémoire de 3^{ème} cycle en sociologie, Faculté des lettres. Rabat,1977.
- -Jamous(Raymond) ,Honneur et Baraka , Les structures sociales traditionnelles dans leRif , éd, de la Maison des Sciences de l'homme, Paris.
- Julien (Charles- André), Histoire de l'Afrique du nord, des origines à la Conquête arabe, Payot, 2ème édit, Paris, 1978.
- Justinard (C), Un petit royaume berbère. Le Tazeroualt, un saint berbère Sidi Ahmed Ou Moussa, Maisonneuve, Paris.
- Kably (M), Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-âge, Maisonneuve et Larousse, Paris, 1986.
- Khatibi (Abdelkadir), Maghreb pluriel, éd. Dnoél,1983.
- -La Ruelle de. (Capitaine), Contribution à l'étude de l'histoire de la coutume et du folklore des populations du versant Sud-Ouest de l'Anti-Atlas, les Tekna berbérophones du Haut Oued Seyd, Les Ida brahim et leurs Tributaires, C.H.E.M., 1941.
- -Lahbabi (Mohamed), Le gouvernement marocain à l'aube du XXe siècle, éd, Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1958

- -Larbi (Mezzine), Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles, Publication de la faculté des lettres et sciences humaines, Rabat, Imprimerie, Najah El Jadida, Casablanca, 1987.
- Laroui (Abedellah), Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Centre culturel Arabe, Casablanca, 2è éd.
- Le Coz (Jean), Le Gharb. Fellahs et Colons. étude de géographie régionale, Rabat, 1964.
- Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1er Série Saadienne.
- Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 2er Série Filallienne
- Lestrades- Carbonel (Georges), Tribus des Cheraga, Mémoires de stages des Contrôleurs Civils Stagiaires, mémoire, n°117, s.d.
- Mantran (Robert), L'histoire de L'empire Ottoman, Fayard, 1989, Paris.
- Marçais (George), Les Arabes en berbérie du XI au XIV, Ernest. Laroux, Paris, 1913.
- Massignon (L), Le Maroc dans les premières années du XVI siècle, Alger, 1906.
- Meunié (D. Jacques), Le Maroc saharien des origines à 1670 librairie Klincksieck, 1982.
- Mohamed (Bazizi), Mode de fonctionnement du statut guich et la mise en valeur agricole dans Le Haouz de Marrakech. (Cas du guich des Ait Imour dans Le bassin du N'fis), Mémoire de troisième cycle en Agronomie, Institut Agronomique et Vétérinaire Hassan II, Rabat, 1992.
- -Montagne (Robert), Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Afrique Orient, Casablanca, 1989.
- Montagne (Robert), Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, Afrique Orient, Casablanca, 1989.

- Morsy (Magali), La relation de Thomas Pellow, une lecture de Maroc au 18^e siècle, éd, recherche sur les civilisations, Paris 1993.
- Morsy, Les Ahansala. Examen du rôle Historique d'une famille maraboutique de L'Atlas marocain XVII^e siècle, Mouton, Paris, 1972.
- Nekrouf (Younes), Une amitié Orageuse Moulay Ismail et Louis XIV, éd. Albin Michel, Paris, 1987.
- Pascon (Paul), Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1983.
- Rollman (W.J), The New order in aPre-colonialMuslim society military reforme in Moroco 1844-1094. University microfilms international Ann Arbore Michigan. U.S. A. T.I.
- Terrasse , Histoire du Maroc, édit, Atlantide, Casablanca, 1950.
- Troussel (Pol), Recherches sur le Limes tripolitanus du chott EL- Djerid à la frontière Tunio- Libyenne, édit. Centre national de la recherche scientifique, Paris, 1974.
- Verdier (Desparu) ; Structures foncières et développement rural au Maghreb, Paris, 1968.
- Villes et tribus du Maroc, Tanger et sa Zone, éditeur. Faculté des lettres et sciences humaines, Rabat-Tétouan, éd.2013.
- Voinot (L), Les tribus guich du haouzmerrakech, Société anonyme des papeteries et imprimeries L. Fouque, Oran, 1928.

IV- المقالات باللغة العربية

- الإدريسي (الفقيه)، "عهود الأخوة وأثرها في تدبير مظاهر العنف القبلي في المغرب: حالة قبائل تادلا"، مجلة كلية الآداب، بني ملال العدد 17، 2016.
- الإدريسي (الفقيه)، "القصبات الإسماعيلية واستراتيجية احتواء المجال"، مجلة كلية الآداب، بني ملال، العدد 5، 2002.
- الإدريسي (الفقيه)، "حصيلة البحث التاريخي الجامعي حول السلاح: القضايا والمقاربات"، ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020.
- الإدريسي (الفقيه)، اتحاديات القبائل في الأطلس المتوسط وعلاقتها بالحكم المركزي. مقارنة وظيفية لآليات تدبير المخزن للمجال الجبلي، مجلة أطلس، العدد 1، 2019.
- الإدريسي (الفقيه)، الرحمانية، سحابة، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلال، سلا، 1422-2001، ص. 4310-4311.
- الإدريسي (الفقيه)، الشبانات، قبيلة، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1423—2002، ج 16، ص. 5283.
- الإدريسي (الفقيه)، الغزو، نمط، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1425-2004، ص. 6347.
- الإدريسي (الفقيه)، ركب الحاج المغرب بين إكراهات المجال وجاذبية المقامات المقدسة من خلال رحلة أبي سالم العياشي، ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المشرق والمغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، مطبعة وورك بيرو، بني ملال، الطبعة الأولى، 2007.

- الإدريسي (الفقيه)، ضريبة النايبة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1426.
- الإدريسي، "صفحات من عطاء الخيول في تاريخ الحضارة المغربية"، أعمال اليوم الدراسي الذي نظمته جمعية معرض الفرس في موضوع: ثقافة الفرس في حوض البحر الأبيض المتوسط، 2010.
- الإدريسي، (الفقيه)، فط إنتاج الغزو، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1425-2004، ج9، ص.6347.
- أزايكو (علي صدقي)، حول النظرية التجزيئية مطبقة على المغرب، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد، 14، 1988.
- أكرير (عبد العزيز)، "أسلحة المغاربة القدامى ونظام قتالهم. دراسة إستراتيجيوجرافية"، ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020.
- آيت عدي (مبارك)، "السلاح الناري في سياسة أحمد المنصور السودانية"، ندوة الأسلحة في تاريخ المغرب، مطبعة وورك بيرو، الطبعة الأولى، 2020.
- بوبريك (رحال)، من دولة المرابطين إلى وفود القبائل العربية، ندوة مدخل إلى الصحراء الأطلنتية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2010.
- بورقية (رحمة)، القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد، 14، 1988.
- بوسلام (محمد)، كيش تادلا من مراقبة المجال إلى المساهمة في الاحتلال، ندوة الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، سايس- فاس.

- بوطالب (إبراهيم)، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية
حصيلة و تقويم"، ندوة البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب،
الرباط، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط، 1989.
- بوعصاب (عبد العزيز)، إيمور، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،
مطابع سلا، سلا، 1411-1991، ص.792.
- الحافظي (حسن)، بني معقل، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،
مطابع سلا، سلا، 1413—1492، ج5، ص.1570.
- حركات (إبراهيم)، الجيش المغربي في عهد بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
الرباط، العدد8، 1982.
- حميش (بنسالم)، ابن خلدون وتجربة التاريخ المسدود، أعمال ندوة ابن خلدون، مطبعة
النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981.
- الزبير (بوحجار)، "السلاح لدى السكان الأصليين ببلاد شمال إفريقيا". ندوة الأسلحة في تاريخ
المغرب، منشورات كلية الآداب، بني ملال، المطبعة وورك بيرو، 2020.
- السعيد (المهدي)، ملامح حركة جهادية بسوس والصحراء في القرن التسع الهجري، آيت
إيعزى ويهدى بزواوية آسا، ندوة: الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات، التواصل
والآفاق، منشورات كلية الآداب، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة
الأولى 1422-2010.
- الشابي (مصطفى)، الجيش المغربي، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة
والنشر، مطابع سلا ، سلا، ج10، ص.3217.
- عمالك (أحمد)، مطاع (أولا)، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،
مطابع سلا، سلا، 1426-2005، ص.7179.

- الفكيكي (حسن)، "التمسماني، عمر بن حدو"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، 1435-1995، ج8.
- الفكيكي (حسن)، التمساني، عمر بن حدو، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا، ج8، 1995، ص.2551.
- القبلي (محمد)، الدولة المغربية في العصر الوسيط، ضمن كتاب: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط. علائق وتفاعل، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- لازاريف (كريكوري)، الإقطاعات العقارية بالمغرب. مساهمة في دراسة تكوين الممتلكات العقارية في البوادي المغربية، العدد 8.
- المنوني (محمد)، "قطعة عن نشاط الرماية الشعبية بالجنوب المغربي"، مجلة الباحث، السنة الأولى، المجلد الأول، 1972.

مقالات بلغات أجنبية -II

- Bellaire (Michaux. E), "Le Gharb", *A.M*, Vol, XX, Paris, 1913.
- Bellaire (Michaux.E), "L'Impôt de la naiba et la loi musulmane", *R.M.M*, Juillet-Aout, 1910, n. VII-VIII.
- Bellaire (Michaux.E), "L'organisation des finances au Maroc", *A.M*, Vol.XI, 1907.
- Bentahar (M) et Bouasla (Et-Tibari) , « La Sociologie coloniale et la société marocaine (1830-1960) » ,in *La Sociologie marocaine contemporaine. Bila et Perspectives*, Publication de La faculté des Lettres, Najah El jadida 1989.
- Bruno (H) et Bousquet (G .H) , « Contribution à l'étude des pactes de protection et d'alliance chez les berbères du Maroc central », *Hesp*,T.XXXIII,1946.
- Cahen ©, « L'évolution de L'iqta du IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une Histoire comparée des sociétés médiévales » ,*A.E.S.C.*, N°1,
- Camps (Gabriel), "Aux Origines de la Berbérie. Massinissa ou Les débuts de l'histoire", in *Libyca*, 1er semestre 1960, TVIII.
- Colin (georges.s), "Origine arabe des grands mouvements de populations berbères dans le Moyen-Atlas", *hesp.*, T.XXV,1938,2°-3° Trim.
- Cornice (S.L), "Notice sur Les cherarda", *A.B*, V.4, fasc,1-2, année ;1912-1920.
- Coursimault (C), « Ttata », *A.B*, 2.fasc.3, 1917.
- De la Chapelle (L.T), "Esquisse d'un histoire du Sahara occidental", *hesp*, V.XI, 1930.
- Dziubinski (Andrzej), « L'armée et la Flote de guerres marocaines à L'époque des sultans de la dynastie saadienne », *hesp. tam*, Vol.XIII, fasc, unique, 1972.
- Lazarev (Grigori), "Structures agraires et grandes propriétés au pays hayaina (prérif)", *R.G.M*, n°.9, 1966.

- Le Coz (Jean), "Les Tribus guichs au Maroc, Essai de géographie agraire", *R.G.M*, n7, 1965.
- Meyers (A), « Note sur Les q'aid Ras-hu », *Hesp*, V.XVII, fasc.unique, 1976-1977.
- Mezzine (LArbi), « Société et pouvoir dans le Maroc présaharien au XVII siècle: Réflexion à propos de la « Tayssa » de sidi Abd al-Ali », *Hesp- Tam.*, 1985.
- Michaux- Bellaire (E) , « L'Islam et le Maroc », in, *A. M*, Vol XXVII , 1927.
- Michaux- Bellaire (E), « l'Organisme marocain », *R. M.M*, ,Vol 9, 1909.
- Michaux- Bellaire , « Les Coutumes berbères dans les tribus arabes », in *R. M.M*, Vol 9, 1909.
- Montagne, « Le Régime juridique des tribus du sud Marocain », in *Hésp*, T.IV, 3ème trimestre 1924.
- Morsy (Magali), "Moulay Isma'il et L'armée de métier", Avril- Juin, *R.H.M.C*, T.XIV. 1967.
- Querleux (C), « Les Zemmour », *A.M*, fasc.2, 1915.
- Rabino (H.L), "Notice sur Les cherarda", *A.B*, V.4, fasc.1-2.
- Salamon (G), « Merzag », *A M*, 1904, T1.
- Salamon (G), "Une tribu marocaine, les fahçia", *A. M*, TI, Ernest Leroux, Paris, 1904.

فهرس الخرائط:

الصفحة	رقم الخريطة
47	الخريطة رقم 1: تحركات المجموعات المعقلية الكبرى ما بين القرنين 13 و 16
139	الخريطة رقم 2: انتشار القبائل في الصحراء خلال القرن 16
158	الخريطة رقم 3: توزيع قبائل الكيش في العهد السعودي
173	الخريطة رقم 4: توزيع قبائل الكيش في العهد العلوي الأول
218	الخريطة رقم 5: توزيع قصبات الكيش في العهد السعودي
2019	الخريطة رقم 6: توزيع قصبات الكيش في العهد العلوي الأول
230	الخريطة رقم 7: توزيع أراضي الاقطاع في العهد السعودي
232	الخريطة رقم 8: توزيع أراضي الاقطاع في العهد العلوي الأول

فهرس الموضوعات:

7	مقدمة البحث:
22	الفصل الأول: قبائل الكيش: خواص ومحددات.
31	I. قبيلة الكيش: النشأة والأصول
31	1- على سبيل التعريف
34	2- نشأة مؤسسة الكيش وملابساتها
38	II. قبائل معقل: الأصول ومجالات الانتشار
39	1- التغريبة الهلالية
40	2- الأصول
42	3- فروع عرب معقل
42	أ- ذوي عبيد الله:
43	ب- ذوي منصور:
45	ج- ذوي حسان:
47	III. التنظيم الاجتماعي لقبيلة الكيش
49	1- بنية تكوين قبيلة الكيش
53	2- هامش التراتب وحدوده
56	3- قبيلة الكيش وخلفتها الحربية

الفصل الثاني: قبائل الجيش: أصول وتجارب	61
I - محطات من حضور قبائل الجيش في تجارب عسكرية متوسطة	63
II- وقفات مع قبائل الجيش في تاريخ دول المغرب الوسيط	69
الفصل الثالث: نشأة دولة الأشراف: نحو مقاربة جديدة	76
I-رؤى ومقاربات	78
1-المقاربة الأولى: التصوف يستدعي الشرف ويسنده برسم الجهاد	78
2-المقاربة الثانية: القبيلة تنحل في الزاوية وتصطف خلف الشرف وترفده	79
3-المقاربة الثالثة: التصوف المعارض يقود التغيير بمنح استحقاق الحكم للشرف المغمور..	82
4-المقاربة المقترحة: قبائل معقل من بدو رحل إلى قوة إسناد عسكرية لدولة الأشراف....	87
أ- حول أسباب الاختيار وخلفياته	88
ب- أزمة الجنوب وسيادة الغلبة المعقلية على المجال	89
ت- عرب معقل ودورهم المؤثر في التجارة الصحراوية	94
ث- قبائل معقل بسوس وميلاد دولة الأشراف السعديين.	97
II-قبائل الكيش ودولة الأشراف: أية علاقة؟	108
1-خلفيات انبناء العلاقة وتجذرها.	109
2-عوامل استمرار العلاقة وتجدها.	112
أ- المكاسب والتحفيزات المادية	112

ب- الزواج والمصاهرة	114
ت- إشراك شيوخ القبائل العربية في الاستشارة والتدبير	121
3- نمط العلاقة ووحدها النازمة	127
الفصل الرابع: قبائل الكيش وخريطة توزيعها في المجال	132
I- قبائل الكيش في العهد السعدي	139
1- قبيلة الشبانات	140
2- أولاد جرار	146
3- زرارة	149
4- أولاد مطاع	150
5- الخلط	152
6- شراكة	155
II - قبائل الكيش في العهد العلوي الأول	158
1- الوداية	161
2- المغافرة	165
3- آيت إيمور	167
4- جيش أهل الريف	169
الفصل الخامس: قبائل الكيش: التنظيم والموارد والوظائف	174

I-التنظيم العسكري.....	175
1-تنظيم فرق الكيش.....	175
2-الأعداد.....	179
3-القيادة.....	191
4-التدريب.....	198
II-التجهيز.....	203
1-السلاح.....	203
2-اللباس.....	206
3-الخيول.....	208
4-القصبات.....	216
5-السكن.....	220
III-الموارد.....	222
1-الرواتب.....	222
2-الإقطاع.....	225
IV-الوظائف.....	232
1-تزكية البيعات السلطانية.....	233
2-الخدمة كمسخرين في القصور السلطانية.....	234

236	3-الحفاظ على أمن العواصم وحماية منشآتها
237	4-تأمين الحدود وحمايتها من الاعتداءات الأجنبية
238	5-تأمين الطرق التجارية
239	6-مراقبة وتطويق القبائل الأطلسية
240	7-الجهاد وتحرير الثغور المحتلة
243	الفصل السادس: علاقة قبائل الكيش بالمخزن الشريف
245	I. قبائل الكيش وعلاقتها بالمخزن السعدي
245	1-دور قبائل الكيش في حركة الجهاد والصراع السعدي - الوطاسي
254	2-دور قبائل الكيش في تأطير المجال والمحافظة على الأمن الاجتماعي
257	3-قبائل الكيش وأزمة ما بعد وفاة المنصور
258	4-كروم الحاج وتأسيس الإمارة الشبانية بمراكش
264	II.قبائل الكيش والمخزن العلوي
264	1-المحاولات الأولى على طريق بناء جيش دائم ومستمر
266	2-مساهمة قبائل الكيش في تأطير المجال وإرساء أسس الدولة المقتدرة
267	3-قبائل الكيش من المساهمة في بناء الدولة إلى المشاركة في تفكيكها
269	خاتمة البحث:
275	الملاحق

310 فهرست المصادر والمراجع

340 فهرس الخرائط:

341 فهرس الموضوعات: